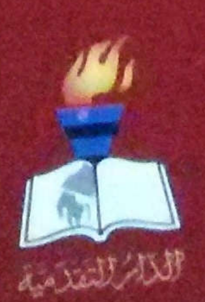
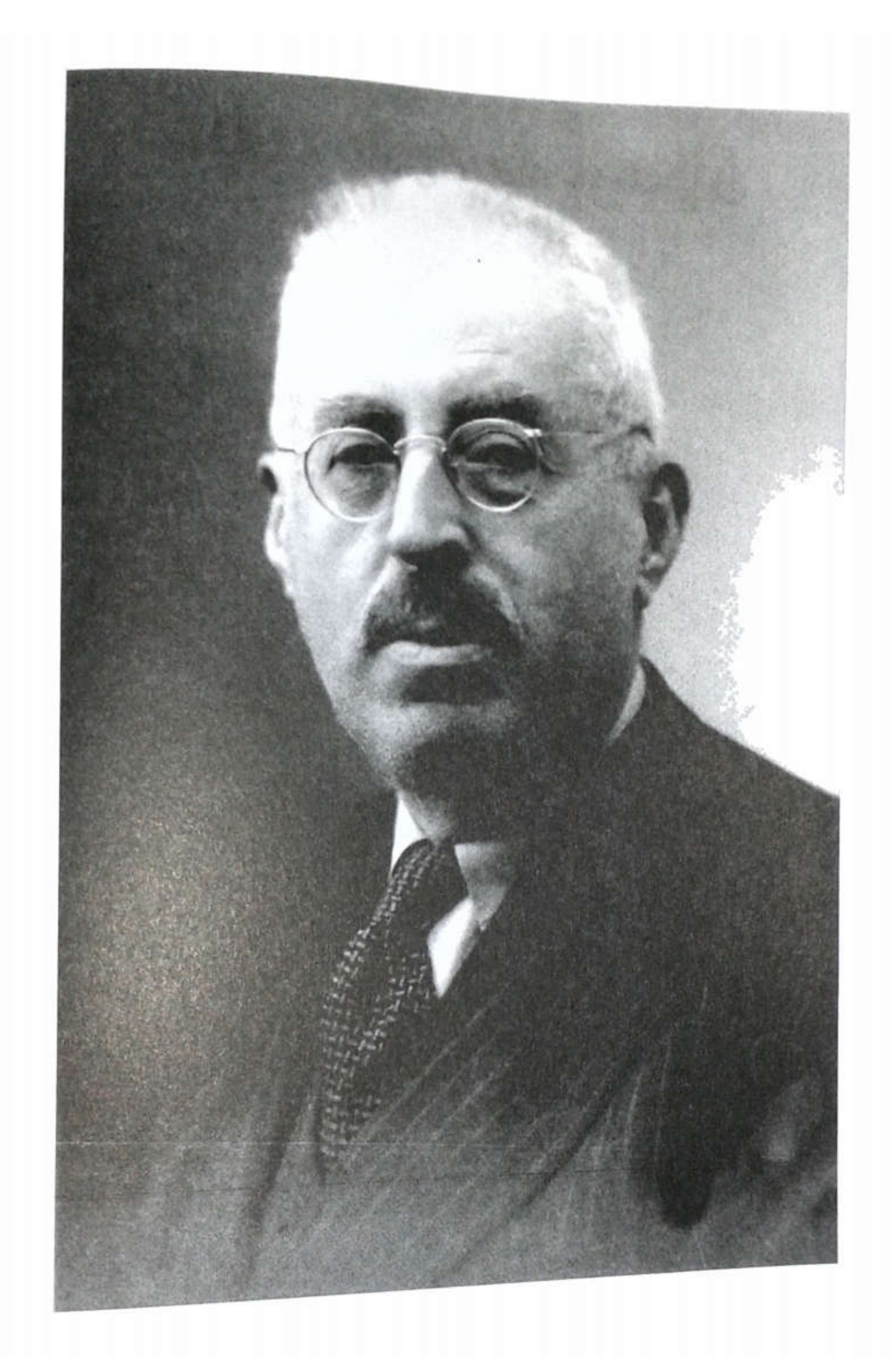
الأمير شكيب أرسلان

زمن العروبة الأبتر



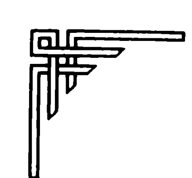
زمن العروبة الأبتر



أمير البيان

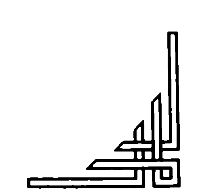
الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦

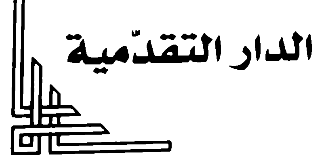


كلمة لا بدَّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.



الدار التقدّمية



مقدّمة

لا يُخفى على المتابع لمسيرة الدار التقدّمية في نشر فكر وتراث أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، أنَّ هذا التراث العميم الفائدة قد أضاء على نواحٍ عدّة في نضال العالم العربي، فكان بحقّ "داعية العروبة والإسلام" الذي أبى المذلّة والهوانَ والظلم، فانغمس في السياسة مواجهًا الاحتلال الغربي.

ولم يكتفِ الأمير بالسياسة منفذًا للذود عن العروبة والإسلام، بل اتّخذ نضالاً عروبيًّا رديفًا، سلاحه الكلمة والرأي الحرّ، فحفظ بالكلمة لغة العرب من الخلل والاندثار، شعرًا ونثرًا واستضاء الخَلق بفكره النيّر ورأيه السديد.

وتجدنا اليوم، ونحن في عالمٍ عربيٍّ انكفأت فيه اللغة العربية، مع ما تقاسيه من جحود ونكران، نعود إلىالأمير شكيب أرسلان، في بعض ما كتب لنعيد للّغة الأمّ مكانتها، وندرأ عنها ما اعتراها من شوائب، ونحيي من ثوابتها الكثير الصلب الذي يتحدّى الزمان.

يلقي هذا الكتاب الضوء على ما تفضّل الأمير شكيب أرسلان بنصّه لقرّاء جريدة "الفتح" التي كانت تصدر في القاهرة بمصر، وعلى تلك الصفحات بعينها صوَرٌ لواقع الحال، ونقدٌ لِما آل إليه المآل، وفكرٌ يتعدّى المرتجى، في ما ينوف على خمسٍ وسبعين مقالة، تنضح غيرةً على المسلمين وبلاد العرب.

الناشر

مقالات

للأمير شكيب أرسلان

في

صحيفة



يجب أن تطّلعوا على أقوال أعدائكم لتعلموا ماذا يُرصد لكم *

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

يعلم من قرأوا كلامي أني لست ممَّن يحتقر الدعاية الدينية من حيث هي، وأني لست ممَّن يعتقد أنَّ الدول الأوربية المسيحية تهملها أو تجهل أهمّيتها، بل عندي شواهد كثيرة على العكس، وعلى أنها من أهمّ المسائل عند هذه الدول.

وإنِّي لا أوافق بعض المسلمين الذين يزعمون أنْ لا خوف على الإسلام من دعايات الكاثوليك أو البروتستانت، ويقولون إنَّ هذه الرسالات لم يقيّض ولن يقيّض لها أدنى نجاح في بلاد الإسلام.

وكذلك أعارض كلّ المعارضة الرأي القائل إنَّ الدعايات المسيحية الأوربية إنَّما يقوم بها أهلها لأغراض سياسية أو اقتصادية صرفة.

فأنا مقتنع كل الإقناع أنَّ أكثر هؤلاء المبشّرين، إن لم نقل كلّهم على الإطلاق، قائمون بدعوات روحية محضة يتجشّمون من أجلها المشاق التي لا توصف، ويقدمون فيها على المخاطر التي تفوق مخاطر الحروب الدموية، وأنهم يجدون في تنصير الأمم التي هي خارجة عن النصرانيّة منتهى السعادة التي يمكن أن يتطلّع إليها بشر. وإنّي لكثير الإعجاب بهؤلاء المبشّرين بما يظهر منهم من الحمية على عقائدهم والنشاط والمخاطرة لنشرها، وتراني بين يدي آرائي هذه مقدّمًا على وجه التدريج ما يتهيّأ لي جمعه من الشواهد والوثائق التي لا شكّ فيها، لعلّ الإسلام يستيقظ من سباته العميق ويعلم ما يُبَثّ تحته من الألغام فينشط لاتّقائها ويعمل على حياطة نفسه.

نشر المعهد الكاثوليكي في باريز بين سنة ١٩٢٦ و١٩٢٧ مجموعة محاضرات اسمها "الإسلام والرسالات الكاثوليكية". تصدّرت هذه المجموعة بمقدّمة من قلم المسيو دوفور Dufour دولا تويلري المندوب الأكبر في البحرية.

---

* الفتح، العدد: ١٦١، السنة الرابعة، القاهرة (١٧ ربيع الأول ١٣٤٨هـ/١٩٢٩/٨/٢٢م)، ص ص. ١ـ٢.

ثمّ جاء بعدها بحث تحت عنوان «فرنسا والإسلام» بقلم لويس برتران من أعضاء الأكادمي الفرنسية.

ثمّ مقالة للمونسنيور بوبين Beaupin عنوانها «الإسلام والرقيق».

ثمّ فصل للأب العازاري شاتليه Chatelet عنوانه «الإسلام في فارس».

ثمّ فصل للأب غرانجنوف Grangeneuve عن «الإسلام في الهند».

ثمّ محاضرة للأب Nique من آباء رهبانية الروح القدس عن «الإسلام وسودان السنيغال».

ثمّ محاضرة للأب شابير Chabert الرئيس العامّ لجمعيّة الرسالات الأفريقية التي مركزها ليون وعنوانها «الإسلام عند المتوحّشين وأكلة لحوم البشر في شمالي نيجيريا» (أفريقية الغربية).

ثمّ محاضرة للراهبة بلانش Blanche من راهبات شمالي أفريقية عنوانها «محاولة ترقية المرأة المسلمة بتحويلها إلى النصرانيّة».

ثمّ محاضرة للمونسنيور بوشيه Boucher عن دعاية الأب فوكولد بين المسلمين.

ثمّ محاضرة للأب شارل اليسوعي يصف فيها طريقة البروتستانت في التغلغل بين المسلمين.

ثمّ محاضرة للأب ماريشال المعاون العامّ لرئاسة رهبانيّة الآباء البيض عن «الطرق التبشيرية الكاثوليكية، في التغلغل بين المسلمين».

والكتاب كلّه يقع في نحو ثلاثمائة صفحة.

وقد صرنا نهدي «الفتح» منه ترجمة محاضرة بعد محاضرة بقدر ما يسمح لنا الوقت آملين من قرّاء هذه المجلّة أن يتقبّلوا مرارة هذه الأقوال، بدون استثقال، لأنَّ الدواء المرّ يكون في الغالب مفيدًا للجسم. ومن لم يتحمّل المرارة لم يتذوّق الحلاوة. وسأجتزي هذه المرّة بنقل جملة عن الصفحة ١٣٣ نقله الكاثوليكيون من كلام القسّ زويمر الذي هو أشهر من أن يذكر. قال في ختام مجلّته عن العالم الإسلامي ما يلي:

«إنَّ بلاد مراكش مثال تامّ لانحطاط الإسلام، وفارس مثال لتفكّكه، وبلاد العرب مثال لجموده، والصين مثال لإهمال الإسلام، والهند مثال لفرصة التغلّب عليه، والجاوى مثال لتنصير المسلمين، وأفريقية الوسطى مثال للخطر الذي يتكوّن من الإسلام».

ثمَّ جاء في حاشية الكتاب ما يلي متعلّقًا بجملة «الخطر الذي يتكوّن من الإسلام في أفريقية الوسطى»:

«بحسب رأي الأب الجليل سيمون Simon يحصى أتباع الإسلام في أفريقية بثمانية وأربعين مليون نسمة، ضدّ ٨٣ مليون من الوثنيين وخمسة ملايين من الكاثوليك والبروتستانت. نقلاً عن جريدة مونستريشه تسايتونغ عدد ٢٧ تاريخ ٢٨ يناير ١٩٢٧».

وهذه الحاشية مآلها صحيح إن كان المراد هنا مسلمي أواسط أفريقية أو أفريقية السوداء، فإنَّ هؤلاء يبلغ عددهم نحو ٥٠ مليونًا، بين واداي وكانم وبرنو وسوكوتو وبلاد النيجر وسنغامبيا والسنيغال وسيراليون وغينية وليبريا والكامرون وبلاد بحيرة تشاد والكونغو وبلاد الكاب وموزامبيق وسواحل زنجبار وجزر زنجبار وممباسة والقُمْر وماداغسكر ثمَّ بلاد أوغاندة عند منابع النيل وبلاد الصومال والحبشة. فالمسلمون الذين في هذه الأقطار يبلغون نحو ٥٠ مليونًا وقد يزيدون. أمَّا إذا كان المراد بأفريقية جميع قارّة أفريقية، أي الشاملة مصر والسودان المصري وبرقة وطرابلس والصحراء الكبرى وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، فيكون عدد أهل الإسلام في أفريقية من ٨٠ إلى ٩٠ مليونًا لا يقلّ عن ذلك. ولكن الواضح من سياق العبارة أنه يقصد أفريقية السوداء لا أفريقية كلّها.

ونعود إلى كلام زويمر فهو يقول:

«لا يجب أن ننسى أنَّ مسلمي الهند لا يرفضون الإنجيل، فالمسلمون المستنيرون يقرّون بأنَّ اليهود والنصارى لم يبدّلوا التوراة لكنّهم يعتقدون بأنَّ القرآن أعلى منها. فيجب علينا أن نثبت لهم ما فيه من التناقضات، وإن كانت هذه الأمور لا تأثير لها في أذهان العامّة المتعصّبين، ولا يزال تحوّلهم عن الإسلام عسيرًا، فما هو مستطاع في غير الهند يجب أن يستطاع في الهند. ومجلّة الكنيسة التبشيرية كتبت من عهد قريب ما يأتي:

«لم يكن العالم الإسلامي في وقت من الأوقات قريبًا من الإنجيل كما هو اليوم، فإنَّ أربعة أخماس مجموع المسلمين في العالم كلّه أصبحوا قرباء من التبشير. وقد ظهرت

وكذلك في فارس والجاوى حوادث كهذه. ففي جاوى أصبح عدد المتنصّرين من المسلمين ٣٧ ألف نسمة، وفي الصومال أكثر من ٨ آلاف. انتهى كلام مجلّة الكنيسة التبشيرية.

«فلماذا لا يتنصّر من مسلمي الهند عدد كبير؟ ولعمري أنّ التدابير التي اتّخذتها الحضرة البابوية مؤخّرًا بالنسبة إلى المباحث عن الإسلام تؤكّد لنا أنّ مجهودًا عظيمًا سيحصل في هذا الشأن فنسأل الله أن يطرح في هذا المجهود البركة». انتهى

يشير بذلك إلى أنّ حضرة البابا قد أسّس في السنة الماضية معهدًا خاصًّا في الفاتيكان لدرس الفقه الإسلامي والعقيدة الإسلامية درسًا كافيًا حتّى يتمكّن المبشّرون اللاتينيّون من مهاجمة الإسلام في بلاده. وقد انتدب البابا من جملة من انتدبهم لهذا العمل رجلاً تركيًا متنصّرًا أصله من عائلة مشيخة دينية في تركيا.

فهذا ما قصدنا أن نبدأ به من تنبيه المسلمين إلى ما يحيط بهم من الأخطار، لا يمنعنا عن ذلك جبن ولا خشية أن ننسب إلى تعصّب. فالله يعلم أننا لا نحثّ المسلمين على دعاية دينية بين المسيحيين أو بين اليهود. ولا يهمّنا، إن دخل في الإسلام زيد أو عمرو ولا نفرح بأشياء من هذا القبيل، وذلك لأننا نعتقد أنّ الاعتبار إنّما هو للكيفيّة لا للكمّية، وأنّ عدد المسلمين كافٍ ليتكوّن منهم أمم عظيمة راقية لو كانوا هم معتنين بأنفسهم. فالذي يحتاجون إليه إنّما هو تعليم الجهلاء منهم وهم العدد الأكبر. فإذا صحّ لهؤلاء تعليم كافٍ كفل لهم سعادتَي الدنيا والآخرة. وأمّا في الصدد الذي نحن فيه فقضيّتنا هي هذه:

ما دامت رسالات التبشير الأوربية قد ملأت البرّ والبحر، والحكومات الأوروبية تنجدها من الوراء: أحيانًا سرًّا، وأحيانًا علنًا، فلا مناص للمسلمين من أن يقابلوا تلك الرسالات الروحية المهاجمة برسالات روحية مدافعة. وإلاّ كان شأنهم من الجهة الدينية كما كان من الجهة السياسية، أي كلّ يوم في تقلّص وهبوط، والعياذ بالله.

إنّ المسلمين في هذا المعنى قد أدركهم قصور مخجل، لا يكاد يصدّقه العقل لو لم نكن نشاهد هذا القصور الشائن بأعيننا ونلمسه بأيدينا.

والفئة الوحيدة من المسلمين التي تعالج قضيّة التبشير بالإسلام وتدافع عن عقيدته في الآفاق باللسان وبالقلم، هي الفئة المسمّاة بالأحمدية التي مركزها لاهور في الهند. وهذه

الفئة تنقسم إلى قسمين، منها جماعة خرجت عن المعتقد الذي عليه جماعة المسلمين وهي فئة قاديان. ومنها جماعة أخرى هم حزب مولوي محمّد علي، وهؤلاء لا يقدر المنصف أن يجد سبيلاً للطعن فيهم لأنهم لم يخرجوا عن العقيدة الصحيحة فيما علمت واطّلعت عليه. وتراهم يجاهدون في نشر الإسلام بكلّ الوسائل التي في أيديهم، ولهم جمعيّة اسمها (انجمن إشاعة إسلام) يجمعون لها إعانات مالية، مع قلّة عددهم وضعف الوسائل التي في أيديهم، يجاهدون هذا الجهاد الروحي ويقاومون جمعيّات التبشير الأوروبية أشدّ المقاومة.

أمَّا السواد الأعظم من المسلمين وفيهم الأمراء والعلماء والأغنياء والتجّار والصنّاع والزرّاع ـ وكلّهم يدّعي الصلابة في دينه والحميّة على جنسه ـ فتراهم لا يبدون في هذه السبيل ولا يعيدون. بل قصارهم فيها أن يسلّوا أنفسهم بأنَّ الجمعيّات التبشيرية الأورروبية لا تبلغ من الإسلام وطرًا، وأنه لا خوف على الإسلام من مهاجمات القسوس ولا هو يحزن! يتعلّلون بهذه الأماني فرارًا من دفع دريهمات قد تتقاضاهم إيّاها جمعيّات التبشير الإسلامي، فيما لو تأسّست وذهبت تجوب الأقطار.

وإذا جاء ذكر الأحمديّة السابق الأيماء إليهم كفّروهم أو فسّقوهم ورموهم بكلّ شنيعة، على حين أنَّ الأحمديّة لا يستحقّون هذا الذمّ، بل يجب أن يكونوا مثلاً يقتدى به وأن يشكر سعيهم لأنهم الفئة الوحيدة التي قابلت الإفرنج بمثل جهودهم الدينية.

ولا يجوز أن ننسى أيضًا جهاد الطرق الصوفية التي في طرابلس والجزائر وتونس والمغرب نخصّ منها بالذكر السنّوسية والقادرية. فإنَّ هؤلاء هم الذين ناظروا المبشّرين الأوروبيين في أواسط أفريقية ونازعوهم الاستئثار بالملايين الكثيرة من الفتيشيين فليكن عملهم مذكورًا مشكورًا ولكن يشدّ أزرهم بالسيّاح والوعّاظ والمرشدين. فإنَّ الجهل الذي عليه مسلمو أواسط أفريقية جهل هائل لا دواء له إلاَّ التعليم والإرشاد.

وبالاختصار كلّ سلاح من أسلحة الأوربيين يجب أن نستعمله ونقاتل به، وإلاَّ صرنا قومًا بورًا في وقت غير بعيد.

الطائف، ١ ربيع الأول ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩/٨/٧م

شكيب أرسلان

الموضوع واحد؛

لكن الفرق هو في التزام الجدّ وفي حسن التدبير★

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

أرسل لي أحد الأصحاب بعدد الأهرام الذي فيه حديث مراسلها مع جلالة أمان الله خان، فقرأت ذلك الحديث بحزن وألم شديدين، متأمّلاً حالة هذا الملك الذي أسقط نفسه وأوقع بلاده بما أوقعها فيه من المصائب بتهوّره وعدم تبصّره في العواقب، ممّا هو ولا سيَّما للملوك من أجل المناقب.

ولقد سررت بتصريحه بأنه لم يتحقّق دخول الكولونل لورانس في فتنة الأفغان، سررت بذلك لا لأني أبرّئ الأجانب من الدسّ في بلاد الشرقيين، بل لأني أرى قاعدة مضرّة عند أبناء الشرق وعند المسلمين منهم خاصّة، وهي أنهم كما أرادوا الاعتذار عن خبص خابص أو تبرير نزق طائش حوّلوا المسئوليّة على الأجانب وجعلوا البليّة كلّها من هؤلاء، على حين أنَّ هؤلاء أكثر الأحايين إنَّما يستغلّون حماقاتنا ويستثمرون سوء إرادتنا. فلم يبقَ بعد الآن مجال لقائل أن يقول: إنَّ أمان الله غير مخطئ فيما قام به من المآخذ والمتارك في أفغانستان وإنَّما كانت دسائس الإنكليز هي التي تعمل.

خلاصة كلام جلالة ملك الأفغان السابق هي أنه أراد أن يكسر حكمة علماء الأمّة الأفغانية الذين يقال لهم (الموللا) وذلك بزعمه أنهم دعاة جمود مقاومون للإصلاحات الإدارية والقضائية وللفنون العصرية، وأنهم يلعبون بالشرع الشريف، ويطبّقون الدين على أهوائهم، ويفسّرون قواعد الدين بغير معناها، ويجعلون الشرع مصيدة للمال إلى غير ذلك ممّا عدّده أمان الله في حديثه لمراسل الأهرام. والجواب على ذلك انه قد يصدق هذا الكلام على قسم من هؤلاء الذين يقال لهم (الموللا)، ولا جدال في أنَّ كثيرين من هذه الطبقة جناة على الأمّة الإسلامية، إمَّا بجهلهم وجمودهم ومقاومتهم لكلّ تجدّد مشروعًا كان أو غير

★ الفتح، العدد: ١٦١، السنة الرابعة، القاهرة (١٩٢٩/٨/٢٢م)، ص ص.٦ ـ ٧. (عن الشورى)

مشروع، وإمَّا بتلاعبهم بالشرع ومحاولتهم اصطياد الدنيا بشبكة الدين. ولكن ممّا لا يسلم به أحد أصلاً زعم الملك أمان الله أنَّ علماء الأفغان قاطبة هم هذا النمط.

وبرهانًا على ذلك أنه مضى على جلوس أمان الله على عرش أفغانستان أكثر من عشر سنوات، في خلالها استعمل أمان الله التلفون والراديو والأوتوموبيل وغير ذلك، وأرسل طلبة إلى أوربا واستقدم بعثات أوروبية إلى أفغانستان، واستخدم مئات من الأوربيين في تلك المملكة، حتّى أنَّ نظارة المعارف الأفغانية كان يديرها علماء فرنسيون. كلّ هذا ولم يحرّك أولئك العلماء ساكنًا ولا قالوا في الملك سوءًا، فلو كان التليفون والتلغراف اللاسلكي هما سبب قيام العلماء لكان هؤلاء قاموا من قبل كما لا يخفى.

والحقيقة أنَّ الذي أثار العلماء، وأثار الشعب، إنَّما هو ثورة أمان الله على الشريعة الإسلامية، وتمسّكه بإلغاء الحجاب، وتمهيده المقدّمات للرقص، وعبثه بكثير من أحكام الدين ومحاولة تغيير الزيّ الأفغاني. فهذه الأمور لم يمكن للعلماء أن يسكتوا عنها فنشطوا لمقاومة الملك فلمّا قاوموه قتل بعضًا وحبس بعضًا آخر، وأراد أن يفعل بهم ما فعله مصطفى كمال في أنقرة فهبّوا في وجهه مكافحين، وانتهت هذه المصارعة بأنَّ أمان الله هو المصروع.

فلينظر الإنسان إلى سياسة أمان الله، وبالمقابلة مع سياسة الملك عبد العزيز ابن السعود. فكان الملك عبد العزيز عنده تلغراف وتلفون ولاسلكي وأوتوموبيل وتدابير إدارية وصحيّة سائرة على النمط العصري الجديد. ومنذ أيام عندما سار من مكّة إلى الرياض كانت قافلته مؤلّفة من ١٣٠ سيّارة كهربائية.

وفي الوقت نفسه عنده من المشايخ المنتسبين إلى الدين ومن زعماء القبائل البدوية من هم أشدّ تعصّبًا وأدهى وأمرّ جمودًا من علماء الأفغان، وطالما اعترضوا واحتجّوا على استخدام هذه المخترعات الحديثة، ونسبوا بعضها إلى السحر الممنوع شرعًا، وقالوا إنَّ بعضها من عمل الشيطان، وكيف يجوز للمسلم أن يرضى بالأعمال الشيطانية وغير ذلك. حتّى أنهم تجرّأوا على أن أزالوا بأيديهم أدوات بعض المحطّات اللاسلكية.

فماذا صنع الملك عبد العزيز بأزاء جهلهم وهمجيّتهم هذه؟ الجواب أنه استظهر عليهم بالقرآن نفسه وأورد لهم شواهد الجواز من أقوال الله تعالى في محكم كتابه، لا من أقوال أنقرة... ولا من أعمال أنقرة.

وعقد مؤتمرًا في الرياض دعا إليه جميع من في نجد من علماء وزعماء وعرفاء وذوي حكمة وبسط لهم حالة البلاد، ولمّا وصلوا إلى مسألة الاختراعات العصرية استفتى طبقة العلماء الحقيقيين حماة الشرع الصحيح وكماة الدين الحنيف. ولمّا كان هؤلاء مع نفورهم من البدع لا يقدرون بصحّة وجدانهم وثقوب أذهانهم أن يقبحوا بدعة مفيدة أو اختراعًا عصريًّا يكفي المجتمع البشري أتعابًا وآلامًا كثيرة، ولا يقدِموا على منع شيء لم يمنعه كتاب الله، ولا على تحريم ما ليس في القرآن ولا في الأحاديث الثابتة دلالة على تحريمه، فقد أجابوا الملك في وسط ذلك المؤتمر المحشود بأنه ليس في كتاب الله ولا في سنّة رسوله ما يمنع استعمال هذه الآلات المحدثة وهكذا سقط في أيدي الزعماء الجامدين وصارت محاولاتهم كلّها عبثًا محضًا وصار ابن سعود يقاتلهم بسيف الشرع نفسه، حتّى أنه ضربهم حتّى اليوم ضربتين حاسمتين وكان العلماء له ظهيرًا.

إذًا لو أحسن «أمان الله» السياسة وعرف كيف يستفتي علماء الشرع في بلاده لوجدهم في جانبه كما وجدهم ابن سعود في جانبه، ولكنّه بدلاً من أن يستفتيهم وينزل على حكمهم ويعزّز الشرع ورجال الشرع بدأ بسياسة مرماها كسر حكمتهم وإسقاط شأنهم والقضاء عليهم. فكان من أمرهم معه ما كان هذا بينما ابن سعود يجعلهم مرجعًا في المسائل التي تقع ويعزّز من شأنهم ما داموا على صراط مستقيم. وهكذا كان هؤلاء العلماء حماة الشرع من جهة واسطة لخذلان أمان الله وإسقاطه، ومن جهة أخرى واسطة لتأييد عبد العزيز وتقويته، على حين أنَّ الشرع واحد وموضوع الإصلاحات واحد. وما الفرق ألاَّ يكون أحد الملكين أخطأ المرمى وأنَّ الآخر أتى البيوت من أبوابها.

أمّا البرنيطة ورقص الرجال مع النساء وغير ذلك من البدع السيّئة فلم يجدها ابن سعود ضرورية للمدنيّة، ولو كان رأى لا سمح الله ما رآه أمان الله بشأنها لكان علماء نجد قاوموه بأشدّ ممّا قاوم به أمان الله علماء الأفغان وكانت النتيجة في نجد والحجاز ما كانت في أفغانستان. ولكن الملك عبد العزيز بن سعود رجل عاقل حكيم متمسّك بالشرع باطنًا وظاهرًا، عارف بأنَّ الشرع الإسلامي لا يأمر بشيء خلاف مصلحة الأمّة الحقيقية، ولا ينهي عن الشيء إلاَّ وهو مضرّ بالصحّة والثروة والأخلاق والدنيا والآخرة.

فرفع الحجاب لا يبحث فيه ابن سعود لأنَّ الحكم الشرعي واضح فيه. فالسفور الجائز شرعًا لا يقدر أحد من العلماء الجامدين أن يمنعه في ممالك ابن سعود كما أنَّ اختلاط النساء مع الرجال بالحرّية التامّة ورقص الشباب مع الشبّان لا يقدر أحد أن ينازع في كونها مفسدة للأخلاق وخطر على الطهر والعفّة.

وأمَّا البرنيطة فليس أمرها من الدين ولكن أمثال ابن سعود من الملوك العقلاء لا يجدون لها مدخلاً في رقيّ الأمّة، بل يجدون استبدال الزيّ الإفرنجي من الزيّ العربي الوطني خسة وصغارًا ونقصًا في عزّة النفس القومية، ومن باب تشبّه المغلوب بالغالب كأنّما أحبّه وازداد إعجابه به من أجل أنه قهره وسلبه حقّه وناهيك ما في ذلك من ضعة.

شكيب أرسلان



منطق (مخادنة)
والشواهد في غير محلّها*

بقلم كاتب من أعاظم كتّاب العربية

استشهدت «مخادنة» الجريدة التركية العربية، ذات الوجهين، بكلام اثنين من ملوك الإسلام أحدهما «أمان الله» ملك الأفغان السابق، والثاني عبد العزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد الحالي.

وكلام الأول إنَّه لم يسقط من عن عرشه إلاَّ بسبب طبقة «المولاَّ»، أي علماء دين الإسلام في أفغانستان.

وكلام الثاني إنَّه لا يخاف الأجانب بمقدار ما يخاف المسلمين.

وما نفهم ماذا يفيد هذا الاستشهاد جريدة «مخادنة» من جهة القضيّة التي تخدمها هذه الجريدة وهي قضيّة المروق من الدين الإسلامي؟

أمَّا أمان الله فصارت قضيّته معلومة وهي أنه أراد أن يقتدي بالكماليين فلم يسمع نصائح أخصائه ولا غيرهم من الذين عرفوا أفكاره، حتّى من الأوربيين أنفسهم. وذهب إلى كابُل يطبّق «البروغرام» الكمالي فكانت النتيجة أن ثارت بلاده في وجهه، وأنَّ علماء الدين الذين خافوا على عقائدهم وأعراضهم تغلّبوا عليه وأسقطوه فلا حقّ له أن يلوم إلاَّ نفسه. أراد أن يصارع الإسلام فالإسلام صرعه. هذه هي الحقيقة المعرّاة من كلّ تمويه وتلبيس.

فكلام أمان الله بحقّ علماء الإسلام في أفغانستان غير مسموع. ولا أحد يقدر أن يلوم هؤلاء فيما لو حافظوا على دينهم وعفّة نسائهم وأبوا أن يتركوا شابّاتهم يرقصن مع شبّانهم، على حين أنَّ البلاشفة أنفسهم مانعون للرقص بتاتًا، وأنَّ موسوليني في إيطالية بدأ يمنعه تدريجًا، وأنَّ أمّة المجر أيضًا بدأت تمنعه، وأنَّ كثيرين من عقلاء الأوربيين يتمنّون منعه ويرون فيه مفسدة للأخلاق.

* الفتح، العدد: ١٦٣، السنة الرابعة، القاهرة (٢ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ/١٩٢٩/٩/٥م)، ص ص. ١ ـ ٢.

نعم صارع أمان الله الإسلام فصرعه وسوف يصرع غيره... ولو بعد حين، وإنَّه لن يغالب مغالبٌ الإسلام الصحيح إلاَّ كان الإسلام هو الغالب لأنه دين العقل والأخلاق. ولا تحيا أمّة حياة طويلة أكيدة بدون عقل سليم وأخلاق طاهرة.

وأمَّا ابن سعود فقوله إنَّه يخاف المسلمين أكثر من الأجانب... فهو من باب التوبيخ والتقريع لبعض المسلمين الذين يتواطأون مع أعداء ملّتهم على ملّتهم، ويخالفون بذلك أوامر القرآن ونواهيه.

وليس معناه من ذلك أنه يجب هدم الإسلام نفسه، لكون بعض المنسوبين إلى الإسلام قد ثبتت خيانتهم للإسلام.

ابن سعود الذي في كلّ خطبه وأحاديثه يعلن أنه لا يحيد عن أحكام القرآن قيد شعرة، ولا يرى نجاة لهذه الأمّة إلاَّ بالإسلام، ولا رقيًّا لها إلاَّ بالاعتصام بالمبادئ المحمّدية، ويقول عن نفسه إنَّه لا يرى نفسه ملكًا وإنَّما هو مبشّر بالدين الإسلامي، هذا الملك العظيم لم يقصد بتعريضه هذا ببعض المسلمين إلاَّ أولئك الذين تناسوا واجبات الإسلام وصاروا يمشون بين أيدي الأجانب ضدّ بني ملّتهم.

وابن سعود لا يستثني من هذا التعريض أولئك "المسلمين الجغرافيين" الذين تواطأوا مع الأجانب في لوزان على إلغاء الشريعة الإسلامية من بلادهم، أملاً بالحظوة عند الأوربيين وطمعًا في الاندماج فيهم، ثمَّ لبسوا بعد ذلك القبّعة تأكيدًا لاندماجهم في الأمم الإفرنجية.

ثمَّ إنَّهم بعد أن كانوا يهزأون بتلفّظ الإفرنجي والأرمني والرومي باللغة التركية عادوا يكتبون لغتهم بالحروف اللاتينية التي لا يمكن أصلاً أن تؤدّي مخارج اللغة التركية على حقّها، فأصبحوا يتلفّظون الآن كتلفّظ الإفرنج والأرمن والأروام عندما يتعلّم هؤلاء التركية. وشاهد ذلك القسم التركي من "مخادنة".

وهذا كلّه تخلّصًا من أصلهم وحياء بماضيهم وافتخارًا بأنهم صاروا إفرنجًا.

كان الأولى بمخادنة وجماعتها أن يمضوا في خطّتهم من التفرنج ومحاربة الدين الإسلامي والهزء به في جرائدهم والتباهي أمام الأوربيين بخلعه، وأن يستغلّوا هذا الباب إلى آخره، حتّى نرى الغلّة التي ستعود عليهم من هذه السياسة.

وأمّا الرجوع إلى الاستشهاد بأقوال ملوك الإسلام وعلماء الإسلام أملاً باستنباط شيء منها لتعزيز قضيّتهم الفارغة فهذا أصبح مردودًا عليهم، لا سيَّما أنَّ هذه الشواهد لا تنطبق فيها على ما يريدون إلاَّ إذا انقلب المنطق وارتفع من الدنيا العقل السليم.

لقد كرّرنا كثيرًا ولا نملّ من التكرار أنَّ أنقرة تحارب الدين الإسلامي، بحجّة أنَّ خلع الدين هو من الأسباب التي ارتقت بها أوربة فأنقرة تزعم أنها مقتدية بها!

والحال أنَّ أوربة لم تخلع الدين المسيحي لا من قبل ولا من بعد، بل هي متمسّكة به مع الافتخار والحمد والشكر من أولها إلى آخرها.

وأنَّ أنقرة تزعم أنها تضحي الدين الإسلامي في سبيل الرقيّ المادّي!

والحال أنَّ إنكلترة عندها من الرقيّ المادّي ما يفوق رقيّ أنقرة بمائة ألف مرّة، وهل لا تضحي شيئًا من الدين المسيحي. وبهذا كفاية وقد شبعنا من جهة الأنقريين سفسطة وهذيانًا.

الإمضاء محفوظ

شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

حديث مع سعادة الأمير شكيب أرسلان*

ندبت جريدة المقطم حضرة الفاضل الأستاذ السيّد محيي الدين رضا للسفر إلى السويس عند وصول كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان إليها. وقد دار له مع الأمير حديث موجز نشرته المقطم، وهذا نصه:

س - إلى أيّ حدّ وصلت مسألة ترشيح سموّ الأمير فيصل آل سعود لعرش سورية؟

ج - هذه مسألة كانت شاعت منذ عام، ولكنّنا لم نسمع شيئًا عنها في ما بعد، وأنا لم أسمع بشيء عنها مدّة إقامتي في الحجاز.

س - قيل إنّكم من المؤيّدين لترشيح سموّه فهل هذا صحيح؟

ج - ليس لهذا القول من أصل، وإنّما المسألة بالعكس، فأنا لا أرغب مطلقًا في وجود أحد من آل سعود في بلاد محتلّة أو واقعة تحت الانتداب، مع شدّة مودّتي لهم، بل أودّ أن يظلّوا في مناطق حرّة يعملون أعمالهم التي يشكرها الصديق والعدوّ. وأقول "العدوّ" لأنّ لهم أعداء، ولكنّهم جميعًا لا يسعهم إلاّ الثناء على ما أتوا من عمل مجيد، ولا سيّما، إلاّ من المستتب في تلك الربوع والصحارى المترامية الأطراف. ولماذا أذهب بكم بعيدًا فهذه عباءتي وقعت ونحن في السيّارة في طريقنا إلى الطائف فلمّا رآها المكاريون والسيّارة صاروا يتجنّبونها سائرين من طريق آخر، إلى أن وصل خبرها إلى أمير الطائف، فسألنا هل فقدنا شيئًا؟ فبحثنا في أمتعتنا فعلمنا أننا فقدنا العباءة فأخبرناه بخبرها، فأرسل سيّارة خصوصية إلى مكانها وأتت بها. فهذا الأمن جعل أهل الحجاز جميعًا يحمدون لآل سعود عملهم العظيم في بلادهم على اختلاف مشاربهم؟

س - هل علم رجال الحكومة الحجازية بتصريحات الشيخ حافظ وهبه مندوب الملك ابن سعود في لندن؟

ج - أقسم بالله أنه لا يوجد واحد في حكومة الحجاز عنده علم بشيء من تلك النصريحات، والذي أرجّحه أنّ فضيلته تكلّم عن نفسه.

---

* الفتح، العدد: ١٦٦، (١٩٢٩/٩/٢٦م)، ص. ٣.

س ـ ما هي حالة العلاقات بين نجد واليمن؟

ج ـ الحالة جيّدة جدًّا، ولم يجد شيء يلفت النظر، وقد علمت أنَّ جلالة الإمام يحيى أرسل في العام الماضي تلغرافًا إلى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود يخبره فيه بعزمه على أداء فريضة الحجّ، ولكن ظروفه لم تمكّنه من أداء ذلك. فاقترحت على سموّ الأمير فيصل أن يعرض على والده أن يبرق للإمام يحيى يدعوه للحجّ هذا العام.

س ـ ما هي أخبار فتنة نجد؟

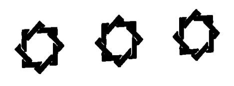
ج ـ الأخبار متضاربة ومعظمها غير صحيح. والذي بلغنا أنَّ فقرة من عتيبة من الخارجين على الملك ابن سعود تعدّت على قبيلة من عتيبة الموالين فأرسل جلالة الملك قوّة من نجد، وأرسل سموّ الأمير فيصل حملة من عرب قحطان في الطائف وغيرها بإمرة الأمير خالد بن لؤيّ. والأخبار متتابعة بالاستسلام والطاعة من كثير من الخارجين.

س ـ هل من سبيل للصلح بين الأحزاب السورية؟

ج ـ هذا أمر لا أرى مانعًا منه إذا توافرت النيّة الحسنة وإذا لزم أو توقّف الأمر على أن أنسحب وأترك العمل، فإنني أنا خاضع لذلك بشرط أن تتوفّر النيّة الحسنة ويكون صلحًا حقيقيًّا لأنَّ المصلحة العامّة مقدّمة على غيرها. ولا مصلحة لي خاصّة ولم أكن سببًا لهذا الخلاف قطّ، بل أفرغت مجهودي في منع الخلاف.

ولقد وجدت الاسترسال في التحدّث مع الأمير شاقا لأنَّ المستقبلين يودّون أن يتحدّثوا معه، فاكتفيت بهذا القدر شاكرًا لسعادته تفضّله عليّ بهذا الحديث، رغم ما تكبّده من مشاقّ السفر ورجوت له سفرًا موفّقًا.

محيي الدين رضا



مل

الإلحاد في الدين والنقص في التناسل توأمان*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

سبق في «الفتح» ذكر تناقص المواليد بصورة هائلة في تركيا ناشئًا عن تناقص الزواج، ناشئًا عن فشوّ الإلحاد في الدين، المقترن بطبيعة الحال بالإباحة في الشهوات. وسبق أنَّ إحصاءَ أهل الآستانة الأخير أسفر عن سبعمائة ألف نسمة لا غير، بعد أن كانت هذه العاصمة تفوت في عدد نفوسها المليون والمائتي ألف، وإنَّ هؤلاء السبعمائة ألف الباقين يأبون أن يتزوّجوا لما يرونه من سهولة إرضاء الطبيعة البشرية الشهوانية بدون أن يتجشّموا مشاق الزواج وتكاليفه، وإنَّ سهولة إرضاء الطبيعة البشرية الشهوانية إنَّما ازدادت بنشر مبادئ اللادينية التي لا يزال بعض الناس مفتخرين ببثّها في هذا الشعب التركي المسكين، المسوق بهذه الطريق إلى الانحطاط المستمرّ، بينما هم يظنّون أنهم يسوقونه في طريق النموّ والانحطاط.

وربّما كان بعض مَن في قلوبهم مرض يكابرون في قضيّة تناقص الزواج والنسل في تركيا، ويميلون إلى تصديق بعض الأقاويل التي يقصد منها التمويه على أعين الناس وتخيّل أنَّ تركيا اليوم قد أصبحت فردوس سعادة.

ولكنّ الذي جرى في يوم افتتاح المجلس الأنقري منذ بضعة أيام يؤيّد ما شاع وذاع وثبت بالأرقام التي لا تقبل النزاع من تناقص الزواج في تركيا وما أدّى إليه من غيض النسل المؤذّن ـ إن استمرّ ـ بالانقراض، فإنَّ المجلس المشار إليه قد دعي إلى ضرب رسوم فادحة على العُزُب وسنّ قوانين جائرة لأجل إكراه غير المتزوّجين على الزواج.

فلم يبقَ هنا أدنى مجال للسفسطة ولا للمكابرة في أنَّ النفوس تتناقص في تركيا تناقصًا فاحشًا، وإنَّ هذا التناقص الفاحش قد حمل الحكومة التركية على تزويج شبّان رعاياها بصورة تكاد تكون قهرية، وهي أول مرّة صدرت فيها قرارات كهذه في تاريخ الحكومة التركية.

---

* الفتح، العدد: ١٧٤، السنة الرابعة، القاهرة (١٩ جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ/٢١/١١/١٩٢٩م)، ص ص. ١ـ٢.

وهنا يتساءل الإنسان: هل تؤدّي هذه الضرائب وهذه الرسوم وهذه التثقيلات على العُزُب إلى الغاية التي تقصد إلى الحكومة؟

فالجواب: لا. إنَّ هذا لا يصل بها إلى الغاية المقصودة.

فإنَّه متى فشا الإلحاد في الدين وكانت الحكومة هي التي تقود حركته، توجّهت أفكار العامّة إلى أنه لو كان صحيحًا والإله موجودًا لما كانت الحكومة المؤلّفة من صفوة الأمّة تجاهر بمحاربة العقيدة الدينية، ووقر في صدور الأكثرين أنه لا يوجد صانع لهذا الكون ولا وحي ولا شيء في الغيب ولا شيء يقال له روح ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، وإنَّ كلّ ما في هذه الأكوان مادّة كثيفة في مادّة كثيفة، وأنه ليس وراء الطبيعة شيء أصلاً. فهذه كلّها سلسلة متّصلة الحلقات لا يتمسّك منها الإنسان بحلقة إلاَّ جرّته إلى الأخرى، ومن جملة حلقاتها أنَّ العفّة وطهارة الذيل والتنزّه عن الخنا اصطلاحات بشرية ومواضعات دنيوية لم ينزل بها وحي ولا قال بها ربّ، وأنها قابلة للتغيير بحسب تقدّم الزمان، وأنَّ الذي اصطلح عليه البشر يجوز أن ينقضه البشر لا سيَّما أنَّ الأواخر هم أعلم من الأوائل، فلهذا كان للإنسان بدون حرج في الحقيقة أن يرسل طبيعته على هواها، وأن يتركها تجري مجراها، وأن لا يقيّدها بقيود لم توجد إلاَّ في مخيّلته أو مخيّلات بشر مثله. ومن هذه القيود الزواج وما أحاط به من الرسوم والصيغ والحقوق والواجبات، وكلّها خيال في خيال مبني على عقائد أساساتها وهمية وقواعدها فرضية.

فبعد أن تفشو هذه الأفكار في أذهان العامّة، وهؤلاء في العادة غير مسلّحين بشيء من البراهين ولا من المعلومات التي يقدرون أن يقاوموا بها الأضاليل والمفاسد، وهم يعتقدون أنَّ كلّ ما تفعله الحكومة فهو الصواب وإليه المرجع والمآب، فلا جرم أنه يصعب على الحكومة التي أرخت هذا العنان أن تتمكّن من ردّه وأنه يتعذّر على قوّاد الرأي العامّ الذين وسوسوا إلى العامّة بهذه المقدّمات أن يقفوا بهم عن نتائجها. ولهذا نقول إنَّ تدابير الحكومة الأنقرية في هذه السبيل ستذهب، مع الأسف، عبثًا، وأنَّ الضرائب والتكاليف لا بدّ لها من حدّ تقف عنده وإلاَّ تفاقم الضرر من جهة أخرى.

ومهما حاولت أنقرة أن تتذرّع لسدّ هذا الخلل، فلن تقدر أن تتوصّل في تدابيرها هذه إلى عشر معشار تدابير الأمّة الإفرنسية التي قد وقعت في هذا الخطب منذ نحو نصف قرن ولا يزال يتخبّطها وهي لا تستطيع إلى زحزحته سبيلاً.

وذلك أنَّ فرنسا منذ سبعين سنة في زمن نابوليون الثالث كان أهلها ستّة وثلاثين مليونًا. وهي اليوم لا تزيد على ٣٩ مليونًا. أي بعد سبعين سنة كانت زيادتها ثلاثة ملايين.

وفي مقابلة ذلك كانت ألمانية ٤٠ مليون نسمة فصعدت في مدّة سبعين سنة إلى ٦٨ مليونًا ثمَّ اقتطع منها بعد الحرب العامّة الإلزاس واللورين والولايات البولونية وشيء لبلجيكا فعادت ٦٣ مليونًا ثمَّ ازدادت مؤخّرًا إلى ٦٥ مليونًا.

وكانت إنكلترة مع إرلاندة منذ سبعين سنة ٢٩ مليونًا فأصبحت الآن ٤٥ مليونًا. وقل هكذا في سائر الممالك.

ولم يجد علماء الاجتماع في فرنسا من سبب لوقوف التناسل عندهم سوى تفشّي أفكار الفلسفة المادّية، واكتفاء الشبّان عن النكاح بالسفاح بحيث يرى الشابّ أنه يمكنه إرضاء شهوته البدنية بالطريقة الثانية، بدون اضطرار إلى الطريقة الأولى التي فيها من التكاليف ما فيها.

وكنت قرأت مرّة في جريدة «الطان» مقالاً مستوفيًا شروط البحث في هذا الموضوع، انتهى صاحبه إلى هذه النتيجة وهي لا سبيل إلى زيادة النسل في فرنسا إلاَّ بإحياء المبادئ الدينية. اضطرّت الطان أن تنشر مقالاً كهذا برغم كونها جريدة جمهوريّة غير متديّنة.

وقرأت في العام الماضي في جريدة «الدبا» إحصاء قالت عنه إنَّه ممّا ترتعد له الفرائص وذلك لأنه ظهر منه أنَّ أربع ولايات فقط من ٤٨ ولاية تتألّف منها فرنسا يزداد عدد أهلهما، أنَّ نحو خمس ولايات يتوازن عدد المواليد فيها مع عدد الوفيّات، وأنَّ الباقي كان يزيد عدد الوفيّات فيه على عدد المواليد.

ولينظر الإنسان ماذا يفعله موسوليني اليوم في إيطالية لأجل زيادة نسلها، مع أنه متزايد يومًا فيومًا. وقد ذرف الطليان على ٤٢ مليونًا. ومنذ سبعين سنة كانوا ٢٤ أو ٢٥ مليونًا لا أكثر.

فقد كانت نشرت الصحف إعادته التعليم الديني الكاثوليكي إلىجميع المدارس الأميرية. ولم يجتزئ بذلك، بل نشرت الصحف في هذين اليومين خبر تعديل إيطالية قانون العقوبات فيها، وكيف أنَّ الحكومة الفاشيستية توخّت في هذا التعديل مبدأ الصرامة فيما يتعلّق بالجرائم العائدة إلى الأخلاق والشهوات.

وقالت جريدة الطان: إنّه من المعلوم أنَّ المسيو موسوليني يرى في طهارة الأخلاق وصيانة الأعراض أحسن عامل لتنمية قوى الأمّة. فقد نصّ قانون الجزاء الجديد على أنَّ كلّ شخص يغري فتاة يعاقب بالحبس من ثلاثة أشهر إلى سنتين. وإنَّ كلّ متزوّجة تزني يحكم عليها بالحبس سنة واحدة، وكذلك يحكم على الزاني بها. وإنَّ كلّ من يرتكب الفاحشة وهو مصاب بشيء من الأمراض الزهرية يحكم عليه بالحبس إلى حدّ ثلاث سنوات. وإن كان فعله هذا قد أدّى إلى عدوى نشأ عنها موت أحد يحكم عليه بالحبس إلى ثماني سنوات وهلمّ جرًّا".

وأنا أقول إنَّ جميع هذه التشديدات في العقوبات لا تفيد في تجنّب الفواحش وتحبيب الزواج الشرعي إلى الناس ما تفيده المبادئ الدينية والآداب الاجتماعية التي هي وإيّاها توأمان.

ولكون موسوليني فهم هذه الحقيقة حقّ الفهم تجده جادًّا في منع الرقص وفي حمل نساء قومه على الملابس التي لا تخلّ بالحشمة ولا تحرّك الشهوة. ولقد كان اهتمامه بزيادة نموّ أمّته أكبر سبب في إعادته التعليم الديني والزواج الكنسي والائتلاف مع البابا.

هذا ما يجري في الغرب، بينما بعض الناس في الشرق يدعون إلى نبذ العقائد وبثّ مبادئ الخلاعة وإرخاء العنان لشهوات النفوس، ويحاولون بعد ذلك توقيف تيّار نقصانها. وهذا محال فليعلم ذلك سكّان مصر والبلاد العربية، وليحذروا مبادئ الإلحاد والإباحة قبل أن تسري إليهم سمومها.

لوزان، في ٧ جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩/١١/١م شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

أمّا هنا فتلصّص لا رقابة...*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

قرأت في «الفتح» وغيره أنَّ رقابة الاستعمار اشتدّت عليَّ في سويسرة في الأيام الأخيرة بعد رجوعي إليها من الحجاز، وأنَّ هنا من يتتبّع حركاتي وسكناتي وغدواتي وروحاتي... إلخ.

والحقيقة إنَّه ليس هنا من يتجاسر أن يتتبّع حركاتي وسكناتي أو أن يقيّد عليّ أقوالي وكلماتي، لأنَّ البلاد بلاد حرّة تمامًا، ولأني أنا لست ممّن يجرؤ أحد أن يتعرّض لهم بشيء كهذا.

إنَّ تضييقات الإستعمار أمكنت دول الاستعمار في حقّي، مع الأسف، في الشرق لا في أوربة: لا أقدر أن أطأ أرض سورية، لا أقدر أن أطأ أرض فلسطين برغم كلّ المراجعات الرسمية وغير الرسمية، بل برغم البرقيّات إلى القدس من نظارة الخارجية البريطانية ونظارة المستعمرات، لا أقدر أن أطأ أرض مصر في ذهابي إلى الحجاز ولا في إيابي منه إلاَّ بشقّ الأنفس وبعد ضرب عشرات من البرقيّات وبعد توسّط جمّ غفير وعلى شرائط لا أحبّ الخوض فيها.

هذا ما كان يجريه نفوذ الاستعمار بحقّي في الشرق كلّه ـ حاشا الحجاز ـ فأمّا في الغرب فلا أحد يقدر أن يضيق عليّ ولا على أحد من زملائي أعضاء الوفد السوري لا في سويسرة ولا في غيرها.

نعم عند هذه الدول دوائر استعلامات خفيّة تستخدم بغاية الكتمان والحكمة جواسيس يتجسّسون ويتلصّصون من بعيد باذلين كلّ جهدهم حتّى لا يشعر بهم أحد. وهؤلاء كانت تجسّساتهم وتحسّساتهم تسلّينا أكثر ممّا تغيظنا: فيومًا تأتينا امرأة بحجّة أنها تريد أن نستخدمها في أشغال الوفد السوري وعلى الآلة الكاتبة، وتراجع كثيرًا في هذه المسألة حتّى إذا قطعت

* الفتح، العدد: ١٨٢، (١٩٣٠/١/١٥م)، ص ص. ٩ـ١٠.

أملها من استخدامنا إيّاها هذه الأشغال عادت تسألنا أسئلة نعلم منها أنها إنّما كانت مرسلة من دائرة استخبارات دولة عظيمة.

ومرّة تأتينا امرأة أخرى تعرض علينا بيع سلاح وتأخذ على نفسها أن تشتريه بأحسن الأثمان وتذهب وتعود وتظهر اهتمامها بنجاح الثورة! لأنها من طبيعتها تحبّ الحرّية، إلى غير ذلك. ونجاوبها كلّ مرّة بأننا لا نشتري سلاحًا ولا هذا الأمر ممّا يعنينا. وتكون هذه المرأة متدسّسة بنا حتّى تعلم ما عندنا من هذا الأمر وتعيد الجواب لتلك الدولة العظيمة.

فالذي لم يقدر عليه بريطاني ولا إفرنسي ولا أيّ أوربي من استراق أوراقي قدر عليه شاب سوري دمشقي جاء إلى منزلي بلوزان في غيابي مع عائلتي وهي أول مرّة دخل فيها إلى بيتي. وقالت له الطاهية إنَّنا غائبون جميعًا لا نعود إلاَّ المساء فقال لها إنَّه أصابه صداع في القطار والصداع ينفعه القهوة واقترح عليها فنجان قهوة ـ وجنابه ما شاء الله مخرّج من جامعة الطب في جنيڤ يعرف خواص الأشربة ـ فلمّا رأته يتكلّم بالعربي وعلمت أنه من أبناء الوطن وقال لها إنَّه آتٍ قصدًا لوداعنا لأنه ثاني يوم سيبرح جنيڤ إلى الشام، دعته أن يدخل إلى محل الاستقبال فدخل. ولكنّه لم يجلس، بل رأى المكتبة من الباب الذي بين غرفة الاستقبال وبينها، وجاء وجلس على طنفسة هناك بقرب المكتبة التي كان عليها رزمة مكاتيب، كانت عينه عليها، وسأل الطاهية عمّا إذا كانت جاءت جرائد جديدة حتّى يقرأها بينما هي تطبخ له القهوة في المطبخ. والحاصل أنه في خبر طويل لا يجوز إضاعة الوقت في تحريره كلّه مدّ يده إلى المكاتيب فلم يجد منها ما يهمّه إلاَّ كتابًا حديث العهد كان قد جاءني من سعادة الأخ الشهم شكري بك القوّتلي. فكأنه رأى نفسه أولى بسرقة ما يخصّ ابن بلده وكأنه يقول ما معناه: هذه بضاعتنا ردّت إلينا... فقال للجارية بعد أن شرب القهوة: إنَّني خارج للتنّزه ساعة من الزمن ريثما يكون حضر فلان. وخرج وغاب نصف ساعة ورجع. ويظهر أنه في أثنائها نسخ المكتوب ورجع وأعاده إلى مكانه لأنه خاف أن ألحظ إذا رجعت فقدان المكتوب فأُشعر البوليس. والدليل القاطع على أنه قد نسخه هو ظهور صورة المكتوب بعد نحو ٢٠ يومًا في بلاغ تلك الدائرة التي كانت تسمّي نفسها «الاستعلامات السورية» بمصر. فإنَّ صاحبنا بعد أن ظفر بهذه اللقطة لم يصبر حتّى أعود إلى البيت، بل زعم أنه مضطرّ إلى الإياب إلى جنيڤ وخرج مهرولاً. فلمَّا سألته الجارية عن اسمه وقالت له: ماذا أقول عن اسمك لسيّدي؟ أجابها أنه ترك بطاقة عل مائدة الكتابة. فذهبت لم تجدها فنادته من الطنف المطلّ على محلّ مروره بعد أن خرج من البيت، فقالت له: ليس ثمّة بطاقة. فقال لها وهو يعدو: بلى، بل هناك بطاقة وربّما وقعت على الأرض وأنا سأكتب إلى الأمير من برلين!!!

وثاني يوم مزع إلى باريز. ومنها إلى مصر حيث قدّم غنيمة الغزوة. وتُلقيتْ بكمال الارتياح وربّما هنّئ على هذه المهارة... ودليل الارتياح وعدم إنكار هذا الفعل هو نشر

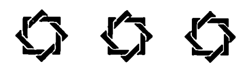
هذا المكتوب. ولماذا؟ الجواب: لا ثبات إنَّ الخلاف وقع بين أخي عادل وسلطان باشا في وادي السرحان. فخبر كهذا يجب نشره!!! فانظر: أيّة واسطة لأيّة غاية.

وهذ الشاب هو من الوطنيينّ!!! ومن المنفيين إلى إرواد. فتأمّل. إذًا لا يجوز أن نحصر هذه الأعمال في الأمم الاستعمارية ونقبح صغارة مآتيها وحدها.

فعندنا ـ والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه ـ من لا يقلّ عن لصوصها وجواسيسها، بل ربّما كان هؤلاء لا يسفّون هذا الإسفاف كلّه.

لوزان

شكيب أرسلان



تعدّد الزوجات*

قرأت لحضرة الفاضل الأستاذ الشيخ مصطفى أحمد الرفاعي مقاله الحكيم في تعدّد الزوجات، فأقول: إنّي لمن أشدّ الناس تمسّكًا بمبدأ الاقتصار على زوجة واحدة. ولكنّي من أشدّ الناس تسفيهًا لآراء من يرى في تعدّد الزوجات حطّة وظلمًا وتخريبًا للمجتمع، كما يلذّ لبعضهم أن يتشدّق.

وعندي أنَّ الأصل في الزواج واحدة: فإن اضطرّ الإنسان إلى الزيادة إمّا لعقم المرأة الأولى أو لأنها أصبحت بحالة من الهرم لا تغنيه عن التماس إرضاء الشهوة البدنية في الخارج عن بيته، أي أصبحت لا تغنيه عن ارتكاب كبيرة الزنا أو لأنها صارت عاجزة عن القيام بواجبات البيت إمّا بمرض مزمن أو شلل أو شيخوخة فإنّي أرى أنه يجوز للإنسان أن يزداد خليلة ثانية، لا بل يستحبّ له ذلك.

وبالجملة لو قلنا إنَّ تعدّد الزوجات في حدّ ذاته غير مستحبّ، فإنّه يستحبّ للضرورة. وإنَّ الأمور المحرّمة قد تجوز للضرورة فكيف لا يجوز للضرورة ما هو من أصله مباح في شرعنا، والضرورات تبيح المحظورات، فكيف يكون شأنها في غير المحظورات؟

ومن قال إنَّ تعدّد الزوجات لا يزيد في نسل الأمم ولا يضاعف في أعدادها فهو مكابر معاند.

وقد شاهدنا الأمم الإسلامية في هذا العصر برغم فقرها وانحطاط أمورها الاجتماعية والاقتصادية والصحّية والسياسية يزداد عددها ازديادًا مدهشًا.

ولو كانت النظافة في بلدان المسلمين مستوفية حقّها وكانت الوسائل الصحيّة موفورة عندهم كما هي في أوربة لكان المسلمون اليوم ضعف ما هم.

وإذا كان الأوربيون لا يجيزون تعدّد الزوجات المشروع ـ لأنه عندهم منه غير المشروع ـ إلى حدّ اليوم فلم يكن ذلك عن جهل منهم بفائدة تعدّد الزوجات عند الضرورة،

---

* الفتح، العدد: ١٨٢، (١٥/١/١٩٣٠م)، ص. ٥.

بل كان من أجل أنهم متأثرون بعقيدتهم المسيحية وأنَّ الناس في أوربة يحترمون عقائدهم وتقاليدهم.

وإذا كانت الأمّة مصابة بنقص في الذرّية إمَّا على أثر فلسفة مادّية وإباحة شهوات أو على أثر أمراض زهرية، وما شاكلها، أو كان تناقص عددها عقب أوبئة جارفة أو حروب مصطلمة فليس لها علاج في حالتها هذه مثل تعدّد الزوجات.

وكان الألمان بعد حرب الثلاثين سنة قد نقص عدد رجالهم كثيرًا فقرّر مجلس حكومة فرانكونيا إجازة أن يتزوّج الرجل بأمرأتين ونفّذ هذا القرار مدّة طويلة... وهذا منذ نحو ٢٥٠ سنة.

شكيب أرسلان



كيف أنّ العرب غرباء في بلادهم*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

عندما لجأ ثوّار الدروز إلى أراضي الأزرق التي هي في فم البادية وفي ضمن حدود شرق الأردن، وجاء الإنكليز ينذرونهم بالطرد من الأزرق أو يستسلموا للفرنسيس، نشرنا وقتئذٍ مقالة نقلتها جرائد كثيرة عنوانها «العرب غرباء حتّى في بواديهم»، وبالفعل قد صار العرب غير أحرار في قسم كبير من بادية الشام وبادية العراق البلقاء، تطاردهم في هذه الصحارى مهريّة الإنكليز والفرنسيس.

ولولا أن قيّض الله عبد العزيز بن سعود لصيانة الاستقلال العربي في قلب الجزيرة العربية لكانت سيوف الإفرنج تعمل الآن في رقاب العرب بين مكّة والمدينة، وبين حائل والرياض، وبين الكويت والإحساء. ومن يدري فقد تكون آمالهم لا تبرح معلّقة ببسط أيدي سلطانهم على هذه الأرجاء. لا حقّق الله آمالهم!

ولمّا أنذر الإنكليز الثوّار السوريين بمغادرة الأزرق أو يستسلموا إلى الفرنسيس اضطرّ نحو ألف نسمة إلى الاستسلام، ولكن شقيقيَّ عادل وسلطان باشا الأطرش وغيرهما من القوّاد أبوا الاستسلام وقالوا للإنكليز: «نحن قاصدون إلى أرض ابن سعود فليس لكم أن تلحقونا إلى هناك، وليس لكم في أرض ابن سعود أدنى يد علينا». فساروا إلى وادي السرحان وانتجعوا واحة النبك وتفيّأوا في ظلال تلك الراية العربية الحقيقيّة وكانوا نحو ألف وخمسمائة نسمة.

ولولا ظلّ ابن سعود لما قدروا أن يستقرّوا في مكان، ولضاقت عليهم الأرض بما رحبت. فلا يقدرون أن يدخلوا سورية إلاّ إذا طلبوا الأمان من الفرنسيس ولا فلسطين ولا شرقي الأردن ولا العراق تقدر أن تقبلهم. وليس لهم سبيل إلى اليمن. فكانت لهم واحة أمان وراحة واطمئنان في وادي السرحان لا يقدرون أن يصيبوها في أيّ محلّ كان.

---

* الفتح، العدد: ١٨٥، السنة الرابعة، القاهرة (٧ رمضان ١٣٤٨هـ/(١٩٣٠/٢/٦م)، ص ص. ١-٢.

وهنا ظهرت شهامة الملك عبد العزيز ابن سعود في إصراره على الاحتفاظ بهذه الأماكن المصاقبة للديار الشامية.

فإنَّه لمّا جاء السير كلايتون إلى جدّة لعقد المعاهدة التي سمّيت بمعاهدة "بحرة" ثارت المناقشة بينه وبين الملك عبد العزيز على نقاط عديدة واستحرّت واستمرّت أيامًا إلى أن جرى الاتّفاق على جميع الأمور. وبقيت مسألة الجوف وقريّات الملح غير منحلّة لأنَّ كلايتون صرّح بأنَّ إنكلترة تأبى إلاَّ إلحاق هذه المناطق بمنطقة الانتداب على شرقي الأردن.

فشرع الملك يأخذ ويعطي معه بالحسنى ويبيّن له ضرورة وجود هذه البقاع تابعة للحكومة النجديّة فلم ينجع فيه الكلام وبقي على عناده. وآخر مرّة قال للملك حسبما سمعنا: إنَّ الحكومة البريطانية لا يمكنها أن تتخلّى عن هذه الأماكن بوجه من الوجوه. فانتفخت عند ذلك أوداج الملك وثارت به الحميّة العربية فقال له: ولن يتخلّى العرب عنها حتّى تندق هناك رقبة ابن سعود. وقام مغاضبًا من المجلس وأرسل إلى كلايتون بأنه صرف النظر عن كلّ المعاهدة. فرفع كلايتون المسألة إلى لندن فجاء الجواب بأن يوقف عقد المعاهدة من أجل هذه النقطة. وهكذا بقيت هذه البقاع التي هي في منتهى الأهمّية للعرب في منطقة ابن سعود المستقلّة لا تعلو فيها يد أفرنجية على يد عربية. وجاء ثوّار سورية وقد صارت الدنيا في أعينهم ككفّة الحابل فوجدوا فيها ملجأ يسكنون إليه ويقولون: ها نحن أولاء في بلادنا.

فأمّا هذا العاجز فلم يكن لي أيضًا أن أطأ بقدمي أرضًا من بلاد الشرق إلاَّ ما ظلّلته راية الملك ابن سعود وراية الإمام يحيى. ولمّا أردت أداء فريضة الحجّ في العام الفائت لم أقدر أن أمرّ ببور سعيد والسويس إلاَّ تحت شروط وضمن ظروف قد عرفها الناس ممّا لا نحبّ الكلام فيه... بل نشكر الذين سمحوا لنا بالمرور من هناك ولو بشقّ الأنفس، إذ لو لم يسمحوا لنا به يومئذٍ لذهبت بنا الباخرة إلى الهند وفاتنا الحجّ. ولو لم يسمحوا لنا به في الإياب لما أمكننا أن نشاهد والدتنا التي هي في الثمانين من العمر ولا ترجو أن تشاهدنا إلاَّ في هذه المرّة، لأنها هي في سورية وأنا في أوربة ولا أقدر أن أطأ أرض سورية لمنع الفرنسيس إيّاي من دخولها.

وكانت السيِّدة الوالدة جاءت إلى القدس الشريف على أمل أن تشاهد أخي عادل وأن أمرّ أنا على فلسطين في منصرفي من الحجّ فتشاهدني. فاستأذن لي جلّة أصحابي في فلسطين

من السادة المحتلّين لبيت المقدّس أن أمرّ بالقدس لمشاهدة والدتي العاجزة فكان جوابهم سلبًا برغم كلّ ما راجعوهم به.

فأشارت حكومة الحجاز إلى قنصل إنكلترة في جدّة بأن يتوسّط في هذا الأمر فأبرق إلى القدس يرجو منهم الإذن بأن أمرّ ولو على يافا فقط لمدّة يومين فقط تحت شرط أن لا أشاهد غير والدتي وأن لا يشاهدني غير والدتي. فجاء الجواب إلى قنصل إنكلترة في جدّة بالرفض الباتّ أيضًا. وأغرب من الجواب تعليله وهو قولهم: «إنَّ الرجل الذي منذ تأسّست حكومة فلسطين لم يزَل يعاكس جميع مشروعاتها ليس له أن يدخل أرض فلسطين».

وكنت أظنّ أنَّ الإنكليز أعقل وأرصن من أن يعلّلوا رفضهم هذا بهذا التعليل السخيف... منذ تأسّست حكومة فلسطين! وهل في فلسطين حكومة غير الحكومة الإنكليزية؟ فلماذا هذا الرياء ولماذا يسمّونها حكومة فلسطين؟ أما يخجلون؟

ثمَّ ما هو الذنب الذي اقترفته؟ زعموا أني أعاكس مشروعات حكومة فلسطين! فما المشروعات التي يعنونها؟ أيعنون أني أعاكس «الوطن القومي الصهيوني» الذي هو طرد العرب من فلسطين وتسليمها إلى اليهود؟ أيجعلون ذلك لي ذنبًا؟ أفلا يخجلون؟

وحقيقة الأمر أنهم يعرفونني عدوًّا للاستعمار الأوربي، أقاتله بقلمي منذ أمسكت القلم أي منذ ٤٥ سنة وأني كنت للإنكليز عدوًّا في الحرب الكبرى بالقلم والسيف وجئت ومعي مائة وعشرون مقاتلاً من جماعتي إلى قلعة النخل يوم حرب الترعة ويحصون عليّ هذه وغيرها ويحقدون من أجلها.

وممّا يزيدهم حقدًا أنهم قد عهدوا أناسًا يدّعون أنَّ لهم زعامة بين العرب هم يسعون بين يديهم وينفقون بضاعتهم ويروّجون دعايتهم ويخدمونهم على ظهر قومهم حتّى خُيّل لهم أنَّ الأمّة العربية هي من بعض رعاياهم! فإذا وجدوا من هذه الأمّة من يقول خلاف ذلك للعرب ومن يقول: احذروا من الإنكليز أن يوقعوكم في أحابيلهم جاء ذلك عليهم ثقيلاً.

ولكن الحرب العامّة انتهت وقد تصالح الإنكليز مع الألمان ومع الأتراك ومع كلّ من كان لهم عدوًّا. فما معنى بقاء عدوانهم لنا؟ إنّنا لا نكلّفهم أن يحبّونا ولكنّنا لا نفهم كيف أنَّ العداوة السياسية تحرم الإنسان الحقوق العامّة التي يتمتّع بها كلّ إنسان.

وكان زميلنا في الوفد السوري الفلسطيني صاحب السعادة إحسان بك الجابري في لندن في الصيف الماضي، فكتبنا إليه من الحجاز نخبره بما صنع إنكليز فلسطين ونقول له: أبلغ المراجع العليا في لندن أنَّ هذه السفاسف لا تليق بحكومة موصوفة بالعقل والرزانة كحكومة إنكلترة: فذهب إلى ناظر الخارجية المستر هندرسون وحكى له القصّة وقال: إنَّ هذا الرجل لا يقدر أن يدخل سورية بسبب منع الفرنسيس إيّاه من دخولها، وقد جاءت والدته إلى فلسطين على أمل أنَّ السلطة البريطانية لا تعارضه في المجيء إلى هناك لمشاهدتها، فإذا بها تردّ طلبه بصورة مستنكرة لا مسوّغ لها. وهو يقول للحكومة الإنكليزية: عيّني المكان وحدّدي الزمان وخذي كلّ التحوّطات اللازمة ودعيني أشاهد والدتي التي تقول إنَّها تبغي أن تراني قبل موتها.

فالمستر هندرسون وعد إحسان بك خيرًا. ثمَّ بعد أيام جاء إلى إحسان بك كتاب من المستر هندرسون يقول له فيه: إنَّه قد كتب عن هذه المسئلة إلى ناظر المستعمرات اللورد باسفيلد لأنها من الأمور العائدة إلى نظارته. فتربّص إحسان بك أيامًا وراجع اللورد باسفيلد فجاءه منه أول كتاب يقول له إنَّه مع الأسف لم يمكن إعطاء هذه الرخصة لأنَّ السلطة في فلسطين تعارض فيها أشدّ المعارضة. وعند ذلك أبرق لنا الأخ الجابري إلى الطائف حيث كنت صائفًا يقول لي بأن لا أنتظر هذه الرخصة. ثمَّ من بعد هذا حدثت وقائع فلسطين بين العرب واليهود، وكان زميلي عاد من الندن إلى جنيف فجاءه كتاب ثانٍ من ناظر المستعمرات بأنَّ هذه الرخصة غير ممكنة، نظرًا لحالة القلق التي عليها فلسطين.

وهو رئاء بارد جدًّا لأنَّ هذا الرفض الباتّ لدخولي فلسطين حصل قبل حوادث العرب واليهود بمدّة طويلة.

ذكرت هذا الشرح إتمامًا لما كنت نشرته في "الفتح" في عدد ماضٍ من رفض السلطة الإنكليزية السماح لي بدخول فلسطين برغم المساعي الكثيرة، وبرغم برقيّات نظارتَي الخارجية والمستعمرات في لندن. فهذه البرقيّات كانت بناءً على طلب الأخ الجابري هذا فضلاً عن أنَّ المستر هندرسون يعرفني معرفة شخصيّة. ولا شكّ أنه لم يستحسن تصلّب الحكومة في فلسطين في هذه المسألة وتكبيرها إيّاها مع أنها صغيرة، لكنه لم يشأ أن يأمرها بما هي وحدها مسئولة عنه.

إنَّ هذه المسألة ليس لها عندي بال مطلقًا من جهتي الشخصية وإنَّما هي نقطة استبصار للعرب الذين يرون عربيًّا ليس له أن يطأ بقدمه وطنًا من أوطانه من غير ما ذنب سوى جهاده السياسي عن قومه. وهذا الهضم لا يخصّ هذا العربي وحده، بل ما دام قد جاز على أحد العرب فهو جائز على أيّ أحد منهم. إذ ليس ثمّة قانون ولا نظام وإنَّما هناك إرادة الأجنبي وحده. فهو يتصرّف بالبلاد ونحن أهلها في حكم الغرباء عنها. لا بل غرباء اليهود يأتون من الروسية وبولونيا ورومانيا... إلخ، فيدخلونها بسلام وبمجرّد وطئهم إيّاها بأقدامهم يصيرون سادتها وتتأثّل لهم حقوق أكثر من حقوق أهلها الأصليين.

والحمد لله على أن أبقى لنا راية ابن سعود حتّى نتفيّأ في ظلّها بعد أن خفقت رايات الأجانب على أكثر البلاد.

فهل تبقى الأمّة العربية رائمة إلى هذا الذلّ مدّة طويلة؟

لسنا نظنّ ذلك وسيأتي يوم يعلم فيه الظالمون والمستخفّون بأمر الأمّة العربية أنهم قد أخطأوا الحدس وأساءوا التقدير... وأنهم أعزوا الأمّة العربية بقهرها ورفعوها بخفضها والله على كلّ شيء قدير.

لوزان، ٢٢ يناير ١٩٣٠

شكيب أرسلان



من فحول الشعراء بلا مراء*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

لا يتّسع وقتي لقراءة الشعر إلاَّ ما كان لشوقي وحافظ وللنادر من غيرهما. وذلك لأنَّ العمر أصبح ضائقًا بالضروريّات التي لا غنى عنها فلا يجد ندحة للكماليّات إلاَّ في الندري وعلى خلاف القياس.

وكنت استثني ممّا أهمله شعر صادق أفندي عرنوس الذي يجود به على الفتح ويجيد دائمًا فإنَّه متين رقيق لا يعرف التكلّف كأنه شعر أبي العتاهية، أو البهاء زهير، وما قرأته مرّة إلاَّ شعرت بأنَّ هنالك شاعرًا مطبوعًا. ومن محاسنه أن يطرق المواضيع الاجتماعية التي نحن في أشدّ الحاجة إلى تفهّمها فيضعها في هذه القوالب الأنيقة، فيشفّ صفاء الإناء عن الشراب حتّى تخالهما واحدًا، وممّن يجيد في هذ المواضيع ويجدر بشعره أن يُحفظ البارع أبو شادي الذي كنت أسترسل في التنويه بمكانه في الشعر لولا خشية الاتّهام بالضلع معه لأنه كان قد أثنى عليَّ بما هو أهله فأصبح موقفي في الشهادة له حرجًا.

ولقد ظفرنا أخيرًا بخبيئة مدفونة لم أكن أظنَّ في زوايا الانقباض وتحت أستار التواضع خبيئة مثلها. تناولت العدد الأخير من «الفتح»[1] فرأيت في صدره قصيدة فلم أعج بها، لما ذكرت من ضيق الوقت على الشعر. ثمَّ أتيت على الجريدة كلّها. ولّما فرغت منها وأردت أن أطويها حانت منّي نظرة إلى بيت من أوائل تلك القصيدة فاستجزلته فقرأت ما يليه فإذا به كالأول فرغبت في قراءة تلك الصفحة فصار كلّ بيت يسحبني إلى الذي بعده، وهكذا حتّى أتيت على القصيدة كلّها، وأنا أقول: كم في الزوايا خبايا!

قرأت شعرًا يعتنقه الطبع ويشربه الخاطر ويعرف القارئ إعجازه من صدوره وتمثّل قافيته من أول كلمة من بيته يدلّ على ملكة غير معتادة وطبع متناهٍ في الصفاء ومكانة في اللغة رفيعة وتصرّف في القول سلس القياد يجول صاحبه به كما أراد؛ فقلت: والله إنّه لعبقري، من يفري هذا الفريّ. وأقسمت لو وضعنا من هذه القصيدة أبياتًا في ضمن قصيدة أبي تمّام الداليّة التي هي من هذا البحر وهذه القافية، يذكر فيها عهود المعالي على المعاني لما أمكن الناقد أن يميّز شعر الطائي عليها.

ذكرت أبا تمام جاعلاً إيّاه المثل الأعلى في الشعر، لأني أحسبه شيخ شعراء المولدين وأعلاهم نَفَسًا وأبقاهم أثرًا في النَّفْس.

وليس أبو تمّام بالذي يعلو عن الانتقاد؛ أفلا تراه يقول:

لا تسقني ماء الملام فإنّني | صبّ قد استعذبت ماء بكائي

قلت: لا أعلم لماذا لم يقُل:

لا تسقني ماء الملام فإنّني | صبّ قد استعذبت مرّ بكائي

فإنَّ المرّ قد يُسقى وتكون الملابسة واقعة لأجل المجاز بخلاف "ماء الملام" الذي ليست فيه ملابسة تجيز مجازه. ولهذا أخذها العلماء على حبيب وصارت مثلاً لكلّ مجاز بارد.

ولكن أبا تمّام برغم ما يؤاخذ فيه ـ ولا تعدم الحسناء ذامًا ـ هو شيخ المولدين لدى ذوي الإنصاف. والقصيدة التي قرأتها في صدر "الفتح" هي من هذا النسج الفريد الذي أبو تمّام صاحب أسلوبه البديع ومنواله الرفيع. ولا تجد في هذه العصماء من أولها إلى آخرها لفظة واحدة في غير محلّها أو بيتًا يقال فيه: لولا قال كذا لكان أحسن. وقرأت التوقيع الذي تحت القصيدة فإذا بي لم أسمع به في حياتي فقلت: يا رب في أيّ عكم[1] اختبأ هذا الرمح؟ وتحت أيّ غمام اختفى هذا النجم؟

وممّا زاد حلاوة هذا النظم مجيئه على قامة ابن سعود بطل العرب الذي يفعل فتقول الفصحاء، ويفري فيفتق ألسنة الألباء والله يزيد في الخَلق ويزيد أيضًا في الخَلْق ما يشاء.

لوزان، ٢٥ شعبان ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠/٢/٢٦م

شكيب أرسلان

(١) العُكم: ما شُدّ وجُمع به من ثوب أو سواه.

سيوف نضاها الله*

إلى الأخوين الأبرّين، والقمرين الأغرّين:
السيّد محمّد صادق عرنوس، والسيّد محمّد حسن النجمي

يقرّظني قومي بأنّي مدحتهم ... كما يُمدَح الروض الذكيّ على النفح
ولو أنّهم قد أنصفوني لما رأوا ... بمعرفتي للحقّ عارفة المَدْح
إذًا لرأوا آثارهم شاهدًا لهم ... يكاد لديها الطير يهتف بالصَدْح
شهدت بما شاهدت ما من علاقة ... ولا صلة توهي الشهادة بالجَرح
ولكنّ من شأن الفصاحة أنها ... إذا بهرتْ تعظو إلى خُلُق سِمْح
سيوفٌ نضاها الله إذ حَمَسَ الوغى ... ونادى منادي الدين للرمي والنضح
تواصل في جيش الضلال قراعها ... فما برحت تشفي الصدور من البَرْح
تلألأ في قِطْع من الليل مظلم ... سناها فكان الليل أضوى من الصبح
فلا تأخذْنكُمْ في الغواة هوادة ... وفلّوا جموع الشرّ بالضرب والطرح
لقد خوّضوا في الدين والعِرض جهرةً ... ولجّوا فعاد القرح ينكأ بالقَرْخ
فليس بغير الكسر حسم لدائهم ... وغير العصا والجوز يؤكل بالشَّقْح
وكلّ ذنوب العالمين مصيرها ... إلى العفو إلاّ الشرك ممتنع الصفح
سينصركم من تنصرون كتابه ... ويؤتيكم الفتح القريب من (الفتح)

لوزان، ٣ شوال ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠/٢/٤م

شكيب أرسلان

---

* الفتح، العدد: ١٩٠، السنة الرابعة، القاهرة (١٢ شوّال ١٣٤٨هـ/١٩٣٠/٣/١٣م)، ص ص. ١-٢.

أعظم كتاب في الدنيا انتشارًا*

[الكتاب المقدّس]

نقلت جريدة جورنال دو جنيف عن مجلّة شهرية تصدرها في لندرة جمعيّة التوراة الخبر الآتي:

إنَّ الكتاب المقدّس قد طبع حتّى الآن بستّمائة واثنتين وعشرين لغة.

وإنَّ الطبعتين الأخيرتين هما بلغة "كيرڤينا" التي يتكلّمون بها في جزيرة شرقي زيلاندة الجديدة وبلغة "كويز" التي يتكلّمون بها في الجنوب الغربي من الكونغو البلجيكي.

فسواء في أواسط الغابات العذراء من أفريقية، أو على شواطئ أصغر جزر بوليتنزيا، تجد التوراة قد دخلت وتغلغلت.

وأمّا ما يطبع من نسخ التوراة كلّ سنة، فهذا شيء لا يحيط به عقل بشري، وأمّا ما يوزّع منها مجّانًا فكذلك فوق التصوّر والتخيّل.

وأمّا نحن فبعد أن كنّا نعتني بالقرآن وجدنا من لوازم "الرقيّ" أن نهمله وننقص من نشره وتحفيظه للناشئة والأحداث.

فالتوراة أعجبت الأوربيين فصاحتها وبلاغتها. ولكنّنا نحن أصبحت لا تعجبنا فصاحة القرآن ولا بلاغته ولا آدابه ولا مواعظه ولا عزائمه. نحن صرنا من ذوي "الرقيّ!".

وكان الشيخ رحمة الله الهندي، رحمة الله عليه، قد ذكر في كتابه "إظهار الحقّ" ردًّا على المبشّرين من جملة مزايا القرآن الكريم حرص المسلمين على حفظه وقال للمبشّرين: لا تجدون في كلّ العالم المسيحي عشرة يحفظون التوراة عن ظهر قلوبهم، مع أنَّ في قرية من قرى مصر يجد الإنسان عشرات من الحفّاظ للقرآن.

فليقم الآن الشيخ رحمة الله من قبره ويشاهد كيف انقلبت هذه الحالة بمصر.

---

* الفتح، العدد: ١٩٠، (١٣/٣/١٩٣٠م)، ص. ٤.

ولقد قرأت في "كوكب الشرق" رسالة يستغيث فيها صاحبها الفاضل ويناشد الحكومة أن لا تهمل تحفيظ القرآن للأولاد.

في بعض مدارس ألمانية تجد القرآن في راس جدول الكتب المشار إليها في الأخلاق.

أمّا نحن فنرى أنَّ من الواجب تقصير الزمن المخصّص لحفظه، ونرى كلّ تأخّر في حفظه تقدّمًا!

أفلسنا نحن أرقى من الإنكليز ومن الأميركيين الذين يحبّون توراتهم وإنجيلهم كلّ تلك المحبّة، حتّى كأنَّ هذين الكتابين طعامهم وشرابهم وصبوحهم وغبوقهم.

لقد سامحنا المسلمين بنشر القرآن بملايين وملايين من النسخ وتوزيعه مجّانًا، كما يفعل الأوربيون الذين هم الرجال فعلاً بنشر التوراة والإنجيل، فإنّنا لا نأمل أن ينهض المسلمون الآن لما ينهض المسلمون الآن لما ينهض له الأوربيون.

ولكنّا لا نسامحهم في ترك تلك السنّة الحسنة، سُنّة تعليم القرآن لأحداثهم ممّا يستفيدون منه تقويم عقيدتهم وأخلاقهم ولسانهم وتهذيب نفوسهم وتصفية قلوبهم وإعلاء هممهم، وبالجملة، تصييرهم رجالاً وأيّ رجال. يا قوم أيكون عندكم هذا الكنز الأنفس وتضيعونه؟

وماذا نقول في هذا المرض الاجتماعي المنتشر في البلاد الإسلامية؟

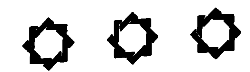
غاية ما نقول [للمتنبّي]:

ومن يكُ ذا فم مُرٍّ مريض

يجد مُرًّا به الماء الزلالا

لوزان

شكيب أرسلان



بين الآلام رحم ماسة
واحسرتاه على أحمد باشا تيمور*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

ما كنت في حياتي أشدّ استيحاشًا من الدنيا وتبرّمًا، بتكوّر الليل على النهار وتكوّر النهار على الليل، ممّا أنا فيه هذه الأيام الأخيرة. قد يشعر الإنسان بحالات نفسية لا يعلم لها أسبابًا، ويتألّم من مواجيد في قلبه لا يدرك لها مصدرًا ولا يملك لها ردًّا ولا علاجًا. ولعلّها انفعالات متراكمة وغموم متحاشدة من هنا وهناك تحدث مجموعةً، تكرّه إلى المرء الحياة الدنيا فيكاد يقول لها وداعًا، لولا أن يُعَدُّ ذلك جبنًا وهلعًا ويحسَب فرارًا من المعركة. فإنَّ الحياة معركة لابن آدم منذ يولد إلى أن يُلحَد. والشجاع الشجاع من يخوض معامعها ولا ينكص عن اقتحام لظاها. وخوف عار الجبن أهمّ عامل في تحمّل أذاها، وكيف لا تتراكم الهموم وتتجمّع الكرائه ونحن كلّ يوم أمام مَظلمة تثور لها كلّ نفس أبيّة وعرضة لخسف لا يرضى به "إلاَّ الاذلان[1] غير الحيّ والوتد". ننظر إلى سورية فنجد فرنسة متشبّثة بتحويلها إلى مستعمرة، ومؤمّلة أن تتلاشى حرارتها الوطنية في برد المماطلات والمراوغات. وننظر إلى العراق فنجده في المقيم المقعد مع إنكلترة التي لا تريد أن تعطيه من الاستقلال إلاَّ أسماء وألفاظًا. ونتطلّع إلى فلسطين فنجد الإنكليز يحاولون أن يصبّوا عليها اليهود صبًّا وأن يفرغوا العرب الذي فيها في قالب يهودي شاءوا أم أبوا. وقد أرسلوا إليها لجنة تحقيق على أمل أن تقدّم خلاصة تجعل فيه كلّ الحقّ لليهود وجميع الذنب ذنب العرب، فيستندون إلى تقرير اللجنة ويقولون: نحن لم نحِد عن قرار اللجنة الفاحصة يمنة ولا يسرة. فلمّا وجدوا اللجنة في قرارها كانت ضدّ اليهود في قضيّة المهاجرة عادوا فطووا هذا التقرير كأنه لم يكن. ونتأمّل في مسألة مصر فنجد الإنكليز لا يرضون أن يعطوها هذا الاستقلال المقيّد الأعرج المشوّه إلاَّ إذا قدّمت لهم السودان غنيمة باردة. وما السودان إلاَّ حياة مصر، بمعنى الحياة الحقيقي لا المجازي، أي أنَّ السودان هو النيل، وأنَّ النيل هو لأهل مصر لحم ودم. كان

---

* الفتح، العدد: ٢٠٠، السنة الرابعة، القاهرة (٢٣ ذي الحجّة ١٣٤٨هـ/٢٢/٥/١٩٣٠م)، ص ص. ١ـ٤.

(١) هكذا وردت، والمرجّح الأذلاّء.

السودان ملكًا لمصر خالصًا، فتحه المصريون في زمن محمَّد علي، ثمَّ في زمن اسماعيل، ثمَّ لمّا جاء الإنكليز وأرادوا فتحه ثانية لحساب مصر، إنَّما فتحوه بمال مصر ورجال مصر وباَسم مصر. ولمّا اتّسق لهم فتحه هذه المرّة، زعموا أنهم شركاء مصر في ملكيّة السودان شقّ الأبلمة، وهذا الاعتداء على النصف الأول. والآن يريدون أن لا يشركوا مصر في السودان ولا بالنصف، وهذا هو الاعتداء علىالنصف الثاني. فالمصريون بعد هذا في السودان غرباء... فأيّ قلب لا تشتعل به النار وأيّ نفس لا تعاف الحياة والقرار.

يسمحون ليهود بولونيا ورومانيا والروسية وكلّ يهود العالم بالمهاجرة إلى فلسطين، ويحسبونهم فيها بمجرد وطء أقدامهم لها وطنيين. ولا يسمحون للمصريين أن يهاجروا إلى السودان وهو دارهم وأرضهم وقد تملكّوه أولاً بدمهم ومالهم، ثمَّ تملّكوه ثانيًا بدمهم ومالهم وبإقرار أهالي السودان وبرضاهم وتأييدهم، وما على الناس إلاَّ أن يسألوهم ليعلموا مرادهم.

أمور يشتعل لها القلب ويُستطار اللبّ ويضيق بها الصدر ويعيل الصبر ويشتهي القبر. وبينا المرء يقاسي من هذه الآلام الوطنية ما يوثّر في الجلاميد ولا يتحمّله الحديد، إذ يصاب بالأعزّة، ويُرزأ بالأعيان وبفقد الذين لا يسدّ عظيم فراغهم، ولا يُؤَسّى جرح فراقهم. فكأنَّ المصائب على ميعاد وكأنَّ بين الآلام نسبًا جامعًا، فقد فقدتُ من قراب شهر ابن العمّ المرحوم فؤاد، وكان من أنفع من عرفت في البشر وأبرَّهم بإخوانه. وبينا لوعته لم تطفأ، والدمع عليه لم يرقأ، إذ فُجعنا بهذا الفقيد العظيم الذي جعله الله مثالاً للعدل والإحسان وأبرزه ملكًا كريمًا في صورة إنسان، المغفور له أحمد باشا تيمور، برّد الله ثراه وأكرم مثواه. فقدناه وما أحوج الأمّة إلى الرجال، وعدمناه وأفجع المنايا ما ذهبت فيها الآمال مع الآجال. فلو لم يكن غير هذه المصيبة النازلة بالإسلام قضّه وقضيضه، والمزعزعة للشرق من أعلاه إلى حضيضه، لكانت كافية لكراهية الدنيا والتبرّم بالمحيا. فإنَّه ما اتّفق الناس في هذا العصر على حبّ أحد ولا أجمعوا على الثناء الجميل بحقّ أحد، اتّفاقهم على محبّة هذا الأمير الجليل، وإجماعهم على التنويه بفضله الجزيل وكرمه العريض الطويل. وناهيك بالعالم المحقّق والجهبذ المدقّق الذي لم يكن يدانيه أحد في معرفة لغة العرب ومذاهبها، ولم تكن تخفي غوامض العبارات على الناس إلاَّ أخرج الحقائق من جوانبها. وكم من حقيقة بدونه بقيت في بطن الخفاء، وكم من نكتة لغوية أو تاريخية لولاه لطمسها العفاء. وكم كشف بتدقيقاته من دفائن ونثل بتنقيباته

من كنائن، ولعمري بمثله لاقت المكاتب والخزائن. وأيّ منهل للعلم كانت خزانته العامرة وبين صدغيه خزانة تضاهيها، وأيّ صفحة من هذه التآليف التي تحصي بالألوف لم تكن ملاحظاته القيّمة على حواشيها. ومن ناداه في مشكل علمي فلم يجد منه نجدة لم يشفِ له علّة؟ ومن راجعه في مبرّة أو مكرمة فلم يسرع له إجابة ولم يزح له علّة؟ أعلم الخلق كيف يقترن العلم بالعمل ويتّحد القلب مع اللبّ، وكيف ينظّم الرجل الكامل بين حاشيتي المعرفة والعرف. فلو كان قد رزق الإسلام عددًا من أمثال أحمد باشا تيمور لكانت قد صلحت أحواله وتسدّدت أموره وتهلّل وجهه العابس اليوم وأبرقت أساريره. ولكن من لنا بهذا النادر الأندر والكبريت الأحمر، وأيّ فذ يقدر أن يفري هذا الفري، وأيّ نابغة يقدر أن يطاول هذا العبقري. لقد قصرت الأفاضل والله عن أدنى غايات فضله، وهيهات أن يكون له ثانٍ أو أن يأتي الزمان بمثله.

ليس لي أن أترجم الآن أحمد تيمور الذي ينبغي أن تؤلّف له تراجم وافية توفيه حقّه وتُنظم مراثٍ شافية تناسب قدره، وإنَّما هي أَنَّةُ محزون ونفثة مصدور وكلمة أبثّ بها بعض ما بي ولو أنَّ ما بي لا تحيط به السطور.

قد عرفت الفقيد العزيز في مصر يوم مروري بها ذاهبًا إلى حرب طرابلس الغرب، وعرفت فيه تلك الرصانة والتؤدة، وذلك الأدب الغضّ والخلق الطيّب الذي يندر مثله في الأرض. ولكن لم يتيسّر لي معه اجتماع طويل. وإنّي لمتذكّر بحثًا حرّرته في المقتطف، وقد جاذبني فيه الحبل، ولا بدّ لي من وقت للمراجعة، حتّى أقف على ما حرّره هو وما حرّرته أنا، وهو في المقتطف سنة ١٩١١ ففي أول فرصة أراجع إن شاء الله ذلك في محلّه.

ولم يسمح لي الدهر بعد ذلك بأن أروي من ذلك المنهل صدى. ولو أمكنني دخول مصر لقضيت من هذا الأمر لبانةً كانت أقصى آمالي وأول ما كان يجول ببالي. ولكن هكذا شاءت الأقدار فحرمت لقاءه، وإن لم أحرم رضاءه، ولم أعدم على البعاد سلامه وثناءه. وكنت أسأل الله أن يمتّع هذه الأمّة بطول أيامه حتّى يفيض عليها أنوار أدلّته وأحكامه.

وقد قرأت مرّة في مجلّة «الهداية» التي ينشئها الأستاذ العلاّمة أحدى مفاخر المغرب في المشرق السيِّد محمَّد الخضر حسين التونسي، كلامًا يتعلّق بالطائف وبالمثناة إحدى قراها المشهورة ومنتزهاتها الموصوفة من قلم الأستاذ المغفور له أحمد باشا تيمور، نقلاً عن كتب

ذكرها لم أكن اطّلعت عليها، فكتبت إلى الأستاذ الخضر، حفظه الله، بأن يسأل لي المرحوم هل يمكنه أن يستنسخ لي هذه الكتب بيدِ أحد الطلبة البارعين الذين يفقهون ما يقرأون، فسأله ما كتبت إليه عنه، وإليك الجواب:

لم تمضِ على ذلك أيام قلائل حتّى جاءتني أربع رسائل مصوّرة بالفوتوغرافيا أحسن تصوير مجلّدة أمتنَ تجليد مع أبدع تذهيب: الأولى كتاب تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عبّاس، ووج والطائف تأليف العلاَّمة محمَّد جار الله بن عبد العزيز بن عمر بن محمَّد الشهير بابَن فهد المتوفّي سنة ٩٢٢ وصفحات هذا الكتاب ٦٧ صفحة بالقطع الكبير. والرسالة الثانية رسالة في فضائل عبد الله ابن عبّاس، وفضائل الطائف تأليف الشيخ محمَّد بن عبد الكريم الغنوي الذي كان حيًّا سنة ١١٤٩ وهي نحو ٢٠ صفحة، ورسالة نشر اللطائف في قطر الطائف للعلاّمة ابن عراق وهي نحو ١٠ صفحات، ورسالة نشر اللطائف في أخبار الطائف، تأليف الشيخ حسن ابن الشيخ علي العجيمي المكّي الذي حرّر هذه الرسالة سنة ١١٧٩ وهي نحو ١٥ صفحة كلّها من القطع نفسه. وقد تفضّل المرحوم بإرسال بطاقة معها عليها بقلمه عبارة ينقل فيها ما في نفسه إليّ ويخلع من أوصافه الباهرة عليّ. وكنت أودّ أن أمسك عن نقلها، وأين أنا منها، لولا الحرص على حفظ أقواله وإيراد كلامه الدالّ على كماله فهو يقول: «هديّتي للصديق الأجلّ زين العلماء وسيِّد الكتاب الأمير شكيب أرسلان حفظه الله تعالى»، فكتبت إليه كتابًا أشكره فيه على هذه الهديّة اللطيفة وعلى ما أظهر نحوي من العواطف الشريفة، وأنّى لي أن أعلم واحسرتاه أنَّ الله سيختاره إليه في أجل قريب، فلم أحفظ صورة عن كتابي المذكور وإنَّما أذكر أني قلت: إنَّك تكرّمت فصوّرت لي هذه الكتب، فأمَّا تصوير صاحب الكتب فهو شديد الامتناع، ولو صوّرت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع» وجوابًا على كتابي هذا له تكرّم رحمه الله وأفرغ علينا بعد فراقه صبرًا فكتب إليَّ بما يأتي بعد الترجمة:

«السلام عليك ورحمة الله. وبعد فإنّي لا أستطيع أن أعبّر لسيّدي الصديق عمّا كان لكتابه الكريم من الوقع والتأثير في نفسي، لما شملني به من عطفه الأخوي، وشرّفني به من الثناء الذي لا أستحقّه. فالله سبحانه يتولّى جزاءه عني أحسن الجزاء، وأسأله تعالى أن يديم هذه الصداقة وثيقة العرى موصولة الأواصر، إنّه سميع مجيب».

ولمّا كنت فيما كتبته إليه أذكر له رأيي في لفظة "المثناة" القرية التي كنت كثيرًا ما أتنزّه فيها عندما كنت في الطائف الصيف الماضي، فقد كتب لي رحمه الله ما يأتي:

"لفظ المسناة بالسين الذي رجّحتموه هو المتبادر الموافق للمعنى. غير أنَّ الوارد في تواريخ الطائف وما اطّلعنا عليه من تواريخ الحجاز (المثناة) بالثاء وقد سمعناه كذلك من أفواه من لقيناهم من الحجازيين بمصر، وبه ورد أيضًا في القاموس، إلاَّ أنه أطلق في تعريفه وقال (موضع) بلا تعيين وقد عيّنه شارحه الزبيدي بقوله (بالطائف) فلعلّه سمّي بذلك لأنَّ الماء يشقّه اثنين كما قلتم. وكنت ذكرت ذلك لأستاذنا الخضر وأخبرني أخيرًا بأنه كتب به إليكم. والسلام على سيّدي ودام في صحّة وعافية".

السبت ١٣ ذي القعدة سنة ١٣٤٨هـ/١٢ نيسان ١٩٣٠م

المخلص

أحمد تيمور

أي أنَّ هذا الكتاب، واحسرتاه، لم يمضِ عليه إلاَّ شهر واحد إلى تاريخ هذا اليوم. وأخمّن أنَّ قد حرّره الأستاذ الفقيد قبل ارتحاله الأبدي بنحو ١٥ يومًا. وكتب عليه أيضًا هذه الحاشية:

"سأقدّم لسيِّدي في الأسبوع المقبل بعض رسائل لي بعد أن يتمّ تجليدها، فأرجو قبولها مع غضّ النظر عمّا بها من الهفوات والبضاعة المزجاة وله الفضل".

فأمّا هذه الرسائل فلم تصل إليّ، ولعلَّ الحبيب الراحل التاث في أثناء ذلك الالتياث الذي انتهى بفراقه هذه الحياة الفانية جعله الله في أعلى عليين فشغله المرض عن إتمام مراده، فأنا أرجو من نجليه الكريمين الأمجدين وشبيله الأروعين الأصيدين اسماعيل بك ومحمود بك تيمور، اللذين هما الآن عزاؤنا في هذا المصاب الفادح ورجاؤنا بعد الحبيب النازح، أن يقوما بإنفاذ إرادة والدهما الكريم، فالولد إنّما هو تكملة أبيه. فإنَّ هذه الرسائل ستكون أغلى ما تحتويه خزانتي، وأزكى ما تصدره أرض الكنانة إلى كنانتي، والذخر الذي أنا أدّخره لمالي، أو الكنز الذي أعتقده قبل ارتحالي. فأمّا ما ذكره الفقيد عن نفسه من "هفوات وبضاعة مزجاة" فما أحراه بأن يكون درسًا في الأخلاق وأمثولة من التواضع توضع نصب الأحداق، ولا سيّما لمن علم أنَّ صاحب هذا القول كان يصحّح "لسان العرب" [لابن منظور] ويعقّب

على أبرع من كتب ويكشف من اللغة الأسرار التي مضت القرون، ولم يكن زيح عنها ستار وإنَّه الكاتب الفذّ والقارئ المدرك الأحذ. فوا أسفاه على فراق الناس لتلك النفس الزكية، ووا لهفاه على حرمان الإسلام هذه الأخلاق العلوية الملكية، ويا لضيعة العمر بعد أن خاب أملي بلقاء تلك الذات السرّية العبقرية. وهو يدعو الله أن يتولّى جزائي عنه أحسن الجزاء، مع أنه هو الحقيق منّي بهذا الدعاء، وهو الذي ندعو جميعًا سميع الدعاء، بأن يجزيه أحسن الجزاء عن هذه الأمّة التي كان من أبرّ أبنائها، وأن يتبدّله السعادة الباقية والحياة الأبدية الصافية من هذه الظلمة الغاشية والدار النابية ويلهمنا على فقده صبرًا.

لوزان — شكيب أرسلان



بكاء المنابر*

القصيدة العصماء التي بعث بها أديب العربية الأكبر، الأمير شكيب أرسلان إلى لجنة تأبين فقيد العربية والإسلام أحمد تيمور باشا وألقاها أمس في حفلة التأبين الكبرى.

شاعرُ الفتح الأستاذ محمّد صادق عرنوس

يُساوِرُني طول الدُّجى وأُساوِرُهْ ... مُلالٌ وطَرْفي ساهِدُ الليل ساهِرُهْ

ولولا التُّقى ناديتُ يا حبَّذا الرَّدَى! ... وقلتُ متى تُلقى إليَّ بشائرُهْ؟

لعمرُكَ ما بالعيش إرْبٌ لعاقلٍ ... تَوغَّل في علم الحقيقة خاطرُهْ

تَسَلْسُلُ آلامٍ، وتَرْدادُ محنةٍ ... تُراوِحُهُ في كَرْبها وتُباكِرُهْ

وخَيْبةُ آمالٍ وفَقْدُ أعِزَّةٍ ... وبَعد طوال السجن فالموت آخرُهْ

لِيَهْنِكَ يا تيمورُ أنك جُزْتَها ... إلى مَلإٍ لا يَعْرِفُ الموتَ زائرُهْ

وفارقتَ دارًا لا يَزال قَطينُها ... يُفَكِّرُ في الْهول الذي أنت غامرُهْ

فإنْ تَكُ عُقبى الدارِ قِسمةَ فاضلٍ ... فأقصى أمانيكَ الذي أنتَ صائرُهْ

تخَطَّتْكَ في ذا الخَطْبِ داعيةُ الرِّثا ... ولكنَّها صارتْ إلى مَنْ تغادرُهْ

جديرٌ بأن يُرْثى الذينَ تركتَهُمْ ... يُصابرُ كلٌّ منهمُ ما يُصابِرُهْ

يُسائِلُ بَعْضًا بَعْضُهُمْ: أينَ أحمدٌ؟ ... وأحمدُ قد ضُمَّتْ عليه حَفائِرُهْ

فأنَّى لهم تلكَ الخلائقُ بعدَهُ ... وأنَّى لهم مِنْ ذلكَ الوجهِ ناضرُهْ

وأنَّى لهم تلك السكينةُ والنهى ... إذا عَصَفَتْ من أيِّ خَطبٍ أعاصِرُهْ

يُريدونَ في ذا العَصْرِ نِدًّا لأحمدٍ ... وأحمدُ فَذٌّ مفردُ الخُلقِ نادِرُهْ

يَنوحونَ نَوْحَ الثاكلات فكلُّهم ... تَدَفّقُ عن مِثْلِ السيولِ مَحاجِرُهْ

على سيِّدٍ في جَنْبِهِ كلُّ سيِّدٍ ... يَظَلُّ ضئيلاً باديات مَفاقِرُهْ

على مَلَكٍ في صورَةٍ بشريَّةٍ ... تَعَدَّتْهُ من هذا الوجود صغَائِرُهْ

إذا ما جَرى في أيِّ نادٍ حَديثُه ... تقولُ فَتيتُ المسك شُبَّتْ مَجامِرُهْ

---

* الفتح، العدد: ٢٠٣، السنة الخامسة، القاهرة (١٥ المحرّم ١٣٤٩هـ/١٢/٦/١٩٣٠م)، ص ص. ١-٢.

حَرِيٌّ بأنَّ الشَّرقَ يُظلِمُ أُفقُه … لَمِنْعاهُ والإسلامُ تبكي مَنابِرُهْ

وتُنكس راياتُ الفضائل كلُّها … عليهِ، وتُرْخى للكمال سَتائرُهْ

فمَنْ بَعْدَه للعلم تَنْشقُّ حُجْبُهُ … ويُنْسلِسُ عاصيه ويَسْهُلُ واعرُهْ

ولِلُّغةِ الفُصْحى يَصُونُ ذِمارَها … وتَملأُ فيها الخافِقَين مآثرُهْ

صَبَاباتُهُ في حُسنها وسُهادُهُ … ومن كُتْبِها أعلاقه وذَخائرُهْ

وذَوْقُ جَناها غَبْقهُ وصَبوحُهُ … وَجَوْبُ فَلاها رَوْضُه وأزاهرُهْ

أوابدُها طُرًّا لديه أنيسةٌ … وشُرَّدها من كلّ فنّ معاشرُهْ

أقامَ لِسانَ العُرْبِ فيما هَوَى به … ولولاه حتمًا ما أقيلت عواثِرُهْ

ولو كان في عَصر المؤلّفِ لم يكنْ … لديه ابنُ منظورٍ بكُفءٍ يناظرُهْ

ولو كان قد وافَى الصِّحاحَ مصحِّحًا … غَلَتْ فوقَ عَهْدِ الجَوْهَريّ جواهرُهْ

وكان كتابُ العَيْنِ قد غابَ جُملةً … عن العين لو أنَّ الخليلَ مُعاصِرُهْ

ولو كان في القاموس لَجَّجَ ما طَمَا … وما كان إلاَّ كالرُّقاق زاخرُهْ

ولو أنَّ رَبَّ التاج عاشَ بعصرهِ … لحلّ من التاج الذي هو ضافرُهْ

ولو شمَل المصباحَ يومًا بنَقْدهِ … لخلاَّهُ مُلْقًى ليس يُزْهر زاهرُهْ

مدًى ليس فيه من يشقّ غُبارَهُ … وطائلةٌ ما إن بها مَنْ يُجاوِرُهْ

فقد غُيبت تلك الفضائلُ كلُّها … ودارتْ على ذاك النبوغ دوائرُهْ

وباتَ يبكّي كلّ صابٍ إلى العُلى … وكان حَرًى أن لا تَجِفَّ بوادِرُهْ

أأحمدُ لا تَبْعُدْ ففي كلِّ مهجةٍ … ولاؤُكَ عَقْدٌ مُحْكماتٌ أواصِرُهْ

لئنْ بِنْتَ عَنَّا لم تزلْ متمثّلاً … عليك احْتَوَتْ من كلّ شخصٍ ضمائرُهْ

رحلتَ إلى الدارِ التي أنت أهلُها … مكانُكَ فيها مُشرقُ الوجه سافرُهْ

ولا بأس من هَوْلِ الحسابِ على امرئٍ … له زَرَدٌ من نسج أيديه ناصرُهْ

عليكَ سلامُ الله ما لاحَ بارقٌ … وجاد ثَراكَ الغيثُ ما سحَّ ماطرُهْ

على الناس دَيْنٌ من ثنائكَ لازمٌ … يؤدّونه ما يَذْكرِ الحقَّ ذاكرُهْ

شكيب أرسلان

كيف يفهمون حرّية الفكر في أوربة*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

يدعو كثير من الناس ـ ولا سيَّما من فئة المجدّدين ـ إلى الاقتداء بأوربة في حرّية التفكير، وعدم وضع عقال للألسن وللأقلام. ويقولون إنَّ هذا هو الشرط الأول للرقيّ، وإنَّنا ما دمنا لا ندع الخلق يقولون ما يشاءون ويكتبون ما يشاءون كما هي الحال في أوربة! فلن نبرح متأخّرين ولن نصل من المدنيّة وترقّي الفكر إلى الشأو الذي وصلوا إليه.

وكلّ شيء يدعون إليه إنَّما يدعون إليه لأنه من أوضاع أوربة ولأنه قد سار عليه أهل أوربة. فيكفي الشرقي لأجل الأخذ بأمر من الأمور أن يقال له إنَّ هذه لمن الأمور التي اصطلح عليها أهل أوربة فهو حينئذٍ يقبله بلا بحث ولا جدال ولا تدقيق هل يصلح له أم لا؟

وقد وقر في أذهان عامّة الشرقيين وخاصّتهم ـ إلاَّ النفر العارفين بحقائق أحوال أوربة ـ أنَّ الحرّية في أوربة مطلقة لا حدَّ لها، وأنه غير ممنوع في أوربة إلاَّ اعتداء فرد على فرد آخر، أو أن يأخذ من الحرّية لنفسه ما يضرّ بحقوق غيره. وما عدا ذلك فهو بأجمعه مباح.

وليس شيء أعرق في الوهم من هذه الفكرة. فالحرّية في أوربة هي مطلقة بالنسبة إلى بعض البلاد الشرقية وبالنسبة إلى القرون الوسطى. والحرّية في أوربة تعقل في كلّ يوم وفي كلّ ساعة وفي كلّ دقيقة بمختلف الأسباب والدواعي وتقيّد من رجلها وتغلّ في عنقها. والحرّية في أوربة تبقى مطلقة إلى أن تصطدم بسبب من الأسباب السياسية أو الدينية أو الاجتماعية فأقلّ مدير أمن عامّ يقضي عليها.

وكلّ شيء يضرّ بمصلحة المملكة يبحث فيه مجلس النظّار، فإذا تحقّق ضرره صدر القرار بمنعه ولو كان القانون المعمول به في تلك المملكة يجيزه. وكلّ عمل يحدث قلقًا في المجتمع أو ثورة في الأفكار تحظُره الحكومة ولا تبالي. وأحيانًا تحظر تمثيل الروايات أو إلقاء الخطب التي فيها مساس بعلائقها الودّية مع الحكومات الأخرى. وأحيانًا تطرد من بلادها

* الفتح، العدد: ٢٠٤، السنة الخامسة، القاهرة (٢٢ المحرّم ١٣٤٩هـ/١٩/٦/١٩٣٠م)، ص ص. ١ـ٣.

أشخاصًا لا يأتون بأدنى عمل مخالف للقانون، ولا تجد على مسلكهم أدنى غبار وذلك إجابة لطلب حكومة ثانية. ولا يستطيع أحد تمثيل رواية ولا سينما فيها سخرية ظاهرة بأحد الأديان، لا سيَّما الدين المسيحي الذي هو دين الأوربيين قاطبة.

وأمّا الأمور المخالفة للآداب وللأخلاق فالحرّية مقيّدة فيها من الأصل في صلب القانون. وإذا نظرنا إلى ذلك نظرة فلسفية وجدنا أنه لا يخرج عن كونه تقييد حرّية.

ويقول أدعياء حركة التجديد في الشرق: إنَّنا نحن إنَّما ندعو إلى الاقتداء بأوربة في حرّية التفكير، وأنَّ الجامعة المصرية مثلاً لن تفلح ما دامت مقيَّدة بآراء ونظريّات معلومة. فالواجب علينا أن نطلق لأساتذتها الحرّية التامّة أن يدرسوا ما شاءوا من النظريّات بصرف النظر عن موافقتها للدين الإسلامي أو مخالفتها له.

ونحن نجاوبهم أنه لا يجوز لمدرّس من المدرّسين أن يلقي في أذهان الطلبة مبادئ مخالفة للعقيدة الإسلامية أو للعقيدة الوطنية لمجرّد ظنّ ذلك المدرّس أنها صحيحة أو لمجرّد أنها مبادئ لها مزيّة الجدّة. فقد يكون المدرّس مخطئًا في ظنّه ولا يجوز لناشئة الأمّة أن تنشأ في الخطأ أو أن تربّى على الضلال. ثمَّ إنَّه ليس في العلم قديم وجديد، بل فيه صحيح وفاسد. هذا جوابنا من هذه الجهة.

ومن حيث أنَّ هذه الفئة تستشهد أبدًا بأوربة فإنِّي أسوق إليها مثلاً حديثًا من أعمال الحكومة الفرنسوية التي تعدّ نفسها رأسًا في حرّية التفكير وتعليم الحقائق وتمنع التعليم الديني في المدارس التابعة للحكومة ـ أمَّا المدارس الأهلية والخاصّة فالتعليم الديني فيها على أتمّ ما يتصوّره العقل ـ وتزعم أنها حكومة مؤسّسة علىقاعدة اللادينية وأنَّ المعارف فيها لا ينظر فيها إلاَّ إلى الصحيح أو الفاسد لا إلى اعتبار آخر.

إطّلع بعض رجال فرنسة على كتاب تاريخ لمؤلّف يظهر أنه ينزع في أفكاره إلى الشيوعية، وقد وضع هذا التاريخ في أيدي الأحداث في إحدى المدارس. وفيه بعض كلمات تشتمّ منها رائحة ظلم المُلئاء (جمع مليء أي ذي المال) للعملة والصعاليك. وكذلك فيه كلمات يؤخذ منها استهجان الحروب ونعت بعض وقائع بونابرت بأوصاف منفّرة مثل أنَّ المعركة الفلانيّة كانت مجزرة. وكذلك فيها أنَّ جول فري مثلاً ضرب على تونس حماية فرنسا وأنه ضرب الحماية الإفرنسية على التونكين.

فهذا كلّ ما في الكتاب أو أقصى ما غلا فيه المؤلّف من إظهار مبادئه.

فقامت قيامة الفرنسيس من مجلس النوّاب، إلى مجلس الشيوخ، إلى الجرائد الكبرى: مثل الطان، والدبا، وغيرهما. ونادوا بالويل والحرب! كيف يجوز أن يعلّم النشء الإفرنسي في كتب تاريخ يقال فيها: إنَّ جول فري أجبر تونس على قبول الحماية الإفرنسية، أو أجبر آنام في الشرق الأقصى على قبولها.

فماذا يريدون أن يقولوا؟ أيريدون أن يقولوا إنَّ تونس هي من نفسها بنفسها قد التمست الحماية الإفرنسية، ولم يقع عليها استعمال قوّة قاسرة؟ أيريدون أن يقولوا إنَّ آنام هي التي دخلت بمجرّد إرادتها في دائرة الاستعمار الإفرنسي؟

إنَّهم لم يبحثوا في ذلك ولا همّهم شيء من الحقيقة التاريخية. ولا شكّ في أنهم يعلمون ما نعلمه نحن من أنَّ استيلاء فرنسة على تونس إنَّما تمَّ لها بالقوّة القاهرة، وأنَّ باي تونس محمَّد الصادق باي لم يمضِ معاهدة الباردو إلاَّ مكرهًا. وكذلك مستعمرات فرنسة في آنام والتونكين كلّها كانت فتوحات بالسيف وبتسلّط القويّ على الضعيف.

ولكنّهم أنكروا أشدّ الإنكار وأكبروا أفظع الإكبار أن تلقى إلى ناشئتهم دروس يفهمون منها أنَّ فرنسة استولت على تونس وعلى آنام بالقوّة! فكان يجب بزعمهم أن يقال: إنَّ هذه الممالك هي التي طلبت حماية فرنسة من نفسها، وأنَّ فرنسة أجابتها إلى طلبها وبسطت عليها أجنحة رحمتها!

ومن شاء فليقرأ مقالات جرائد فرنسة من نحو شهرين عندما قامت القيامة على هذا الكتاب ومنعت نظارة المعارف التدريس فيه.

أهذه هي حرّية التفكير أيّها الإخوان؟

لنقل إنَّهم يأبون أن يبثّوا في ناشئتهم بعض أفكار تستنشق منها رائحة ولو ضعيفة من الشيوعية. ولنقل إنَّ هذا عين الصواب. فأمَّا حمل ناشئتهم على الاعتقاد بأنَّ الحماية على تونس وعلى آنام إنَّما كانت برضى تامّ من أهلهما، فهذا تعليم ليس فيه شيء من تلقين الحقائق كما لا يخفى.

وإكبار إنَّ بعض وقائع نابليون كانت مجازر هذا إكبار لقول الحقّ.

ومنذ أيام قلائل شاع أنَّ أستاذًا إفرنسيًّا اسمه Félicien Challaye مدرِّسًا في مدرسة Condorcet ألقى محاضرة تضمّنت بعض الغمز في سياسة فرنسة في مستعمراتها. فأمر ناظر المعارف العمومية بإجراء تحقيق ابتدائي عن هذه المحاضرة. ويقال إنَّ الإستاذ المذكور سيحال إلى المحاكمة.

أفرأيت أيها القارئ درجة حرّية التفكير في فرنسة الحرّة؟

قد أوقعت الإدارة الإفرنسية في مستعمراتها في أفريقية من الظلم والعسف، وإهانة الأهلين، وانتزاع أملاكهم، والكيل بمكيالين، والقياس بمقياسين بينهم وبين الأوربيين، ما هو واضح كالشمس الساطعة لا ينكره إلاَّ الأعمى. وهم يريدون أن يحاكموا أستاذًا لغمزه إدارة فرنسة في مستعمراتها، وقوله ما يشير إلى أنها قد هضمت حقوق الأهلين أو أرهقتهم عسرًا!

وبمثل هؤلاء يدعوننا أن نقتدي في حرّية التفكير وإطلاق الألسن والأقلام في التأليف. وعلى منوال هؤلاء يهيبون بنا أن ننسج. أليس كذلك؟

لا بل يقولون إنَّ البلاد الإسلامية والشرقية محرومة الحرّية الحقيقية وإنهَّا لا تترقّى إلاَّ بها! وإنَّ أوربة ـ وفرنسة في مقدّمتها ـ ما تقدّمت ولا ترقّت إلاَّ بها.

والحرّية الحقيقية هي هذه التي أوردنا لك الآن أحد أمثلتها.

إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

شكيب أرسلان



لا نريد الاستيلاء على الجزائر*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

نشرت الجورنال «دي ديبا» صورة المنشور الذي وزّعه الفرنساويون على عرب الجزائر حين قيامهم بحملتهم الاستعمارية سنة ١٨٣٠، وقد ذكّرتنا مطالعته بقصاصات الورق وباللوم الذي وجّه لمستشار الدولة الألمانية في الحرب العامّة بتمن هولويج. وإذا كان هذا الرجل مخطئًا في شيء فذلك لكونه أول من تلفّظ بالكلمة المذكورة.

وفي الواقع أنَّ الدول العظمى كلّها سواء من ناحية إخلالها بالعهود المقطوعة، وعلى الأخصّ إذا كانت تتعلّق بغير الأوربيين.

يقول قائد الحملة الفرنسوية في منشوره: نحن متوجّهون إلى الجزائر لطرد الأتراك منها أعدائكم وسفّاحيكم الذين أنزلوا عليكم سوط عذاب وسلبوكم ممتلكاتكم. ولا نريد الاستيلاء على المدينة واستخلاصها لأنفسنا ونحكم في رقابكم. فإذا انضممتم إلينا وأظهرتم كفاءتكم لقبول حمايتنا كنتم الحكّام وأصبحتم أحرارًا في حكم بلادكم، كما عرفتم ذلك في العهد السالف... إلخ.

أمّا كون الأتراك قد أنزلوا النقمة والعذاب على رؤوس الجزائريين فممّا لا مراء فيه، غير أنهم لم يسلبوهم ممتلكاتهم ولم يفعلوا عشر معشار ما فعله الفرنساويون العريقون في المدنيّة.

«لا نريد الاستيلاء على المدينة واستخلاصها لأنفسنا وحكم رقابكم».

بمثل هذه العبارة يستعمرون ويؤلّفون الحملات، ونذكر أنَّ نابليون قد وجّه للمصريين حين استيلائه على مصر كلامًا من هذا القبيل، أضاف إليه حمد الله والاتّكال على النبيّ، على حدّ قول الشاعر:

---

* الفتح، العدد: ٢٢٣، (١/١١/١٩٣٠)، ص. ٨. (نقلاً عن مجلّة لا ناسيون آراب LaNation Arabe).

ورجوت حمد الله متّكلاً على
خير الأنام نبيه المبعوث

ومن ذا الذي يجهل منشور إنكلترا لبلاد الهند؟ ولكنّنا نرى من العبث التفتيش على مثل هذه الوثائق في سجلاّت الدولة، وعندنا الشيء الكثير منها في وقتنا الحاضر وتحت متناول يدنا، وهي لا ترجع إلى أبعد من عشر سنوات عدًّا. عندنا المنشور الذي ألقته الطيّارات البريطانية على عرب فلسطين حين الاحتلال، لنتمعّن فيه جيّدًا فنطّلع على وعود الاستقلال التامّ الناجز وتأسيس المملكة العربية العتيدة... وليس فيه أقلّ إشارة إلى الوطن القومي اليهودي الذي جعل وعد بلفور على جانب عظيم من الرفعة والقداسة.

يجب أن نطالع المنشور البريطاني الذي أُذيع على العراقيين حين الاستيلاء على بغداد ممّا كان يقصّ بالوهم أنّ عهد العبّاسيين الزاهر سوف يبعث من لحده بواسطة الإنكليز ومعاونتهم، ولولا ثورة سنة ١٩٢٠ في كربلاء والنجف الأشرف، لما تمكّن العراقيون من الحصول على تلك النتفة القليلة من الاستقلال الذاتي تحت مشارفة إنكليزية تريد إنكلترا أن تجعلها أبدية لا مناص منها. ولنقرأ المنشور الفرنساوي الإنكليزي الذي وجّه لأهالي سورية سنة ١٩١٨ وتضمّن عبارات المحبّة والمساعدة ويتراءى لنا أنّ الدول الاستعمارية تنسخ مناشيرها عن صيغة واحدة أصلية محفوظة لديها ترجع إليها حين الحاجة.

تعريب (الحياة)

✡ ✡ ✡

ليس التبشير دعاية دنيوية استعماريّة
كما يظنّ بعضنا *

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

طاب لكثير من المسلمين أن يقولوا كلّما ظهر دعاة الإنجيل في زاوية من بلاد الإسلام: هذه كلّها دسائس استعمارية.

وقد كنت ولا أزال ضدّ هذه الفكرة.

فالقسوس والرهبان والدعاة إلى النصرانية، المخاطرون لأجلها بحياتهم في أقصى الأصقاع، والمقتحمون في سبيلها القتل والموت بالحمّى الصفراء وبمرض النوم، وغيرها، والراضون من جرّائها بشظف العيش وفراق الأهل والديار وسائر ما يعزّ على الإنسان، لم يتحمّلوا كلّ هذه المعاطب ولا تعرّضوا لكلّ هذه المخاطر من أجل مآرب دنيوية، بل من أجل مقاصد أخروية صرفة. يريدون بزعمهم أن يهدوا بقيّة البشر.

وإنّي لأحترم هؤلاء الرهط من كاثوليك وبروتستانت أشدّ الإحترام وأتمنّى أن يكون في الإسلام من يقوم بعشر معشار ما يقوم به هؤلاء من التضحية في سبيل ملّته.

نعم، ربَّما يكون في هؤلاء الألوف من المبشِّرين أفراد قلائل غير منطوين على سريرة روحية صرفة، وهذا كما يقع في كلّ جماعة من وجود أفراد منها شاذّين عن القاعدة. ولكن السواد الأعظم منهم يجوبون الأقطار، ويقتحمون الأخطار، ويدأبون الليل مع النهار، لأجل نشر دينهم وثقافتهم، ولا ينتظرون جزاء ولا شكورًا.

وممّا لا شكّ فيه أنَّ الدول الأوربية تستثمر غراسهم وإنها تساعدهم على مهمّاتهم بقدر استطاعتها، لأنها تعتقد أنَّ نشر المسيحية في مستعمراتها يكون عاملاً عظيمًا في استتباب حكمها ومانعًا من الانتقاض عليها. ولكن المبشّرين لا يهمّهم توطيد الحكم الأوربي إلاَّ إذا كان مساعدًا على نشر المسيحية. وبمجرّد ما يرون الحكم الأوربي سببًا للتنفير من المسيحية

* الفتح، العدد: ٢٢٧، السنة الخامسة، القاهرة (٦ رجب ١٣٤٩هـ/١٩٣٠/١١/٢٧م)، ص ص. ١ ـ ٢.

يكرهونه ويتمنّون زواله، لأنَّ هدفهم الحقيقي ليس نشر الولاية الأوربية، بل نشر الإنجيل بأية طريقة كانت.

ولمّا ثارت الصين في السنوات الأخيرة في وجه أوربة، ورأى الفاتيكان أنَّ المتنصّرين من أهل الصين هم متّحدون مع أبناء جلدتهم البوذيين، وأنَّ الجميع يكرهون السيادة الأوربية، أعلن البابا بمنشور شهير وجوب إجابة الدول الأوربية مطالب الصين الوطنية، بدون قيد ولا شرط.

فأنت ترى أنَّ هوى البابا هو حيث تكون مصلحة الدين المسيحي الكاثوليكي لا حيث تكون السلطة الأوربية.

وبهذين اليومين نشرت صحف أوربة أنَّ ٢٠٠ مبشّر إنكليزي في الهند أصدروا قرارًا بأنَّ الاضطراب الواقع في الهند إنَّما هو ناشئ عن استيلاء شعب غريب على الهند، ولا ينكر أنَّ المعضلة شديدة، وأنَّ حلّها ليس بالأمر الهيّن، ولكن الأَولى بالحكومة الإنكليزية إجابة مطالب زعماء الوطنيين الهنود.

فأنت ترى أيضًا أنَّ ٢٠٠ مبشّر إنكليزي ينصحون إنكلترا بعكس مصلحتها الاستعمارية. ولكن هؤلاء المبشّرين لا يهمّهم شيء من مصلحة إنكلترة الاستعمارية في جانب نشر الدين المسيحي الذي هو غايتهم القصوى.

فأين المبشّرون بالإسلام، الدعاة إلى القرآن، الذين يبذلون الأموال ويجوبون الصحارى ويتسلّقون الجبال ويركبون البحار لأجل نشر كلمة التوحيد؟ وأين الجمعيّات المؤلّفة لهذا الغرض الحميد؟

إنَّه سواء كانت رسالات الإفرنج التبشيرية ترمي إلى غرض ديني أو دنيوي فالنتيجة واحدة، وهي أنَّ هذه الرسالات من جميع أمم الإفرنج تجاهد في نشر الدين المسيحي بنشاط يقصر عنه كلّ وصف. ولكنّي أحبّ أن لا ينخدع المسلمون بكلمة أنَّ هؤلاء إنَّما يعملون للدنيا وأنَّ الدين إنَّما هو ستار لها، فإنَّه يكون من قبيل تشخيص المرض بغير حقيقته وعند ذلك يتعذّر كفاحه.

إنَّ الحكومة الإفرنسية عندما تسهّل للقسوس والرهبان الاتّصال بقبائل حتّى ينصّروها وتمنع دخول الفقهاء وحفاظ القرآن ومشايخ الطرق الصوفية بين البرابر حتّى يخلو الجوّ للقسوس والمبشّرين، لا شكّ أنها ترمي إلى غرض دنيوي هو توطيد استعمارها للمغرب. فأمَّا القسوس والمبشّرون فإنَّ الغاية التي يسعون إليها إنَّما هي أن يحوّلوا البربر مسيحيين. ولو علموا أنَّ البربر يصيرون جميعًا مسيحيين على شرط خروج فرنسة من المغرب لتمنّوا خروج فرنسة من المغرب.

وفي منشور البابا لأجل الصين وفي منشور المائتَي مبشّر من مبشّري الإنكليز في الهند ما فيه عبرة كافية.

لوزان، ٢٢ جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ/١٢/١١/١٩٣٠م

شكيب أرسلان



الوطنيّة الإلحادية الفاسدة*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

سبق لحضرة فخر الكتاب صاحب «الفتح» كلام ممتّع وبيان فيه كلّ مقنع عن سفه تلك الفئة الضالّة التي تحاول إحياء الوطنية الأندنوسيّة في وجه هولاندة المتغلّبة من طريق الإلحاد وفي ضمن محاربة الإسلام.

يريد هؤلاء بزعمهم أن يقتدوا بتركيا!

كأنَّ تركيا قدرت أن تطرد اليونانيين الذين كانوا شنّوا الغارة عليها واستباحوا حماها مدّة أربع سنوات إلاَّ بقوّة الرابطة الإسلامية. ولقد اعترف بهذه الحقيقة «كاظم باشا قره بكير» في خطبة ألقاها بدار الفنون بالآستانة سنة ١٩٢٣ على أثر خلاص تركيا وعقد معاهدة لوزان فقال يومئذٍ: لولا انضواؤنا تحت لواء الإسلام ما أمكننا أن نخلّص تركيا من الاستعباد.

وكاظم باشا قره بكير هو في الحقيقة منقذ تركيا. وهو الذي بدأ بالثورة في أرضروم على الحلفاء الذين نصّوا لتركيا معاهدة سيفر، وجمع المجامع وعقد المؤتمرات ورفض تسليم السلاح على حين مصطفى كمال ياور بمعيّة السلطان وحيد الدين بالآستانة.

ولمّا صحّ عزم أهل الأناضول على المقاومة عقد مصطفى كمال وحسين رؤوف ورأفت وعلي فؤاد اجتماعًا في شيشلى قرّروا فيه الالتحاق بكاظم قره بكير.

ولولا قره بكير وفتحه أريفان واستيلاؤه على الأسلحة الكثيرة والمدافع الكبيرة التي كان الحلفاء أعطوها للأرمن ليقاوموا بها الأتراك، ما كان هؤلاء قدروا أن يحاربوا يومًا واحدًا فضلاً عن أن ينتصروا.

فكاظم باشا قره بكير هو أصل المقاومة وهو البادئ بحركة الاستقلال، والباقون إنَّما انضووا إليه، وسيعرف التاريخ له ذلك.

* الفتح، العدد: ٢٣٧، السنة الخامسة، القاهرة (١٧ رمضان ١٣٤٩هـ/١٩٣١/٢/٥م)، ص ص. ١ ـ ٢.

وهو مُقِرّ معترفِ بأنَّ الأتراك لم يكونوا ليزحزحوا العدو عنهم لولا حمية الإسلام.

ولمّا ألقى هذه الجملة في دار الفنون باستانبول صفّق لها جميع الطلبة.

وسواء صرّح بهذا كاظم قره بكير أو لم يصرّح فهي حقيقة معروفة تاريخية.

فهؤلاء الحمقى من الوطنيين الأندنوسيين أو ممَّن يدّعون الوطنيّة فيها لا يعرفون من الحقائق شيئًا. ولا عبرة بأن يكون فيهم الدكتور فلان والدكتور فُل فكم من دكتور لا يعرف من السياسة شيئًا وكم من دكتور هو بلاء على وطنه.

ولو كان هؤلاء الدكاترة يعلمون من حقائق السياسة شيئًا لعلموا أنَّ هذه المبادئ القومية الأندنوسية التي ستنهض بذلك الوطن بزعمهم هي غاية ما تبتغيه هولاندة هناك، وأنَّ هذه هي الأمنية التي تحلم بها من قديم الزمان حتّى تصدع قوّة هؤلاء الخمسة والأربعين مليون مسلم الذين تحت سلطتها وتفكّك روابطهم.

ولو كان هؤلاء المأفونون على شيء من الاطّلاع لكانوا قرأوا كلام المستشرق الشهير والسياسي النقريس "سنوك هرونجه"[1] الهولآندي أخبر الهولآنديين بسياسة أندونسيا والإسلام الذي يذكر ما على هولاندة من خطر هذه الرابطة الإسلامية، ولا يجد لها علاجًا إلاَّ في إحياء القوميّة الأندونسية بإزاء الإسلام.

وسأنشر كلام سنوك هرونجه هذا بحرفه بعد رجوعي إلى لوزان وحصولي في وسط مكتبتي على أنَّ منه طرفًا في حواشي حاضر العالم الإسلامي. فالقوميّة الأندونسية لا تؤلّف خطرًا أكيدًا على هولاندة إلاَّ إذا كانت راجعة إلى الجامعة الإسلامية ولهذا نجد الطبيب السياسي الهولاندي يشير بقوميّة أندنوسية مجرّدة من الإسلام، بل مقاومة له.

ولنفرض أنه لم يكن هذا رأى سنوك هرونجه أفلا نعلم ذلك نحن من أنفسنا وهل يحتاج النهار إلى دليل.

إذا ارتفعت العقيدة الإسلامية من الوسط فأيّة قوّة معنوية بقيت للوطنيّة الأندونسية، وأي مرجّح لمدنيّة الجاوى على مدنيّة هولاندة.

---

(١) سنوك هرونجه: هو واحد من المستشرقين المناوئين للإسلام، أمثال دل بوسكيه... [المحقق]

إذا ارتفع الإسلام من الميدان يعود من العبث استبدال الوطنيّة الأندنوسية بالوطنيّة الهولاندية ويصير الاندماج في الهولانديين تمامًا هو أصحّ الآراء.

فالإسلام وحده لمثل هذه الشعوب هو الحصن الحصين المانع من الانهيار والمادّة الوحيدة المانعة من الذوبان.

ولذلك دول الاستعمار لا تكره شيئًا ولا تخشى شيئًا كالقرآن.

ولي رسالة تحت الطبع بمطبعة المنار عنوانها "لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم"، حرّرتها جوابًا على سؤال وارد لي من الجاوى عن هذه المسألة، وأنَّ فيها مباحث كثيرة دقيقة من جملتها ضلال "المسلمين الجغرافيين" الذين يظنّون أنهم مقاومو أوربة بسلاح القوميّة فقط، ويذهبون إلى أنَّ فيه غناء وقضاء لوطرهم، وهم في هذا أشبه بالذي يقعد فوق الشجرة وينشرها من جذوعها، ألا ساء ما يعملون.

برلين، ٢٧ شعبان ١٣٤٩هـ/١٩٣١/١/١٧م　　　　شكيب أرسلان



الدسيسة الأجنبية على الجامعة الإسلامية
باسم الوطنيّة المجرّدة*

مقال حكيم بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

وعدتُ في عدد سابق من "الفتح" بإيراد شواهد على نصب رجال هولاندة ما يسمّى بالوطنيّة الأندنوسية في وجه الجامعة الإسلامية لمعرفتهم أنَّ هذه هي أشدّ خطرًا على الاستعمار وأثبت في مقاومة الاستيلاء الأجنبي من تلك.

وما يقال عن هولاندة يقال عن غيرها من الدول الاستعمارية. فجميعهنّ يناصبن العداء كلا من الجامعة الإسلامية والرابطة الوطنية، وكلّ فكرة ترمي إلى حفز الأمم التي استعبدوها إلى التحرّر. ولكنّهنَّ إذا خُيّرن بين هذين الشرّين اخترن الرابطة الوطنية، وذلك لأنها وإن كانت تحفّز أهالي القطر الواحد الذي تحت الاستيلاء إلى الاستقلال والنهوض، فإنَّها تحصر هذه الحركة في ذلك القطر وحده فلا تتجاوزه إلى غيره، ففيها للدول المستعمرة فائدة التفريق، بينما الجامعة الإسلامية لها عليهنّ خطر الجمع. والسبب الثاني وهو أهمّ من الأول في تفضيلهنّ الحركة الوطنية على الجامعة الإسلامية، هو أنَّ الذي من الأمم المستضعفة يخرج عن الرابطة الوطنية يعدّ في نظر قومه خائنًا وكافرًا معًا. فلا يكون آثمًا أمام الناس وحَسْبُ، بل يكون آثمًا أمام الله أيضًا. وغير خافٍ أنَّ رابطتين أشدّ من رابطة واحدة، وأنَّ رابطة يعتقد صاحبها أنها مناط ثواب أو عقاب في الآخرة، هي أمتن من رابطة لا ثواب ولا عقاب فيها، وإنَّما هي دنيوية محضة. فالرابطة الوطنية المجرّدة عن الإسلام في الانسلاخ منها العار فقط، وأمَّا الرابطة الإسلامية فانسلاخ المسلم منها فيه العار والنار معًا. فأيّ عاقل بعد هذا يقدر أن يقول إنَّ الرابطة الوطنية هي من المتانة في درجة الجامعة الإسلامية وإنَّها توزن بوزنها!

وهناك سبب ثالث يجعل الدول المستعمرة أرضى بالرابطة الوطنية منهنَّ بالجامعة الإسلامية، وهو أنَّ قطب رحى تغلّبهنّ على الأمم الإسلامية هو انحلال أخلاق هذه وإهمالها عزائم القرآن. فإذا كانت ثمّة الرابطة الوطنية وحدها لم تقم في صيانة الأخلاق العالية مقام

---

* الفتح، العدد: ٢٤٠، السنة الخامسة، القاهرة (٨ شوّال ١٣٤٩هـ/١٩٣١/٢/٢٦م)، ص ص. ١ ـ ٤.

الدين الذي هو مبعثها وموئلها، ولم تحثّ على العمل بعزائم الإسلام التي توجب على المسلم أن يفدي أرض الإسلام بأبيه وأمّه وإخوته وبنيه وجميع أهله وماله إلى غير ذلك. على حين أنَّ الجامعة الإسلامية إذا نهض المسلم بواجباتها تحلّى بأخلاق كأخلاق الصحابة فهان عليه كلّ عزيز في سبيل الإسلام، ولم تقدر حكومة مستعمرة أن تستغويه بمال ولا جاه ليتبع سبيلها.

ولا عبرة بما يستشهد به بعضهم من انحلال أخلاق بعض رجال الدين أي المنتسبين كذبًا إلى الدين، ومن خيانة بعض رجال الطرق الصوفية وكونهم يحطبون في حبل الاستعمار، فإنَّ تسفُّل هؤلاء المشايخ لا يصحّ حجّة على الدين ولا يمسّ جوهر العقيدة في شيء. وكلّ منصف يحكم أنَّ الدين إذا أقيم على أركانه كان مبعثًا للأخلاق الفاضلة لا يقوم مقامه غيره في إحيائها في صدور الناس. ولا عبرة بما يحتجّ به بعضهم من وجود أشخاص على جانب من الأخلاق والصدق والأمانة على أنهم ليسوا من المعتقدين بالدين، فإنَّ هذه أحوال نادرة تنحصر في بعض الخواصّ ممّن نشأ في صغره نشأة دينية بقي تأثيرها فيه إلى ما بعد إلحاده. وعلى كلّ حال هذه الأحوال النادرة لا تصحّ قياسًا والمعوّل إنَّما هو على الجمهور، ولا يستقيم الجمهور إلاَّ بمخافة الله تعالى والاعتقاد بالحلال والحرام. وإذا أفلت العوام من الدين ولم تبقَ في قلوبهم خشية الله، وظنَّ النساء أنَّ العفّة هي من مواضعات البشر ولا يهمَّ الله منها شيء، فهناك الطامة الكبرى التي لا طامة فوقها.

وهناك سبب رابع يحمل الدول المستعمرة على إيثار الدعوة الوطنية على الجامعة الإسلامية، وهو أنَّ الأولى لا تمنع المسكّرات ولا المخدّرات التي هي من أعظم وسائل الاستعمار، ومن أعمل العوامل في سقوط الأمم المستضعفة تحت استيلائها وتأخير نهضتها وتعويق إثابتها من رقدتها. والحال أنَّ الجامعة الإسلامية هي سدّ منيع دون السكر، وما يتبعه من الأمراض البدنية والروحية التي هي أسلحة ماضية بيد المستعمر على من تغلّب عليهم. هذا فضلاً عمّا يفوت المستعمر من فائدة بيع خموره وكؤوسه وأكوابه ممّا يأكل جانبًا كبيرًا من ثورة هاتيك الأمم المستضعفة ويحوّله إلى جيوب المستعمرين.

ومن أشدّ ما يخشاه المستعمرون من الجامعة الإسلامية ـ ولعلَّ هذا هو أقوى سبب في ترجيحهم الدعوة الوطنية على الدعوة القرآنية ـ هو أنَّ المسلم مهما علا الأوربيّ في الأرض،

ومهما تقوّى وتغلّب في نظره، لا يزال يرى نفسه أعلى منه اعتقادًا بقوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[1] وفي اعتقاد المسلم هذا ـ ولو في أعماق قلبه ـ ما يخلق فيه من الاعتماد على النفس ما ليس من مصلحة المستعمر في شيء، لأنَّ مصلحة المستعمر هي قائمة في أن يقطع المسلم كلّ أمل من تحدّي الأوربي ومساواته، وأن يخنع له خنوع من يرى أنه قد خُلق من طينة وأنَّ الأوربي قد خلق من طينة أخرى.

فالدعوة الوطنية المجرّدة من الدين الإسلامي لا تخلق في قلب الوطني أدنى اعتقاد بأنه هو أعلى من الأوربي، وكيف تخلقه وهي مجرّدة من العقيدة القرآنية معتمدة على المادّة المحسوسة لا غير. ولا مراء في أننا إذا رجعنا إلى المادّة المحسوسة وجدنا الأوربي اليوم على وجه الإجمال أعلى بكثير من المسلم. فلا يكون من نتيجة لتلك الدعوة الوطنية المجرَّدة من الإسلام سوى أن نجرد ذلك الوطني من عزّة النفس الواقرة في صدره بكونه مسلمًا موحّدًا متمسِّكًا بذلك الدين الشريف القيّم والعقيدة الصافية المعقولة، وأن نسلبه ذلك الخلق الضروري في نهضات الأمم، وهو الاعتماد على النفس الكافل تحفّزه الدائم للوثوب لفكّ القيود الاستعمارية التي يرسف بها، وأن نجعله يعتقد أنَّ الأوربي هو أعلى منه في كلّ شيء وأنَّ تفكّره في نفسه أنه هو أشرف من الأوربي، ولو كان الأوربي قد غلبه هو غير صحيح. إذًا بحسب الدعوة الوطنية التي ليس معها إسلام يكون الأوربي أشرف من المسلم وأقوى منه معًا. وما بعد هذا من سبب في إيجاب الذلّ والاستخذاء وطأطأة الرأس.

وأضف إلى هذا أنَّ المسلم المعتقد بدينه لا يزال موقنًا بأنه لا بدّ من أن يدال له من الأوربي ولو بعد زمن طويل، وهو يعيش في أهل هذه الدولة ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقّ ليُظهرَه على الدين كلّه﴾[2] طول حياته ويورث هذا الأمل أولاده ويعتقد أنَّ ما عليه الإسلام من الضعف إنَّما هو عارض موقّت لا بدَّ أن يزول، وأنه إنَّما وقع تمحيصًا للمسلمين بذنوبهم التي اقترفوها وتهاونهم بأوامر الله ونواهيه وأنه أشبه بالنار لسبك الذهب الإبريز. ومن المعلوم أنَّ الأمل هو الشرط الأساسي للعمل، فليس من حافز للمسلم على النهوض، مثل أن يعتقد أنَّ الضعف الذي حلّ به اليوم هو طارئ لا أصل، وأنَّ الأصل هو أن يكون قويًّا عزيزًا وسيِّدًا في الأرض. فالعقيدة الإسلامية توحي إليه هذا

(١) ﴿ولا تَهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إنْ كنتم مؤمنين﴾: سورة آل عمران، الآية ١٣٩.
(٢) سورة التوبة، رقم ٩، الآية ٣٣.

الاعتقاد وتحيي فيه هذا الأمل، على حين أنَّ العقيدة الوطنية الإلحادية التي لا تنظر إلاَّ إلى المحسوس فقط، لا تجد أمامها شيئًا يوحي إليه أنه هو يقدر أن يضارع الأوربي لأنَّ المحسوس مخالف لذلك ولا تقدر أن تحيي فيه أملاً، لا يوجد شيء من القرائن الحاضرة دالاًّ على قرب تحقّقه، بل لا يوجد شيء دالّ على إمكان تحقّقه.

وبالاختصار المسلم المعتقد بدينه يرى أنَّ له الآخر وأنَّ له الآخرة. يرى أنَّ له الآخر لأنَّ الله وعده في القرآن بأن ينصره (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) وبأن يجعل كلمته هي العليا إذا عمل بالمبادئ التي أوصاه بها، فهو لا يقطع أمله من إمكانه العمل بتلك المبادئ، ولا يشكّ بأنَّ الله سيصدق وعده. وهذا من جهة الحياة الدنيا ويرى أنَّ له الآخرة، لأنه يعتقد أنَّ دينه حقّ وأنه لا يشرك بالله أحدًا، وأنه إن فاته الكمال المادّي لم يفته الكمال المعنوي. فهو واثق بكونه من حزب الله وبأنه ملاقيه. وهذا من جهة الحياة الأخرى.

أمَّا «المسلم الجغرافي» فلا يعتقد بدنيا ولا بآخرة. أمَّا الدنيا فحيث التفت من عن يمينه أو عن شمائله رأى السيادة كلّها تقريبًا للأوربي، ولم يتعلّق له أمل بزوال هذه السيادة إلاَّ بحوادث لا تخطر على بال وكان أقصى ما يبعث أمله هو قراءة تاريخ يفيده أنَّ بعض الأمم نهضت بعد أن كانت عثرت. هذا كلّ ما يقدر أن يبني عليه أمله، ويقابله أنَّ كثيرًا من الأمم أيضًا قد بادت من بعد أن عثرت. فأين هذا من أمل المسلم المعتقد الذي لا يشكّ بأنَّ الله سيمنّ عليه ويمكّن له دينه ويبدّله من بعد خوفه أمنًا وأنه سيورثه الأرض، هذا إذا عمل بأوامر الله ونواهيه.

وأمَّا الآخرة فلا يعتقد بها من أصلها حتّى يرى لنفسه فيها مزيّة علىالأوربي، ويرى ما قاله أحد الهولانديين الذين ألّفوا كتبًا على مسلمي أندنوسيا فقد قال هذا العالم الهولاندي: إنَّ المسلمين يعترفون بأنَّ الأوربيين سبقوهم في المدنيّة المادّية، وأنه أصبح لا وجه للمقايسة بين الفريقين إلاَّ أنهم يرون أنفسهم أعلى منّا كثيرًا من الجهة المعنوية،... إلخ.

فإذا كان «المسلم الجغرافي» لا يعتقد بحسن عاقبة، لا في هذه الدار ولا في الأخرى، وانحصر كلّ أمله بالتأسي بأمم سقطت من قبل ثمَّ نهضت، مع وجود ما يقابل ذلك من أمم سقطت ثمَّ تلاشت باستيلاء غيرها عليها، فأيّ حصن يقيه بعد ذلك من الاندماج التامّ في الإفرنج ومن قبول ثقافتهم وعاداتهم، بل ديانتهم ولغاتهم وأيّ مانع يمنعه من الدخول في تركيب مجتمعهم والذوبان في بوتقتهم؟

إلى الآن كان الإسلام هو الذي يمنعه من هذا الاندماج لأنه لا يقدر أن يكون مسلمًا وأن يندمج في الإفرنج، فإنَّ هذين أمران لا يجتمعان، فأمَّا بعد زوال عقيدة الإسلام من قلبه، فليت شعري، ماذا يبقى حائلاً دون ذوبانه في بوتقة الجنسية الإفرنجية؟

سيقولون: العقيدة الوطنية نفسها

وتجاوب مخلصًا:

أولاً ـ هذه لا تمنع هذا الذوبان كما تمنعه العقيدة الإسلامية. فإنَّ الأولى تمنعه من الجهة الدنيوية فقط، وأمَّا الثانية فتمنعه من الجهة الدنيويّة والأخرويّة معًا.

ثانيًا ـ الرابطة الوطنية المجرّدة عن الإسلام معرّضة من خطر انحلال الأخلاق التي هي دعائم الأمم لما ليست تتعرّض له الجامعة الإسلامية.

ثالثًا ـ العقيدة الوطنية المجرّدة لا تبعث من الآمال في حسن المآل معشار ما تبعثه العقيدة الإسلامية المبنيّة على المواعيد الصريحة بالقرآن لمن عمل به.

رابعًا ـ العقيدة الوطنية المجرّدة لا تزرع في صدور الشرقيين عزّة النفس، والاعتماد على النفس، والاعتقاد بالكرامة الشخصية ممّا تزرعه العقيدة الإسلامية في صدور المسلمين الذين يقول لهم كتابهم (العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين).

خامسًا ـ العقيدة الوطنية المجرّدة تفكّ ما بين المسلمين من عرى الارتباط ممَّا يفقدهم بذلك قوّة لا عوض لهم عنها، فيصير المسلم الأندونسي ناظرًا إلى المسلم المصري والمسلم الفارسي والمسلم التركي والمسلم المغربي... إلخ، كما ينظر إلى الإفرنسي أو الإنكليزي أو الألماني أو الروسي... إلخ، بدون فرق لأنَّ الرابطة التي كانت تجمع العالم الإسلامي تكون ارتفعت من بين شعوبه فيعودون طرائق قددًا، ويتفرّقون تحت كلّ نجم. أفهذا أرجح في ميزان قوّتهم وأزيد في هيبتهم! أم الاجتماع تحت شعار واحد، ومعرفة الأجانب أنَّ لهذه الشعوب جامعة تجمعها فتهيّء منها كتلة مقدارها ٣٥٠ مليون نسمة تشعر بشعور واحد.

أأحسن لمصر أن تعتقدها إنكلترة مرتبطة بثلاثمائة وخمسين مليون نسمة، أم أحسن لها في نظرها أن تعرفها منزوية معتزلة لا يعرفها أحد ولا تعرف أحدًا إلاَّ الخمسة عشر مليونًا التي فيها. أأفاد مصر أم سيفيدها في المستقبل... نفضها يدها من برقة والسنّوسيين؟

حمقى كثيرون يقولون: وما فائدة مصر من ارتباطها بهذه الثلاثمائة والخمسين مليونًا من البشر؟ وقد قال لي مثل ذلك بعض ملاحدة الترك الذين سيأكلون أصابعهم ندمًا على ما فعلوه.

فيا سبحان الله!

دولة فرنسة العظيمة تحرص جدّ الحرص على علاقتها بثلاثمائة ألف ماروني في سورية وليسوا وإيّاها لا من دم واحد ولا من لسان واحد ولا من قطر واحد، وإنَّما جمعت بينهم الرابطة المسيحية الكاثوليكية. وما برحت فرنسة منذ ألف سنة من وراء البحر تغذّي هذه الرابطة بينها وبين هؤلاء الثلاثمائة ألف ماروني في سورية بالملايين من الأموال فضلاً عن الرجال، وتعدّ ذلك من واجباتها السياسية وتعدّه أحسن وسيلة لوضع يدها على سورية. ولم يجد قائل في هذه السياسة مقالاً لا تحت ملكيّة ولا تحت جمهوريّة.

ومصر لا تجد فائدة من الإخاء ليس مع ثلاثمائة ألف مسلم، بل مع ثلاثة ملايين، بل مع ثلاثين مليونًا، بل مع ثلاثمائة مليون مسلم.

وأندونسيا تجد نفسها أقوى بنفسها منزوية معتزلة قائلة بوطنيّة مجرّدة عن الرابطة الإسلامية، منها متّصلة بسائر العالم الإسلامي الذي يكافلها مكافلة الأخ لأخيه عند كلّ ملمّة؟

وخلاصة القول إنّي أسأل المكابرين:

هل يعترفون بأنَّ الإفرنج على بيّنة من أمرهم وخبيرون بمصلحتهم ومحيطون بأساليب الاستعمار وساهرون على ما يضرّهم وينفعهم أم لا؟

إنّي لا إخالهم إلاَّ قائلين بأنَّ الإفرنج يعرفون الذي يضرّهم من الذي ينفعهم.

فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نجد قلوب الإفرنج تخفق لشيء خفقانها لمجرّد ذكر الجامعة الإسلامية؟

إذا كانت الجامعة الإسلامية لا خوف منها ولا تفتُّ في عضد الاستعمار، فلماذا إذا لاح طيفها للإفرنج في المنام هبّوا مذعورين؟

إذا كانت الوطنية المجرّدة تغنّي غناء الجامعة الإسلامية في مقاومة الاستعمار، فلماذا لا يراع لها الأوربيون عُشر معشار ما يراعون لهذه؟ ممّا لا يقبل مماحكة ولا جدالاً؟

وسنذكر في عدد آتٍ كلام المستشرق الهولاندي «هور غرونجه» عن نصب الجامعة الأندنوسية الوطنية في وجه الجامعة الإسلامية، ممَّا لا يبقى معه سبيل للمكابرة في أنَّ الإسلام هو بلاء الاستعمار الأعظم، وأنَّ كلّ وطنيّات الأمم الشرقية هي خيوط قطن بالنسبة إلى حباله.

لوزان، ٢٣ رمضان ١٣٤٩هـ/١٩٣١/٢/١٥م

شكيب أرسلان



عدوّ عاقل لكنّه شديد الخطر*

سنوك هور غرونجه

المستشار بنظارة المستعمرات الهولأندية في المسائل الإسلامية والعربية

بقلم كاتب الشرق الأكبر

عطوفة الأمير شكيب أرسلان

هذا الرجل معدود في أوربة من فحول المستشرقين، وفي هولاندة هو المستشرق الأكبر والنقريس الأخبر بأمور المسلمين. ولقد كان أقام بالبلاد الأندنوسية مدّة طويلة، أسلم في خلالها وحجّ وجاور بضع سنوات في مكّة واطّلع على الدقيق والجليل من أمور الإسلام وتلقّى كثيرًا من العلوم العربية على المدرّسين بالحرم الشريف. وقيل إنّه بعد أن أسلم تزوّج بمسلمة، وولد له منها أولاد نشأوا في مهد الإسلام ولا يزالون حتّى اليوم مسلمين.

وقد سمعت عن هذا الرجل كثيرًا، ولم يُقسَم لي الاجتماع معه إلاّ أني قرأت له أربع محاضرات بالإفرنسية مجموعة في كتاب واحد مطبوعة سنة ١٩١١ تحت عنوان "سياسة هولاندة بإزاء الإسلام" قام بنشرها جماعة "مجلّة العالم الإسلامي" الإفرنسية، وقرأت في أولها مقدّمة بإمضاء رجل يقال له شاتليه Chatelier من أدباء الفرنسيس المشتغلين بهذه المجلّة التي يراد من نشرها تحت هذا الاسم استكمال جميع الأسباب التي من شأنها القضاء على الإسلام والمسلمين.

ولقد نقلتُ طائفة من كلام سنوك هوغرونجه في هذه المحاضرات إلى حواشي كتاب "حاضر العالم الإسلامي" تجد ذلك في الجزء الأول منه صفحة ٦٤ ومن حيث أنّ كثيرين من قرّاء "الفتح" قد يكونون لم يطّلعوا على هذا الكتاب، فلا بأس بإيراد ما كتبته هناك:

لقد كان انتشار الإسلام في تلك الديار (أي الأندنوسية) بحسب تحقيقات العلاّمة هورغرونجه بواسطة تجّار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجّار الهندوس الذين كانوا يتردّدون إلى تلك البلاد، ويطبعون أهلها بطابع مدنيّتهم البرهمية فجاء الإسلام واستمالهم إليه وما زال يتقدّم فيهم حتّى غلب على جميعهم تقريبًا، كلّ ذلك بطرق سليمة

* الفتح، العدد: ٢٤٣، السنة الخامسة، القاهرة (٢٩شوّال ١٣٤٩هـ/١٩/٣/١٩٣١م)، ص ص. ١ـ ٣.

وبدون أدنى قهر ولا عنف إلاَّ ما حصل من أهالي شرقي جاوه الذين غلبوا بعض مجاوريهم بالقوّة. فمن جاوه امتدّ الإسلام إلى سومطرة وإلى قسم من بورنيو وسليب والجزر التي إلى الشرق. وابن بطّوطة الرحّالة الشهير امتدح ملك سومطرة في القرن الرابع عشر (للمسيح) بأنه جاهد في الكفّار.

ولم يزل الإسلام ينتشر في البقايا الباقية على الوثنية حتّى احتجّ كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولاندية في ذلك، وكيف أنها تسمح للإسلام باكتساب هذه البقايا. وأكثر من صخب لذلك هو جمعيّات التبشير المعهودة، ولكن المستشرق هورغر ونجه يفصّل هذه المسئلة بالكلام الآتي:

«يجب على الحكومة أن تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالإسلام في البلدان التي أهلها وثنيّون لئلاّ تكون ساعدت على نشر الإسلام بدون قصد منها. وهذا المحذور قد وقع فيه الألمان أنفسهم في المستعمرات الألمانية بشرقي أفريقية. ولكن الخطر عندنا أعظم لأنَّ المأمورين الوطينيين من أهل الجاوى هم في الغالب من المتعلّمين والمطّلعين على أصولنا الإدارية وليس عندهم تعصّب مفرط في الدين فلا يسهل الاستغناء عنهم. وقد تميل الحكومة إلى استخدامهم. فلا ينكر أنه مع تمادي الزمن يؤثّر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين في مسئلة نشر عقيدتهم بين الوثنيين، كما يؤثّر جولان التجّار المسلمين فيما بينهم. ولعمري لا يمكن منع هؤلاء التجّار أن يجولوا في تلك الديار بحجّة أنهم يدعون إلى الإسلام إذ يكون ذلك عملاً مخالفًا للعدل، ولكن يجب تدبّر الأمر واستعمال الحكمة فيه، بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على إسلام غير المسلمين».

انتهى كلام هورغر ونجه.

وأنا أعلّق عليه في «حاضر العالم الإسلامي» بقولي:

فأنتَ ترى أيها القارئ أنَّ العلاّمة هورغر ونجه ـ الذي هو معدود في الأقلّين تعصّبًا والذي من أول محاضراته إلى آخرها ينبّه حكومته إلى خطر الانقياد إلى جمعيّات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرّية الإسلام الدينية ـ هو نفسه يحذّر نفس تلك الحكومة من استكفاء المأمورين المسلمين مدّة طويلة في بلاد الوثنيين ولو لم يكن عندهم تعصّب مفرط لئلاّ يؤثّر ذلك على عقائد الوثنيين فيشرح الله صدورهم للإسلام. وبعبارة أخرى أنَّ مصلحة هولاندة ـ وأوربا كلّها ـ تقضي بترجيح بقاء الأهالي وثنيين على أن يصيروا

مسلمين. هذا ظاهر لا يقبل أدنى جدال. فهل يا ترى يجهل الأوربي أنَّ نقل الإنسان من عبادة الصنم إلى عبادة الواحد الأحد هو أولى بالإنسانية وأجدر بأن يكون هدف مساعي الأمم المتمدّنة؟ كلاّ. لا يجهل الأوروبي ذلك ولكنّه يعلم جيِّدًا ـ لا سيَّما المستشرق العظيم الذي هو مثل هورغر ونجه ـ أنَّ الإسلام لا يجتمع مع الذلّ في قلب واحد، كما جاء في العروة الوثقى بقلم "جمال الدين الأفغاني" و"محمَّد عبده"، وأنَّ الشريعة القرآنية قد ضمنت لمتّبعها كلّ شروط الحرّية وانتظمت له جميع أسباب الاستقلال بحيث لا يقدر أن يحكّم في رقبته أجنبيًّا راضيًا به إلاَّ إذا مرق من أحكام تلك الشريعة. فلذلك لا يجتمع حبّ الاستعمار الأوربي والميل إلى الإسلام في قلب واحد لأنَّ المستعمرين يعلمون ما وراء الأكمّة، ولذلك أهمّ شيء تناصبه الدول المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الإسلامية والأخذ بعزائم الإسلام. وإن كان بعض عقلائهم مثل هورغر ونجه ينصح بإعطاء الحرّية الدينية وينهي عن التعرّض للمسلمين في عقائدهم، فذلك إنَّما هو من خوفهم الثورة والانتقاض ووقوع الدول المستعمرة في المقيم المقعد من جرّاء هذا الأمر. فترى مثل هذا النفر ينصحون بالاعتدال وبعدم مصادمة المسلمين في عقائدهم من باب اختيار أخفّ الضررين لا غير ومع ذلك فلا يطلقون هذه الحرّية على إرسالها بل يجعلون الحذر لها رقيبًا والاحتياط رائدًا. وبالجملة فيجتهدون بأن تكون مقاومتهم للإسلام في الأمور السياسية علنية لا ضراء فيها، وأمّا في الأمور الدينية فيجعلونها خفيّة لا مجاهدة فيها بحيث لا تدعو إلى الاضطراب ولا تبعث على الانتقاض.

هذه هي سياسة العقلاء من المستعمرين. فأمَّا سياسة المتهوّرين فهي معلومة لا حاجة للكلام عليها، لا تعرف لمسلم حقًّا ولا حرّية، وقد اعترف العلاّمة هورغر ونجه بأنَّ حزبًا في هولاندة ممالئًا لجمعيّات التبشير يحثّ الحكومة أن تحمل مسلمي الجاوى على النصرانيّة قسرًا فبين الخطر العظيم من ممالاة جمعيّات التبشير على مساعيها هذه في تنصير المسلمين، وطعن في مزاعم بعض النوّاب في الندوة الهولاندية كون إسلام أكثر أهل الجاوى والجزائر النيرلاندية لا يزال اسميًّا، فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون. وقال: إنَّ هذا القول هو في منتهى الحماقة، وإنَّه يجب على كلّ وطني هولاندي يهمّه مستقبل وطنه أن يردّه بتاتًا ويحذّر الحكومة من سوء عواقبه. وهو ينبّه إلى كون الضغط يورث الانفجار، وأنَّ حكومة هولاندة كما أنها متّهمة عند جمعيّات التنصير بالتسامح مع المسلمين فهي متّهمة لدى المسلمين باضطهاد الإسلام فلا يجوز أن تؤيّد بعملها حجّة من يرمونها بذلك. أ.هـ

وللكلام تكملة نأتي عليها في العدد القادم. أمَّا طلب بعض النوّاب الهولانديين معاملة أكثر مسلمي أندنوسيا كغير مسلمين، فهو ما قد طبّقته فرنسة اليوم فعلاً في مسئلة البربر فقد ألغت من بينهم الشريعة الإسلامية باعترافها هي، وطردت قضاة الشرع، وألغت المحاكم الشرعية، وحبست من البربر الزعماء الذين احتجّوا على هذه الأعمال الجائرة، وبثّت المبشّرين والقسوس في بلاد البربر، وبنت الكنائس بأوقاف المسلمين، ومنعت الفقهاء والحفّاظ ومشايخ الطرق من التجوال في قرى البربر، بينما الرهبان والراهبات يجولون حيث أرادوا.

فإنْ فازت فرنسة بعملها هذا في بربر المغرب فلا محالة أنه ستقتدي بها أو ستحاول أن تقتدي بها هولاندة في أندنوسيا.

يلومنا بعض الناس على إكثارنا من المباحث الدينية، ويقولون ما مآله أنَّ هذه النزعة غير مدنيّة وغير عصرية! فماذا نصنع؟

لا نرى شغلاً لدول أوروبة المدنيّة في هذا العصر أهمّ من المسائل الدينية، والاهتمام بالتبشير، ومعاضدة القسوس في دعايتهم ببلاد الإسلام وما أشبه ذلك.

ودولة فرنسة الزاعمة أنها رأس الحكومات اللادينية وأنَّ مبادئها عصرية هي القائمة بهذه المساعي، بأكثر ممّا لو كانت تقوم بها في زمان لويس التاسع الملقّب بمار لويس.

ومنذ أيام حضر المونسينور بودريار من رؤساء أساقفة فرنسة إلى المغرب وأخذ يلقي المحاضرات التبشيرية في رباط الفتح والتفّ حوله لفيف المستعمرين وهذا بينما علماء الإسلام محظور عليهم التجوال في بلاد البربر التي هي بلادهم.

فماذا نصنع؟ أيجب علينا أن نسفّه أنفسنا ونتجاهل الأمور التي نلمسها كلّ يوم بأيدينا ونشهدها بأعيننا ونقول لمحسوساتنا: كذبت؟

أيكون مثلنا مثل ذلك المريض المتفائل الذي مات وهو يقول: لست مريضًا، لست مريضًا، ولا بي شيء؟

٢١ شوّال ١٣٤٩هـ/١٩٣١/٣/٩م

شكيب أرسلان



كيف يفهمون الحرّية في البلاد الراقية*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

نظنّ أنه لا يختلف اثنان في أنّ ألمانيا هي في مقدِّمة الأمم الراقية، وأنّ حكومتها هي في مقدِّمة الحكومات التي تفهم واجباتها نحو بلادها.

فإن لم تكن ألمانيا راقية ولم تكن تصحّ مثالاً للترقّي، فمن الراقي يا ترى؟ ومع هذا فإنَّنا نسوق إلى القرّاء وإلى الحكومة المصرية وإلى الحكومة العراقية وإلى الحكومة السورية وإلى سائر الحكومات التي أكثر رعاياها من المسلمين الخبر الآتي، الذي جاء بالبرق إلى جميع الجرائد:

«أعلن الهر «سيڤرينغ»، ناظر الداخلية في بروسيا، أنّ لكلّ أحد أن يعلن أفكاره بصراحة، لكن على شريطة أن لايكون في ذلك ما يمسّ إحساسات الآخرين الذين يعتقدون خلاف اعتقاده، ولقد قال هذا بمناسبة الحملة اللادينية التي يقوم بها الشيوعيون ضدّ الكنيسة».

والخبر الآخر الذي جاء ثاني يوم الخبر الأول:

«أغلق مدير بوليس برلين معرض الدعاية اللادينية الذي فتحه الحزب الشيوعي في برلين».

فلو عملت هذا حكومة شرقية لقامت عليها القيامة بحجّة أنّ عملها مخالف للحرّية، وبعيد عن مَنَازِع التجدّد وشرائط الرقيّ! ولَنعتها الذين في قلوبهم مرض بأنها حكومة رجعية متقهقرة متأخّرة لا تنفع شيئًا!

ولكن الذي يفعل هذا هو أرقى حكومة في العالم في أرقى شعب، سائر في حياته كلّها بحسب مناهج العلم وطرق الفنّ.

والهر «سيڤرينغ» هو من أقطاب الحزب الشمالي، ولا أعلم أحدًا تكرهه أحزاب اليمين في ألمانيا مثل سيڤرينغ.

ولكن الهر سيڤرينغ يفهم الحرّية حقّ الفهم ويعلم أنّ الحرّية ليست الفوضى.

* الفتح، العدد: ٢٤٥، السنة الخامسة، القاهرة (١٤ ذي القعدة ١٣٤٩هـ/١٩٣١/٤/٢م)، ص ص. ١ ـ ٢.

فعندما تطالب الشعوب الإسلامية حكوماتها الحاضرة باحترام عقيدتها والضرب على أقلام الملاحدة والسفهاء والإباحيين والخلعاء، لا تكون ذهبت مذهبًا رجعيًا أصلاً، بل تكون اقتدت في عملها بأرقى وأعلم أمّة أوربية.

وتكون أقوال من في قلوبهم مرض في هذا المقام كلّها سفسطة، بل تكون كلّها كذبًا.

وعلى حكوماتنا أن تصون الدين الإسلامي والأديان كلّها، وتحارب الإلحاد والإباحة بكلّ استطاعتها.

ولقد سبق لي في هذه الجريدة وغيرها أني أحمدت في هذا الموضوع خطّة جلالة ملك مصر، فإنَّه أنموذج لذلك المسلم، أقول هذا لا تزلّفًا بل اعترافًا بالحقّ.

ولمَّا اجتمعت في هذا الصيف بجلالة ملك العراق وجدته على هذه الخطّة نفسها ورأيته متوجّسًا خيفة استفحال النزعة المادّية التي هو يعلم سوء عواقبها.

وأودّ لو شكر ملك العراق لجمعيّة الشبّان المسلمين في البصرة خطّتها الحميدة الرشيدة ونصائحها الفاضلة السديدة، فيكون بذلك أيّد الدين والعلم معًا.

إنَّ الاشتغال بالدين وحده مع إهمال العلم جانبًا هو توجّه محض إلى الآخرة يجرّ إلى خراب هذه الدنيا تمامًا.

وهو أيضًا في نفسه تناقض لأنَّ الدين لا يكون دينًا إذا كان عدوًّا للعلم، وإنَّ الاشتغال بالعلم الدنيوي وحده مع إهمال الدين جانبًا هو عبادة للمادّة وانقياد إلى شهوات البدن وابتعاد عن جميع المُثُل العليا، التي لا تتكوّن في الأذهان ولا تصير هدمًا للقرائح ومرمى للعزائم إلاَّ عند من يقولون بعقيدة روحية.

فالحكومات الراشدة هي التي تقتدي بحكومة ألمانيا وتحكّم التعديل بين هذا وهذا.

ولا أعلم في أوربة وأمريكا حكومة غير مسيحية وغير سالكة سبل العلم مع المحافظة على الدين ولوازمه.

وليس في الدنيا حكومات لادينيّة فعلاً سوى ثلاث: حكومة البلاشفة وحكومة المكسيك وحكومة ثالثة معروفة بدون تصريح بأسمها... ومن يضلّل الله فما له من هاد.

لوزان، ٢٧ شوّال ١٣٤٩هـ/١٥/٣/١٩٣١م

شكيب أرسلان

مقالان خطيران في الفتح ـ وتعليقي عليهما*

بقلم الأمير شكيب أرسلان

المقال الأول هو ما كتبه المسلم الإنكليزي الأخ خالد شيلدريك عن الغارة اللاتينية على العالم الإسلامي.

والمقال الثاني هو ما كتبه الأخ محمَّد تقيّ الدين الهلالي أستاذ العربية بندوة العلماء بلكنو الهند عن الوقائع الدموية التي جرت بين المسلمين والهنادك.

فأمَّا تعليقي على الأول فهو ما يلي:

إنَّ الحرب الصليبية الجديدة ليست منحصرة في إيطاليا ولا في الأمم اللاتينية وحدها بل جميع الأوربيين إلاَّ أفرادً قلائل هم يكرهون الإسلام ويتمنّون بواره، ولكنّهم في ذلك درجات. فأمَّا المبشّرون والقسوس فسواء كانوا من البروتستانت أو من الكاثوليك فهم أشدّ الناس عداوة للإسلام من كلّ البشر. وإنَّ الإنسان ليحار في الحكم: أي الفريقين أنكى وألأم وكلّما أراد أن يحكم بأنَّ هذا الفريق أشدّ عدوانًا أدلى الآخر بحجّته.

وأمَّا إذا خرجت عن دائرة التبشير نفسها فلا إنكار أنَّ الأمم اللاتينية هنَّ أشدّ عداء للإسلام من الأمم الأنغلوسكسونية. لا أقول إنَّ أمم الشمال عندهنّ شيء من الميل للإسلام. حاشا وكلاَّ. بل أقول إنَّ عداء أمم أوربة الجنوبية للإسلام هو أشدّ بسبب الاحتكاك وبأثر التنازع القديم على البحر المتوسّط. ولقد ازداد بغض هذه الأمم للإسلام في العصر الأخير بسببين: أحدهما تدهور الإسلام وعجزه عن حفظ بلاده. ومن عادة العدوّ اللئيم أنه إذا سقط عدوّه ازداد له بغضًا وعليه حقدًا وجعل يتذكّر المصارعة الماضية ويفكّر في إمكان رجوعها.

ومن هذا االقبيل كلام الشيخ "بيروني" الإيطالي أحد أعضاء مجلس الشيوخ، الذي كان يدعو إيطالية وفرنسة وإنكلترة وإسبانية لعقد حلف تكون به هذه الدول كتلة ضدّ العرب. ولقد كنت اطّلعت على خطبة بيروني هذا، واطّلعت على أغرب منها وهو أنَّ "مورّاس" الكاتب الإفرنسي المشهور رئيس الحزب الملكي في فرنسة كتب في جريدة الحزب (لاكسيون فرانسيز) مقالاً يخطّئ فيه إيطالية وفرنسية على ما بينهما من التنافس على السيادة

---

* الفتح، العدد: ٢٥٢، السنة السادسة، القاهرة (١٠ المحرّم ١٣٥٠هـ/٢٨/٥/١٩٣١م)، ص ص. ١ ـ ٤.

البحرية في البحر المتوسّط ويقول: أنتما أولى بالاتّحاد وجمع قوّتكما على العدوّ العامّ... فقد تكون أمامكما نافارين أخرى... يشير بذلك إلى وقعة نافارين في المورة يوم تمالأت أساطيل الدول الأوربية على الأسطولين العثماني والمصري وسحقتهما [معركة نافارين ١٨٢٨م]. وقد أشرنا إلى كلام "موراس" هذا في مجلّتنا "لا ناسيون آراب".

وأمّا السبب الثاني الذي يدعو هذه الأمم إلى زيادة العداء للإسلام فهو استيلاؤها على شمال أفريقية. ففرنسا لها الجزائر وتونس ومراكش والسنيغال وتنبكتو وبلاد النيجر وقسم كبير من أواسط أفريقية إلى بحيرة تشاد. ومجموع من تحت ولايتها من المسلمين لا يقلّ عن ٢٥ مليونًا. وإطالية لها طرابلس وبرقة. وإسبانية لها الريف وبعض مناطق بين المغرب والسنيغال.

وعليه يجد هؤلاء أنَّ هذه المستعمرات لن تبرح تحت خطر الذهاب من أيديهم ما دام أهلها مسلمين. فتراهم ينظرون بكلّ الوسائل ليتمكّنوا من إخراج أهلها من الإسلام أو إخراج الإسلام من قلوب أهلها.

نعم إنَّ الإسبان أصبحوا أخفّ شرًّا من الطليان والفرنسيس لأنَّ الريف لم يكن مستعمرة واسعة لهم منها مطاعم ومنافع حتّى يجعلوا نصب أعينهم عداوة الريفيين، وأصرّوا على قهرهم حفظًا لشرف إسبانية العسكري الذي كان قد انثلم بهزيمة الجنود الإسبانية أمام الريفيين، ثمَّ إنَّ الإسبان لا تزال فيهم بعض أخلاق العرب الكريمة.

وأمَّا فرنسة فليس الأمر كذلك. فهي تسمّي مراكش والجزائر وتونس بفرنسة الأفريقية وتفكّر في مستقبل هذه البلدان ومستقبل الإسلام بها. وليل نهار يبحث الفرنسيس في وسائل محو الإسلام منها ولو تدريجًا. ولكن لمّا كان الحقّ أحقّ بأن يقال وجب أن نعترف بأنَّ الحزب الراديكالي والحزب الاشتراكي في فرنسة هما المانعان لفرنسة من تجاوز الحدّ في إرهاق المسلمين والتعرّض لدينهم، لأنَّ الحرّية الدينية هي من المبادئ التي لا يتسامح بها هذان الحزبان ويرونها من دعائم الجمهوريّة. أمَّا الجمهوريون المعتدلون وأمَّا حزب اليمين فإنَّ الحرّية الدينية عندهم لفظ أكثر منه معنى. ومنهم من لا يبالي بأيّ حرّية إذا اعتقد أنَّ في عمله قوّة لفرنسة.

وممّا زاد الفرنسيس تخوّفًا من جهة شمالي أفريقية وكراهية لرسوخ الإسلام فيه هو كون الألمان يزيدون على الفرنسيس بنحو ثلاثين مليونًا، فإذا لم تكن لفرنسة مستعمرات

تسدّ بها فرجة الفرق الواسع الذي بين فرنسة وألمانية، كانت فرنسة تحت الخطر الدائم من جهة ألمانيا. فإنَّ الألمان أمّة قد جمعت بين الكمّية والكيفية. فلن ترجو فرنسة الوقوف في وجهها إذا انفردتا وجهًا لوجه. ولهذا تعتمد فرنسة على أهالي مستعمراتها الذين يبلغون ٥٥ مليونًا فيصير عدد الفرنسيس وأتباعهم نحو ٩٥ مليونًا، لذلك قال بوانكاره: إنَّ الألمان يظنّون أنفسهم أكثر منّا عددًا ويحسبون أنفسهم ٦٥ مليونًا ويحسبون الفرنسيس ٤٢ مليونًا. والحقيقة أننا نحن أكثر من ٩٠ مليونًا. يقول الفرنسيس هذا بألسنتهم ولكن يقولونه وقلوبهم واجفة وخواطرهم مقسّمة وهم يفكّرون في مصير هذه المستعمرات ولا يأمنون على مستقبلها. فليس لهم أدنى أمل في حفظ مستعمراتهم في الهند الصينية إلى أمد أطول من ٣٠ سنة من تاريخ اليوم. وليست ماداغسكر مستعمرة كبيرة ولا رجالها معروفين بشدّة البأس لتعتمد فرنسة عليهم في الحروب والخطوب. وغربي أفريقية وأواسط أفريقية زنوج. فلم يبقَ أمامها إلاَّ مراكش والجزائر وتونس، وذلك لقرب هذه الأقطار من فرنسة ومصاقبتها لأوربة، لكون رجال هذه الأقطار من أشدّ البشر بأسًا وأنجبهم عرقًا، وأعظمهم قابليّة لكلّ شيء، ولا يبالغ الباحث المدقّق إذا قال: إنَّ المغاربة أصلب عودًا وأنجب فطرة من الفرنسيس أنفسهم، فإذا ترقّى المغرب في العلم والعرفان لم يكن للفرنسيس قِبَل بأهله. ولقد سبق لي في إحدى مقالاتي أن ذكرت كيف أنَّ الدكتور ريشه الإفرنسي ـ وهو من أقطاب العلم في الدنيا لا سيَّما علم الاجتماع ـ أشار لأجل تجديد نموّ النسل الفرنساوي بتلقيحه بالدم العربي، وقال إنَّ طريقة ذلك هي بأنَّ نزوّج الإفرنسيّات بشبّان من العرب، وأن نولد من هذا الاقتران نسلاً إفرنسيًّا جديدًا، فالمسئلة وصلت إلى هذا الحدّ.

وقضيّة محاولة إخراج البربر من الإسلام هي من جملة آمال الفرنسيس بزيادة توطيد أقدامهم في شمالي أفريقية الذي تخفق عليه قلوبهم. ولقد أقنعهم الحزب الكاثوليكي منهم بأنَّ شمال أفريقية يبقى تحت خطر الانسلاخ عن فرنسة ما دام أهله مسلمين، لأنَّ الإسلام لا يسمح بأن يقبل أبناؤه سلطة الأجانب عليهم ـ وهذا من محاسنه ـ ولذلك وجب العمل لتحويل مسلمي المغرب ـ ولو بالتدريج ـ إلى المسيحية.

وقد صحت عزيمتهم على هذا الأمر بعد أن تردّدوا فيه طويلاً وذلك عند انحلال الدولة العثمانية وسقوط الخلافة. فإنَّ الدولة العثمانية مهما كانت عليه من الضعف كانت دولة عظيمة تجمع بين ولاياتها الممتازة وغير الممتازة من ٤٥ إلى ٥٠ مليون نسمة.

وكان لها جيش يقارب أيام الحرب مليونًا ونصف مليون. وكانت من الدول السبع العظام اللائي هي إنكلترة والروسية وفرنسة وألمانيا وتركيا والنمسا وإيطاليا. ولم يكن ينعقد مجمع دولي إلاَّ كانت الدولة العثمانية فيه. وكانت زعامة العالم الإسلامي كلّه بيدها لا ينازعها في ذلك منازع. فكانت الدول تفزع إليها في المشكلات الإسلامية التي يتكاءدها حلّها وفي النوازل التي للمسلمين فيها يد كما فزعت إليها إنكلترة في ثورة الهند، وكما فزعت الدول إليها في ثورة البوكسر بالصين.

وكان إذا أهين الدين الإسلامي في موضع أو حصل ضغط على المسلمين في دينهم احتجّت الدول العثمانية وسمعوا احتجاجها.

ولّما كان قد قضى على المسلمين في أيام محنتهم بأن يروا حسنًا ما ليس بالحسن، كان من جملة ما رأوه غير حسن هذه الدولة العثمانية التي كانت تحمل الخلافة والرئاسة. فقام الترك من جهة والعرب من جهة والأرناووط من جهة وأخذوا ينقضون بناءها بحجّة أنها مضرّة وتبدّلوا بها القوميّة وزعموا أنَّ لا رقيّ إلاَّ بالقوميّة. ونسوا أنَّ القوميّة لم تكن بمانعه للدولة العثمانية، وكم من دول تألّفت من أقوام مختلفة وكم من أقوام مختلفة جمعتهم المصلحة.

وبالاختصار لو كانت الدولة العثمانية باقية وبرغم ما كانت عليه من الضعف لما كان ظهر من الدول المستعمرة ما ظهر بحقّ المسلمين بعد الحرب العامّة من الإفراط في القهر والإعنات والاحتقار، ولما كان بدأ تعرّض هذه الدول للإسلام في الأمور الدينية التي كانت في الماضي مصونة.

فقضيّة المغرب لم تكن يومئذٍ وهذه الفظائع في طرابلس لم يكن إلاَّ أقلّها. وما زاد هذا التكالب الإستعماري على نهش الإسلام سوى اعتقاد الأجانب أنَّ رئاسة الإسلام قد انحلّت، وأنَّ أمرهم أصبح فوضى، وأنَّ كلّ مفعول بهم صار جائزًا. وأنه ليس من رقيب ولا حسيب. وهذا شيء لم نأخذه بالقرينة فقط، بل نحن نقرأه كلّ يوم في كتبهم ومجلاّتهم وجرائدهم، ونقرأ منه أحيانًا ما هو صريح وأحيانًا ما هو تلميح.

ولقد اغترَّ الإفرنج وأفرطوا في هذا الاستخفاف بالإسلام بعد انقراض الدولة العثمانية، فإنّنا لا ننكر أنَّ إلغاء الأتراك للخلافة قد أحدث فوضى عظيمة في الدين والدنيا، ولكنّها

فوضى مؤقّتة. ولا ننكر أيضًا أنَّ العالم الإسلامي قد بدأ يتنبّه وينهض، وأنه قد تعلّم من الحوادث ما أفاده جدًّا، وأهاب به ليستيقظ من سباته العميق. والعالم الإسلامي اليوم ترقّى كثيرًا عمّا كان لعهد الدولة العثمانية. فقد كان ملقيًا بكلّ شيء على ظهر تلك الدولة، أشبه بالشاب الذي ما دام أبوه حيًّا فهو لا يفكّر بشيء من أمر البيت، فإذا مات أبوه ثاب إليه عقله وصار رجلاً جادًّا في أمره. فالعالم الإسلامي علم الآن أنَّ شغله أصبح بيده ولم يبقَ دولة عثمانية يلقي عليها بجميع مهامه وينتظر منها كلّ شيء. ونرى اليوم بين مسلمي الكرة تكافلاً شديدًا قام فيهم مقام الدولة العثمانية والخلافة، فالدول المستعمرة لا سيَّما اللاتينية منها قد اخطأت في شدّة تفاؤلها بسقوط الخلافة وظنّها أنَّ الجوّ خلا لها في المستعمرات الإسلامية فهي تقدر بعد الآن أن تفعل بالمسلمين ما تشاء!

وقد أخطأت أيضًا خطأ ثانيًا بظنّها أنَّ إخراج المسلمين من الإسلام يزيد رابطتهم بالدول المتغلّبة عليهم. فالبربر مثلاً كانوا قبل الإسلام بقرون يكرهون كلّ سلطة أجنبية عليهم ويقاتلونها. وعلى فرض أنهم تنصّروا ـ وليس ذلك من الأمور السهلة ـ فلن يبرحوا كارهين لفرنسة نافرين من سلطتها. ومهما تثقّفوا باللغة الإفرنسية فلا يصيرون إفرنسيًا بل يزداد نزوع العرق البربري فيهم وحنينهم إلى الاستقلال. ولقد استجلبنا نظر الفرنسيس إلى هذه النقطة بمقالة في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» وبيّنا فيها لهم أنَّ البرابر مسلمين خير لفرنسة منهم مسيحيين.

وذلك أنَّ فرنسة إذا ظلمت البربر وهم مسلمون لم يهتزّ لذلك أحد في أوربة ولا اكتُرث لهم. هذه حرب الريف استمرّت سنين فمن فكّر في أوربة بالريفيين؟ بل كان ضلع أوربة مع الفرنسيس والإسبانيول. أمّا إذا صار البربر نصارى فإنَّ أوربة كلّها تصير حانية عاطفة عليهم كما كانت تحنو وتعطف على البويرس في الترانسڤال. ولا تعود فرنسة قادرة أن تستبدّ بأمر البربر كما تستبدّ بأمر البربر اليوم.

ثمَّ قلنا للفرنسيس: إنَّ الحبشة هم أشدّ النصارى تمسّكًا بالنصرانيّة، فهل يقبلون دولة نصرانية تستولي عليهم؟ أفلم يحاربوا الإنكليز قديمًا. أفلم يحاربوا إيطالية ويرغموا أنفها في واقعة «عدوّه» الشهيرة؟ إذًا، ماذا أفادت أوربة نصرانية الحبشة؟ ثمَّ إنَّنا رأينا الزنوج الأفريقيين إذا تنصّرت منهم أقوام ـ وقد تنصّر منهم نحو ثمانية ملايين ـ لا تتغيّر إحساساتهم من جهة الأوربيين بل يبقى كره الزنجي المتنصّر للأوربي كما كان لما كان وثنيًّا أو كما هو

عند الزنجي المسلم. ولقد قرأنا في كتب المبشّرين أخبار الكنيسة الوطنية الأفريقية التي شعارها: "نحن مسيحيون كما الأوربيون مسيحيون، ولسنا بمحتاجين إليهم حتّى نعرف المسيح، فليذهبوا عنّا".

وقد انتشرت هذه الفكرة بين متنصّرة الزنوج وانقلبت إلى عداوة بين المتنصّر الأسود والأوربي، ولمّا نشبت الحرب العامّة اهتبل متنصرّة الزنوج الفرصة وانتقضوا على الأوربيين وطردوا المبشّرين وهدموا المدارس والكنائس والمعاهد التي كان المبشّرون الأوربيون يديرونها، وخرّبوا تخريبًا عظيمًا جدًّا. جاء المبشّرون، بعد الحرب العامّة يرمّمونه، وهم في حنق من حقد الزنوج على البيض، برغم الاتّحاد في الدين، وبرغم التعليم والإحسان والمساعي الحسان.

فإذا كان هذا شأن الزنوج وهم طبقة دنيا، فكيف تأمل فرنسة أنها إن نصّرت البربر انقلبوا إفرنسيًّا، وهم من طبقة عليا في البشريّة.

ولهذا نأمل أنَّ الفئة الحرّة من الفرنسيس تتغلّب على الفئة الخامسة في الكثلكة وتردعها عن سياستها البربرية العقيمة، التي لا تجني فرنسة من ورائها إلاَّ شنآن جميع المسلمين شرقًا وغربًا.

لقد استخفّ الألمان فيما مضى بالصين وابتزّوا منها مستعمرة برغم أنفها، واستخفّوا باليابان وتحاملوا عليها في الصلح المنعقد بينها وبين الروسية، حتّى حرموها ثمرة انتصارها على الروس، ولم يكونوا في سكرة العزّ التي كانوا فيها يحسبون للصين ولا لليابان حسابًا.

إلاَّ أنه بعد ذلك بعشرين سنة حصد الألمان غلة احتقارهم للصين وتحاملهم على اليابان شوكًا وجنوا حنظلاً، وأعلنت هذه الدول عليهم الحرب ووقفت بجانب الحلفاء. ولو كانت في جانب ألمانيا لاضطرّ الحلفاء إلى إرصاد قوى فوق تصوّر العقل في الشرق الأقصى، وربّما لم يقدروا على ألمانيا. فندمت ألمانيا عل عدم حسابها للدهر ولات ساعة مندم.

والآن تحتقر فرنسة وإيطاليا شأن المسلمين وتعتقدان أنهم لا يقدرون أن يعلموا شيئًا، كما كانت ألمانيا تعتقد أنَّ الصين لن تقدر أن تخاصمها، وأنَّ اليابان لن تقدر أن تضرّها! ولكن يأتي يوم من أيام الدهر تعضّ فيه فرنسة على أصابعها ندمًا على سياستها البربرية وما ماثلها، وتعرف إيطاليا أنَّ ذلك البدوي محمَّدًا ﷺ يقدر أن يقدّم ويؤخّر في الكرة الأرضية.

إنَّ جزءًا ضئيلاً من قوّة البدوي محمَّد ـ التي هي قوّة الله لا قوَّته ـ قد أخضعت قسمًا كبيرًا من إيطالية مدّة قرون متطاولة، ولم يقدر الطليان على زحزحتها لا من صقلية ولا من الأرض الكبيرة إلاَّ بمعاونة الألمان والنورمانديين. وإنَّ هذا البدوي محمَّدًا (صلوات الله عليه وسلامه) لا يزال يقول بقوله ٣٥٠ مليون نسمة هم متذكّرون مجدهم السالف، ولا بدَّ لهم من أن يستأنفوه مهما وضعت دول الاستعمار في وجوههم من العراقيل.

إنَّ الحملة اللاتينية التي أشار إليها المستر خالد شيلدريك لن تمحو الإسلام من أفريقية، لأنَّ أفريقية ليست صقلية ولا سردانية ولا كورسيكا ولا مالطة، بل أفريقية دار إسلام فيها ٩٠ مليون مسلم متّصلون بعضهم ببعض اتّصال البنيان المرصوص. فخيالات حزمة الفاشيست في «طَلْيَنَة» أفريقية تبقى من جملة خطب الدعاية التي يقصد بها موسوليني إيقاد الحميّة في صدور قومه وإظهار جبروته في الأرض. وليست الأعمال التي يعملها الفاشيست في طرابلس وبرقة بالأعمال التي تستجلب لإيطالية قلوب الأهلين فضلاً عن الطلْيَنة Italianisation التي تكلّم عنها زعيمهم في خطبه مرارًا.

ثمَّ إنَّنا وإن كنّا لا ننكر عسف الفرنسيس في الجزائر وتونس ومراكش، فما لا جدال فيه أنَّ المسلمين إذا خيّروا بين فرنسة وإيطالية فلا يتردّد منهم أحد في ترجيح فرنسة على إيطالية، عملاً بقاعدة أخفّ الضررين. ولولا أعمال المبشّرين والمستعمرين وبعض رجال العسكرية من الفرنسيس لكان ممكنًا الامتزاج بين الفرنسيس وإخواننا المغاربة.

نعم إنَّ الفرنسيس في جانب الطليان لا سيَّما الفاشيست منهم يكادون يكونون ملائكة.

أمَّا الواجب على المسلمين بإزاء الحملة اللاتينية التي ذكرها الأخ شيلدريك فهو: المقاومة الأدبية وعقد الاجتماعات وتأليف الجمعيّات، لنشر العقيدة الإسلامية واللغة العربية، وأخذهم أنفسهم بالبذل والتضحية كما يفعل الأوربيون. ومن الواجب على المسلمين أن يفهموا أنَّ الله لن يعمل لهم شيئًا إلاَّ إذا عملوا هم لأنفسهم، وأنَّ الإسلام دين عمل لا دين دعاء بلا عمل وهذا ما أردنا تعليقه على المقال الأول.

وأمَّا المقال الثاني المتعلّق بالهند فلنا عليه تعليق آخر في عدد قادم إن شاء الله.

لوزان

شكيب أرسلان

أأقلُّ من الأنين؟*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

إنَّ من عادة الإنسان إذا مرض أن يأنت وإذا تألّم أن يئنّ وهذا شيء مركوز في فطرة الإنسان منذ وجد على وجه الأرض. ولا أظنّ أنه يوجد في تاريخ البشريّة شيء أقدم من البكاء والأنين.

وإذا جرح العدوّ عدوّه في حرب ولم يمت هذا الجريح فإنّه يئنّ حتّى على مسمع عدوّه، ولم نسمع أنَّ عدوًّا مهما بلغ من توحّشه تعرَّض لعدوّه الصريح في أنينه، وقال له: إنّي بعد أن صرعتك وجرحتك أمنعك من أن تئنّ أو أن تأنت، وأنه لا بدّ لك من أن تحمل آلامك وأوجاعك ساكتًا صامتًا لا يسمع لك أحد صوتًا، ولو كطنين ذبابة.

ودولة إيطالية شنّت الغارة على طرابلس الغرب غدرًا واعتداء محضًا، كما يعلم ذلك كلّ أحد. وبقيت تقتل من أهل طرابلس، وتسفك من دمائهم، وتنهب من أموالهم، وتزجّ منهم في غيابات السجون، وتهين من دينهم وعرضهم عشرين سنة كريتًا إلى هذا اليوم.

نعم إنَّ إيطالية لم يطلع السمن على ذقنها في هذا الاعتداء. ولن يعتدي أحد إلاَّ ذاق وبال أمره.

فالحرب الطرابلسية التي أشعلتها ظلمًا وغدرًا وعدوانًا كانت سببًا للحرب البلقانية، لأنَّ دول البلقان قالت بالصراحة: ما دام ذمار السلطنة العثمانية مباحًا للدول الكبار فلمَ لا يكون مباحًا للدول الصغار؟ فاتّحدن على تركيا وحاربنها وقهرنها. ولّما انتهت صربيا من تركيا واستولت على الولايات التركية التي كانت تدعيها، حوّلت وجهة طموحها صوب النمسا لتضمّ صقالبة الجنوب إليها، فكان ما كان من قتل الأرشيدوق ونشوب الحرب الكبرى التي أتت على الحرث والنسل، ولم تصِب البشريّة فادحة أعظم منها.

ودخلت إيطالية في الحرب الكبرى فخسرت ٤٦٠ ألف قتيل و٦٣ مليارًا من الفرنكات.

---

* الفتح، العدد: ٢٥٣، السنة السادسة، القاهرة (١٧ المحرّم ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٦/٤م)، ص ص. ١ ـ ٣، ١٣ ـ ١٥.

وكانت الحرب الكبرى بنت الحرب البلقانية بلا نزاع، كما أنَّ الحرب البلقانية هي بنت الحرب الطرابلسية بلا نزاع.

وهذه السلسلة مقرّرة في التاريخ العامّ غير متوقّفة على تحليل محرّر هذه السطور. ولكنّي في إحدى مقالاتي في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» ذكرت أنَّ أوربة قد أكلت نصيبها جزاءً، وفاقًا على تقسيم أفريقية الذي خرجت فيه مصر والسودان بنصيب إنكلترة، والمغرب بنصيب فرنسة، وطرابلس الغرب بنصيب إيطالية، لأنَّ هذا التقسيم الذي جاء خلافًا لعهود مؤتمر الجزيرة الخضراء كان هو اللقاح الأكبر للحرب الكبرى. والحرب الكبرى كانت أعظم جزاء لقيته أوربة على مطامعها التي ليس لها حدّ.

وأمَّا إيطالية فلم تنَل على هذه الأربعمائة والستّين ألف قتيل والثلاثة والستّين مليار فرنك شيئًا يتحمّل النسبة مع خسائرها بالمال والرجال.

ونعود إلى نفقاتها في طرابلس وخسائرها بالرجال فنقول: إنَّ أحد قوّاد الطليان صرّح مؤخّرًا بأنهم خسروا إلى الآن على طرابلس مائة ألف قتيل، لكن نصف هذا العدد من الأهالي المجنّدين في جيشهم. وهذا تقديري أنا لخسائرهم بالرجال، ولكن قول هذا القائد إنَّ نصف هذا العدد هو من الأهالي المجنّدين مبالغ فيه كثيرًا، ولعلّ قتلى الطليان الحقيقيين ثلاثة أرباع هذا العدد. وأمَّا من جهة المال فهذا القائد يقول إنَّهم خسروا على طرابلس حتّى الآن ٢٥٠ مليون جنيه. وكان السنيور نيتي، رئيس وزراء إيطالية سابقًا وأكبر مفكّر في إيطالية، ذكر منذ عدّة سنوات أنهم خسروا على طرابلس ثلاثة مليارات، أي ١٥٠ مليون جنيه، وهذا قبل الحملات التي جرت في السنين الأخيرة. فيكون مجموع الحساب إلى الآن ٢٥٠ مليون جنيه بالأقلّ وربّما كان أكثر.

إذًا إيطالية لقيت جزاءها على اعتدائها.

و«نيتي» يقول إنَّ نفس إيطالية بما فيها من الخراب ومن الاجتياح إلى العمران كانت أحوج إلى هذا المبلغ من طرابلس الغرب التي هي كيس رمل.

وإنَّ جزيرة سردانية الكبيرة التي كانت تقدر أن تحوي الملايين لا يزيد سكّانها على ٩٠ ألف نسمة، وكلّها مستنقعات لم يكن تجفيفها بسبب قلّة المال.

ولك أن تقول هذا في صقلية وأماكن أخرى كثيرة من إيطالية.

ولكن هذا لا يهمّ إيطالية وإنّما يهمّها الفتوحات والمجد.

ولكنّما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي

وللطليان الحرّية أن يتركوا بلادهم خرابًا ويستعمروا طرابلس، ولكن ليس لهم الحرّية أن يتعدّوا على الأعراض، ويسفكوا الدماء بدون موجب سوى نيّة الإفناء وأن يهينوا مسلمي طرابلس في دينهم الذي هو دين أمّة هي خُمس سكّان الكرة الأرضية.

ولقد فعل الطليان كلّ هذه الأفاعيل منذ ٢٠ عامًا ولم يتناهوا عنها بل ازدادوا فيها إمعانًا بعد مجيء الفاشست. وفي هذه السنة اخترعوا أسلوبًا لم يدُر في خلد أحد، وهو أن ينقلوا جميع سكان الجبل الأخضر تقريبًا أو ٨٠ ألف عربي من برقة إلى سرْت وأن يحصروهم في مكان لا يقدرون أن يجدوا فيه ما يقتاتون فيه هم وحيواناتهم فيموتوا.

وهذا العمل لا يحتاج إلى تحقيق ولا تدقيق لأنَّ الجنرال غرازياني معترف به وبلاغات إيطالية الرسمية ذكرته وجرائد إيطاليا اغتبطت به، لما فيه من تمكين مستعمري الطليان في الجبل الأخضر بأراضي أولئك المساكين.

كذلك لا يحتاج إلى تحقيق ولا تدقيق استيلاء إيطالية على جميع أوقاف الزوايا السنّوسية وعلى جميع أراضي القبائل السنّوسية التي هي كما قلنا من قِبل كلّ قبائل برقة. وكذلك لا يحتاج إلى تحقيق ولا إلى تدقيق القبض على نساء زعماء الكفرة، لأنَّ هذا في بلاغات إيطاليا الرسمية ومن الأمور التي ترنّمت بها جرائدها.

بقي أنَّ إيطالية تكابر في الأخبار الأخرى وهي: هتك الأعراض، وإحراق المصاحف، والسكر والعربدة في زاوية التاج بالكفرة، ونهب الأموال، وإماتة عدد عظيم من الثمانين ألف عربي الذين في سرت، وذلك بالجوع والعطش وأخذ أطفالهم من بين أيديهم وإرسالهم إلى إيطاليا. والقذف بشيخ قبيلة الفوائد مع رفاقه من الطيّارات. والقذف بنبيّ الإسلام علنًا أمام المسلمين وغير ذلك.

والحقيقة أنَّ إيطاليا لم تدخل في أيّ بحث في مسألة من هذه المسائل، لأنّها تعلم أنَّ إثباتها من أسهل الأمور، وأنه إن ذهبت لجنة حرّة نزيهة إلى تلك البلاد اطّلعت عليها وعلى أمور أخرى مثلها لا تعدّ ولا تحصى.

ولكنّها نشرت بيانات فيها تكذيبٌ مجرّد خالٍ من كلّ دليل لتتذرّع بها لدى الحكومات الإسلامية والحكومات المسيطرة على البلاد الإسلامية في منع المظاهرات القائمة من المسلمين.

فالسلطة الإفرنسية في سورية بطبيعة الحال كانت كارهة لهذه الاحتجاجات وهذه المظاهرات لأنه مهما بلغ من البغض بين فرنسة وإيطالية فإذا حضر الإسلام صارتا واحدًا. وهذه القضيّة أي التكافل الأوربي لا سيَّما الأوربي الاستعماري في وجه الإسلام هي من بديهيّات الاستعمار لا تحتاج عندهم إلى أدنى تأمُّل.

وأهل سورية في مظاهراتهم كانوا على حدّ المثل: "أقول لكِ يا كنّة لتسمعي يا جارة".

ومسئلة فظائع إيطالية في طرابلس جاءت بعد أعمال أخرى من أعمال فرنسة في المغرب، إن لم تبلغ درجة أعمال إيطالية في الفظاعة فهي من الأعمال التي قد سخط لها المسلمون شرقًا وغربًا ولا يزالون ساخطين. وقضيّة البربر لا يسكت عنها المسلمون أبدًا لأنَّ تكذيبات فرنسة بشأنها خالية من كلّ دليل، نظير تكذيبات إيطاليا بشأن هذه الفظائع وهذا على حين أنَّ التواتر من تلك البلدان يؤيّد الأخبار.

الشيخ المراغي يقول إنِّي لست في طرابلس الغرب. وأنا أقول له: إلاَّ أني تأتيني الأخبار من الثقات من طرابلس الغرب. ومتى تواتر الخبر لزم تصديقه. فأنا لست في مصر أيضًا، ومع هذا فإنِّي مصدّق بوجود الشيخ المراغي فيها، لتواتر الخبر بوجوده في مصر، وقيام القرائن الكثيرة على صحّة التواتر الذي هو نفسه موجب لعدم الشكّ. وهكذا صحّت عندنا أخبار فظائع الطليان في طرابلس لا بورود الكتب المرسلة من أوثق الثقات فقط ولا بروايات المنهزمين والفارّين والقادمين من ذلك القطر لأسباب تجارية، بل بتواتر هذه الأخبار من جميع الجهات وانطباقها على مقدّماتها وقياسها بأشباهها وردّها إلى أصولها، ممّا لا يبقى معه أدنى شكّ في صحّتها، كما أنه لم يبقَ أدنى شكّ في صحّة انتقاد الخلق للعلماء الرسميين الذين يتحلّون بالألقاب، ولا نسمع لهم ركزًا في صغيرة ولا كبيرة تتعلّق بالدفاع عن الدين الذي يقولون إنَّهم حمَلَتُه، والملّة التي رتّبت لهم هذه الوظائف بأسمها ولا جرم أنَّ الأمّة لن تصبر إلى الآخر على حالتهم هذه...

فإمَّا الحكومات التي تدّعي أنها لا تريد إحداث مشكلات مع إيطاليا، وأنها من أجل عدم إحداث المشكلات تشير بالصمت والسكوت، فنجيبها بما يلي:

إنَّ هذه السياسة بحجّة عدم إحداث مشكلات هي التي ستجرّ إلى المشكلات، وإلى مشكلات أعظم جدًّا ممّا نتفاداه الآن: إنَّنا نحن لم نطلب من هذه الحكومات أن تحارب إيطالية لأنَّنا نعلم أنَّ ذلك لا يكون. ولم نطلب منها أيضًا أن تحتجّ على إيطاليا، ولو بمجرّد القول. وهذا وإن كان جائزًا بل كان واجبًا لم يخطر ببالنا أن نراودها عليه لأننا نعلم كونها تتوقّف عن ذلك لأسباب سياسية، وإن كانت ثمّة أسباب حقوقية دولية تجيز لها التدخّل في هذا الأمر.

ففي علم حقوق الدول: إذا طالت الفتنة في بلاد مجاورة للبلاد الأخرى، وكان بين البلادين علاقات كثيرة وصِلات رحم شابكة، وكانت حكومة أحد البلدين جائرة على أهاليه بصورة يزداد معها الهيجان وتستمرّ الفتنة، يجوز لحكومة البلد الآخر أن تشكو إلى الحكومة الجائرة وإلى المجمع الدولي من استمرار الفتنة التي أضرّت بها في بلادها، وأن تطالب الحكومة الجائرة بالاعتدال. هذا في علم حقوق الدول ولكنّنا نحن نعلم أنَّ المساواة في القوّة هي الشرط الأساسي في مطالبة الدول بعضها لبعض برعاية الحقوق الدولية وإن لم تكن المساواة تامّة فهناك شرط آخر هو الاستقلال التامّ والكفالة الدوليّة. ولا نقدر أن نقول مع الأسف إنَّ هذا موفورٌ لنا اليوم، فلذلك لم نحمل الحكومات الإسلامية التي هي من هذا النمط على أدنى عمل يحرج مركزها، ولكنّنا كنّا نأمل منها أن تترك الناس يئنّون بالأقلّ لأنَّ الأنين طبيعي للمجروح.

إنَّ إيطاليا في نفسها تعلم جميع ما عملته بمسلمي طرابلس، وتعلم أيضًا أنَّ كلّ ما يصيب بعض أبنائها جزء ممَّا أصاب أهالي طرابلس وبرقة من الخسف والإرهاق والجور والطغيان، وتسكت ولا تبدي حراكًا ولا تتأثّر ولا تتألّم، وتبقى راكدة تستقبل هذه الأمور كأنّها لم تكن، فلا جُرم أنها تكون أمّة يليق بها اسم أسفل سافلين وتزداد في نظر القريب والبعيد والعدوّ والصديق ضِعةً ومهانةً وسقوطًا، حتّى يصبح الكفّ بعد ذلك غير مفارق لرقبتها بُكرةً وأصيلاً.

لو أنَّ المصريين بلغتهم هذه الفظائع الطليانية الجارية في طرابلس واستقبلوها بالسكوت التامّ... لتحقّقت إيطاليا وغير إيطاليا من دول أوربا أنه ليس ثمّة شيء يقال له الأمّة المصرية،

ولأضرّ ذلك بمصير مصر السياسي إضرارًا فوق ما يتصوّر الناس، بل لأضرّ بها لدى إنجلترا نفسها التي ليس لها مدخل في قضيّة طرابلس. فإنَّ الإنجليز عندما يرون ـ وهم أشدّ الأمم ملاحظة لحالات الشعوب النفسيّة ـ أنَّ المصريين الذين تربطهم بأهالي برقة وطرابلس روابط الدين والعرق واللغة، والذين هم وإيّاهم شعب واحد، ونصف قبائل برقة في مصر، قد سمعوا كلّ ما حلّ من الإهانات بإخوانهم وعلموا جميع ما أجرته إيطالية من الفواحش بأهلهم ولم يتأثّروا ولم يسخطوا ولم يحتجّوا ولم يعترضوا، فكلّ من يقول إنَّهم يحسبون بعد ذلك للمصريين أدنى حساب يكون كاذبًا.

إنَّ البشر يعرف بعضهم بعضًا بالقياس، فإذا رأوا أمّة قد رضيت الذلّ في مسألة علموا أنها سترضى به في غيرها. فالإنكليز يأخذون من حالة مصر الروحية بإزاء فجائع طرابلس درسًا إن كان فيه شرف لمصر عاملوها بمقتضى ذلك الشرف علمًا بأنها أمّة لا تقرّ على الذلّ، والعكس بالعكس.

وإيطالية نفسها التي لها علاقات كثيرة في مصر لها نحو سبعين ألف نسمة من التبعة في مصر إذا رأت المصريين غير مبالين بجميع ما فعلته من الأفاعيل في إخوانهم تزداد لهم احتقارًا، وتتعنّت عليهم كلّ يوم في مسائل لا حقّ لها بها، وتصير من غطرسة إلى غطرسة ومن تحامل إلى تحامل، إلى أن ينتهي الأمر بانفجار عظيم قد يكون فيه من المشكلات بين مصر وإيطاليا أضعاف ما يخشاه بعضهم اليوم.

إنَّني أنا في مقالتي الأولى التي لأجلها قام الناس وقعدوا لم أغفل عن تنبيه المسلمين إلى وجوب السكون والتزام التؤدة، قائلاً لهم إنَّه لا ينبغي أن يقابلوا الطليان بالمثل. ولم أنصح للمسلمين هذا النصح حبًّا بالطليان بل علمًا بأنَّ السياسة في الوقت الحاضر لا تساعد المسلمين على الأفعال. ولكن إن لم أكن قد أشرت بالأفعال فقد أشرت بالأقوال. وذلك لأنَّ الضعيف إذا تعذّر عليه العمل فلن يتعذّر عليه القول، وربّ قول أنفذ من صول. وهذا القول لا يخرج عن القانون في شيء، بل القانون العامّ والحقّ الدولي يأمران به حبًّا بالإنسانيّة. وما جمعيّة الأمم في جنيف إلاَّ من أجل ردع القويّ عن الضعيف وإنصاف المظلوم من الظالم سواء كانت هذه الجمعيّة قد توفقّت حتّى الآن إلى القيام بهذا الواجب أم لا.

فإيطاليا بمحاولتها الضغط على بعض الحكومات الشرقية لمنع الاحتجاج والصراخ كأنها تريد أن تقتل وتجرح وتفتك وتهتك، وتمنع مع ذلك ضحايا ظلمها ومن يتعلّق بهم حتّى من أن يتوجّعوا ويئنّوا. وهذا منتهى الغطرسة والمثل البعيد في الاحتقار.

وقد كان الواجب على بعض الحكومات التي تحاول إيطالية الضغط عليها أن تجاوبها بأنّنا نحن لم نحتجّ عليكم ولا قطعنا علاقتنا بكم مع أنَّ الحقوق الدولية تخوّلنا حقّ الغضب والاعتراض لما تجرونه على حدودنا. ولكنّنا لا نقدر أن نعارض الأهالي في الاستياء والاحتجاج على أفاعيل لو وقعت في أقصى الأرض بأدنى الأمم لكانوا احتجّوا عليها وغضبوا لها. فكيف وهي في أقاربهم وإخوانهم.

ولا أبرح أوصي المسلمين بالسكون والتؤدة ومحاربة الطليان وغير الطليان من المعتدين بالصورة السلمية. وهذه الصورة السلمية قد أوضحتها في مقالتي الأولى، وهي الاحتجاج على إيطالية لدى جمعيّة الأمم ولدى نفس إيطاليا، وإظهار السخط في الجرائد والنوادي ونشر هذه الفظائع بجميع اللغات حتّى يطّلع البشر كافّة على أعمال إيطاليا، ويدينها الرأي العامّ بما تستحقّ لأنَّ الرأي العامّ إن لم يكن له قوّة مادّية فإنَّ له قوّة أدبية عظيمة. ويأتي وقت تستحيل فيه القوّة الأدبية إلى قوّة تشرّف أصحابها.

وأمَّا السلاح الأعظم الذي ينبغي أن يتسلّح به المسلمون في وجه الطليان فهو سلاح المقاطعة التامّ فإنَّه لو انتظمت كلمتهم على مقاطعة الطليان في كلّ مكان وفي كلّ شيء لوجدت الطليان رجعوا معهم إلى الاعتدال، بل لشرعوا يتزلّفون إليهم بجميع الوسائل ولعادوا مع الطرابلسيين من المخاشنة إلى المحاسنة. ولكن الطليان كانوا يعلمون أنهم يقدرون أن يفعلوا كلّ ما يشاءون في طرابلس ولا ينتطح في ذلك عنزان، وإنَّ المسلمين في نظرهم قوم لا يشعرون أو لا يجسرون أن يشعروا... فإنَّ الشعور شعوران: شعور يحصل وتكون له مظاهر يكون صاحبه يجرؤ على إظهاره. وشعور آخر يحصل ويبقى في ذات صدر الإنسان يموت به كمدًا ولا يعلم به أحد، وهذا الشعور هو الذي صاحبه لا يجرؤ على إبدائه، فإيطالية كانت تظنّ أنَّ شعور المسلمين هو من الشقّ الثاني، وأنها هي قادرة على أن تخمد أنفاسهم إذا أرادوا أن يتنفّسوا... فعساها تقتنع هذه المرّة ببطلان هذا الظنّ الذي كان عندها، وتعلم أنَّ الإسلام لا يزال قادرًا أن يتنفّس، لا بل أن يشتم ويعلن.

قالت بعض جرائدها الكبرى في ردّها علينا، وعليّ أنا بنوع خاصّ، إنَّها هي لا تبالي باعتراضاتنا ولا تقيم وزنًا لهذه المعارك الكلامية. ونحن نجاوبها بأنَّ المسلمين ليسوا من أهل المعارك الكلامية وأنها لو فكّرت قليلاً لرأت أنَّ قطرًا إسلاميًّا واحدًا لا يبلغ عدد سكانه ثمانمائة ألف نسمة وهو طرابلس الغرب وقف في وجه إيطالية عشرين سنة كاملة وجشّمها خسارة مائة ألف مقاتل ومائتين وخمسين مليون جنيه. فمثل هذه الأمّة لا تُنبز بالمعارك الكلامية بل توصف بالمعارك الحساميّة، ولا يقاس بها الطليان في قليل ولا كثير من هذه الجهة.

وأعود إلى المقاطعة فأقول: لو أنَّ جميع المسلمين الذين لهم نقود في بنوك الطليان سحبوها منها، ولو أنَّ الذين لهم معاملات تجارية مع إيطالية عمدوا إلى تصفيتها ولم يجدّدوها، ولو أنَّ الناس تركوا الركوب في البواخر الإيطالية وتركوا شحن البضائع فيها، وبالاختصار لو أنَّ المقاطعة في المعاملة أخذت شكلاً عمليًّا حازمًا، لما مضى على ذلك ستّة أشهر حتّى رأى المسلمون إيطالية نزلت عن عرش غطرستها إلى حضيض التواضع وبساط المجاملة وشرعت تتودّد للمسلمين الذين في طرابلس وفي غير طرابلس، ولم يسمع أحد من أخبار طرابلس ما يسوءُه.

فهل المسلمون عازمون هذه العزم؟ وهل هم جازمون بهذه المقاطعة هذا الجزم؟ هذا ما سيرينا إيّاه الغد.

لوزان

شكيب أرسلان



لم يبرح الفجر مشتقًّا من الغلس*

بقلم الأمير شكيب أرسلان

إلى الشاعر المفلق النجمي، زاده الله إبداعًا

قرأت أيها الأخ أبياتك السينية فهاجت بي خاطر الشعر برغم كلّ هذه الشواذِ وهذه العوادي. فإخذت القلم وسالت القريحة بالأبيات الآتية والله يشهد أنها وليدة بضع دقائق. إلاَّ أنّي لا إخالني إذا أطرقت ونمّقت آتي بأحسن منها فخذها على علاّتها

ما أدهشتنا من النجميِّ قافيةٌ	كأنها الغادة الحسناءُ في العُرُسِ
لها سوابقُ قد جاءت مسلسلةً	على اطّرادٍ كعوبَ الذُّبّلِ الدُّعُسِ
قل في حبيبٍ وبشّارٍ ورهطهما	والبحتريّ وَلا تضنَنْ به وقِسِ
هيهات أفرق إعجابي بأيّهما	من تلكُم النفس أم من ذلك النَّفَسِ
شِعرٌ به تسكر الألباب سائحةً	كما تسافر بنتُ الحان بالجُلُسِ
لا يعرف السامعُ الولهان نشوتَه	من سبكهِ الجزل أم من نسجه السلِسِ
رويّهُ العذبُ في تحكيم موقعهِ	من أول الشطر يُدرى غير ملتبسِ
لا يحرم الله حزبَ الحقّ طائفةً	أن تنصلِتْ في مجال الكرِّ تفترسِ
قد آن للظلم أن ينجاب عن فرج	لم يبرح الفجرُ مشتقًّا من الغَلَسِ

لوزان، ٥ صفر ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٦/٢٢م

شكيب أرسلان

* الفتح، العدد: ٢٥٨، السنة السادسة، القاهرة (٢٣ صفر ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٧/٩م)، ص. ١.

كيف يفهمون الحرّية الدينية في سويسرة*

أعمال المبشّرين في الشرق

بقلم كاتب الشرق الأكبر

عطوفة الأمير شكيب أرسلان

إنَّ بعض الشرقيين الذين يزعمون الإقتداء بالغرب ولا يعلمون شيئًا عن أحوال الغرب، يعيبون على الدول الإسلامية عدم إطلاقها الحرّية الدينية.

وكان بعض المفكّرين قد ألقى عليّ سؤالاً في هذا الموضوع بإحدى الجرائد، ولحظت أنَّ هذا النفر من الشرقيين يعتقدون أنَّ الحرّية الدينية والحرّية الفكرية وجميع الحرّيات مطلقة تمامًا في أوربة، وأنَّ الباب مفتوح على مصراعيه في كلّ شيء.

ولم يخطر ببال هؤلاء النفر من الشرقيين الخياليين أنَّ الباب لا يمكن أن يكون مفتوحًا على مصراعيه في أوربة، لأنَّ أوربة قارّة فيها عقل، وأنَّ العقل يمنع الإطلاق التامّ، وأنَّ الإطلاق التامّ معناه عدم العقل، وما العقل في اللغة إلاَّ الربط وهو ضدّ الإطلاق كما لا يخفى.

ولقد تقدَّم لنا في مقالة بالفتح كلام على الحرّية الفكرية في أوربة، وبيّنا كيف أنه لا وجود لها عندهم إلاَّ ضمن دائرة مصالحهم.

فالحرّية التامّة هي من الأصل غير موجودة في المجتمع البشري، وإنَّما الحرّية الموجودة هي حرّية نسبيّة لا غير. وما وضعت القوانين في الدنيا إلاَّ قيودًا للحرّيات. ولكنّها كما وضعت قيودًا عند الإطلاق فقد وضعت إطلاقًا عند التقييد. فلا تجد حرّية إلاَّ ولها قيد، ولا تجد قيدًا إلاَّ وبجانبه حرّية.

ومهما كان من أمر تقديس القوانين عند الأوربيين، فعند الأوربيين شيء اسمه «مصلحة حكومية»، وهذه تتغلّب في كلّ وقت على القانون.

وعندنا في العالم الإسلامي ما يسمّى بـ«المصلحة المرسلة» وهي تجوز شرعًا، ولو لم ترِد في نصّ الشارع، لأنَّ الشرع إنَّما هو يُسْر للعباد لا عاثور في طريقهم.

---

* الفتح، العدد: ٢٥٩، السنة السادسة، القاهرة (٣٠ صفر ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٧/١٦م)، ص ص. ١ ـ ٣.

وكلّ حرّية جرّت خللاً بالأمن العامّ أو قلقًا في المجتمع أو مفسدة في الأخلاق، فهي ممنوعة في الشريعة الإسلامية كما في القوانين الأوربية.

وليس في أوربة بلاد أوسع حرّية من سويسرة، بل يقال إنّه ليس في الدنيا ديمقراطيّة حقيقية تحكم فيها الأمّة حكمًا مسمطًا إلاَّ الديمقراطية السويسرية. ومع هذا فانظر إلى قوانين سويسرة من جهة الحرّية الدينية:

بِحَسَبِ المادّة ٤٩ من الدستور الحِلفي "فديرال"، أي دستور الدولة السويسرية، حرّية العقائد والمذاهب مصونة.

إلاَّ أنه بموجب قرار صادر من المحكمة الحِلفية "تريبونال فديرال" تبيّن أنَّ هذه الحرّية لها قيود وشروط وأنَّ لحكومات المقاطعات ـ لأنَّ لكلّ مقاطعة في سويسرة أنظمة خاصّة عدا الدستور العامّ ـ الحقّ في اتّخاذ التدابير التي تراها لازمة لوقاية الأمن العامّ وصيانة الأخلاق وحفظ الوئام بين أتباع المذاهب المختلفة. فالمحكمة الحِلفية المشار إليها تقرّر أنَّ المادّة ٤٩ من الدستور لا تكفل صيانة الفكر وحرّية الشعور الديني فقط، بل تكفل حرّية إظهار هذا الفكر وهذا الشعور وإجرائهما بالعمل على شرط أنَّ الحدود المرسومة المبنيّة على ضرورة الحياة الاجتماعية وعلى حفظ الأمن وطهارة الأخلاق تبقى محترمة. فضمن الحدود المذكورة يجوز الانتقاد الديني لا خارجًا عنها.

وكذلك المادّة ٥٠ من الدستور الحِلفي المتعلّقة بإقامة الشعائر الدينية تنصّ على تقييد حرّية هذه الإقامة بالحدود المذكورة، أي أنَّ الحرّية مطلقة في هذا الموضوع: على شرط عدم المساس بالأمن العامّ، وعدم جرح شعور الناس، وعدم إثارة الخواطر، وعدم مخالفة الآداب وطهارة الأخلاق.

ومادّة ٥٥ المتعلّقة بحرّية المطبوعات هي أيضًا مقيّدة بالحدود المذكورة، لأنَّ الجرائد التي تبحث في المسائل الدينية يجب أن لا تخرج عن دائرة معيّنة من الاعتدال.

فهذه هي الحرّية الدينية في سويسرة التي هي المثل الأعلى في الرقيّ الصوري والمعنوي.

نعم، إنَّ حكومة سويسرة لا تسيء تفسير هذه القوانين، بحيث ينقلب التقييد المذكور استبدادًا وظلمًا وعسفًا كما تفعل بعض الحكومات المستبدّة أو المتغلّبة، سواء في الشرق أو في الغرب. وذلك أنه يوجد في سويسرة شعب يعرف أن يناقش حكومته الحساب.

قصدنا إطلاع الشرقيين على هذه الحقيقة بمناسبة ما يأتيه المبشّرون في الشرق من الأعمال المقلقة للخواطر، الجارحة للعواطف، الهائجة للضغائن. وما يتطاولون به من الطعن على الإسلام ونبيّه الكريم، عليه أزكى التحيّة والتسليم. كما جرى مؤخّرًا في غزّة هاشم، ممّا أقام قيامة هذه البلدة وأكبره لا المسلمون فقط، بل شاركهم في الإنكار والاستفظاع له إخوانهم المسيحيون أيضًا.

إنَّ الحكومات الشرقية، سواء المستقلّة أو الواقعة تحت السيطرة الأجنبية، هي المسؤولة عن إطلاق العِنان للمبشّرين، والحقيقة أنَّ القانون يبيح لها أن تؤدّبهم وأن تنكّل بهم فضلاً عن أن نطردهم طردًا.

ولكن أعمال المبشّرين وارتخاء الحكومات الأجنبية المسيطرة مع المبشّرين كانت لها فائدة. وهي أنها أفهمت المسلمين حقيقة الحياد الديني الذي تزعمه هذه الحكومات... فصاروا لا يضلّون السبيل ولا يسمعون كلام من يقول لهم: إنَّ الأوربيين لا يبالون بالأديان، وعندهم المسيحي والمسلم واليهودي والبوذي سواء!

إنَّ الله ليؤيّد هذا الدين على يد غير أهله، بينما هم يعملون لهدمه. والله محبط أعمالهم. ولكن على المسلمين أن يتنبّهوا وأن يقابلوا جمعيّات التبشير بجمعيّات مثلها. ولا نجاة للإسلام بعد الآن إلاَّ بالجمعيّات، لأنه قد نطقت الأخبار ودلّت الآثار على أنَّ الجمعيّات هي الحفيظ الوحيد لكيان الأمم المستضعفة والناهض الفرد بها لاسترداد مجدها واستقلالها.

لوزان، ١٦ صفر ١٣٥٠هـ/٣/٧/١٩٣١م

شكيب أرسلان



رسالة إلى كاتب الشرق الأكبر من طنجة
وجواب الأمير عليها*

سعادة المجاهد الكبير السيِّد الأمير شكيب أرسلان دمتم في رعاية الله. وسلام على مقامكم العزيز مصحوبًا بالرحمة والبركة.

أمَّا بعد فالذي يمنعنا من مكاتبتكم هو الذي لا يخفى عليكم من تسيطر الاستعمار المستبدّ، فلقد طالما خفقت قلوبنا لنتشرّف بمخاطبتكم اللذيذة، لأنها لا زالت ترنّ في آذاننا تلك العبارات اللطيفة التي كنتَ تلقيها علينا حينما كنتم ببلدنا «طنجة» فيا ما أسرع تلك السويعات التي كنّا نتنعّم فيها بطلعتكم البهيّة، ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه. فقد والحمد لله نتنعّم بما تجود به قريحتكم الوقّادة على الصحيفة الإسلامية «الفتح»، فإنَّنا بعد التي واللتيا والوسيطة والوسائط نتوصّل إليها ونستورد من مائها العذب ونشفي علّتنا بما نردّه عليها، لأنَّ هذه الصحيفة الإسلامية ممنوع دخولها لطنجة تبعًا للمنطقة الفرنسية كما هو بعلمكم. ورغمًا عن هذا المنع فإنَّنا نخاطر حتى تصل إلينا. هذا والذي أرجوه منك الآن هو أن تجاوبني على صحيفة الفتح عن المدرسة المسمّاة بـ«النجاح» في نابلس الشام هل لها اتّصال بالمدارس الأمريكية للمبشّرين في بيروت أم لا. فهذا ما نرجو الجواب عليه من شهامتكم لأنني أرى بعض التلاميذ يزيدون على العشرة من مدينة تطوان يؤمّون هذه المدرسة، فأردت إظهار الحقيقة هل هم مغرورون أم لا، وختامًا تفضّل يا حضرة المجاهد الكبير بقبول فائق احترامنا. وعذرُنا عن عدم وضوح اسمنا واضحٌ.

طنجة، تحرير ٢١ ربيع النبوي عام ١٣٥٠هـ تع

جوابي على هذا الكتاب

حسبي شاهدًا على ظلم الاستعمار وعلى شدّة استبداد فرنسة بإخواننا المغاربة أن يأتيني كتاب من طنجة لا يتجاسر فيه صاحبه أن يذكر اسمه.

* الفتح، العدد: ٢٦٦، السنة السادسة، القاهرة (١٣٥٠هـ/١٣/٩/١٩٣١م)، ص ص.٦ ـ ٧.

هذا وطنجة منطقةٌ دولية لا إفرنسية محضة. فإذا كانت المنطقة موزّعة بين عدّة دول وهذه حالها، فكيف تكون المنطقة التي تحت حكم فرنسة مباشرة والتي يلي أمورها مثل ذلك "القدّيس".

ولم يكفِ طنجة المسكينة الضغط الاستعماري الذي ناء عليها بكلكله وحرمها حرّية الاجتماع والقول والفكر بفضل محرّرة الأمم فرنسة!!! حتّى حلّت بها من الضيق الاقتصادي أعظم مصيبة، وذلك بسبب تعدّد المناطق حولها من منطقة إسبانيولية إلى منطقة إفرنسية.

وكلّ منطقة من هذه الثلاث مملكة على حدة لا يقدر أحد أن يخرج من واحدة إلى أخرى إلاّ بمعاملات طويلة عريضة وإشارات على تذاكر الجواز ولا يمكن بضاعة أن تمرّ من منطقة إلى منطقة حتّى تدفع المكوس أولاً وثانيًا وثالثًا.

فالبضاعة التي ترسل من طنجة إلى الداخل عليها دفع مكس إسبانيولي ثمَّ مكس فرنساوي، فلهذا انقطع تقريبًا إرسال البضائع عن طريق طنجة.

وبعد أن كانت طنجة من أزهر مرافئ البحر المتوسّط وأبسم ثغور المغرب عادت إلى التقهقر والتردّي وأصبح كلّ ما يرد إليها من البضائع طول السنة ٨٠ ألف طنّ لا غير.

وإن طالت هذه الحال على طنجة فليس أمامها إلاَّ الخراب، ويا للأسف، لأنها من أجمل المدن البحرية في العالم وأهمّها موقعًا، وهي درّة جيد بحر الزقاق وليس لها نظير في نحور البحور.

ولقد ثار أهل طنجة في الأيام الأخيرة من مسلمين وأجانب، وقدّموا شكواهم إلى الدول ممّا ينذر بلدتهم في الخراب التامّ، فتذاكرت الدول في هذا الأمر وقرّرت عقد مؤتمر للبحث في طريقة للتنفيس من خناق طنجة الاقتصادي ـ لا السياسي، الذي لا تنفيس له إلاَّ بإعادة البلاد إلى أهلها ـ وبينما هم منتظرون الفرج إذ ورد الخبر بأنه تقرّر عقد مؤتمر للمذاكرة بأمور طنجة وذلك في باريز.

وجريدة "جورنال دو جنيف" وهي المشهورة بتعصّبها لفرنسة نشرت أمس خبرًا لمراسلها في طنجة يقول فيه: إنَّ أهالي طنجة تلقّوا جميعًا بدون استثناء خبر عقد مؤتمر طنجة في باريز بمزيد الاستياء.

منكرون للجميل هؤلاء الطنجيون، كافرون بنعمة الأمّ الحنون!!!

أمَّا وقد وصفنا شيئًا من حالة طنجة فإنّي أجيب ابنها البارّ الذي لا يجرو أن يوقّع على كتابه لي ويلتمس منّي نشر الجواب في «الفتح».

مدرسة النجاح بنابلس مدرسة إسلامية صرفة ليس لها علاقة بالمبشّرين، وهي تتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وهي من خيرة المدارس في الشرق، وحبّذا لو تعدّدت في العالم الإسلامي المدارس التي هي مثلها.

ومن أزكى ثمرات هذه المدرسة الشبّان التطاونة من آل بنونة وغيرهم ممَّن سيكونون أنجمًا في أفق المغرب.

فليحرص السادة الطنجيون على إرسال أولادهم إلى مدرسة النجاح في نابلس وليضعوا أيديهم من جهة فساد المبشّرين في ماء بارد.

فأرض نابلس في مقدّمة الأرضين التي لا ينبت فيها برزة واحدة للتبشير.

لوزان، ٨ ربيع الثاني ١٣٥٠هـ/١٩٣١/٨/٢٣م — شكيب أرسلان



مصر والاستعمار اللاتيني في شمالي أفريقية*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

منذ بعض أسابيع تقدّمت لي في «الفتح» مقالة عن «الغارة اللاتينية» على العالم الإسلامي وفيها مقاصد إيطالية وفرنسة وإسبانية في شمالي أفريقية[1].

وفيها كون هذه الدول أصبحت غير مقتنعة بالفتح والاستيلاء وضرب الذلّة على السكان المسلمين لهذه الأقطار، واستغلال أبدانهم وأرواحهم وكلّ شيء لهم في سبيل تأييد سلطانها وبسط يدها، بل هي آخذة الآن في طُرُق نشر ثقافة وديانة وفَرْنَسَة وطلينة، وبالاختصار قلع الدين الإسلامي من تلك الأقطار لتحلّ محلّه النصرانية، وبالأخصّ الدين الكاثوليكي.

ولقد وقف سير إسبانية على هذه الخطّة الانقلاب الذي جرى فيها من الملكيّة إلى الجمهوريّة وظهور المبادئ الحرّة التي ظهرت في إسبانية بعد هذا الانقلاب، إلى أنَّ كثيرين من سكّان الأندلس (الولايات الجنوبية من إسبانية كقرطبة وأشبيلية وغَرْناطة) عادوا الآن يتذكّرون أصولهم العربية ويطلبون استئناف الثقافة العربية في بلادهم.

أمَّا إسبانية قبل الانقلاب فقد كانت صليبيّة محضة، وكان الإذفنش الثالث عشر في حرب عبد الكريم يصرّح للملأ بتصريحات جديرة بعصر بطرس الناسك أو بعصر فرديناند وإيزابلاّ. حتّى أنَّ السنيور نيتي رئيس وزراء إيطاليا السابق انتقد كلامه هذا انتقادًا شديدًا.

وأمَّا إيطاليا فإنَّ السياسة الفاشيستية معلومة، ومبادئ الفاشيست مناقضة للحرّية في كلّ شيء، مبنية على أنَّ كلّ ما يعود بتقوية إيطاليا ـ أو بما يعتقد رجال الحُزمة أنَّ فيه تقوية إيطاليا ـ فهو واجب الإجراء بدون نظر إلى حقّ أو عدل أو قانون دولي أو قانون مدني أو مبدأ إجتماعي أو مبدأ إنساني، بل كلّ هذه الأمور لا يقام لها أدنى وزن في سبيل مصلحة إيطاليا أولاً ومصلحة الحزمة الفاشيستية ثانيًا. هذه هي مبادئهم التي تعرفها أوربة والتي لا

* الفتح، العدد: ٢٧٣، السنة السادسة، القاهرة (١٠ جمادى الآخر ١٣٥٠هـ/١٩٣١/١٠/٢٢م)، ص ص. ١ ـ ٥.

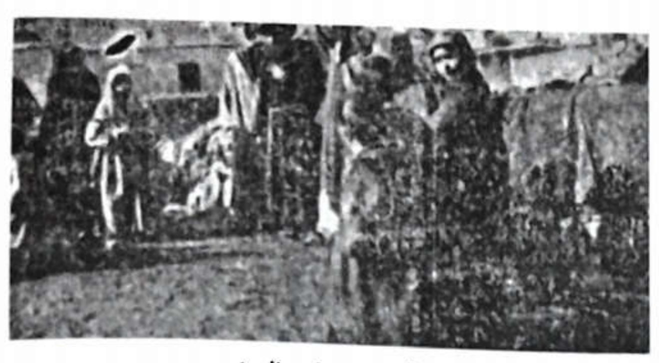
(١) العدد ٢٥٢ من الفتح.

يقدر الفاشيست أن ينكروها. ومن أهمّ مواد برنامجهم الاستعماري طَلينَةُ طرابلس والتوغلّ منها إلى باطن أفريقية حتّى بحيرة تشاد وقد بلغ الهوس ببعضهم إلى أن حلموا بالاتّصال من بحريرة تشاد بالبحر الأحمر شرقًا وبالمحيط الأطلانتيكي غربًا.

ولمّا كانت خيالاتهم هذه تتحقّق إلاَّ بإزالة الإسلام من وجههم، وكانت أكثر البلدان التي يتوخّون فتحها إسلامية، وكان برنامج الفاشيست الإجتماعي كاثوليكيًّا رومانيًّا، فممّا لا مشاحة فيه أنَّ إيطالية الفاشيستية تضمر من محاربة الدين الإسلامي ما لا تضمره دولة أخرى أوربية.

وأمَّا فرنسة الجمهوريّة الحرّة (!) فهي لا يحكّها الإنسان بظفره جيّدًا حتّى يرى تحت شعار الجمهوريّة اللادينية (!) جلد لويس التاسع ولويس الرابع وجميع ما هناك من المبادئ التي نقضتها ثورة ١٧٨٩ ثمَّ لم تعتم أن عادت إلى فرنسا تدريجًا وتمكّنت وتوطّدت من تحت ذقون الراديكال والسوسياليت وأصبحت فرنسة اليوم لا تفترق عن فرنسة الملكية البوربونيّة أو فرنسة الإمبراطورية البونابرتية إلاَّ بالاَسم. فالقاعدة التي تسير عليها فرنسة في مستعمراتها وفي الشرق أجمع هي قاعدة «غمبتا» الذي قال: عداوة رجال الدين ليست من البضائع التي يجوز إصدارها إلى الخارج L'anticléricalisme N'est Pas Un Article D'exportation.

وعليه فهي لا تعمل بشيء من مبادئ الجمهوريّة ومبادئ الثورة الكبرى في سياستها ببلاد الإسلام. وممّا لا ينكر أنَّ إفرنسيسًا كثيرين يكرهون تدخّل حكومتهم في الأمور الدينية ويزيدون على ذلك أنَّ عندهم ميلاً أكيدًا إلى الإسلام يحملهم على عدم الرضى بمساس شيء من حرّيته الدينية. ولكنّنا نرى مع الأسف الشديد أنَّ هذه الفئة في فرنسا تضعف شيئًا فشيئًا، وأنَّ الكلمة العليا إنَّما هي للحزب القومي الذي تَغْلب عليه الكثلكة وللحزب العسكري الذي تغلب عليه الكثلكة؟ فالحكومة الجمهورية منقادة إلى الحزب الكاثوليكي وما يليه، والراديكاليون لا يبدون ولا يعيدون والاشتراكيون فئة قليلة بالنسبة إلى السواد الأعظم، فمن هنا جاءت مظاهر الكثلكة في جميع أعمال فرنسة في شمالي أفريقية، فالكنيسة الكاتدرائية في مدينة الجزائر أصلها جامع، وأوقاف إسلامية كثيرة أعطيت إلى القسوس والمبشّرين، ومن ١٠ سنوات قام في البرلمان نائب اشتراكي فاقترح إلغاء مادّة من القانون الذي تتمشّى عليه فرنسة في الجزائر وهي التي «تحرّم المكافئات العقارية على المسلمين إن لم يتنصّروا» ووعدته الحكومة بإلغاء تلك المادّة العجيبة ـ ولا نعلم هل أنفذت وعدها أم لا؟ ـ


مساعي التنصير في المغرب

الجمهورية سنة ١٨٨١ على حين تزعم أنها "لايقية" أو "لادينية" أفرأيت كيف تكون "لايقية" الحكومة التي تصرّح في قانونها "إنَّ المكافئات العقارية تنحصر في النصارى واليهود، ولا تجوز للمسلمين إلاَّ إذا تنصّروا".

إنَّ من تأثير الكثلكة العاملة في سياسة الجمهوريّة الإفرنسية ذلك المؤتمر الأفخارستي الذي انعقد تحت حماية الحكومة بتونس، وطاف على أثره المتداعون إليه حاملين شعار الصليب الذي كان يحمله لويس التاسع ملك فرنسة يوم غزا تونس، ذلك ليذكروا مسلمي تونس بالحروب الصليبية...

من تأثير الكثلكة العاملة في سياسة فرنسا الجمهوريّة الظهير البربري المشؤوم، ومنع فقهاء المسلمين من دخول قرى البربر في سلطنة المغرب، وإلغاء الشريعة الإسلامية واللغة العربية من بينهم وبثّ القسوس والمبشّرين في بلاد البرابر: يبنون الكنائس والمدارس في قرى ليس فيها مسيحي واحد، وغير ذلك من الأعمال التي يشهد بها ثمانية أو عشرة ملايين مغربي وأناس كثيرون من أحرار الفرنسيس.


بثّ القسوس في بلاد البربر

ومن تأثير الكنيسة في سياسة فرنسة الرسمية تشييدها قسمًا تبشيريًا في المعرض الاستعماري القائم الآن بباريز، هو أهمّ أقسامه، وتوالي الحفلات والشعائر الدينية في هذا القسم بحيث أنَّ الإنسان ليتساءل: ما مدخل التبشير بالدين المسيحي في معرض صناعي تجاري؟ كنائس كثيرة في باريز وأديار فليقيموا تلك المظاهر بها.

بذلوا دماءهم في سبيلها في الحرب العامة، بمثل هذه التدابير المشؤومة التي انبعث فيها آراء المسيو "سان" مقيمها العامّ في الرباط والمسيو "كورديه" رئيس العدليّة هناك والجنرال "نوغويس" أشأم جنرال دخل ذلك القطر وأضرابهم، وسترى فرنسا غلّة آراء المسيو سان وأضرابه عليها...

إنَّنا نكتب هذه السطور لأنها حقائق. والحقائق يجب أن تقال لا سيَّما في موضوع خطير كهذا. ولكنّنا نحرّرها بمداد الأسف لأنَّ فرنسة دولة عظمى عظيمة الأثر في المدينة العامّة عالية الدرجة في الإنسانية، ونكون ظلمناها جدًّا إن قايسنا بينها وبين إيطاليا الفاشيستية. ولا نزال نعتقد أنَّ فرنسة سترجع عن خطّتها هذه، وتتفطّن أنَّ الأعمال التي تليق بحزمة الفاشيست لا تليق بها... وأمَّا الاحتفالات بسلطان المغرب في باريز وما قيل له في الخطب الرسمية من مزيد حرمة فرنسة للدين الإسلامي، وما أجاب به هو أو ما عُمل له بصورة جواب عن لسانه من تأييد هذا القول الذي ادّعاه رجال فرنسة، فكلّ هذا لا بال له بقدر هبوة أو صوفة مبلولة ما دام الظهير البربري لم يصدر ظهير آخر بإلغائه، وما دام الفقهاء وحملة القرآن ممنوعين من دخول بلاد البربر.

كتاتيب القسس بدلاً من الكتاتيب القرآنيةعند البربر

وما دام القسّيسون والمبشّرون يجوسون خلالها ويبنون فيها الكنائس والمدارس.

إنَّ الأقوال والخطب والفصاحة والبلاغة والتحبير والتنميق وتشقيق الكلام كلّ هذا لا قيمة له إذا كانت الأفعال ناطقة بعكسه. ومائة ألف قول لا توازي نصف عُشر فعل واحد.



قسيس مبشّر يجوس خلال القبائل البربرية

هذا ونعود إلى كلمة عماد الإسلام وركن الشرق الأمير عمر طوسون أمتع الله المسلمين بطول حياته في تحذير أبناء مصر ممَّا يخبأه لهم المستقبل، وما يجري من حولهم وهم غافلون. وذلك على أثر ما قرأه في "التيمس" عن محاضرة "جوزبي" الإيطالي في مؤتمر فلورنسة، وهي التي يدعو فيها الأمم اللاتينية إلى التضافر والتعاون وإرسال الألوف ومئات الألوف من اللاتين إلى "ليبيا" أي طرابلس الغرب وبرقة ليعمّروها ويصيروها قطرًا لاتينيًّا بجانب مصر التي فيها ١٥ مليون مسلم ليس بينهم إلاَّ ٢٠٠ ألف من الأوربيين.

فـ"جوزبي" الطلياني لا يكفيه ستّمائة مليون أوربي مسيحي في أوربة ويجد ذلك نزرًا! وهو يستكثر على مصر ١٥ مليون مسلم.

وتراه يستنهض الأمم اللاتينية لأجل سكنى طرابلس وبرقة حتّى تتمّ الموازنة. كأنَّ الموازنة غير تامّة إلى الآن بالستّمائة مليون أوربي وباستيلائهم على أكثر العالم الإسلامي. ويا ترى لو جاء مليون أو مليونان من اللاتين وسكنوا برقة وطرابلس فهل تقتنع بذلك إيطاليا؟

كلاَّ. بعد أن تعمر الأمم اللاتينية طرابلس وبرقة وتطرد النصف مليون مسلم الذين هم بقيّة السيف فيها تعود فتقول: قد آن الأوان لنا أن نأخذ مصر. فإنَّ مصرًا كانت في القديم رومانية ويجب أن تعود رومانية: وهكذا فالدور الذي تمثَّل في طرابلس وبرقة يعود فيتمثّل في وادي النيل نفسه.

ولا يظنّ ظانّ أنَّ هذه الأماني لا تجول في صدور الفاشيست، بل هي تدور في مخيّلاتهم وأحيانًا يصرّحون فيها بمرادهم. ومن قال للمصريين خلاف هذا فيكون مغرّرًا بهم ومكابرًا في المحسوس... وطالما حذَّرنا المصريين ونبّهناهم إلى ما وراء استنامتهم هذه من الأخطار... وطالما قلنا لهم إنَّ مسألة طرابلس الغرب لا ينبغي أن تتلقّوها كمسألة جامعة إسلامية فقط بل إذا تأمّلتموها وجدتموها مسألة مصرية فرعونية قبطية مقوقسية. وبالاختصار وجود دولة تحلم بتجديد سلطنة رومة في البحر المتوسّط هو أعظم خطر على مصر. وهذا الخطر كاشر من الآن عن نابه، وأنا على ثقة بأنَّ هؤلاء الطامحين إلى مصر... هم مترصّدون أوّل غرّة ليتولّجوها... هم الآن لا يجرؤون أن يمسّوا مصرًا لأنَّ هناك شيئًا يقال له الأسطول الإنكليزي...

ولكن لنفرض أن ثارت حرب بحرية ـ وحرب إنكلترة لا تكون إلاَّ بحرية ـ بين إنكلترة وأمريكا. أليس هذا بجائز ولو بعد ٣٠ أو ٥٠ سنة؟

لنفرض أن ثارت حرب بين إنكلترة واليابان على الهند. أفليس هذا بممكن؟

لنفرض أنَّ الألمان استأنفوا قوّتهم وجدّدوا مثل الأسطول الذي كان عندهم فنازلوا إنكلترة في البحر. أفيظنّ الناس افتراضًا كهذا مستحيلاً؟

لنفرض أنَّ دولتين أو ثلاثًا من الدول الكبار تمالأن على إنكلترة ونازلن أسطولها. أليس هذا من الحوادث الممكنة. فهل يقدر عاقل أن يقول إنَّ إنكلترة في حال حادث كهذا تقدر أن تذبّ عن مصر؟

إذًا الأسطول الإنكليزي ليس بأبديّ ولا بسرمديّ. ويجوز أن تشغله يومًا عن وقاية مصر شواغل. ويجوز أيضًا أن تدور عليه الدائرة. الأسطول الإنكليزي لم يكن أمنع من الجنيه الإنكليزي وها هو الجنيه الإنكليزي تزعزع...

ولنقل المحال إنَّه أسطول سرمد! فإذا كانت مصر لا تقدر أن تتّقي خطر الاستيلاء إلاَّ به فهي إذًا تحت حماية إنكلترة... وهذا ما يأباه المصريون. وأيّة فائدة في أن تحمينا إنكلترة ببدل هو استقلالنا؟ ولماذا لا يتكلّم المصريون بالاستقلال إذًا ليل نهار. وهل الاستقلال يكون كلامًا في كلام؟ إنَّ الاستقلال لا يرادفه من الألفاظ إلاَّ "جيش" لا غير. وكلّ ما عدا ذلك فلا يؤمّن استقلالاً.

مرارًا وتكرارًا حذّرنا المصريين من خطر بقائهم بدون جيش تامّ وبدون أسطول. ومرارًا وتكرارًا قلنا لمفكّريهم: ينبغي قبل كلّ عمل أن تقنعوا إنكلترة بأنه ليس من مصلحة إنكلترة نفسها ـ فضلاً عن مصلحة مصر ـ أن تبقى هذه بدون جيش متناسب مع عدد شعبها، وبدون أسطول، وبدون قواعد بحرّية تحميها. وذلك لأنه إن نشبت إنكلترة في حرب مع إحدى الدول الكبرى لم يبقَ عندها من القوّة فضلة فاضلة تحمي بها مصر. فجاء ذلك الطامح المترصّد للفرصة، وقد خلا له الجوّ فباض وصفر. وجاء ذلك العدوّ فوجد واديًا أعزل ليس فيه جيش ولا أسلحة ولا أعتاد ولا معامل ولا مدارس عسكرية ولا معتملات كيماوية ولا أسطول ولا قواعد بحرية ولا ألغامًا في المرافئ ولا شيئًا من وسائل الدفاع. فدخل القطر والعياذ بالله بلا معارض ولا منازع. ومهما يكن من حميّة المصريين فلن يقدروا أن يقاتلوا

بأصابعهم الطيّارات والدبّابات والمدافع والبنادق والحِراب والقنابر ولا يقاتل السلاح إلاّ سلاح مثله ولا يفلّ الحديد إلاّ الحديد.

يجب أن تنحلّ مسألة الجيش المصري والأسطول المصري بين إنكلترة ومصر في أقرب وقت ولا يجوز أن يقع فيها أدنى إمهال. وكلّ إمهال أو إهمال يقع فيها فإنَّ التبعة فيه هي أعظم تبعة يتصوّرها العقل. فإنَّ حياة مصر وموتها هما في إتمام هذا الأمر وعدمه. انظروا كيف نهض الهنود؟ أفيقعد المصريون والهنود ناهضون، وليس عليهم من الخطر ما على مصر!

ويجب أن يعلم الفلاّح المصري أنَّ الرصاص والنحاس والديناميت والمازوت أصبحت له اليوم من ضروريّات الحياة كالفول والحمّص والحنطة. ولكن الفلاّح مسكين لا رأي له وإنَّما الرأي للمفكّرين. والمفكّرون لا نعلم بماذا يفكّرون؟ إن لم يفكّروا قبل كلّ شيء بسدّ هذا الخلل الجلل وهو خلل الخلوّ من الجيش.

ولم يزل في الوقت متّسع بشرط أن يباشر المصريون حلّ هذه المشكلة منذ اليوم. فإذا صارت مصر تقدر أن تضع على قدم السلاح مليونًا ونصف مليون جندي تامّ الأهبة، وكانت في مصر معامل العتاد ومدارس للفنّ الحربي، وكانت مرافئها محصّنة بالأسطول والقلاع، فلا يهمّنا بعد ذلك أن يفد اللاتين إلى ليبيا وأن يعمّروها ولا نبالي بأقوال "جوزبي" وأمثال جوزبي.

لا بل نؤكّد لإخواننا المصريين أنه إن صار لمصر جيش كهذا الجيش ومنعة كهذه المنعة انصرف نظر اللاتين عن قضيّة تحويل ليبيا إلى قطر لاتيني وتركوها هي ورمالها.

إنَّ "ليبيا" هي كيس رمل كما قال "نيتي" أعقل وأعلم ساسة إيطاليا وهم لم يقصدوها لأجل نفسها بل قصدوها بابًا لغيرها.

فعلى المصريين أن يباشروا بسدّ الباب من الآن وإلاَّ ندموا وحلّ بهم ما هو حالّ بغيرهم... وليس في الحروب والفتوحات "يا أمّي ارحميني".

جنيف، ٢٦ جمادى الأولى ١٣٥٠هـ/١٩٣١/١٠/٩م

شكيب أرسلان

كيف يتمسّكون بدينهم ويفتخرون به*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

ذكر الشاب المغربي النابغة السيِّد أحمد بلا فريج[1] كيف كان افتتاح مؤتمر المستشرقين في ليدن وأشار إلى خطبة ناظر المعارف في دولة هولاندة وهي التي قال فيها: إنَّ هولاندة لم تقصد في التبسّط بأطراف آسية التجارة والمكاسب المادّية فقط، بل قصدت بذلك نشر حسنات الدين المسيحي. ومن حيث أنَّ ذلك الوزير تلا خطابه بالإفرنسية فإنَّنا ننقل العبارة بنصّها: Pour répandre les bienfaits du christianisme.

ولقد أعجبت جدًّا بهذه الجملة لأنها دالّة على صراحة وشهامة وأنفة وابتعاد عن الرئاء وقصد إلى الغرض على سواء. وبروزها من فم رجل رسمي كهذا من رجال الدولة الهولاندية في محفل عظيم كهذا له معناه. ولا سيَّما إذا كان الفعل مرافقًا للقول. فإنَّ البعثات الدينية التبشيرية مالئة الجزائر الأندونيسية من أقصاها إلى أقصاها وقد نصّرت إلى الآن عددًا كبيرًا من المسلمين لا سيَّما من فقرائهم وأيتامهم أقّل ما حزروه به مائة ألف نسمة.

ولا شكَّ في أنَّ الحكومة الهولاندية تحمي هذه الرسالات الدينية وتنجدها وتمدّ بضبعيها ولا تألو جهدًا في عضدها على بلوغ مقاصدها. وهي هناك الحكومة الباسطة القابضة المؤثرة في مجرى أحوال تلك البلاد، فلا عجب إذا وجدت الرسالات التبشيرية تحت جناحها النجاح الذي ترجوه.

ولا شكّ في أنَّ الحكومة الهولاندية حكومة مسيحية مخلصة في دينها مفتخرة به عاملة لإعلائه ناشرة للوائه؛ وليس في هذا منها إلاَّ ما يؤكّد شرفها ويدلّ على صدقها في مبادئها.

وموضوعنا الآن ليس تحقيق شرف الدولة الهولاندية الذي لا نزاع فيه والشهادة لها بالصراحة وعدم الرئاء وبالجمع بين القول والفعل.

---

* الفتح، العدد: ٢٧٤، السنة السادسة، القاهرة (١٧ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ/٢٨/١٠/١٩٣١م)، ص ص.١ ـ ٢.

(١) العدد: ٢٧٠، من الفتح.

وإنَّما أريد أن أسائل أبناء شرقنا قائلاً:

أإذا قامت حكومة مصر أو حكومة سورية أو حكومة العراق ـ مثلاً ـ ودعت الأمم إلى مؤتمر علمي أو أدبي أو معرض صناعي أو زراعي أو شيء من هذه المعاني، ووقف ممثّل تلك الحكومة وتفوّه بكلمة تدلّ على أنها عاملة لأجل الإسلام أو أنَّ غرضها إعلاء شأن الإسلام... فكيف كانت تقوم عليه قيامة المسلمين «العصريين» حينئذٍ، وكيف كانوا يسلقونه بألسنة حداد هو والحكومة التي يمثّلها، وكيف كان يقال: هذه أمور قد ذهبت ومضت مع القرون الوسطى فلا يجوز أن ينطق بها رجل رسمي ـ بل رجل غير رسمي أيضًا ـ في حفل كهذا. ولا يجوز لحكومة مدنية راقية أن يتلفّظ رجالها بذكر الدين فضلاً عن أن يفتخروا بالعمل لأجله!

أفليس ذلك أيها الشرقيون؟

قولوا معي: نعم. فإن لم تقولوا: نعم، كنتم مكابرين في الواقع.

أمَّا ممثّل حكومة هولاندة وناظر المعارف فيها فهو يجاهر بعمل حكومته لخدمة الدين المسيحي أمام محفل انتظم فيه ألف أستاذ من جميع أمم الأرض وبينهم نحو ٣٠ مسلمًا وذلك في ٦ سبتمبر من سنة ١٩٣١ لا في القرن الوسطى. وما كانت هولاندة لعمري دولة رجعية ولا متأخّرة ولا ناقصة الأدوات ولا نازلة في درجات الرقيّ لا عن ألمانية ولا عن إنكلترة ولا عن فرنسة ولا عن أمريكا، بل هي معهنّ الكتف مع الكتف.

هذا إذًا مثال بارز من أمثلة بارزة متّصلة أمامنا كلّ يوم تلقم كلّ مكابر فيها حجرًا.

وخذ لك مثالاً آخر:

قرأت أمس في «جورنال دو جنيف» خبرًا معناه أنه لَمَّا كان مجلس جمعيّة الأمم قد انعقد لحلّ المعضلة التي وقعت بين اليابان والصين والتي يخشى منها نشوب الحرب، فقد قرَّر مجلس الاتّحاد الإنجيلي في جنيف، بالاتّفاق مع لحنة جمعيّات الشبّان المسيحية الإجتماع في كنيسة «فوستري» نهار الجمعة ١٦ أكتوبر (هذا النهار) الساعة ١٠ والنصف لأجل الصلاة مجتمعين أن يأذن الله بكشف هذه الغمّة.

ولقد سُئلت الكنائس والجمعيّات الدينية المختلفة في جنيف عن هذا الرأي فأجمعت عليه. ا.هـ

إذًا أهالي أوربة لا يهزأون بالدين كما هو مظنون في الشرق. إذًا البلدان الراقية والأمم المهذّبة لا تزال تدعو الباري تعالى في الخطوب ولا تزال صبغتها روحية. وهذا لم يمنع رقيّها المتناهي.

وخذ لك مثالاً ثالثًا:

قرأت أيضًا في جرائد اليوم نداء استغاثة من اللجنة المركزية للرسالات الإنجيلية في باريز تقول فيه: إنَّه بسبب الأزمة المالية الحاضرة تأخّرت التبرّعات السنوية على اللجنة؛ وأصبحت مضطرّة إلى إلغاء مراكز تبشيرية متعدّدة لعدم استطاعتها القيام بأودها. وفي هذا المقام تتأوّه اللجنة وتندب هذه الحالة، وتنذر بالخطر المحدق من جرّاء إلغاء بعض مراكز تبشيرية وتنادي: واتبشيراه، وإنجيلاه!

وترى الجرائد تتأوّه مثلها وتدعو الناس إلى البذل في هذه السبيل مهما بلغ منهم العسر.

ولهذا تجدون تبرّعاتهم لنشر دينهم بملايين الجنيهات لا بملايين الشلنات ولا بملايين الفرنكات كما علمتم من كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» الذي فيه جميع الأرقام.

يا قومي هذه هي الحقائق في البلاد الراقية إن كنتم تريدون الحقائق. وإن كنتم تريدون العمى، فماذا بعد الحقّ إلاَّ الضلال!

جنيف، ١٦ أكتوبر ١٩٣١م

شكيب أرسلان



جواب على خطاب مفتوح
في قضيّة الشرق للشرقيين والمسألة العربية*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

كان الأديب الفاضل السيِّد منصور أحمد الأندوسي قد وجّه إليّ في أحد أعداد "الفتح" السابقة خطابًا مفتوحًا يقترح عليّ فيه تفصيلاً جامعًا وبيانًا واسعًا عن موضوع "الشرق للشرقيين"، وعن مرمى اتّحاد العرب والجامعة العربية، وعن موقف هذه الجامعة بالنسبة لسائر المسلمين إلى غير ذلك.

ولكثرة ما أنا فيه من المشاده سهوت عن الجواب على هذا الخطاب، ولم أفطن له إلاّ عرضًا في أثناء تقليبي لأعداد ماضية من "الفتح"، فنظرت فيه فإذا بي لا أقدر أن أجيب، اقتراح هذا الأديب الأندونيسي الذي يسألني عن مواضيع كلّ منها قد يستغرق كتابًا كثير الورق.

ولّما سألني السيِّد بسيوني عمران عن أسباب تأخّر المسلمين لبثت نحو سنة أهمّ أن أجيبه ولا أجد الوقت اللازم للكتابة، إلى أن ألحّ عليّ الأستاذ الأكبر صاحب المنار في إجابة هذا السؤال، فكتبت رسالة "لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم"[1] في ثلاثة أيام، ولم أقدر أن أفسح لها من الوقت أكثر من ذلك.

ولعمري إنّ الجواب على "الشرق للشرقيين" هو ما نقرأه في الجرائد الشرقية كلّ يوم تحت ألوان مختلفة وما نرى الشرقيين يعملون لهم بأسيافهم وأقلامهم. فهذه تركيا حرّرت نفسها، وهذه فارس حرّرت نفسها، وهذه سورية على وشك تحرير نفسها، وهذه مصر تطالب بما بقي غير محلول من عقالها، وهذا العراق أصبح حُرًّا إلاّ من قيد واحد لا غير لا بدّ أن ينحلّ بعد أن تتحقّق الوحدة العربية، ويأمن العراق على نفسه من غارات الشمال التي لا قِبَل له بها الآن. وهذه الهند سائرة في طريق الحرّية، وما المائدة المدوّرة في لندن إلاّ مرحلة من هذه الطريق. وهذه الصين تفكّ قيودها الاقتصادية تدريجًا. وهذه آنام تقوم

---

* الفتح، العدد: ٢٧٧، السنة السادسة، القاهرة (٩ رجب ١٣٥٠هـ/٢١/١١/١٩٣١م)، ص ص.١ ـ ٣.

(١) انظر مقال "لماذا تأخّر المسلمون". (في كتاب من منشورات الدار التقدّمية، قدّم له د.سعود المولى ـ ٢٠٠٨)

وتقعد ولا يشكّ أحد من الفرنسيس بأنها لا تلبث أكثر من عشرين سنة أو ثلاثين سنة بالكثير حتّى تخرج فرنسة منها. وهذه البلاد الأندونسية تنهض أيضًا للانطلاق من عقالها. وهذه أقطار شمالي إفريقية ـ تونس وطرابلس والمغرب والجزائر ـ كلّ منها يريد أن ينال مكانه تحت الشمس كما يقال، وهلمّ جرًّا. وهذه تركستان الروسية والقوقاس تفتآن تذكران حقوقهما في الحرّية.

فليس في الموضوع ما يحتاج شرحًا ولا إيضاحًا ولسان الحال أوضح من لسان المقال. وبالاختصار يبغي الشرقيون أن يكونوا في بلادهم كما هم الغربيون في بلادهم، أي سادة في أرضهم غير مغلوبين عليها.

وكما تحرّرت أمريكا الشمالية في القرن الثامن عشر وأمريكا الجنوبية في القرن التاسع عشر، ترجو آسية كلّها والأقطار الإسلامية من أفريقية أن لا يتصرّم القرن العشرون للمسيح إلاّ وهي حرّة قد حطّمت أغلالها.

فأمّا اتّحاد العرب والجامعة العربية فليس في ذلك إلاّ ما يزيد الشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصًا قوّة ومُنّة. فإنّ استقلال آسية ونهوضها يتوقّفان على اتّحاد شعوبها. وكما أنّ الشعب الواحد هو مجموع عشائر متّحدة، والعشيرة الواحدة هي مجموع عائلات متّحدة أشبه بالجسم الواحد، الذي هو مجموع كريات وذرّات متّحدة، كذلك القارّة الكبرى هي مجموع أمم يبدأ اتّحادها أولاً بنفسها ثمّ يمتدّ إلى جوارها الأقرب فالأقرب حتّى يشمل القارّة كلّها. وليس بضروري أن تتّحد آسية كلّها مملكة واحدة لتستقلّ وتنهض بل معنى اتّحاد الشرق هو التكافل الشرقي الذي يشدّ بعضه بعضًا.

فالناطقون بالضاد من عرب ومستعربين يناهزون ٧٠ مليون نسمة، ولهم اللغة الفصحى والتاريخ المجيد والمزايا الكثيرة والخطط الغرّاء والبقاع التي هي أوسط الأرض. فلا مناصّ لهم من أن ينهضوا ومن أن يأخذوا بأسباب حياة علمية عصرية، تكمل ماضيهم الباهر وتصل بهم إلى ضالّتهم المنشودة من المستقبل، فيكونوا في طليعة الشرق والشرقيين. ولن ينهض الشرق ـ لاسيَّما الشرق الأدنى بدون نهوض العرب. والمدنيّة العربية (بواسطة الدين الإسلامي العربي) واشجة[1] العروق في النصف من آسية وفي أكثر أفريقية وفي جزء من

(١) واشجة: متّصلة ـ متداخلة.

أوربة. وإذا نهض العرب نهض الأرخبيل الأندونسي بطبيعة الحال فهما من قبيل اللازم والملزوم. ولمّا كان مصدر الدين المحمدي من العرب كان العرب ينظرون إلى كلّ مسلم على وجه الأرض ـ أندونسيًا كان أو صينيًا أو هنديًا أو فارسيًا أو تركيًا أو طاغستانيًا أو أرناووطيًا أو صقليبيًا أو زنجيًا أو حبشيًا أو صوماليًا ـ كأنّه عربي بدون فرق عنهم: يرون فيه أخًا أو ابنًا معنويًا. وكذلك هذه الشعوب كلّها ترى في الأمّة العربية الأمّة المعلّمة المهذّبة التي هي لهم بمقام الأستاذ. فإذا كان الأستاذ راقيًا كاملاً سار التلميذ على أثره واقتبس من أشعّة علمه واقتدى به في كماله. وإذا كان مقصّرًا متأخّرًا متقهقرًا كان نصيب تلاميذه التأخّر والانحطاط.

فالعرب مضطرّون للنهوض من وجهين: أولهما لأجل أنفسهم والثاني لأجل غيرهم من الأمم التي اصطبغت بصبغتهم وانطبعت بطابعهم وهي تناهز الخُمس من العائلة البشرية. إذًا الواجب على العرب كبير، وقد أصبح غير محتمل التأخير.

وهل ينهض العرب كما هو المأمول والمنتظر؟ وهل تستقلّ بلادهم وتتحرّر أقطارهم ويتسفيد من ذلك سائر الشرقيين؟

الجواب: إنّي لا أشكّ في ذلك.

نعم إنَّ العرب لا يزالون مصابين بأمراض أخلاقية شنيعة قد تؤخّر من نهضتهم، وقد تضرّ بحياتهم السياسية، وقد تشمّت بهم أكثر من عدوّ. وأشنع هذه الأمراض وصول الأنانية وحبّ الذات منهم إلى حدّ قلّما يصل إليه غيرهم. فتجد الواحد يريد الحظّ من أخيه ولو بذهاب مصلحة أمّته. لا يفيق من سكرته إلاَّ بعد خراب البصرة.

هذا مرضهم القديم الذي سقطوا به وأجمع المؤرّخون حتّى من أعدائهم على أنهم ما سقطوا إلاَّ به.

ولا تزال هذه العلّة القاتلة عاملة فيهم إلى هذا اليوم.

وكان الألمان مصابين أيضًا بمرض الانقسام وكانت «المشاجرة الألمانية» مضروبًا بها المثل أي أنها لا نهاية لها. فما زال العلم يرهف من عقولهم ويدمث من أخلاقهم، حتّى زال ذلك المرض منهم وغلب عليهم حبّ المصلحة العامّة فاتّحدوا.

وسيأتي يوم يبرأ فيه العرب من هذه العلّة، ويغلب عليهم حبّ المصلحة العامّة فيتّحدوا. ولكنّنا نحبّ أن يكون هذا اليوم قريبًا.

ولا ننسَ مرضًا آخر هو التنطّع وحبّ الفلسفة... وهو فاش في العصريين وفي المفكّرين مع الأسف الشديد. مهما كان الأمر بسيطًا حملوه على أسرار عميقة وذهبوا به أبعد مذاهب التأويل إظهارًا لسعة الاطّلاع ودقّة النظر وعمق الغور! وبهذا يخرّبون المصالح الكبرى، ويثبطون الأعمال الجدّية، ويدخلون على العامّة الوساوس التي لا طائل تحتها.

ويلحق به التشاؤم المستمرّ الذي صار ميدانًا يتسابق فيه الوطنيون... فكلّما أراد الواحد أن يثبت إخلاصه الزائد في الوطنيّة لجأ إلى النعي والنعاب، يريد أن يقنعك أنَّ كلّ ما هو حولك شبكة مكايد أنت واقع بها، وأنَّ الذين تظنّهم ساعين في خلاصك هم هم ذاهبون بك إلى الهاوية!

وكلّما حاولت إقناعه بالخطأ الواقع منه جادلك بالمحال، وكابر بما لا تقدر معه على شيء، لأنَّ الأمور الاجتماعية ليست كالقضايا الرياضية إذا ظهرت نتيجتها لم يبقَ في يد المكابر حيلة، بل الأمور الاجتماعية يماحِكُ بها الإنسان إلى ما شاء الله. وقد يجد حادثة أو حادثتين فيتّخذ من ذلك قاعدة. وقد يسقط على دليل ضعيف فيزعم أنه برهان ساطع! وبعد فلا نعلم من هذا التشاؤم كلّه حقيقة مقصده، بل غاية ما نعلم أنه نعاق طول الوقت أشبه بالبوم يريد أن يتّخذ من النعاق دليلاً على الإخلاص.

وأجدر بهؤلاء أن يوضحوا للأمّة الطريقة العملية الممكنة التي يمكن بها الوصول إلى المراد، لكن بدون أن يشيروا بآراء غير قابلة الإجراء، ومع ملاحظة أنَّ الأقوال هي غير الأعمال.

فالسلب المستمرّ ليس بالذي يصل به أحد إلى مراده وإنَّما اللازم لنا هو العمل. والانتقاد الدائم هو منزع هدم سهل جدًّا على كلّ من أراده. وإنَّما الصعوبة في البناء.

والملاحدة عندما يهزأون بعقيدة وجود الواجب يجولون وأيّ مجال وتبرز منهم نكات في غاية الظرف. ولكنّهم إذا طلبتَ منهم تعليلاً معقولاً على هذا الإنكار المحض لم يأتوا بأقلّ شيء. وجميع نكاتهم إنَّما هي السلب والنفي. وما أسهل السلب والنفي.

هذه هي أمراض اجتماعية لها أسباب كثيرة تضيق هذه المقالة عن سردها، ولكن آثارها بارزة وينبغي أن تعمل الأمّة لإزالتها.

فأول الأعمال ـ حقيرةً أو جليلة ـ الإرادةُ.

وما دام الإنسان كلّما عرض عليه عمل قابله بالانتقاد والاعتراض والتشاؤم والتطيّر وعدّ ذلك من باب الفحص والتدقيق! فيكون غير مريد. وإذا كان غير مريد فيكون غير عامل. وما دمنا نقول: إنَّ الاتّحاد غير ممكن! وهل يرضى الأجانب بأن نتّحد؟ وهذا حلم وهذا منام، فإنَّنا لن نتّحد.

وما دمنا نهزأ بكلّ من يقول إنَّنا مستقلّون أو أنه في استطاعتنا أن نستقلّ فإنَّنا لن نستقلّ. هذا بديهي لأننا نحن الذين نفينا الأمر عن أنفسنا. فالأجنبيّ المتسلّط غير مضطرّ أن يثبت هو لنا ما ننفيه نحن.

فالأمّة التي لا تريد أن تصدق أنه يمكنها أن تتّحد أو أنه يمكنها أن تستقلّ، فلا شكّ أنها بلغت من ضعف الإرادة وخَوَر العزيمة وقلّة الاعتماد على النفس إلى الدرجة التي يتمنّاها الأجانب المستعمرون. فتكون قد دلّت العدوّ على موطن ضعفه، ونصرته بالرعب، فأغنته عن الأعتدة والأسلحة وبذل الدم والمال.

رأس نهضة العرب هو أن نجزم بالاستقلال والاتّحاد اللذين نريدهما واللذين لا حياة لنا في المستقبل بدونهما في عصر القوميّات هذا.

فالذي تمّ من هذين الأمرين فيجب أن نحافظ عليه وأن نقوّيه. والذي لم يتمّ منهما فليس علاج إتمامه بصراخنا: إنَّه لن يتمّ ولن يتصوّره العقل! وليس علاج إتمامه في تساؤلنا: هل يرضى باتّحادنا الأجانب؟ وإنَّه إن كانت ظهرت منهم علامات قبول فلا تكون إلاَّ حفرة لنقع فيها! إذًا يجب أن نبتعد عن هذا الأمر.

أنت لا تعلم بأمراض الأجانب أنفسهم، ولا تعمل ما يسوقهم على قبول سياستك الاستقلالية، وتظنّ السياسة العامّة هي هي على ما عهدت من قبل. وهذا خطأ منك. فالسياسة تتغيّر والزمان يأتي كلّ يوم بما ليس في الحسبان.

إذا كان الأمر يتمشّى على هذه القاعدة، قاعدة الحفرة، فيكون رضى إنكلترة بمؤتمر الهند المنعقد الآن في لندن حفرة لتقع فيها الهند!

والحال أنه ليس بحفرة أبدًا. ولو كان حفرة لما كرهته إنكلترة أشدّ الكراهية. بل إنكلترة خائفة أن تقع منه في حفرة وهو وإن لم يصل بالهند إلى جميع أمانيها فإنَّه بدون نزاع مبدأ الاستقلال التامّ، ونحن بعد هذا لسنا بحال الهند ولا كان وطن العرب في يوم من الأيام مستعمرة لإنكلترة، فاستقلالنا حقّ واتّحادنا فرض بشرط أن نريدهما نحن قبل الناس.

وبشرط أن نقلّ من هذه الفلسفة... التي ليست من الحقيقة ولا من المصلحة.

جنيف، ٢١ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ/٣/١١/١٩٣١م — شكيب أرسلان

❖ ❖ ❖

لا ينبغي للانقسامات الحزبية أن تقضي على المصالح العامّة*

المؤتمر الإسلامي

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

في جميع الدنيا أقسام وأجزاب وفرق وطوائف؛ وفي جميع الدنيا هذه الفرق يناهض بعضها بعضًا، وأحيانًا تخرج من طور النزاع باللسان إلى طور القتال بالسِّنان. ولكنّي لا أرى أمّة تختصم ما تختصمه الأمّة العربية إذا نبذ بعضها إلى بعض.

لا أرى أمّة تبلغ بها المنافسات الحزبية والشخصية ما تبلغه من الأمّة العربية في شدّة الأحنة وتوقّد الصدر وتغطية الأهواء الخاصّة على المصلحة العامّة.

إذا قرأت تاريخ العرب من صدر الملّة إلى الآن لا تجد بَوارهم - لأنهم في الحقيقة قد باروا واستضعفوا أكثر من كلّ أمّة - ناشئًا إلاّ من شدّة انقيادهم لحزازات صدورهم.

هذا الذي أضاع أمرهم في صدر الإسلام ووقف بفتوحاتهم من أيام صفين بعد أن كانت فتوحاتهم ستعمّ الدنيا.

وهذا الذي أزال ملكهم من أيام بني العبّاس، فتحوّل الأمر من العرب إلى الترك والديلم وغيرهم.

وهذا الذي ضيّع ذلك الفردوس العظيم الذي هو الأندلس، وأذلّ الإسلام ذلك الذلّ بعد ذلك العزّ.

وهذا الذي جعل العرب الذين هم أصل الإسلام ولا يقلّون عن ٧٠ مليون نسمة يعودون كالعرجون القديم ولا يبقى لهم دولة ولا صولة ولا سلطنة ولا خلافة. وإنّما كلّ ما بقي لهم دويلات وإمارات أكثرها كان تحت حكم الأتراك وغيرهم.

إنّ العربي لا يتكاءده الخضوع للأجنبي، ولا يثقل هذا الأمر عليه كلّ ذلك الثقل. وإنّما يتكاءده الانقياد لابن عمّه أو لأخيه.

---

* الفتح، العدد: ٢٨١، السنة السادسة، القاهرة (٧ شعبان ١٣٥٠هـ/١٨/١٢/١٩٣١م)، ص ص. ١ - ٣.

فهو يقتل نفسه ولا يرضى أن يكون من أبناء جلدته رئيس عليه. ولا تقدر أن تقنعه بأنه لا بدّ لكلّ الأمم من رئاسات وقيادات وأمر ونهي، وإلاَّ فسد أمرها وذهبت ريحها وانتثر سلكها وذهب ملكها ـ كما هي حالة العرب الآن إلاَّ قليلاً ـ وصارت هذه الأمّة خَوَلاً للأجانب.

هذه لغة لا يفهم بها العربي.

والأجنبي أخفّ على طبعه من ابن جلدته.

والتاريخ من ١٣ قرنًا يشهد بهذا. ومن أراد أن يكابر في هذه الحقيقة فلا يكون إلاَّ مكابرًا أي ليس من البشر.

لا يغار العربي من سلطة الأجنبي كما يغار من سلطة العربي كأنَّ الأجنبي في نظره له كلّ الحقّ أن يسود، أمّا العربي فلا.

وإذا بدأ ينافس ابن جلدته لم يبالِ أن تذهب مصالح جليلة للعرب في سبيل هذه المنافسة، بل لا يبالي بكيان العرب القومي في جانب أثرته الشخصية.

فالهوى الشخصي هو الأول، والمصلحة العربية العامّة إن وافقت الهوى الشخصي فبها ونعمت، وإن خالفته فهو المقدّم والمطاع؟

وأقول هذا بمناسبة ثلاثة شواهد حديثة العهد:

فأحدثها عهدًا المؤتمر الإسلامي بالقدس، من قبله قضيّة الاتّحاد السوري العراقي، ومن قبله قضيّة الحلف العربي.

نعم؛ إنَّ الأهواء الشخصية ليست اللاعبة وحدها في قضيّة المؤتمر الإسلامي في القدس ولا في هذه الميادين، بل بجانبها ثمّة آراء سياسية منشأوها شدّة التطيّر والإمعان في سوء الظنّ إلى الحدّ الذي تجاوز الحذر المعقول والاحتراس المقبول. على أنَّ للإغراض الشخصية أيضًا في هذه القضايا الثلاث ضربات نافذة وطعنات خارقة.

ليس مرادي هنا أن أنحاش إلى فئة دون فئة من الفئتين المتخاصمين في فلسطين، ولكن مرادي أن أعاتب إخواننا الذين نشروا هذا البيان في الاعتراض على المؤتمر الإسلامي من أجل أسباب بيّنوها وعلل علّلوها في بيانهم، بأنَّ هذا البيان على الملأ لم يكن منهم منتظرًا

لما فيه من الضرر بمشروع المؤتمر نفسه، وقد كان يمكن سلوك طريق أخرى لمعالجة هذه المسألة إن صحّ وقوع الخطأ فيها.

لست أدخل في صحّة تلك الأسباب وعدمها، ولست أجادل في شيء من موضوعها. ولكنّي أرى أنه على فرض كونها كلّها واردة فإنَّ ضررها أخفّ جدًّا من ضرر الحملة على مشروع المؤتمر في بيان على الملأ.

لست أقول كلمة سوء في الذين أمضوا هذا البيان، وحاشا لي أن أقول كلمة كهذه في فريق من أعيان فلسطين وأماثلها وأعلامها ومن لا شبهة لأحد في حميّتهم الوطنية ونزعتهم المليّة. ولكنّي كنت أودّ لو جعلوا ميدان الخصام بينهم وبين الحاج أمين الحسيني غير هذا الميدان المقدّس[1].

كان يمكنهم أن يحملوا على الحاج أمين في أيّ موضوع أرادوه إلاَّ في هذا الموضوع. وكان يمكنهم أن ينتهزوا في مهاجمته كلّ فرصة غير هذه الفرصة.

أمَّا المؤتمر الإسلامي فليس بالفرصة التي كانت تليق بهذه المناوأة.

نعم إنَّهم يقولون إنَّ اعتراضهم لم يكن على المؤتمر نفسه، ولكن على الأغلاط التي أتاها المفتي في كيفيّة الدعوة إليه وفي كيفيّة تأليف لجنته التحضيرية إلخ. ولكن النتيجة من جهة الضرر بالعمل المفيد الذي هو المؤتمر كانت واحدة. وهذا أخطرَ بالبال قضيّة الاعتراض على الحلف العربي، الذي لو حصل الاعتراض عليه من حيث هو لأوجب ذلك نفور الأمّة العربية. فبدأ المعترضون بتقديسه والترحيب به لكنّهم انتهوا إلى القول بأنه دسيسة إنكليزية قاصمة لظهر العرب فلذلك وجب بزعمهم نبذه.

ولك أن تقول مثل هذا في الاتّحاد السوري العراقي: خشي بعضهم إن عارضوه بلا سبب أن يبوؤا بسخط الأمّة ويخسروا ثقتها فيهم. فبدأوا بمدحه وتعظيمه ثمَّ أشاروا إلى أنَّ في صلبه شروطًا تنقص من حقوق السوريين التي كانوا يحرزونها لو سلموا من الاتّحاد السوري العراقي! والحال أنه لم يثبت شيء من هذه الدعوى.

إلاَّ أنَّ بين هذين الشاهدين وبين شاهد المؤتمر الإسلامي فرقًا في كون أكثر الفئة المعارضة لسماحة المفتي ليست عاملة لإبطال المؤتمر بالفعل، بل أكثرها ممَّن يودّ عقده ولا يجهل

(١) الفتح - وكان ينبغي لهم أن لا يمكنوا جريدة نصرانية كمرآة الشرق من أن تدخل بينهم وبين من يعارضونه في أمر إسلامي محض.

فوائده. لكنها تريد أن تثبت كون المفتي أضرّ بمشروع المؤتمر بعدم إتيان البيوت من أبوابها.

ونحن إنّما نعاتب السادة إخواننا هؤلاء من جهة إمكان المناقشة في هذه المسألة مع تأييد المؤتمر والحرص على عقده. فالحاج أمين ليس هو المؤتمر والمسألة ليست شخصية؛ وإنَّ هذه المخاصمة للحاج أمين الحسيني في ميدانِ السلاحُ فيه قضيّة المؤتمر قد أشمتت بنا الأعداء ـ وهم كثيرون ـ وأدخلت عليهم من الفرح ما لا يوصف. وأضرّت بالمصلحة ضررًا بليغًا لأنها أفهمت الأعداء أنَّ بين الفلسطينيين شقاقًا بعيدًا فقويت بذلك نفوسهم.

ونحن هنا في أوربة نقرأ ما تنشره الجرائد الأوربية الاستعمارية بحقّ مشروع المؤتمر وما تتباشر به الصحف الصهيونية كلّ يوم من حملات المسلمين أنفسهم على المؤتمر. ونأخذ من هذا أنَّ جميع أعداء العرب وجميع أعداء الإسلام وجميع أعداء فلسطين العربية لا يريدون هذا المؤتمر لأنه سيجمع للإسلام كلمة؛ ويؤيّد للمسلمين معارفة، ويأخذ منهم كفالة لعرب فلسطين.

فالحاج أمين الحسيني هو الغرض الذي تتوجّه إليه سهام الرماة من الاستعماريين والصهيونيين وجميع الطامعين في بلاد الإسلام وفي الشرق، لا لسبب غير دعوته إلى مجمع يحضره مسلمو الآفاق للمذاكرة في مصالحهم العامّة وفي مصلحة عرب فلسطين خاصّة. أيقدر أحد أن يقول إنَّ حالة العالم الإسلامي حسنة، وإنّها لا تحتاج إلى مذاكرة، وإنَّ ليس في الإمكان أبدع ممّا كان؟

أيقدر أحد أن يقول إنَّ انعقاد مؤتمر إسلامي عامّ لا يجعل هيبة ووقارًا للمسلمين الذين كان الأوربيون ظنّوا أنه بعد إسقاط مصطفى كمال للخلافة قد انتهت بين المسلمين كلّ رابطة عامّة ودخلوا في دور التلاشي؟

أيمكن أحدًا أن يزعم أنَّ العالم الإسلامي الممثّل في المؤتمر إذا قرّر الإجماع على مقاومة الصهيونية؛ وعلى حفظ الأماكن المقدّسة الإسلامية في فلسطين، بل على حفظ الأكثريّة العربية في فلسطين، لا يكون لذلك القرار فائدة لفلسطين؟

أصحيح أنَّ تأسيس مدرسة جامعة عربية في القدس لا ينفع فلسطين؟

أصحيح أنَّ انعقاد مؤتمرإسلامي عامّ في القدس الشريف في مقابلة المؤتمر اليهودي في زوريخ ثمَّ في بازل ليس فيه شيء من الأهمّية؟

قد يجادل بعض خصوم الحاج أمين في هذه الحقائق؛ لكن لو كانت الحقائق تضيع بمجرّد المكابرة لما بقيت في الدنيا حقيقة.

فهل يكون من باب المكافأة للحاج أمين الحسيني على مساعيه الإسلامية، ومساعيه العربية، ومساعيه الفلسطينية، أن نحمل نحن عليه من الداخل بينما جميع أعدائنا على اختلاف أصنافهم يحملون عليه من الخارج؟

وما العداوة بين أعداء العرب وأعداء الإسلام وأعداء فلسطين للحاج أمين الحسيني. أبينهم وبينه نزاع على بساتين وطواحين كما يقال؟

كلاًّ. بل شدّة بغضائهم له إنَّما هي من أجل ذلك البستان الكبير الذي هو فلسطين، وكما قلتُ في صدر المقالة كان يمكن مهاجمة المفتي المشار إليه في غير هذا الموقف، فكان المسلمون والشرقيون يقولون: هذه أمور محلّية تعني أهل ذلك القطر وحدهم، ولكن المؤتمر الذي نحن في صدده يعني الجميع.

وختام القول أني لم أحبّ لإخواننا المشار إليهم الاعتراض على هذا المشروع علنًا في الجرائد بحجّة أنْ قد وقع في إعداده والدعوة له من الغلط ما وقع؟ ولنعترف لهم جدلاً بوقوع هذا الغلط. فليعلنوا هم عدم اعتراضهم على عقد المؤتمر وإصرارهم على وجوب عقده، وليؤيّدوه بما استطاعت أيديهم.

ليس في مقالي هذا دواعٍ شخصية، بل إنَّ قسمًا من الموقّعين على ذلك النداء هم من أعزّ خلاّني وإخواني. والله يعلم أنَّ منهم مَن صداقتي له لا تقلّ عن صداقتي للحاج أمين الحسيني، بل صداقتي لهم أسبق عهدًا بكثير. وأنا على ثقة أنَّ المؤتمر الإسلامي بالقدس عزيز عليهم جميعًا. والله يهدينا جميعًا إلى الصواب.

جنيف، ٢٠ رجب ١٣٥٠هـ/١٩٣١/١١/٢٠م

شكيب أرسلان

✲ ✲ ✲

إستقلال الهند ضروري

لكن على شرط إجابة الهنادك لمطالب المسلمين *

ساعة وربع ساعة مع المهاتما غاندي

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

قد تقدّم لنا في هذه الجريدة مقالة عن المسألة الهندية كان لها صدى في الأقطار الهندية، وقد ترجمها بعض المسلمين في الهند إلى لغة الأوردو، فاستحسنها السواد الأعظم من المسلمين، واستاءت منها تلك الفئة القليلة التي هي سائرة مع الهنادك بدون قيد ولا شرط. وقد زعم هؤلاء النزر من المسلمين زعمًا ليس أعرق منه في البهتان وهو أننا فيما يظهر لا نريد استقلال الهند. وقالوا من العجب أنَّ رجلاً يدعو إلى استقلال سوريا ثمَّ تكون هذه خطّته بإزاء استقلال الهند الذي يجب على كلّ مقاوم للاستعمار أن يدعو إليه.

نعم، جاء إلى جريدة البلاغ المصرية برقيّة من الهند لمراسل لها يتضمّن هذا الكلام العجيب، ولقد بحثنا عن هذا المراسل فعلمنا من بعض زعماء الهند أشياء بحقّه لا نريد أن نتعرّض لها، إذ لم يكن من شأننا التعرّض للأمور الشخصية. وقصارى ما نقول إنَّ هذا المراسل المسلم ليس بناصح لقومه، وإنَّ الوطنيّة على العمياء ليست محمودة، وإنَّ كلّ شيء على العمياء عاقبته وخيمة. والدين نفسه على العمياء غير جائز. حتَّى أنَّ الاعتقاد بوجود الله تعالى على العمياء أي تقليدًا بدون نظر ولا تأمّل لا يجوز عند علماء المسلمين. فإذا كانت هذه الأمور المقدّسة كلّها غير جائزة بدون رويّة ونظر، فنظنّ أنَّ سير بعض المسلمين في الهند مع الهنادك في سبيل الوطنيّة، راكبين فيها متن عمياء، غير مشترطين على أبناء وطنهم شروطًا تؤمّن مستقبلهم منذ الآن، لا يكون من ورائه إلاَّ الندم والتلهّف على ما فات والوقوع في القتال والنضال والأهوال الثقال. وهذا كلّ ما أردنا أن نقوله في مقالتنا السابقة. ولم نكن لنعارض في استقلال الهند ولا لنرضى بتأخيره عن ميعاده طرفة عين، إنَّما أحببنا أن يسير المسلمون إخواننا إليه على بيّنة من أمرهم حتّى لا يعودوا في يوم من الأيام فيأسفوا على فراق الإنكليز للهند ويتوسّلوا إليهم أن يعودوا إليها لإعادة النظام والأمن... فقول مَنْ قال إنَّ في

* الفتح، العدد: ٢٨٦، السنة السادسة، القاهرة (٢٠ رمضان ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/١/٢٩م)، ص ص.١ ـ ٣، ١٤ ـ ١٥.

كلامي شيئًا يشبه التثبيط لسعي المسلمين في استقلال الهند هو محض افتراء، أنا أفقأه حصرمًا في عين كلّ من قاله، وذلك بمجرّد إعادة الجملة الآتية من مقالتي السابقة:

«لا جدال في أنَّ اتّفاق المسلمين مع الهنود غير المسلمين هو من أجلّ الأماني التي تجول في صدور جميع الشرقيين، وإنَّه يجب على زعماء الفريقين ومفكّريهم ورجال الحلّ والعقد فيهم أن لا يُبقوا في قوس البحث منزعًا وأن يجيلوا جميع قداح النظر حتّى يصلوا إلى الغاية المنشودة التي هي الاتّفاق فيما بينهم، ويضعوا بها أساس تحرير بلادهم من سيطرة الأجانب. هذا الأمر محبوب لذاته ومحبوب لنتائجه في سائر البلاد الشرقية التي غلب عليها الإفرنج، لأنَّ الاستعمار كما لا يخفى سلسلة إذا انفصمت إحدى حلقاتها انتثرت بأجمعها تدريجًا، فكيف لا يؤثّر تحرير الهند في سائر البلاد الرازحة تحت ثِقل الاستعمار، والهند هي الحلقة الكبرى من تلك السلسلة، وهي بعد ذلك سبب البلاء على البلدان التي إنَّما سقطت في هذه السيطرة الأجنبية بسبب وجودها على طريق الهند».

ثمَّ إنّني في آخر تلك المقالة قلت:

«فإن كان غاندي منطويًا على نيّة حسنة راغبًا في استقلال الهند على وجه تسعد به الهند ولا يكون فيه فرق بين مسلم ومجوسي، فمن السهل عليه أن يؤمّن شوكت علي ورجالات الإسلام في الهند التأمين اللازم في أمر الانتخابات النيابية وفي سائر الحقوق. فإن لم يكن راضيًا بإعطاء هذه المواثيق فتكون له نيّة أخرى... وهناك إنكلترة ودهاؤها، فقد تستثمر هذا الخلاف لأجل استبقاء سيطرتها على الهند كلّها. فمن باب الحكمة أن لا يدع الهنود لها سبيلاً إلى استغلال اختلافهم كما هي عادتها في استغلال الاختلافات فخلاصك في يدك يا إسرائيل، إلخ».

فكلّ من يقرأ كلامنا هذا يعلم أنه كلام رجل من أشدّ الناس رغبة في استقلال الهند، ومعرفة للفوائد التي تعود على جميع الشرقيين من هذا الاستقلال. ثمَّ إنَّنا حذّرنا ولا نزال نحذّر إخواننا المسلمين في الهند من السير مع الهنادك بدون قيد ولا شرط، لأننا في السياسة عمليّون نعلم أنَّ النظريات المطلقة فيها ضرب من الحمق، وأنها كلّ يوم في شأن، وأنه لا يوجد في الدنيا شيء أشدّ تلوّنًا من السياسة، فإنَّها تتعلّق بكلّ حادث وتتلوّن بحسب كلّ طارئ، وقد يتّفق فيها العدوّ مع عدوّه وقد يقتتل فيها الأخ مع أخيه. وقد يكون صديقك اليوم من كان يسعى بالأمس في محوك من الوجود. وقد يكون عدوّك اليوم من لبثت في

الماضي حقبًا طوالاً وأنت معه على الخير والشرّ. هذه هي السياسة عند من يعرفها ومن يفقه معناها ومن يسبر غورها، لا عند من لم يشمّ رائحتها، ولا عند النظريين الذين يقرأون جملاً وألفاظًا يتهافتون عليها بدون تفكّر ولا رويّة، ولا عند ذوي الأغراض الذين رانت على قلوبهم الضلالة فأعمتهم عن الحقائق.

نحن نريد استقلال الهند فعلاً لا قولاً، ونعلم جيّدًا مَنْ الإنكليز وما دهاؤهم، ونعرف أبعد مدى كيدهم ودقّة مخرز دسائسهم، ولا يخفى عنّا أنهم يستثمرون الصغيرة والكبيرة لأجل إحباط مشروع استقلال الهند. وقد كانوا في الماضي لمَّا كانت الكلمة العليا في الهند للمسلمين يخوّفون الهنادك بقولهم لهم: إنَّ المسلمين سيعودون إلى سلطنة الهند ويتولّونها استئنافًا كما تولّوها بداية. وبهذا كانوا يشقّون الهنادك عن المسلمين ويصدّعون الوحدة الهندية. والآن عندما صار الهنادك هم ذوي الكلمة العليا في الهند أخذ الإنكليز يخوّفون المسلمين من مشروع استقلال يصير فيه الحكم بأيدي الهنادك، على حين لا يبقى للمسلمين ملجأ يلجأون إليه إذا عسفتهم الأكثريّة المجوسية. ولم يكن هذا التخويف خاليًا من الصحّة ولا محض خيال، وذلك بما هو واقع من المنازعات الدائمة الطائفية والعصبيّات الدينية التي لم تليّن المدنيّة الحاضرة حرشتها إلى الحدّ الذي يأمن الإنسان به العواقب وأنت ترى أنه بينما ممثّلو الهند من كلّ فريق حول المائدة المستديرة في لندن، والهنادك في أشدّ الحاجة لإرضاء المسلمين، والظهور بمظهر صفّ واحد في وجه الإنكليز، كان القتال جاريًا في أماكن عدّة بين المسلمين والهنادك وكانت حكومة "كشمير" المجوسية ترهق المسلمين عسرًا، وتبطش بهم بطشة جبّارين، وكان شرطتها الأنذال يُكرِهون المسلمين الموحّدين على السجود للأصنام إذلالاً لهم، وهم يعلمون أنَّ سجود المسلم للصنم كفرٌ صريح في مذهبه. فإذا كان ذلك كذلك والإنكليز لا يزالون في البلاد واستقلال الهند التامّ لا يزال بعيدًا والخلاف واقع في أكثر من مسألة ومعضلة، فكيف تكون حال المسلمين يا ربّ إذا اتّسق الأمر للهنادك وصارت مقاليد الهند إلى أيديهم بلا نزاع. سيقول المكابرون: إنَّهم لن يرهقوا الأقلّية الإسلامية عسرًا أبدًا بناء على كون الجميع هنودًا تجمعهم الجامعة الوطنية! فنجاوب: لماذا لا تعمل هذه الجامعة الوطنية منذ الآن وتعطينا التأمينات اللازمة والأدلّة الواضحة، ولماذا لا نزال نرى العصوبة الدينية هي العاملة في الهند إلى ساعتنا هذه؟ إنَّه لا يسلم المنطق ولا العقل السليم أنَّ عصوبة طائفية تكون بهذه الشدّة في هذا الوقت مع وجود الخطر الإنكليزي العامّ، ثمَّ تزول دفعة واحدة عندما يصير الأمر إلى أيدي الأكثريّة الهندوكية.

ذكرنا في مقالتنا السابقة ولا نزال نذكر أنَّ الأوربيين الذين هم أرقى من الهنود بدرجات في سلّم المدنيّة لا تزال عندهم فوارق مذهبية ولا تزال الجامعة الدينية تجمع بين أقوام منهم لا سيَّما الأقلّيات. وضربنا على ذلك أمثلة مثل الكاثوليك في ألمانيا، والكاثوليك في هولندا، والكاثوليك في إرلندا، والكاثوليك في أمريكا، وغير ذلك. وقلنا، إن كانت الوطنيّة وحدها ضمانًا كافيًا، فإنَّ جميع هذه البلدان ذات وطنيّة عامّة ناضجة هي أرقى جدًّا من وطنيّة الهنود برغم مزيد احترامنا لوطنيّتهم. فلهذا لم يكن من الحزم أن نحمل المسلمين على قبول السير مع الهنود بلا قيد ولا شرط، إذ بذاك يكون أساس الاستقلال والاستقبال مهدّدًا، والنزاع يكون مؤكّدًا، فينهار الاتّفاق بمجرّد خروج الإنكليز ويضطرّ الضعفاء في الهند ليخلصوا من استبداد الأقوياء أن يمدّوا أيديهم إليهم ليعودوا. نحن إنَّما أردنا أن يكون أساس استقلال الهند متينًا، لا تزعزعه عواصف الاختلافات في المستقبل. وماذا يطلب المسلمون لعمري؟ الجواب إنَّهم يطلبون أن تكون الانتخابات النيابية في البنجاب والبنغاله مستقلّة عن الانتخابات في سائر الهند، وذلك لأنَّ الأكثريّة في هذه البلدان للمسلمين. فالمسلمون تأمينًا لمستقبلهم واعتياضًا من سلطة الهند السابقة التي كانت لهم وحدهم، يريدون أن تكون لهم مملكة هم فيها غير خاضعين لأكثريّة غير إسلامية. وكلّ عاقل إذا تأمّل في التاريخ والسياسة يحكم بأنَّ المسلمين ليسوا على شطط في هذا الطلب. فإن كان الهنادك ذوي نيّة حسنة فلماذا يضعون هذه العقبات في وجه مطالب المسلمين المعقولة، ويعرقلون بعملهم هذا استقلالاً تعود فوائده على الجميع، ولا سيَّما عليهم باعتبار أنَّ الأكثريّة في كلّ بلاد تكون هي ذات الفائدة الكبرى من الاستقلال فعناد الهنادك في هذه المسألة، وكون المؤتمر الهندوكي يبرق إلى غاندي في لندرة ويلومه على ما يسمّيه تساهلاً منه مع المسلمين، وحصول هذه الفظائع التي أتاها الهنادك في «كشمير» كلّ هذا زاد قلق المسلمين على مستقبلهم وساقهم إلى ممالأة سائر الأقلّيات، حتّى تكون معهم يدًا واحدة في وجه الهنادك. ولقد كان هذا الأمر مؤسفًا جدًّا لأنه جاء وفق هوى الإنكليز وأخّر استقلال الهند، ولكن الملوم فيه غاندي والمؤتمر الهندي، فإنَّهم كان ينبغي لهم أن يجيبوا مطالب المسلمين بلا تردّد، وأن يذلّلوا بها العقبة الكبرى الواقفة في وجه الاستقلال العامّ.

والآن لا يكتفي الهنادك برفض فصل البنجاب والبنغاله والسند عن سائر الهند في الانتخابات، بل تجدهم ينكرون أشدّ الإنكار على المسلمين تعلّقهم بسائر العالم الإسلامي، ويقولون للمسلمين: ماذا يعنيكم من مسلمي العرب والترك والأفغان، إلخ. فهذا الاعتراض

قد زاد المسلمين خوفًا من العواقب، إذ لا يفهمون مقصد الهنادك في الحيلولة بين مسلمي الهند وبين سائر العالم الإسلامي، إن لم يكن ثمّة مآرب خبيثة.

قيل لنا إنَّ الهنادك يخافون صلة مسلمي الهند بالعالم الإسلامي، حتّى لا يأتي المسلمون من خارج الهند ويفتحوا الهند مرّة ثانية كما فتحوها في الماضي؟!

فأيّ أحمق لعمري يقول إنَّ المسلمين الآن هم بحال الزحف على الهند أو على غير الهند، وكلّ أحد يعلم أنَّ كلّ ما يتمنّاه المسلمون هو أن يتخلّصوا من سيطرة الأجانب عليهم في بلادهم وأن يكونوا أحرارًا كسائر الأمم الحرّة، ففكرة فتح المسلمين للهند لا ترد في خاطر أيّ عاقل، ونحن لا نظنّ مفكّراً في الهنادك يتلقّاها بصورة جدّية، ولكنّنا نظنّ أنهم يظهرون الاقتناع بها عمدًا ليتّخذوها حجّة على المسلمين، ويتوصّلوا بها إلى فصلهم عن سائر العالم الإسلامي ويزيدوهم ضعفًا على ضعفهم، وقد علمنا أنَّ مسلمي الهند برغم استحالة هذا الفرض أعطوا الهنادك التأمينات اللازمة، بأنهم إذا حصل هذا المحال وزحفت أمَّة إسلامية من خارج الهند كالعرب أو العجم أو الأفغان وقصدت الاستيلاء على الهند يكون المسلمون بجانب الهنادك جبهة واحدة في وجه المسلم الزاحف. وكلّ هذا لم يقنع الهنادك، بل تجدهم لا يفتأون يذكرون خطر زحف المسلمين من الخارج على الهند! وانضمام مسلمي الهند إلى إخوانهم في الدين.

فنحن لا نرى هنا غير التعنّت، وغير المكابرة، وغير سوء النيّة. ونحن ننصح للهنادك بترك هذه الخزعبلات، وبالتمسّك بالأمور المعقولة، إن كانوا يريدون فعلاً أن تستقلّ بلادهم.

ولقد حدانا حبّنا باستقلال الهند ونصحنا للمصلحة الشرقية العامّة، أن ذهبنا أنا وزميلي إحسان بك الجابري وسلّمنا على غاندي عندما مرّ بسويسرة، وتذاكرنا معه أكثر من ساعة في قضيّة الهند، باحثين عن حلّ للخلاف الواقع بين المسلمين والهنادك.

فالذي رأيناه من غاندي أنه رجل عاقل فاضل سريع الفهم كبير الدماغ واسع البصيرة شديد الاحتياط حسن التخلّص بعيد عن التهوّر، لم تجد فيه شيئًا من الاندفاع الذي يتّصف به غالبًا زعماء الأحزاب ومثيرو الشعوب، بل وجدنا فيه جميع صفات وزراء الخارجيّات ورجال الحكومات المسئولين. فالمهاتما لم ينطق أمامنا بكلمة فيها رائحة إنكار لمطالب المسلمين، ولكنّه أيضًا لم ينطق أمامنا بكلمة عن قبول مطالبهم. تكلّمنا نحن وإيّاه ساعة وربع ساعة، نبدي ونعيد ونعطي ونأخذ ونقلّب وجوه الحلّ، وهو يجيب بأجوبة سديدة

إلاَّ أنه لا يؤخذ منها ما يصحّ أن يجعله الإنسان عهدًا سوى قوله لنا: نحن نرضى بأن تكونوا أنتم زعماء العرب المسلمين حكمًا بيننا وبين مسلمي الهند. هل قال غاندي هذا الكلام مجاملة لنا وتخلّصًا منّا بالتي هي أحسن، أم كان ذلك كلامًا صادرًا من قلبه مستعدًا هو لإجرائه؟ الجواب لا نعلم، وإنّما هكذا هو قال لنا. ونحن أجبناه: بأننا نظنّ أنّ زعماء العرب الذين يهمّهم استقلال الهند لما فيه من فوائد استقلال الشرق بأسره، لا يتأخّرون عن قبول هذا التكليف إن كان لا بدّ منه.

وكذلك قال لنا شيئًا فيه صراحة ورأيناه أيضًا صوابًا وهو: إنّ بعض مسلمي الهند يتهدّدون الهنادك بعرقلة سير الاستقلال من أصله إن لم يقبلوا مطالب المسلمين. وطلب منّا أن ننصح إخواننا مسلمي الهند بعدم استعمال هذه النغمة.

فأجبناه على هذا بأننا سننصح لمسلمي الهند بأن لا يجعلوا لهذه اللهجة أثرًا في مطالبهم، ولكنّنا قلنا للمهاتما بأنه من الواجب على الأكثريّة الهندوكية أن تلبّي المسلمين إلى مطالبهم؛ ومن الواجب عليه هو خصوصًا بأن ينصح لقومه بعدم التشدّد والتلدّد في هذا الخصام. وهو قد وعد أيضًا بنصحهم وقد كان موافقًا لنا على كلّ ما قلناه من كون هذا الخلاف محزنًا ومثبطًا ومعرقلاً، وأنّ المصلحة الشرقية العامّة تقضي بسرعة إزالته. إلاَّ أنَّ غاندي هو أيضًا أشار من طرف خفيّ إلى علاقة مسلمي الهند بالعالم الإسلامي وتأثّرهم بما يأتيهم منه، ورأينا في كلامه شيئًا يشبه الخوف الذي أشرنا إليه آنفًا. فقلنا له إنّ علاقة مسلمي الهند بالعالم الإسلامي يجب أن تكون ممّا يرغب فيه الهنادك لا ممّا يرهبون منه، لأنّ العالم الإسلامي وأهالي الهند قاطبة كلّهم مربوطون بسلسلة واحدة ومصلحتهم واحدة، وكلّما تنفّست أمّة منهم تنفّست جارتها، فالعالم الإسلامي إذا تحرّر تحرّرت الهند بالضرورة والهند إذا تحرّرت تحرّر العالم الإسلامي بالضرورة، فلا وجه لحذر الهنادك من صلة العالم الإسلامي بمسلمي الهند، فأظهر هو أخيرًا الاقتناع بما قدّمناه في هذا الباب، وأمّا مسألة أكثريّة المسلمين في البنجاب والبنغالة، فقد قال عنها إنّها أكثريّة غير منازع فيها، وأنها من قبيل تحصيل الحاصل. فأجبناه: نعم، ولكن المقصود هو أنّ المسلمين يريدون أن تكون هذه البلاد حرّة في مسائل كثيرة غير مقيّدة برأي مجلس الهند العامّ، إذ تقييدها برأي المجلس العامّ يجعل الأكثريّة المسلمة فيها أيضًا تحت حكم الأكثريّة الهندوكية، فهنا لم يصرّح لنا لا بنفي ولا بإيجاب لأنه فيما يظهر يحذر مَن وراءه مِن قومه فلا يريد أن يتقيّد بوعد يصعب عليه إنجازه.

ونحن نظنّ أنَّ التوفيق بين الفريقين غير مستحيل لو خفّفت الهنادك من غلوائها، وذلك بأن يكون لأهالي البنجاب والبنغاله والسند حقّ في أن يرفضوا من قرارات المجلس الهندي العامّ ما يرونه ماسًّا وأن يقبلوا منها ما يوافقهم، أي لا يكونون تابعين للحكومة الهندية العامّة إلاَّ فيما هم متّفقون فيه مع الهنادك، ثمَّ أن تكون تلك البلدان مستقلّة بجيشها، إلاَّ إذا هجم عدوّ أجنبي على الهند من الخارج فيتحتّم على جيوش هذه البلدان الانضمام إلى الجيش الهندي لدفع العدوّ الأجنبيّ.

وكذلك يجب أن تكون الوحدة بين الفريقين في التلغراف والبريد والجمارك وكثير من المرافق العامّة، وأن تكون نظارة الخارجية واحدة بحيث تكون السياسة الخارجية الهندية غير مفترقة وهذا من أهمَّ الأمور، وممّا يجب أن يرضى به الهنادك إن كانوا يفتكرون.

فإذا توفّرت النيّات الحسنة فيمكن التقريب بين الإيجاب والقبول والوصول إلى الحلّ الذي يرضى به الفريقان. وأمَّا إن بقي الهنادك مستمرّين على عنادهم، فيكونون هم الذين بعنادهم هذا روّجوا مصلحة الإنكليز، ولا يكون المسلمون هم المسؤولين عن عرقلة الاستقلال الهندي كما يزعمون.

أمَّا غمز بعض إخواننا المصريين في شوكت علي وغيره من زعماء مسلمي الهند الذين لا ينقادون على العمياء إلى المجوس فهو من غرائب الأمور. وأغرب ما فيه اتّهامهم بممالأة إنكلترة. فإنَّه قلّما يوجد في الشرق رجل قاوم إنكلترا مقاومة شوكت علي، ومن يقدر أن يطعن بإخلاص شوكت علي لوطنه ولملّته؟ غير أنَّ شوكت علي كما هو هندي هو مسلم أيضًا، فكما يهمّه استقلال الهند يهمّه استقبال الإسلام فيه، ولا يريد أن يخرج من قيد حتّى ينشب في قيد آخر، ولا يريد أن يقدم على عمل يقول بعده:أرى قدمي أراق دمي. وشوكت علي يعلم أنَّ وراءه سبعًا وسبعين مليون مسلم في الهند ومسئوليّة ما سيصيرون إليه معلّقة في رقبته ورقاب عدّة أشخاص مثله من زعماء المسلمين. وهو يرى أيضًا المنازعات المستمرّة بين المسلمين والهنادك، ويخشى مغبّتها إذا لم يؤسّس استقلال الهند على أساس متين من الاتّفاق بين الفريقين، وبالجملة فلا يوجد واحد يريد استقلال الهند أكثر من شوكت علي والسيِّد شفيع الداوودي والشاعر الفيلسوف إقبال وأمثالهم، ولكنّهم لا يريدون أن يؤدّوا بدل هذا الاستقلال سحق نحو ثمانين مليون مسلم. ولا يرون ذلك ضروريًا، والذي أقدم عليه مسلمو الهند من مقاومة الإنكليز لم يقدم عليه الهنادك.

فيجدر ببعض إخواننا المصريين المسلمين أن لا يكونوا حلماء عند غضب غيرهم، وأن يعلموا أنَّ مسلمي الهند لا يريدون العبوديّة لإنكلترا، ولكنّهم لا يريدون الانتقال من عبوديّة إلى أخرى، بل يريدون التحرير عامًّا. فأمّا قضيّة أنَّ الهندوكي وطني وأنَّ المسلم الهندي وطني، ولذلك لا يجوز أن يخشى وطني من وطني! وألفاظ من هذا القبيل، فالمفكّرون وسوّاس الأمم الذين في رقابهم تبعات ثقيلة، لا يجوز لهم في ميادين العمل التسلّي بالألفاظ الفارغة والتعامي عن الحقائق الراهنة. ولذلك زعماء مسلمي الهند الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم إلاَّ نزرًا لا يذكرهم جميعًا على رأينا هذا بأنه لا يجوز السير مع الهنادك في طريق الاستقلال بدون قيد ولا شرط. وأنه يجب على الجميع أن يسعوا في الاستقلال وأن يطالبوا الإنكليز به بدون فتور ولا وقوف، ولكن في الوقت نفسه لا بدّ للمسلمين أن يحتاطوا لأنفسهم من اليوم رَضِيَ من رَضِيَ وأبى من أبى.

ولقد شاهدنا أيضًا بعض مسلمي الهند ممَّن يميل إلى غاندي ويرى المصلحة في التمالؤ التامّ مع الهنادك على الإنكليز، وتحادثنا معهم طويلاً فلم ينكروا أنَّ المسلمين محقّون في طلب التأمينات التي يطلبونها وفي اشتراط حرّية البنجاب والبنغاله والسند، ولكنّهم شفعوا كلامهم هذا بأنه مع حسن النيّة لا يتعذّر التوصّل إلى الحلّ المقبول عند الفريقين، وقالوا إنَّ الهنادك قد رضوا بإعطاء هذه الولايات التي أكثريّتها مسلمة حقّ رفض ما لا يوافقهم من قرارات المجلس الهندي العامّ، وإنّما انتقدوا شوكت علي في تهوّره بالاتّفاق مع سائر الأقلّيات التي لا تريد للهند استقلالاً فإن كان خبر رضى الهنادك بحقّ البنجاب والبنغاله برفض ما لا يوافقهم من قرارت المجلس الأكبر صحيحًا فتكون خطوة عظيمة إلى الأمام، وجميعنا نتمنّى حلّ هذا المشكل بأقرب وقت. ولكنّنا لا نرضى أن ينحلّ هذا المشكل على ظهر المسلمين وأن يخيبوا في مطالبهم، على حين أنَّ الهنادك قادرون أن يجيبوهم إلى مطالبهم بكلّ سهولة إن كانوا لا يضمرون الإستبداد ولا ينتظرون أن يبرح الإنكليز الهند حتّى يحوّلوها هندوكية لا تقبل معها للإسلام قبضًا ولا بسطًا.

جنيف، ٢٥ شعبان ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/١/٥م

شكيب أرسلان



اتّفاق الإمامين يحيى وابن سعود*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

طالما تاقت الأنفس إلى أمنية هي من أجلّ الأماني، ولو تحقّقت لاندرأ بها خطر كبير عن العرب، هي اتّفاق جلالتَي الملك ابن سعود والإمام يحيى بن محمّد بن حميد الدين، أي اتّحاد جزيرة العرب لا أكثر ولا أقلّ.

وقد كان المفسدون يحولون دون هذا الاتّفاق وينقلون ـ كلّ فريق من جهة ـ كلّ ما ينفّر ويباعِد، ويخربون بيوت العرب وبيوت أنفسهم بأيديهم.

وقد كنّا ولله الحمد ـ والإمامان شاهدان، ونعم الشاهدان هما ـ لا نألو جهدًا بالكتابات المتّصلة في التأليف والتقريب.

وأخيرًا وقع الخلاف على جبل عرو.

وساق الإمام يحيى عساكره واستنفر الملك عبد العزيز قبائله في وجهه وكادت الحرب تشتعل بين الفريقين.

إلاَّ أنَّ الله قدّر ولطف وأراد بالعرب خيرًا. والأخلاق العربية غلبت وحمية الإسلام ظهرت.

بعد أن قطع مندوبو الإمامين أملهم من الوفاق، أبرق الإمام يحيى إلى الملك عبد العزيز قائلاً له: أنا أجعلك حكمًا في هذه المسألة فاحكم بما تراه أنت.

فأجابه ملك الحجاز ونجد: قد حكمت في هذه المسألة على نفسي، وأعطيت الأوامر بتسليم جبل عرو إلى عمّالك. إذ هي يد وفرغت إلى أختها فلا فرق.

منذ زمن قديم لم تسمع الناس بعمل شريف كهذا. ولقد حقّق كلّ من الملكين ما يرويه الخلق عنه من شهامة وأنفة وكرم أخلاق وحكمة وحنكة سياسية.

---

* الفتح، العدد: ٢٨٧، السنة السادسة، القاهرة (٤ شوّال ١٣٥٠هـ/١٢/٢/١٩٣٢م)، ص ص. ١ ـ ٢.

لقد سالت الدموع من الفرح عندما علمنا أنَّ ملوك العرب حلّوا المعضلة التي طرأت بينهم بهذا الشكل الشريف الذي تطيب به النفوس وترتفع به الرؤوس.

هذا والدول اللاتي تدّعي المدنيّة لا تتّفق على شيء، ولا تقدر على حلّ معضلة، وكلّ منها تتأهّب وتتسلّح لتقاوم الأخرى.

وجمعيّة الأمم يزداد عجزها ويفتضح عوارها.

فما أثلج صدرنا بهذه البشرى التي عرت عن حسم خلاف جبل عرو بمسابقة الملكين كلّ منهما للآخر في ميدان الكرم.

أدام الله للعرب هذه الأخلاق العالية.

وعسى أن تستمرّ السياسة بينهم على هذا المنهاج لا سيَّما في هذه الوقت الرهيب.

الوقت مخيف جدًّا، والمستقبل مظلم حالك الظلام، والحرب الأوربية مهما تأخّرت فهي آتية لا ريب فيها. وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ومن المفاوضات والمبادلات ما نشأ في الحرب الماضية.

فالبلدان العربية تحت الخطر بل الخطر الشديد. إنّي لأعلن العرب هذه الحقيقة من الآن.

وليس أمامهم لدرء الخطر إلاَّ الاتّحاد ظاهرًا وباطنًا. إنَّه إذا نشبت حرب أوربية تفلَّت كلّ من قيّده، وصار كلّ قوي يستعمل قواه، والحقّ بعد ذلك للغالب. وقد ينتهي الأمر بالاتّفاق لكن على ظهر الضعيف.

فالوقت غير متّسع للمنافسات الشخصية... والوقت غير ملائم للذحول العائلية...

وقد كنّا ولا نزال ننوّه بمحامد جلالة الملوك الثلاثة، الإمام يحيى صاحب اليمن، والملك عبد العزيز بن سعود صاحب الحجاز ونجد، والملك فيصل بن الحسين صاحب العراق، ونقول إنَّه من حسن حظّ العرب وجود هؤلاء الملوك على رأس هذه الأمّة في هذا العصر.

فهل يزجي هؤلاء الملوك الثلاثة سفينة العرب رخاء إلى الآخر ويبلغونها ساحل السلامة؟

هذا سيبديه لنا الوقت.

وأنا أقول إنَّ هذا ما هم مستعدّون له بشرط أن يسلموا من المفسدين العرب. فلا خوف على العرب إلاَّ من العرب.

جنيف، ٥ رمضان ١٣٥٠هـ/١٤/١/١٩٣٢م
شكيب أرسلان



قاضٍ في الجنّة وقاضيان في النار★

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

أكثرُ المسلمين يسمعون هذا الحديث المأثور، ولست ممَّن يعلم درجة صحّته بين الأحاديث التي هي ستّ طبقات متواتر، ومشهور، وصحيح، وحسن، وضعيف، وموضوع. فنترك للأستاذ الأكبر صاحب المنار تعيين درجة هذا الحديث لأنه هو المشار إليه بالبنان في هذا الميدان.

على أنَّ المعنى مفهوم، وهو أنه لا يوجد قاضٍ يراعي وجه الله تعالى ويحكم بمقتضى وجدانه حتّى يوجد قاضيان يجعلان الشرع الشريف وسيلة إلى حظوظ الدنيا الفانية.

وهذا قد فشا في الإسلام فشوًّا عظيمًا إلى حدّ أنه حمل كثيرين من مفكّري الإسلام على المعروف من العقيدة والشريعة، أي أنَّ مثل هؤلاء القضاة قد كانوا السبب في كُفر كثير من المسلمين، وفي ذهاب كثير منهم إلى تطبيق القوانين الأوربية في بلادهم، وذلك بما اقترفوه من فظائع الظلم واستثمار منصّة القضاء لأكل الأموال بالباطل وحرمان أصحاب الحقوق ما يحكم لهم به الشرع.

وكلّ بلد من بلدان الإسلام يروى فيه من مناكير هؤلاء القضاة، قضاة السوء، ما لا ينتهي. ولقد كان هذا الأمر هو الأصل الأصيل في إدخال الدولة العثمانية من زمان السلطان عبد المجيد والدولة المصرية من زمان محمَّد علي القوانين الأوربية شيئًا فشيئًا، لأنهم رأوا أن لا سبيل لتقييد القضاة ومنع استخدامهم للشريعة في منافعهم الشخصية إلاَّ بهذا الشكل. فكان الرأي في الظاهر أنَّ الشريعة الإسلامية لا تكفل إجراء الحقّ مجراه. وناهيك ما في هذه الفكرة من الضرر بالإسلام، ومن احتقار أعدائه له، ومن خذلان أوليائه أمام العالم المتمدّن. والمسئول عن هذا كلّه هم القضاة، ولسنا نقول جميع القضاة حاشا وكلاّ، بل من قضاة المسلمين من لا تقاس بهم قضاة الأوربيين في قليل ولا كثير من العفّة في النزاهة وعدم المحاباة. ولكن هذا النفر مع الأسف هو القليل، وقضاة النار مع أشدّ الأسف هم الكثيرون.

★ الفتح، العدد: ٢٨٧، (١٣٥٠هـ/١٢/٢/١٩٣٢م)، ص ص.٩ ـ ١٠.

حدّثني ثقة من أهل المغرب ـ وذكر لي الأسماء ـ وقال لي إنَّ الأشخاص الذين تدور عليهم المأساة الآتية هم الآن أحياء يرزقون، وإنَّهم لا يزالون في مناصبهم في المغرب.

وذلك أنَّ حاكمًا إفرنسيًّا هام في هوى فتاتين شقيقتين من بنات زعيم من زعماء البربر ولمّا كان بعض الفرنسيس مشهورين بالغرام، وكان بعضهم لا يقف فيه عند حدّ، لم يصبر هذا الحاكم على عدم التمتّع بهاتين الغادتين اللتين سلبتاه العقل، فأرسل بعض شرطته في غياب أبيهما وبإحدى العلل استحضرهما لديه وخلا بهما، ولم يزَل حتّى افترس الأولى والثانية. ولكن بعد افتراسهما ـ وربّما كان في حال السكر، إمَّا من خمر أو من مجرّد الحبّ الذي يعمي أكثر من الخمر ـ لحظ فظاعة ما عمل وتحيّر في أمره، ثمَّ بلغه أنَّ الزعيم البربري لمّا جاء ورأى بنيته وعرف ما حلّ بهما، ذهب إلى الرباط يشكو الأمر فلم يجد الحاكم الإفرنسي ملجأ لتخليصه من هذه الورطة إلاَّ فضيلة مولانا قاضي المسلمين في تلك الناحية.

وما أكثر الحيل الشرعية عند قُضاة النار. فالقاضي قبّحه الله قال للحاكم الإفرنسي إنَّه يجد لذلك طريقة. وفي الحال استدعى بعض رجال الشرطة الذين في خدمة هذا الحاكم وزوّر كتاب نكاح بين شرطيين وبين الفتاتين اللتين اغتصبتا في عرضهما. ثمَّ إنَّه لمّا كان عقد النكاح يقتضي التسجيل بحسب تاريخ الزواج، وكان لا يوجد محلّ في خلال العقود لوضع هذا العقد المزوّر، لم يجدوا حيلة إلاَّ بتسجيل هذا العقد الباطل في صدر السجلّ ممّا يعرفه كلّ إنسان يدقّق في المسألة أنه عقد مزوّر. وكان الزعيم البربري قد أقام القيامة في الرباط واضطرّت السلطة الإفرنسية إلى إرسال لجنة تحقيق إلى محلّ الحادثة لأجل إتيانها بالخبر اليقين عنها، فذهبت اللجنة وسألت الحاكم، فأجاب إنَّ الشكوى غير صحيحة وإنَّ هاتين الفتاتين متزوّجتان بموجب نكاح شرعي من فلان وفلان. وسئل الشرطيّان فصدّقا كلام الحاكم وأيَّد ذلك القاضي لدى اللجنة. ولكن اللجنة بعد الاستعلام ورؤية السجلّ واستنطاق الفتاتين لم يخفِ عليها أنَّ العقد مزوّر وأنَّ الحاكم افترس تينك المسكينتين وأنَّ القاضي منافق جعل القضاء مطيّة لتسويغ الفاحشة.

وأمَّا نتيجة ظهور الحقيقة لم تكن أكثر من نقل الحاكم الإفرنسي من تلك الناحية إلى ناحية أخرى، وكذلك نقل القاضي من قضاء إلى قضاء آخر.

فكيف تحترم الأجانب شرعنا وقضاتنا بعد أماثيل مثل هذه؟

وخذ نكتة أخرى وقعت بحسب ما علمت من ثقاة في مدينة جيبوتي بالبحر الأحمر، وذلك أنَّ رجلاً اسمه الشيخ حمّوده أحمد مات عن تركة وكان قد أعطى امرأته في حياته نصيبًا من ثروته وسجّل ذلك لدى القاضي الذي لا أريد تسميته. فبدا للقاضي ولبعض وجوه تلك البلدة أن يبطلوا الصكّ الذي عند القاضي نفسه، وزعموا أنَّ هناك أختًا للمتوفّي وأنها متزوّجة برجل، وأعانوا هذا الرجل على أخذ حصّة من التركة، بزعمهم أنَّ معه وكالة من أخت حمّوده أحمد. والحقيقة أنَّ أخت حمّوده أحمد كانت قد ماتت من مدّة طويلة وذلك في مكّة المكرّمة، وأنَّ قصّة هذا الزواج كلّها مفتعلة وهكذا بدّدوا هذه التركة بالباطل.

فلمّا علم الفرنسيس الذين هم أولياء أمر جيبوتي بهذه التزويرة احتقروا القاضي والقضاء الشرعي كلّه، واتّخذوها حجّة على عدم موافقة الشريعة الإسلامية وعدم كفالتها لحقوق البشر! لأنه كيف يعقل أنَّ قاضيًا يصدّق معاملة شرعية أمامه وتتسجّل لديه ثمَّ ينقضها لأجل دسائس ترمي إلى إدخال رجل غريب في تركة ليس له منها شيء؟ فعزلوا القاضي المذكور بعد هذه الفضيحة، فما كان من بعض الوجوه هناك إلاَّ أن دفعوا أناسًا يقدّمون الشكوى إلى الفرنسيس من أجل عزلهم هذا القاضي الشريف... ويطلبون إرجاعه إلى منصّة القضاء ، فازداد الفرنسيس احتقارًا لهؤلاء المسلمين، وتعجبًّا من فساد هذا المجتمع الذي لا يأنف من توسيد القضاء إلى أناس كهؤلاء.

وإن أراد كلّ واحد أن يسرد من قصص قضاة النار ما يعرفه يطول الأمر ولكنّنا نشير على من يعرف منها شيئًا أن لا يبخل بنشره في الجرائد، بشرط أن يكون على ثقة ممّا يروي وأن لا يأخذ الناس بالتهم الباطلة.

ونحن قد روينا هاتين الحادثتين على عهدة رواة نعلمهم ثقاة، فإن كان عند أحد ما ينقض هذه الروايات فليُدل به. وإن لم يكن فيجب التشهير والتجريس بقضاة كهؤلاء أينما ثقفوا، لأنهم بليّة على الإسلام.

جنيف، ٦ رمضان ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/١/١٥م

شكيب أرسلان

✿ ✿ ✿

دخول العراق في جمعيّة الأمم دولة مستقلّة كسائر الدول المستقلّة*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

ليس في المعاهدة التي انعقدت بين إنجلترا والعراق قيدٌ يمسّ استقلال العراق من الجهة القانونية سوى ذلك القيد الذي يجعل لإنكلترا طريقًا جويًا من الغرب إلى الشرق. وهذا قد أعلنه الملك فيصل بالصراحة في خطابه لشعبه بعد أوبته من أوربا.

وما عدا هذا القيد فلا يوجد نقطة واحدة يقدر أن يستخلص منها عالم حقوقي أو سياسي منصف ما يمسّ استقلال العراق بوجه من الوجوه.

ولم يكن بدّ للملك فيصل ولحكومته من قبول ذلك القيد إلى أجل مسمّى وذلك توصّلاً إلى إلغاء الانتداب الذي لا تزال سوريا وفلسطين ترسفان في قيوده الثقيلة. وكذلك لم يمكن حكومة العراق الاستغناء عن محالفة إنكلترا في الوقت الحاضر والعراقيون يعلمون والدنيا تعلم أنه لولا إنكلترا ونفوذ كلمتها في جمعيّة الأمم لم تكن الموصل الآن تابعة للعراق، لا هي ولا جميع ملحقاتها. فكان متعذّرًا على جلالة الملك فيصل أن يجمع بين إغضاب الإنكليز وبين حفظ الموصل للعراق. وهو يعلم أنه إذا قطع لهم كلّ علاقة بالعراق في الآونة الحاضرة لم يبعد عليهم أن يمدّوا يدهم إلى أنقرة ويتّفقوا معها على ظهر العراق. ومن الغريب أنَّ الذين ينتقدون المعاهدة الإنكليزية العراقية تحت لواء المعارضة في العراق ينسون أنَّ زعماء المعارضة قد كانوا موافقين على سياسة التحالف مع إنكلترا، وأنَّ تواقيعهم وأختامهم موجودة في ذيل القرار المتعلّق بذلك.

وعلى فرض أنَّ هناك معارضة فلا المعارضة ولا الموافقة ولا الثقلان أجمع تقدر تدعي أنَّ العراق في حالته الحاضرة يقدر أن يرفس إنكلترا برجله الواحدة وتركيا برجله الأخرى... إنَّ الذين يحبّون الهدم ولا يهمّهم الإنشاء يهون عليهم الانتقاد ويسهل عليهم الاعتراض،

* الفتح، العدد: ٢٨٩، (١٣٥٠هـ/١٩٣٢/٢/٢٦م)، ص ص. ٨ ـ ٩.

لأنهم هم لا يريدون أن يعملوا شيئًا وليست عليهم مسئوليّة عمل. ولكن الرجال العمليين الذين يعلمون مبلغ قوّة العراق ويتأمّلون في مركزه الجغرافي وفي الخطر الواقع عليه من الشمال يعلمون أنَّ لا مندوحة للعراق عن محالفة إنكلترا إلى أجل مسمّى ريثما يكون العراق قد اشتدّ عضده واستدّ ساعده وأصبح غنيًّا عن تلك المحالفة.

ولن يستغني العراق عن محالفة إنكلترا إلاَّ إذا نهضت الأمّة العربية واتّحدت وصارت كتلة عظيمة يؤبه لها ويحترم جانبها. ولهذا السبب لا لغيره كنّا في مقدّمة من دعا إلى الحلف العربي في السنة الماضية وإلى توحيد العراق وسوريا في هذه السنة. وفي كلّ من هاتين المسألتين لقينا الأمرّين من المعارضات والمنازعات والمماحكات والمكابرات وذلك من الناس الذين كان ينبغي أن يبادروا إلى تأييد المشروع الأول ثمَّ المشروع الثاني، فإنَّ مقصدنا هو الاستغناء عن إنكلترة وتركيا معًا.

وليس في معاهدة إنكلترة مع العراق لمن تأمّل فيها قيد واحد يمنع تحالف العراق مع نجد والحجاز ولا مع غيرهما إلاَّ إذا كان الحجاز ونجد في نيّتهما التجاوز على إنكلترا. وهذا افتراض غير وارد. كما أنه لا توجب معاهدة العراق مع إنكلترا مساعدة كلّ منهما للأخرى في حرب تجاوزية. وما يقال من أنَّ العراق في سياسته العمومية هو مقيّد بإرادة إنكلترا هو أيضًا غير صحيح. ليس على العراق في هذا الباب إلاَّ ما يجب على الحليف تجاه حليفه ويقابل ذلك أنَّ إنكلترا نفسها مضطرّة بحسب المعاهدة أن تعامل العراق بالمثل. فليس بين إنكلترا والعراق إلاَّ ما يكون بين الحليفين. ولم يقُل أحد إنَّ تركيا يوم كانت حليفة لألمانيا وكانت في السياسة العمومية مضطرّة لاستشارتها أنها كانت متقيّدة بقيد يمسّ استقلالها. فهذه هي الحقيقة. وليتهكّم المتهكّمون ما شاءوا «بالاستقلال الموهوم» و«إلغاء الانتداب المزعوم» فإنَّهم بهذا لا يتهكّمون إلاَّ بأنفسهم وهم أشبه بذي حقّ صريح ينكره على نفسه ويعلن على الملأ أنه لا يملكه، على حين أنَّ الناس تقول له: إنَّك أنتَ مالك هذا الحقّ.

وأمَّا شروط دخول العراق في جمعيّة الأمم فقد طالعناها كلّها فلم نجد فيها لا في الأمور الاقتصادية ولا في الشئون السياسية قيدًا لم يتقيّد بمثله غير العراق من الدول التي تتألّف منها عصبة الأمم.

نعم قد كان بعض الأثوريين من سكان العراق، وأصلهم من الجالية اللاجئة من تركيا، اعترضوا على إلغاء الانتداب البريطاني على العراق وطافوا في أوربا يستجيشون حمية الجمعيّات المسيحية وجاءت هذه الجمعيّات بما هي موصوفة به من التحمّس الديني تعارض في استقلال العراق وتقيم العقبات في طريقه. ولكن إنكلترا أعرضت عن جلبة هذه الجمعيّات وصكّت الباب في وجه أقوالها. ولمّا قاموا في جمعيّة الأمم يزعمون أنَّ الأكثريّة المسلمة في العراق قد تبطش بالأقلّية المسيحية إذا انصرف الإنكليز من هناك، كان ردّ الإنكليز عليهم شديدًا وقام اللورد روبرت سسل برغم أنه من المعروفين بالنزعة المسيحية فردّ على هذه الأقوال في وسط مجلس جمعيّة الأمم وقال ما يلي:

إنَّه قد أثبت التاريخ منذ قرون أنَّ الأكثريّة المسلمة في العراق قد عاملت الأقلّية المسيحية والأقلّية اليهودية أحسن معاملة.

ولهذه التصريحات التي جرّ بها اللورد روبرت سسل مدافعًا عن حسن معاملة المسلمين لأبناء وطنه من أهل الكتاب، كتب إليه الوفد السوري يشكره وكان لبرقيّة الوفد السوري أحسن وقع عنده فكان يطلع عليها زملاءه في عصبة الأمم ليعلموا أنَّ العرب يشعرون بالجميل كما يشعرون بضدّه. وكذلك لمّا تقابلنا عرضًا مع المندوب السامي البريطاني في العراق، وكنّا قرأنا مدافعاته الشديدة عن العراق ومخاصماته لبعض ممثّلي الدول الذين كانوا يحاولون تقييد العراق بما لم يتقيّد به غيره، لم نغفل أن نشكر للمندوب السامي الإنكليزي المشار إليه هذه الخطّة التي سار عليها في تأييد استقلال مملكة عربية وقلنا له هكذا بالحرف: إلى الآن لم تكن سياستكم مع العرب ممّا يوجب الشكر، ولكن هذا هو العمل الأول الذي نقدر أن نشكركم عليه.

فأمَّا مساعي الأثوريين واعتراضات بعض ممثّلي الدول سواء كان بشأن الأقلّيات أو بشأن المسائل الاقتصادية فقد ذهبت أدراج الرياح.

ومن أوضح الأدلّة على كذب أولئك الأثوريين من أنه إذا انصرف الإنكليز من العراق ينقضّ المسلمون على المسيحيين ويبطشون بهم هو كون الإنكليز في الوقت الحاضر منصرفين عن العراق ليس لهم جندي واحد فيه، وكلّ ما لهم طريق جوّي ومطارات يحرسها الجنود العراقيون أنفسهم تحت راتب تدفعه إنكلترا.

ومن حيث أنّنا تتبّعنا سير القضيّة العراقية في جمعيّة الأمم واطّلعنا على كلّ ما تحرّر من شروط دخول العراق في العصبة، فإنّنا نقدر أن نؤكّد للعالم العربي بأجمعه أنّ العراق لم يتقيّد بقيد في هذه العصبة لم يتقيّد غيره بمثله بل هو فيها مع سائر الدول المستقلّة على قدم سواء والحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين.

شكيب أرسلان

جنيف، ١٣ شوّال ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/٢/٢١م



مبادئ قديمة محتها الأفكار الحديثة
يا لها من سفسطة!...★

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

حضرة الأخ الأجلّ الأفضل صاحب «الفتح»

في العدد الأخير من الفتح أشرتم إلى ما استظهر به لتأييد أعمال أنقرة، ذلك الذي قال إنّ قواعد الإسلام «مبادئ قديمة محتها الأفكار الحديثة».

واستخلصتم من ذلك الإقرار الذي قطعت به جهيزة قول كلّ خطيب أنّ أولئك الجماعة لا يتقيّدون بمبادئ الإسلام ويعدّونها ممّا محته الأفكار الحديثة!

وقلتم إنّ الإسلام يؤخذ من المبادئ القديمة التي جاء بها محمَّد ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا.

وقلتم «وأمّا دول الغرب فدول نصرانيّة والنصرانيّة دين آخر غير دين الإسلام».

وأنا أؤيّد كلامكم هذا، ولكنّي أزيد عليه أنّ الدول النصرانية لا تزال هي أيضًا متمسّكة بعقائد وقواعد أقدم عهدًا في الزمن من عقائد الإسلام وقواعده، لأنّ الإسلام مضى عليه ١٤ قرنًا والنصرانيّة مضى عليها ١٩ قرنًا، ولم نسمع أنّ الأوربيين قالوا إنّ هذه المبادئ القديمة المسيحية التي مضى عليها ١٩ قرنًا وزيادة «قد محتها الأفكار الحديثة»!

فأوربة أعرق في «الأفكار الحديثة» من أنقرة وأرقى في كلّ شيء، ولم تبرح تعضّ النواجذ على مبادئ مضى عليها هذا الدهر الطويل وتقول إنّها لن تخرج عنها.

وإن قيل إنّ أوربا لبثت مسيحية في العقيدة لكنّها أحدثت نظمًا حديثة غير مسيحية لأجل الإدارة والقضاء وما أشبههما؛ أجبنا: بأنّ هذا الكلام هو أيضًا غير صحيح، فالأوربيون لم يخرجوا عن المبادئ الإنجيلية أصلاً، إلاّ في أمر واحد اقتضته الضرورة القاسرة وتبعوا فيه سماحة الإسلام وهو إجازة الطلاق عند الضرورة. ثمّ إنّ الشرع الإسلامي وإن كان قديمًا،

★ الفتح، العدد: ٢٩٠، السنة السادسة، القاهرة (١٧ القعدة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/٣/٢٦م)، ص ص. ١ ـ ٢.

فيه قواعد كلّية يمكن بها الاجتهاد في الحوادث وتطبيق ما يجب تطبيقه ويتحقّق نفعه من القوانين الحديثة بدون أدنى خروج عن الإسلام.

والقوانين الأوربية كلّها مبنية على القانون الروماني. والقانون الروماني الذي كان قبل النصرانيّة ويقال له «القانون البريتوري» قد تعدّل بقانون يوستينيانوس المشرّب بروح المسيحية.

قال الأستاذ العلاّمة صاوا باشا اليوناني في كتابه «نظريّة علم الحقوق الإسلامي» ومأخذه من الشريعة: (إنَّ قانون يوستينيانوس هو شرع مسيحي محض) وفصل ذلك بما لا محلّ هنا لنقله بمكاننا من وفرة الشغل وضيق الوقت. فمن أراد فليطالع ذلك في كتاب صاوا باشا وفي تأليف «أورتولان» الحقوقي الإفرنسي الشهير وفي تآليف جميع من كتبوا تاريخ علم الحقوق الروماني، واشتقاق علم الحقوق الحديث منه. ويا ليت شعري أيّ شيء حديث غير مبني على أصل قديم؟

ومرّة كان «برنوس» الكاتب الرحّالة الإفرنسي في أنقرة ـ وقد حضر جلسات مجلس النوّاب فيها ـ فسمع محمود أسعد ناظر العدليّة وغيره من رفاقه يخطبون على منبر المجلس ويقولون ـ وقد ظنّوا أنهم جاءوا بالحجّة الملزمة ـ إنَّه لا يمكن إجراء أحكام اليوم على مقتضى آراء كانت من قبل ومضت عليها قرون، فلذلك هم ألغوا جملة الأحكام العدليّة واتّخذوا القانون المدني السويسري.

وقد كان برنوس مبتهجًا بعملهم هذا لأنه فرنساوي كاثوليكي يكره الإسلام، إلاَّ أنه ذكر في رحلته إلى الشرق «إنَّ قول الأنقريين هذا فيه نظر، لأنَّ النظريّات القديمة لا تزال هي محور التشريع في أوربا. فالقانون السويسري مأخوذ من القانون الروماني، وهذا هو قانون مسيحي كما لا يخفى».

فكيف تكون «الأفكار الحديثة» محت «المبادئ القديمة»؟

جنيف، ٢ ذي القعدة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/٣/١٠م

شكيب أرسلان



استقلال العراق وشروطه*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

حضرة الأخ الأستاذ المجاهد السيِّد محبّ الدين الخطيب أخذ الله بيده.

إنِّي على ثقة بأنك لا تتوخّى خدمة القضيّة العربية والقضيّة الإسلامية عامّة إلاّ بحقائق الأشياء الثابتة. لا تقصد التحسين موضع التقبيح ولا ترضى بالتقبيح في مكان التحسين. لا توافق على إيجاد المحاسن حينما تكون المساوئ فيكون ذلك مثبطًا عن طلب الكمال. ولكنّك لا توافق على إيجاد المساوئ في غير محلّها ولا المبالغة في الموجود منها، إذ يكون ذلك ممّا يفتّ في عضد القوّة المعنوية التي لا بدّ منها لأجل النهوض بالأعمال. نحن قوم لا نضلّل الأمّة العربية لا في الخير ولا في الشرّ، بل نواجهها بالحقائق من غير محاباة. ولم يكن النعي المستمرّ هو الشرط اللازم للوطنية.

فالذي نشرته بعض الجرائد عن شروط استقلال العراق ودخوله في جمعيّة الأمم منه قسم غير صحيح بتاتًا، ومنه قسم ليس فيه شيء لم تتقيّد بمثله الدول المستقلّة من قبل.

فليس في قضيّة الأقلّيات الجنسية والدينية واللغوية قيد تقيّد به العراق ولم تتقيّد به من قبل دول كبيرة داخلة في عصبة الأمم. فإن كان هذا القيد ماسًّا باستقلال العراق فكم من دولة إذًا قد صار استقلالها بهذا ناقصًا.

وأمَّا الامتيازات القضائية فلم تقبلها حكومة العراق بوجه من الوجوه. وقد عرضت عليها جمعيّة الأمم جملة حلول في الموضوع فرفضتها بأجمعها ولم تقبل إلاَّ حلاً واحدًا كانت رضيت بمثله تركيا في معاهدة لوزان، وهو تأليف محكمة مختلطة تحكم بموجب القانون العراقي ويكون فيها قضاة وطنيون وأجانب، وليس بشرط أن يكون الأجانب من الإنكليز. وهذا القضاء في القضايا المختلطة له أجل مسمّى ١٠ أو ١١ سنة. وقد رضيت تركيا في معاهدة لوزان بتأليف محكمة كهذه في الأستانة إلى أجل مسمّى. ولم يقُل أحد إنَّ تركيا غير مستقلّة ولا يقول أحد إنَّ العراق لا يجوز له أن يرضى بما رضيت به تركيا.

---

* الفتح، العدد: ٢٩١، السنة السادسة، القاهرة (غرّة ذي الحجّة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/٤/٨م)، ص ص. ١ ـ ٣.

وأمَّا الامتيازات الاقتصادية التي استأثرت بها الدول قبل استقلال العراق ومن جملتها امتياز بترول الموصل الذي تقاسموه فهذه باقية. وبديهي أنَّ حكومة ضعيفة، استقلالها لا يزال في المهد، وليس بيدها من القوّة ما تقاوم به هذه الدول لا تقدر من نفسها أن تلغي هذه الامتيازات ولا أن تحفظ زيت الموصل كلّه لها. فهي مضطرّة إلى قبول نصيبها من هذا الزيت المفروض لها من الآن وهو نحو من مليون جنيه على أمل ازدياده في المستقبل.

إلاَّ أنَّ حكومة العراق شارعة في الاتّفاق مع شركة غير الشركة الأولى على استنباط الزيت من أماكن غير داخلة في منطقة امتياز تلك. وإنَّ شروط هذه الشركة الثانية هي الشروط التي تراضت عليها هي والعراق بدون أن يكون تأثير سياسي للدول فيها.

وأمَّا حرّية المبشّرين والحرّية الدينية والحرّيات كلّها فلم يقبل بها العراق إلاَّ على شرط عدم إخلالها بالأمن العامّ وبحسن سير الإدارة وبالأخلاق العمومية. وهذا كما هو في سائر الدنيا. فليس في هذا أيضًا شيء ماسّ بالاستقلال العراقي.

نعم، يجب أن يستجلب نظر الجميع هنا ما كان من شدّة تمسّك مندوبي الدول في جامعة الأمم بحرّية التبشير بالدين المسيحي. وهذا ما لم نزَل نؤكّده لأهل الشرق الذين قال لهم المضلّلون وأعداء الإسلام إنَّ أوربة لادينية «لايقية» لا تحفل بالدين ولا تقيم له وزنًا. فهذا الحادث بين ألوف من الحوادث دلّ على عدم صحّة مزاعم هؤلاء المضلّلين.

وقد كان جواب نوري باشا السعيد: إنَّنا نحن مطلقون الحرّية للمبشّرين بجميع الأديان، لكن على شرط عدم الخلل بالأمن العامّ وبالإدارة.

فهذه معركة دخول العراق بجامعة الأمم حضرناها أنا وزميلي [إحسان] الجابري من أولها إلى آخرها. ولا يمكننا أن نشهد بخلاف ما نعلم ولا أن نقول نعيًا عندما يقال لنا رعيًا.

ولا يُظَنّ إنَّ إلغاء الانتداب البريطاني على العراق ودخول العراق في العصبة قد وقعا بدون اعتراضات وتصعيبات ومحاولات تقييد بقيت تفعل أفاعيلها إلى آخر ساعة... إلاَّ إنَّ تقيّد إنكلترة بوعدها للعراق واضطرار الإنكليز تحت ضغط قواسر سياسية واقتصادية متعدّدة أجبرا الحكومة البريطانية على استعمال نفوذها في إزالة هذه العوائير من وجه العراق.

ولقد اجتهد الأثوريون النصارى في عرقلة استقلال العراق بكلّ ما أمكنهم فلم يحصلوا على أدنى طائل.

وإنَّما حصل الأكراد على التعهّد بإرسال مأمورين إلى السليمانية وبلدان الأكراد يعرفون الكردية. وهذا أنا أراه صوابًا. فهل نحن الآن نريد النكاية بإخواننا الأكراد؟ وهل من العدل أن يكون عليهم حكّام لا يعرفون لسانهم.

لا يمكن أن يحصل العراق في الآونة الحاضرة على خير ممّا حصل عليه. ولكن لا يمكن أن يقال إنَّ العراق في الآونة الحاضرة حاصل على جميع حقوقه. وكلّ ضعيف لا يحصل على حقّه إلاَّ منقوصًا، وسواء كان العراق أو الشام أو غيرهما من بلاد العرب فلا يرجى أن يحصل على حقوقه تامّة، بل لا يأمن على حقوقه بأسرها إلاَّ إذا تأسّست الوحدة العربية المنشودة التي لا نزال ندعو إليها، والتي تقيم من هذه الأمّة العربية المجزّأة المفرّقة المفكّكة المبعثرة اتّحادًا عربيًّا ينضوي تحته من ١٥ إلى ٢٠ مليون عربي. ومن أغرب الأمور أننا لا نجد مقاومين للوحدة العربية إلاَّ هؤلاء الذين لا يفتأون يذكرون نفوذ الأجانب في بلاد العرب ويصيحون ويصخبون. ليخبرونا أصلحهم الله عن الطريقة التي نتّقي بها تحكّم الأجانب فينا بدون هذه الوحدة العربية.

وإن كانت الوحدة هي الطريقة الوحيدة لنهضة هذه الأمّة، فلماذا كلّما بدأنا بها من جهة أو دعونا إلى الابتداء بها من جهة كانوا هم في طليعة الصائحين الصاخبين وملأوا الدنيا إرجافًا.

يحاول الملك فيصل أن يتّفق مع الملك ابن سعود، فيقيمون القيامة وينادون: الحذر الحذر. هذه دسيسة إنكليزية.

ومن بضع سنوات عندما كانت قبائل مطير وغيرها من قبائل نجد تشنّ الغارات على العراق كانوا يقولون: هذه كلّها غارات مفتعلة ودسائس إنكليزية تلقيها إنكلترة إلى ابن سعود فيحرّك هو هذه القبائل على غزو العراق لتشغل العراق بهذه الغارات عن طلب الاستقلال.

وطالما أبدينا وأعدنا في دفع هذه الأوهام لا لتنزيهنا الإنكليز عن الدسائس بل لتنزيهنا ابن سعود عن أن يرضى بأن يكون آلة للدسائس الأجنبية على الأمّة العربية. ولكن كانوا لا يسمعون لأحد كلامًا ولا يزالون ينادون: الدسائس الدسائس...

ثمَّ حصحص الحقّ وتجلّى الصبح لذي عينين وظهر أنَّ الملك ابن سعود كان على خطّ مستقيم ساخطًا على فيصل الدويش وغيره ممَّن كانوا يعملون هذه الغارات، وأنه اضطرّ أخيرًا إلى أن يجرد عليهم الحسام أولاً وثانيًا وينزل بهم من الضربات ما علم به الجميع إلى أن استقرّت الحالة واستتبّت الراحة.

فأين هي إذًا الدسائس الإنكليزية التي جعلوا ابن سعود آلة لها؟

ولم تمضِ سنتان على هذه الحادثة حتّى عكسوا الآية، وزعموا أنَّ الملك فيصل هو الذي جعل نفسه هذه المرّة آلة للدسائس الإنكليزية، وأرسل نوري إلى الملك ابن سعود ليغويه ويدخل رجله في الأحبولة الإنكليزية.

تلك المرّة كان ابن سعود آلة للدسائس الإنكليزية على العراق!

وهذه المرّة صار فيصل هو آلة للدسائس الإنكليزية على الحجاز ونجد!

وكما ظهر أنَّ الظنّ الأول كان وهمًا في وهم فقد ظهر أيضًا أنَّ الظنّ الثاني وهم في وهم، ولا الملك عبد العزيز ولا الملك فيصل ينزلان أنفسهما إلى دسّ الدسائس على أمّتها ولأجل سلب استقلالها، وهما العاملان الدائبان ليلاً ونهارًا لأجل تأمين هذا الاستقلال.

وبالاختصار نتكلّم في الحلف العربي فيقومون للمعارضة والمعاكسة.

ونتكلّم في الخطر الشديد المحيط بالأمّة العربية إن لم تبادر من الآن إلى الاتّحاد فيقومون للمعارضة والمعاكسة.

ونتكلّم في وجوب اتّحاد سورية مع العراق مقدّمة للوحدة العربية، فيقومون أيضًا للمعارضة والمعاكسة والتفلسف على استحالة هذا الأمر، ويخلقون له المحاذير التي لم يفكّر بها أعداؤنا أنفسهم.

نقول لهم إنَّ إلغاء الإنتداب البريطاني على العراق هو أقطع حجّة لنا على فرنسة التي لا تبرح متمسّكة بانتدابها على سورية، وإنَّ جنازة انتداب العراق مبشّرة بجنازتي انتداب سورية وانتداب فلسطين فتجدهم في ضيق ممّا نقول، كأنَّ صدورهم تصعد في السماء ويبغوننا نقول ما يخالف الحقيقة والمصلحة العربية معًا وهو: إنَّ الانتداب على العراق لا يزال كما كان، وإنَّ إلغاء هذا الانتداب ودخول العراق بجمعيّة الأمم إن هما إلاَّ خزعبلة من الخزعبلات!

أي يريدون أن يؤيّدوا حجّة فرنسة التي تأبى إلغاء انتدابها على سورية فتحاول تزهيد العرب في قضيّة إلغاء انتداب العراق.

ولو كان إلغاء الانتداب البريطاني على العراق أمرًا غير ذي بال لما كانت اهتمّت به فرنسة ولما كانت حاولت تعويقه بكلّ جهدها إلى آخر ساعة.

ولو كان إلغاء الانتداب البريطاني على العراق حديث خرافة كما تزعم هذه الفئة لما كانت قامت له قيامة الصهيونيين ونادت جرائدهم بالويل والثبور وقالت: ليقُل الناس ما قالوا فالأمّة العربية سائرة إلى الأمام. ما من أحد يقدر أن يقول إنَّ اليهود لا يفهمون في السياسة أو إنَّهم غير مطّلعين على حقائق الأحوال العالمية.

ثمَّ لا تعلم لماذا لا يصبرون حتّى تظهر حقيقة الأمر؟ فإن كان إلغاء انتداب العراق غير صحيح فلا بدّ من أن يظهر قريبًا عدم صحّته، ومن المحال تغطية السماء بالقباء.

والخلاصة إنَّهم يتكلّمون في الاستقلال العربي وفي النهضة العربية، ويجعلون أنفسهم سباق هذه الحلبة ولكنّهم يعارضون اتّفاق ابن سعود وفيصل. ويعارضون اتّحاد سورية والعراق. ويهزأون بإلغاء الانتداب البريطاني على العراق، ولو أدّى بهم هزؤهم هذا إلى تأييد حجّة فرنسة في إبقاء انتدابهم على سورية. وبعد هذا كلّه يبخلون علينا بإبداء الحلّ العملي اللازم للقضيّة العربية التي هي محتاجة إلى الحلّ ولا تنحلّ بمجرّد النعاب والنعاق والقذف والطعن وإنَّما تنحلّ بقرارات عملية إيجابية جازمة تجب المبادرة إليها وعقد مؤتمر عربي لأجلها. والله الهادي إلى سواء السبيل.

جنيف، ١٣ مارس ١٩٣٢م

شكيب أرسلان



لا نرضى أن تقال كلمة سوء بحقّ الأتراك*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

اطّلعت في جريدة «الجهاد» على مقالة بإمضاء السيِّد حسن النقشبندي رئيس علماء أزمير سابقًا، يعاتب بها الأمّة العربية على سكوتها على مقال نشره في الأهرام الأستاذ السيِّد محمَّد الغنيمي التفتازاني تحت عنوان «الأتراك والإسلام والقرآن الكريم». فإنَّ الكاتب المعترض يقول: يا ليت السيِّد التفتازاني لم يخرج عن الصدد فكان له الأجر من الله والشكر من العباد، ولكنّه مع الأسف خلط فيه الطعن على المجاهدين الذين سبقونا بالإيمان خاصّة والأتراك وحكومتهم عامّة. قال السيِّد النقشبندي: وكنت أرجو أن يقوم أحد من الذين لهم الخبرة التامّة بأحوال تلك الديار وبتاريخها القديم والحديث وشيء من خدماتهم للدين، يكون قوله ترياقًا لتوثيق الرابطة القديمة الدينية بين العنصرين العربي والتركي، فمضى ستّون يومًا وأكثر ولم يقم أحد ليقول كلمة... إلخ.

إنّي لم أطّلع على ما كتبه الأستاذ التفتازاني في الأهرام لأقدر أن أعطي في هذه المسألة حكمًا، وأظنَّ أنَّ الأستاذ المشار إليه في عقله ودينه لا يمكن أن يكون ممَّن يغمط الأتراك حقّهم، ولا ممَّن يبخسون الناس أشياءهم. فإن كان زلّ قلمه بشيء ذهب فيه مذهب التعميم أو أطلق كلمة تناولت الأتراك بدون استثناء، فلا يكون ذلك منه إلاَّ عن عجلة وحدةٍ ساقَهُ إليهما ما يجري كلّ يوم من حكومة أنقرة من الأعمال الهادمة للدين الإسلامي والموجّهة لنقض كلّ حجر عربي باقٍ في أساس الثقافة التركية، ووضع حجر أوربي بمكانه سواء كان ذلك ضروريًّا لرقيّ الأتراك أو لم يكن. نعم، إنَّ هذه المظاهر المتكرّرة والتي تتزايد يومًا فيومًا، وكلّما سكت الأتراك عن واحد منها تمادت أنقرة إلى ما هو أفظع وأفجع، لا بدّ أن تكون هي السبب الذي أثار الأستاذ التفتازاني فأصاب بقلمه ما لم يكن هو يريده، وما كان الأتراك من حيث أنهم أمّة لا يستحقّون شيئًا منه.

* الفتح، العدد: ٢٩٢، السنة السادسة، القاهرة (١٥ ذي الحجّة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/٤/٢٢م)، ص ص. ١ ـ ٤.

إنَّني كنت أول من رفع عقيرته في الاحتجاج على أعمال أنقرة هذه، وتعرّضت في ذلك للسبّ والقذف، لا من جهة ملاحدة الأتراك فحسب، بل من جهة ملاحدة مصر أيضًا الذين انهالوا عليّ بالشتم كما يتذكّر كلّ أحد، وذلك انتصارًا لرجال أنقرة. إلاَّ أني لم أرضَ ولا في وقت من الأوقات أن تقال كلمة سوء واحدة بحقّ الأمّة التركية نفسها التي لا يجوّز العدل أن يؤاخذها المؤاخذ بأعمال حكومتها الحاضرة. وهي تنكر من هذه الأعمال ما ينكره العرب وأشدّ ممّا ينكره العرب. ومن تجوّل في تركيا في السنين الأخيرة علم أنَّ هذه الأمّة التركية الكريمة، برغم جميع النظم والقوانين اللادينية وجميع العقبات التي وضعت في وجه التعليم الإسلامي في تلك البلاد، لا تزال مسلمة مؤمنة متمسّكة بما كانت متمسّكة به من عقائد شريفة وعنعنات زكيّة وعادات سليمة، وهي تعزو كلّ ما هو حاصل فيها من فساد أخلاق وخلاعة وتهتك أعراض وسفاهة وغير ذلك من الآفات التي طرأت عليها إلى هذه السياسة اللادينية التي تجري عليها أنقرة. وما تصبر هذه الأمّة على هذه الموبقات إلاَّ خوفًا من فتن داخلية يغتنم فيها أعداؤها الكثيرون الغرّة فيعودون وينقضون عليها عودًا على بدء ويمحون استقلالها بعد أن أحرزته هذه المرّة الأخيرة بشقّ الأنفس. نعم، إنَّ الأمّة التركية التي أحرزت استقلالها وأحيته من العدم بعد أن كاد يطوى من الوجود، وهذا بفضل اجتماع جهود جميع مجاهديها، وأولهم كاظم قره بكر باشا الذي قام قبل مصطفى كمال بثلاثة أشهر وقرّر المقاومة والتحق به رءوف بك وعلي فؤاد باشا ومصطفى كمال باشا ورأفت باشا، ثمَّ انضمّ إليهم رجال كثيرون من قادة الأتراك مثل نور الدين باشا وعلي إحسان باشا... وغيرهم، ولبثوا يجاهدون عدّة سنوات وأيّدهم في ذلك مجلس الأمّة الذي كان أكثره من رجال الدين. كما أنَّ النهضة التي نهضتها تركيا لدفع اليونان ولاسترجاع استقلالها كان العامل الأعظم فيها حميّة الترك على الإسلام. وقد صرّح بذلك كبار قوّادهم حتّى أنَّ مصطفى كمال نفسه أيام كانت الحرب ناشبة ولم يكن أمن من جهة عاقبتها طالما ذكر في خطبه أنه إنَّما هو ثائر لأجل الإسلام ولأجل الخلافة، وكثيرًا ما نوّه بذكر العرب وبذكر المصريين وبذكر الهنود وغيرهم قائلاً عنهم: إخواننا في الدين (ديند أشلرمز). ثمَّ إنَّه ليس بصحيح أنه لولا مصطفى كمال لم تقم قائمة للأتراك في الكارثة الأخيرة، فمصطفى كمال من كبار القوّاد لا نزاع في ذلك وله مواقف مشهورة في حرب الدردنيل، ومواقف أخرى في محاربة اليونان الأخيرة، ولكنّه ليس بأعلى درجة في الفنّ العسكري من علي إحسان باشا الذي هو صاحب

الخطّة الحربية التي انتهت بهزيمة اليونان، وكذلك لم يكن فضله كفضل كاظم قره بكر باشا الذي بدأ المقاومة هو وأهالي الأناضول بتحريض علماء الدين منهم قبل أن التحق بهم مصطفى كمال بعدّة أشهر.

وكيف كانت الحال فليس هو هذا موضوعنا الأصلي وإنَّما موضوعنا الأصلي أنَّ الأمّة التركية العريقة في المجد لا تزال ولله الحمد من أشدّ الأمم الإسلامية استمساكًا بعروة الدين الحنيف، وإنَّ الذين وُجدوا من الأوربيين في تركيا في رمضان الماضي ورمضان الذي قبله قد اقتنعوا بعد مشاهدة العيان بأنَّ لا شيء يزحزح هذه الأمّة عن إسلامها، وكتبوا بمشاهداتهم إلى الجرائد الأوربية ومن جملتها جريدة «التيمس».

هذا عن الحاضر، فأمّا عن الماضي فمن يقدر أن يقول كلمة سوء يقبلها مسلم بحقّ الأتراك. إنَّ الأتراك منذ دخلوا في الإسلام أيام المأمون ثمَّ أيام المعتصم رحمهما الله صاروا من أركان الدولة الإسلامية، واستلتهم الخلافة العباسية سيوفًا شهيرة وأسنّة مرهفة لقمع كلّ من ينوي للإسلام شرًّا. وكانت الخلافة تقذف بهم في الثغور أينما كشّر الشرّ عن نابه فيكونون نعم الذادة ويسدّون من الثغور ما لا يسدّه غيرهم. وكم للأتراك من وقائع في جهاد بزنطية وكم لآل سلجوق من المواقف الشريفة في محاربة الروم والصليبيين. وإنَّ أول سلطان مسلم قارع الصليبيين وتغلّب عليهم عماد الدين زنكي وهو تركي، وقد خلفه ابنه نور الدين زنكي الشهير الذي هو المثل المضروب في العدل والتقوى ومتابعة الجهاد. وهو المربّي لصلاح الدين الأيّوبي الكردي وقد كان في جيش نور الدين وجيش صلاح الدين من الأتراك عدد كبير، وكان منهم الكماة والحماة الذين يضنّ التاريخ بأمثالهم، وأسماؤهم عندنا معروفة لا محلّ هنا لسردها. ونور الدين زنكي أجمع المؤرّخون العرب على أنه السادس في العدل بعد الخلفاء الراشدين الأربعة وعمر بن عبد العزيز رحم الله الجميع. وآل طولون بمصر أصحاب المآثر الخالدة وناهيك جامع ابن طولون، أكبر مسجد في العالم، كانوا أتراكًا. ومحمود ابن سبكتكين السلطان الكبير المجاهد الماهد فاتح الهند ومكسّر أصنامها وناشر الإسلام في تلك الأقطار كان تركيًّا. وربّما قيل إنَّ المغول خرّبوا بلاد الإسلام وإنَّهم لم يبقوا ولم يذروا في تركستان وإيران وبغداد والشام، وكانوا سبب بوار المشرق بما نسفوه من العمران وما ذبحوه من ملايين الخلائق، ولا يوجد مؤرّخ يقدر أن ينكر ذلك. ولكن المغول لم يكونوا يومئذٍ دخلوا في الإسلام بل نزلوا صاعقة على رأس الإسلام وقد أسكن الله شرّهم تدريجًا

وألهمهم الدخول في الإسلام فيما بعد، فصارت أعقاب أولئك المدمّرين من أكبر أعضاد الإسلام. وهم يوم أوجفوا وأوغلوا على ديار الإسلام نزل أكثر بأسهم في مسلمي الترك أنفسهم، لا سيَّما سلطنة خوارزم كما لا يخفى. والسلطنة الإسلامية في الهند التي منها انتزع الإنكليز الملك هي سلطنة تركية، وبها انتشر الإسلام في تلك الأقطار الواسعة حتّى صار له اليوم ٧٧ مليونًا من التّبع. فأمّا الدولة العثمانية فلا ينكر آثارها الخالدة ومواقفها الماجدة في جانب الإسلام ولا أبوّتها الرحيمة على أبنائه إلاَّ المكابر الأعمى الذي هو أشبه بمن يحاول تغطية نور الشمس في السماء. فمن يقدر أن يطعن على سلسلة شريفة كسلسلة آل عثمان، منها عثمان وأورخان وبايزيد الأول وبايزيد الثاني ومراد الأول ومراد الثاني ومحمَّد الفاتح وسليم وسليمان وغيرهم من الفاتحين الكبار الذين ترتفع بقراءة سيرهم رءوس المسلمين وإن كان من قوّة معنوية باقية في صدور هذه الأمّة تهبّ بها لاسترجاع مجدها فتكون ممَّا تركه تاريخ الخلفاء الراشدين وبعض الفاتحين من بني أميّة وبني العبّاس وآل عثمان.

لقد بقي هؤلاء السلاطين يذبّون عن الإسلام شرقًا وغربًا مدّة سبعمائة سنة كاملة، وجاء وقت كانت فيه أوربا بأجمعها ترتعد فرقًا من صولة آل عثمان. وكان خوفهم يصل بأهل أوربا إلى أنهم إذا جاء أسطول عثماني إلى طولون أو نيس أبطل الأهالي هناك قرع الأجراس في كنائسهم. وكان أهالي فينّا لا يبيتون ليلة إلاَّ وهم معتقدون أنهم في اليوم التالي رعايا لابن عثمان. وبقيت المجر ملكًا لاَبن عثمان مائة وخمسين سنة، وبودابست عاصمة إسلامية. وجاء زمن كان الأسطول العثماني فيه هو الأسطول السائد في البحر المتوسّط وكانت ريح الإسلام تعصف في البحر كما تعصف في البرّ. ومن شاء أن يرى التاريخ المجسّم فليذهب ويشاهد جوامع القسطنطينية ومدارسها ويشاهد فخامة تلك الأبنية التي مضت عليها القرون بزلازلها ونوازلها وهي باقية كالأهرام ولم يحتفل آل عثمان بشيء من المباني احتفالهم بالمساجد الشريفة التي صيّروها حلية الآستانة وبهاءها ومفخرتها في أعين السيّاح الأجانب، وهناك من المبرّات لهذه العائلة في الآستانة وفي تركيا وفي بلاد العرب وفي الحرمين الشريفين بنوع خاصّ ما لا تحصيه الأقلام ولا تحصره الأرقام. نعم، قد بقي الإسلام مئات من السنين في كفالة آل عثمان وكان الترك، والله لا يستحي من الحقّ، هم سيوفهم المسلولة. فليخفض السيِّد النقشبندي عن نفسه ولتسكن حدّته، فليس من عربي على وجه الأرض يكره تركيًا إلاَّ إن كان هناك عربي مارق من الإسلام. وإن كان عربي مسلم يكره تركيًا فلا

يكون إلاَّ تركيًا من أولئك الملاحدة الذين هم طبقة واحدة من الترك والعرب معًا. أمّا العرب المسلمون والترك المسلمون فكلّهم إخوان لا يشعر بعضهم بإزاء بعض إلاَّ بالحنوّ والحنان. وإلى هذه الساعة إذا أصاب الترك كارثة مهما كانت تجد العرب في مشارق الأرض ومغاربها قد اسودّت لها وجوههم. ومن ذهب إلى بلاد المغرب (مراكش والجزائر وتونس) وغيرها تحقّق بنفسه أنَّ أهالي تلك الديار وكلّهم معدودون من الأمّة العربية يحنّون على الترك كما يحنّون على أنفسهم، ولا يهمّهم شيء أكثر من خبر خير يأتيهم من جهة الآستانة. وقد حدّثني المرحوم نابي بك ناظر الخارجية العثمانية سابقًا نقلاً عن المارشال ليوتي أنه طالما تكلّم معه المرحوم السلطان يوسف سلطان المغرب ورجال تلك الدولة بأنهم يكونون مخلصين لفرنسا معتمدين عليها، فيما إذا كانت تصلح سياستها بإزاء تركيا وتساعد تركيا على استقلالها. قال المارشال ليوتي: وقد كتبت مرارًا إلى ميلران وبونكاريه في هذا المعنى وكان لي يد في تعديل خطّة فرنسا بإزاء تركيا وكنت أقول لهم: إنَّكم إذا أحسنتم معاملة تركيا تسهّلون مأموريّتي أنا في المغرب وتعمرون مصالح كثيرة لفرنسا. قد كان يفعل هذا رجال دولة عربية بدون أن يهمّهم أن تعلم تركيا أو أن لا تعلم، لأنَّ المسلم أخو المسلم يشدّ أزره بما استطاع علم أخوه بعمله أو لم يعلم.

إنَّنا لسنا الآن في مقام سرد تاريخ الترك، وإنَّما أشرنا إلى هذا التاريخ المجيد من قبيل لمح البصر ولم يقتصر فضل الأتراك على الجهاد بالسيف، بل كان لهم من الجهاد بالقلم ما لا ينكر، ومن شاء فليقرأ كتب التراجم لا سيَّما «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» فيعلم كم خرج من هذه الأمّة من فحول العلماء وأساطين الحكماء، وكم لهم من موقف شريف في جانب الدين والفقه والحكمة.

ولا أظنّ الأستاذ التفتازاني ولا غيره من كتاب العرب يماري في هذه الحقائق. ونحن والترك وإن انفصلنا في السياسة فلا نزال نريد خيرهم، ونعلم أنهم يريدون خيرنا، وهم يعلمون ونحن نعلم أنَّ عدوّنا واحد وأنَّ الخطر علينا لا يأتي إلاَّ من الجهة التي يكون الخطر فيها عليهم. وإن كانت الفئة الكمالية قد أقدمت على أمور لايقدم عليها محبّ للإسلام ولا للعرب فما ذاك إلاَّ سحابة صيف لا بدّ أن يأتي وقت تنقشع فيه وتعود الأمور إلى نصابها. فليخفّف السيِّد النقشبندي عنه، وليعلم أنَّ أنصار الترك من العرب قد يكون أكثر من أنصار العرب بين الترك، وأنَّ السواد الأعظم من الأمّتين مرتبط أشدّ الارتباط، ومرّة دخلت على

المرحوم السلطان محمَّد رشاد في سراي يلدز، فكان أول كلمة قالها لي الآية الشريفة: ﴿إنَّما المؤمنون إخوة﴾، وهي آية يقولها كلّ تركي لكلّ عربي وكلّ عربي لكلّ تركي، ولكن على شرط أن يكونوا مؤمنين. أمَّا غير المؤمن فلا حيلة لنا فيه، لا من هذه الجهة ولا من تلك الجهة. ومن يضلّل الله فما له من هاد.

جنيف، ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢/٤/٥م

شكيب أرسلان



قضيّة قاضي جيبوتي*

جاءني من جيبوتي كتاب مفصّل فيه تأييد للرواية السابقة التي اعترض عليها السيِّد المحضار بشأن الدعوى التي قيل إنَّ قاضي تلك البلدة قد حكم فيها على علمه بتزويرها.

وكأنَّ مخبرنا يريد أن نردّ على السيِّد المحضار ونؤيّد الرواية الأولى.

فنحن لا ناقة لنا في هذا الأمر ولا جمل.

والذي ينشرح له صدرنا هو أن تكون رواية المحضار هي الصحيحة وأن يتطهّر بها شرف قاضٍ من قضاة المسلمين. فليس بسهل علينا أن يكون قاضي بلدة فيها ١٥ ألف مسلم ممَّن يحكم بدعاوي يعرف هو بطلانها.

وعندما روينا تلك الرواية رويناها على عهدة صاحبها من قبيل الشاهد، وكانت من قبل بلغتنا رواية ذلك القاضي المغربي من أفواه الثقات وكنّا بلونا من بعض القضاة وبعض المعمّمين من التلاعب بالشرع ما بلوناه، وكنّا نعلم أنَّ أضرار هذه الأحوال بكرامة الشرع الإسلامي وجناية بعض هؤلاء المعمّمين على الدين وأهله. فلذلك أوردنا ذلك الشاهد مع الاحتياط وقلنا، إن كانت الرواية غير صحيحة ينبري لها من يكذّبها، وإن كانت صحيحة فيكون هذا الشاهد في محلّه ويكون عِظةً لقضاة آخرين.

وإلى هذه الساعة نحن لسنا على ثقة من جهة حقيقة هذه الواقعة لأننا بين روايتين متناقضتين تمامًا. لكنّا نتمنّى أن تكون رواية السيِّد المحضار هي الواقعية ضنًّا بشأن القضاء الإسلامي ورجاله، والله على ما نقول شهيد.

جنيف، ١٣ ذي الحجّة ١٣٥٠هـ/٢٠/٤/١٩٣٢م

شكيب أرسلان

* الفتح، العدد: ٢٩٣، (١٣٥٠هـ/٩/٥/١٩٣٢م)، ص. ١٣.

محاربة الحكومة الألمانية للدعاية الإلحادية في بلادها*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

أصدرت الحكومة الألمانية في الأيام الأخيرة أمرًا يقضي بأن يُجزى بالحبس كلّ من يكتب أو ينشر كتابات ضد الديانة. وقد استندت الحكومة في ذلك على المادّة ١٣٥ من الدستور الألماني الذي يصون حرّية العقائد والضمائر وقالت: إنَّ الدعاية الدهرية التي يقوم بها الشيوعيون إنَّما يقصدون بها "نقض بناء المدنيّة والعقيدة المسيحية".

من شاء أن يتثبّت هذا الخبر فليقرأ في الصحف الألمانية والإفرنسية وغيرها[1] ومن جملتها جريدة الطان التي روت أنَّ جريدة "البرلينر تاغبلاط" اعترضت على هذا القرار وقالت إنَّ فيه تناقضًا. والبرلينر تاغبلاط جريدة يهودية[2].

وعلى كلّ حال فالحكومة الألمانية التي هي من أرقى حكومات العالم ومن أقلّها تحمّسًا في الدين قد قرّرت منع الدهريين والملاحدة من بثّ دعوتهم إلى محاربة الدين بحجّة أنَّ هذه الدعوة رامية إلى مناقضة المسيحية.

وما أقدمتْ على إصدار هذا الأمر إلاَّ وهي عالمة أنَّ السواد الأعظم من الأمّة الألمانية يشدّ أزرها.

والأمّة الألمانية هي أعظم أمّة تحيا في جميع حركاتها وسكناتها حياة علمية. فهي في هذا المعنى فوق الجميع.

إلاَّ أنها لا تسمح بأن يسطو الإلحاد في بلادها على الدين المسيحي.

إنِّي آليت على نفسي أن لا أحاكم ملاحدة العالم الإسلامي إلاَّ إلى أوربا ومآخذها ومتاركها.

---

* الفتح، العدد: ٢٩٥، السنة السادسة، القاهرة (٢٧ المحرّم ١٣٥١هـ/١٩٣٢/٦/٣م)، ص ص. ١ ـ ٢.

(١) الفتح ـ ورد هذا الخبر في حينه إلى (المقطم) على لسان البرق ونشرناه في العدد الماضي.

(٢) الفتح ـ اليهود ينشرون الإلحاد ويشجّعونه لا على أنه بضاعة للقنية بل على أنه بضاعة للتصدير. أي ينشرونه ليتأثّر به غيرهم بعد أن اتّخذوا لأنفسهم أسباب الوقاية منه. هذه عادة الأقلّيات إذا كانت في بيئة أجنبية عنها فإنَّها تقوم بدعايات يكون تأثيرها على الأكثريّة. ولست أدري هل كثيرون منّا انتبهوا إلى هذه الحقيقة بالنسبة إلى ما يقوم به البعض هنا...

إنّي لا أقول لهم "قال الله تعالى" ولا "قال رسوله ﷺ" لأنهم لا يعتقدون لا بالله ولا بالرسول.

ولا أقول لهم "قال جمال الدين الأفغاني" أو "قال محمَّد عبده" فإنَّهم لا يأخذون بأقوالهما بل يحتقرونهما في أنفسهم ويحتقرون كلّ شرقي.

ولا أقول لهم "قال أرسطو" أو "قال أفلاطون" أو "قال ابن سينا" أو "قال الفارابي" لأنَّ هؤلاء قدماء وهم يحتقرون كلّ قديم، ولا يأخذون بقول رجل قديم ولو قال: الإثنان والإثنان أربعة.

بل أقول لهم: قال المسيو فلان والمستر فلان، والهر فلان والسنيور فلان، وهؤلاء هم أئمّة الأمم التي أنتم تدعون إلى الاقتداء بها.

أنتم تقولون أنَّ لا نجاح بل لا نجاة إلاَّ بالسير على طرق الأمم الأوربية الحديثة، فنحن لا نريد أن نسير ولا أن نسيّركم إلاَّ على طرق الأمم الأوربية الحديثة. وهذا "بريان" يموت ويصلّي عليه الكاردينال رئيس أساقفة باريز في نفس نظارة الخارجية.

وهذا رئيس جمهوريّة فرنسة "اللادينية" يموت ويصلّي عليه الكرادلة في كنيسة "نوتردام دوپاري".

وهذه الحكومة الألمانية تعلن أنها لن تمنح من حرّية القول والكتابة ما يصل إلى "مقاتلة المدنيّة المسيحية والعقيدة المسيحية".

وأنتم لا تفتأون تقولون بحرّية التفكير المطلقة قائلين: إنَّ هذا هو الشرط الأول في الرقيّ. وما أحد يقدر أن يسلم لكم أنكم أرقى من الألمان ومن هذه الأمم، أو أنَّ الرقيّ الذي يكفي الألمان لا يكفيكم.

تريدون أن تكون "الجامعة المصرية" بؤرة إلحاد، وأن تنقضوا بواسطتها أساس الدين الإسلامي، وأن تذيعوا مبادئ التعطيل والإلحاد في الأفكار ومنازع الإباحة والفجور في الأخلاق، وكلّما أهاب بكم الإنسان قائلاً لكم: يا هؤلاء، إنَّ ما تفعلونه نقض لأساس المجتمع الإسلامي، بل لأساس المجتمع الإنساني كلّه، كان جوابكم لا بدّ لنا من الاقتداء بأوربة.

فهذه هي أوربة أمام أعينكم.

وهذه هي أوربة مسيحية من رأسها إلى قدمها. والنادر لا يعتدّ به.

وهذه هي الحكومات الأوربية بأجمعها تؤيّد الدين المسيحي وتناضل عنه وتقيم شعائره، وشواهدنا على ما نقول هي في اليد، لا يستثنى من ذلك إلاَّ البولشفيك. وأنتم تعيبون الحكومات الإسلامية إذا ظهرت بأقلّ مظهر فيه شيء من الحياطة للدين الإسلامي وتسمّون ذلك "رجعيّة" و"قهقرية".

فعساكم أنتم يا أشباه العلماء، ويا عصبة الدجّالين المتنطّعين بالفارغ، أرقى من الألمان والإنكليز والفرنسيس والأمريكيين واليابانيين، إلخ.

إنَّنا لا نلومكم لأننا نعلم جيّدًا ما أنتم منطوون عليه من النيّات الخبيثة، فليس الدليل والبرهان ممّا يحيك بكم، ولكن نلوم بعض الحكومات الإسلامية التي لا تزال تتذبذب في هذه الأمور وتحسب حسابًا كبيرًا لثرثرة الإلحاد وتخلط بينه وبين الرقيّ! وتحذر كلّ الحذر من تأييد الأسس التي لا يقوم بناء الإجتماع الإنساني إلاَّ بها وذلك خيفة أن تنبز بأنها "رجعيّة".

جنيف، ١٠ محرّم ١٣٥١هـ/١٦/٥/١٩٣٢م

شكيب أرسلان



الأمير فيصل آل سعود في أوربة *

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

لقد زار سموّ الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود جنيف وبرن من سويسرة، وزار من قبل ذلك إيطالية وزار من بعد ذلك باريز ولندن، وهو الآن على وشك زيارة هولاندة وألمانية فبولونية فالروسية إلى آخر السياحة التي يريد هو ومن معه القيام بها، رافقتهم السلامة والكرامة.

ولم أسمع من أحد تلاقى مع الأمير فيصل من الأوربيين إلاَّ عبارات الثناء على ما رأوه من حصافته وعقله ونبله. وأغرب من هذا إنّي رأيت أناسًا لم يكالموه ولا شاهدوه إلاَّ مارًّا في السيّارة وهم مع ذلك يقولون: إنَّ سيماء النجابة بادية عليه.

وقد ابتهج الأوربيون كثيرًا ـ لا في سويسرة فقط بل في كلّ مكان مرّ به هذا الوفد العربي ـ بزيّ هذا الوفد الأصيل واستحسنوا هذه الملابس العربية ورأوا فيها من البهاء والرونق مع الحشمة والوقار ما لم يروه في غيرها.

ولمّا شرّف الأمير منزلنا مع حاشيته امتلأت النوافذ والأبواب والشرفات في جميع الحيّ الذي نحن ساكنوه بالمتطلّعين والمتفرّجين، وجميعهم من رجال ونساء كانوا مسرورين بهذا المنظر يرونه جميلاً ويعجبون به.

وقد كتب لي من لندن ومن باريز أنَّ التأثير نفسه كان في تينك العاصمتين. وقالوا إنَّه عندما كان الوفد السعودي يمرّ بشوارع لندن كنت لا تسمع من السيِّدات إلاَّ كلمة Jolly أي جميل.

إذًا الزيّ العربي والعقال والكوفيّة والعباءة ليس شيء منه بسمج في نظر الأوربيين، ساسة المدنيّة الحديثة. والذين يزعمون أنَّ الإفرنج لا يحترمون إلاَّ الذين يلبسون البرنيطة والجاكت والبنطلون إنَّما يكذبون لا أكثر ولا أقلّ. وقد تحقّقت أنَّ ملكًا من أعظم ملوك

---

* الفتح، العدد: ٢٩٥، (١٣٥١هـ/١٠/٦/١٩٣٢م)، ص ص. ٨ ـ ٩.

أوربا قد زاره ملك شرقي بالزيّ الأوربي وبالقبّعة فكان من ذلك في كرب، ولم يكن يوجّه نظره إليه. ثمَّ زاره بعد ذلك الملك فيصل ملك العراق ثمَّ زاره هذه المرّة الأمير فيصل نائب ملك الحجاز فكان بغاية البشاشة لكلّ منهما.

هذا وليست زيارة الأمير فيصل السعود لأوربا بقاصرة في حسن التأثير على الأوربيين الذين أجّلوا موصله في كلّ محلّ، بل قد انتعش بهذه الزيارة العرب الذين يسكنون في أوربة من طَلَبة وتجّار وغيرهم.

ولمّا قدم الأمير إلى باريز زاره وفد من جمعيّة الوحدة العربية المؤلّفة من مراكشيين وجزائريين وتوانسة وسوريين وعراقيين وبعض مصريين، إلخ. ورحّبوا به وتكلّموا معه في أماني جميع شبّان العرب أن تنصرف همم ملوك الأمّة العربية إلى تحقيق الوحدة السياسية بين هذه الأمّة. فكان جواب الأمير من أفضل ما ينتظر من مثله بمكانه من العقل وبعد النظر في العواقب والاطّلاع على السياسة العالمية والإخلاص للقضيّة العربية العامّة؛ فقد قال لهم: إن ليس عند جلالة والدي إلاَّ سياسة التأييد للوحدة العربية والسعي لتحقيقها، وإنَّه في الأيام الأخيرة قد ازداد اقتناعًا بضرورتها، ولكن عليكم أنتم أن تبدأوا بوضع مبادئ هذه الوحدة، فيما بينكم فإنَّ الشعوب إذا مدّت أيديها لمصافحة بعضها بعضًا لم يسع الملوك إلاَّ متابعتها في خطّتها، لأنَّ الملوك لا تقدر أن تخرج عن إرادة شعوبها.

ومن نكات هذه الزيارة التي دلّت على ما عند الأمير فيصل من مزيد النخوة العربية أنه لمّا دعاه رئيس الجمهوريّة الإفرنسية للمأدبة الحافلة التي أقامها له وحضرها كثير من رجرال الدولة وأعاظم الأمّة كان في جملة المدعوّين الجنرال غورو. فقال رئيس الجمهوريّة للأمير:

ـ هذا هو الجنرال غورو، أفلا تعرفه؟

فأجابه، حسبما سمعت: كيف لا أعرفه وهو صديق العرب المشهور...

فأبلس الجنرال غورو عندما سمع هذه الجملة. وقيل للأمير في ذلك، فأجاب:

أفليس هذا الجنرال هو الذي عندما دخل إلى مرقد صلاح الدين الأيّوبي قال: وجودي هنا دليل على انتهاء الحرب الصليبية.

فلعمري إنَّ العربي ليفخر بأمراء كهؤلاء يعطسون عن شمم تامّ، ويشعرون بأباء ضيم لا تنسيهم إيّاه الأيام.

وقد سبق لذلك فيصل بن الحسين الهاشمي أيضًا في مؤتمر فرساي سنة ١٩١٩ جملة سارت في الشرق والغرب كما ستسير جملة الأمير فيصل آل سعود هذه. فقد قال في وسط المؤتمر:

ـ عندما كنّا ملوكًا لم تكن كثير من الدول الحاضرة موجودة على وجه الأرض.

فعسى أن تتحقّق الأقوال بالأفعال، وأن يستأنف العرب مجدهم القديم وصولتهم الماضية، ولن يستأنفوها إلاَّ بالاتّحاد. ولم يوجد وقت أدعى لاتّحاد العرب من هذا الوقت العصيب.

جنيف، ٩ المحرّم ١٣٥١هـ/١٩٣٢/٥/١٥م

شكيب أرسلان



من حضرموت إلى لوزان*

إلى مقام أمير البيان شكيب أرسلان

تحيّة لعميد العرب حاميها من حضرموت إلى لوزان أهديها
من حضرموت إلى لوزان أبعثها يعطّر الكون بالأنفاس جاديها
يا ليت شعري أتلك النفس عالمة أنّا على الشحط بالأرواح نفديها
وأنها كلّما خطّت يراعتها من حكمة فبأغلى الدرّ نشريها
فما ابنة الكرم في الراووق صافية يومًا بأطيب منها عند حاسيها
نظلّ نرقب صحف البرد علّ بها يتيمة كاتبُ الإسلام منشيها
إذا رأيت مقالاً للأمير بها أشمّه، ثمَّ أتلوه، فألقيها
من يشرب الخمر صرفًا لم يلذّ له مزيجها الدهر مهما رقّ صافيها

۞ ۞ ۞

يا ليت (مصر) تواتيني فتسلفني بيان (حافظها) في شعر (شوقيها)!
عساي أبلغ من مدح الأمير منى في النفس قد طالما اشتدّت دواعيها
عليّ أو في امتداح البعض من شيم لكاتب الشرق فاتت جهد وصفيها
ما إن ترى في سماء المجد منقبة إلاّ رأيت (شكيبًا) واحدًا فيها
عرفت بعض مزاياه فعذت به عن أن أروم له في الناس تشبيها

۞ ۞ ۞

يا كاتب الشرق ما أحلى كلامك في مسامع العرب تهديها وتشجيها
تقضي بقرب أمانيها فتضحكها حينًا، وتشرح مهواها فتبكيها

---

* الفتح، العدد: ٢٩٦، (١٣٥١هـ/١٠/٦/١٩٣٢م)، ص ص. ٨ ـ ٩.

يراعة لك ما زالت تقلبها ... بين الرجاء وبين الخوف ترميها

كذاك من يبتغي إنهاض أمّته ... من الحضيض إلى أعلى مراقيها

سبحان من أودع العود النحيل قوى ... تهتزّ من صولها الدنيا وما فيها!

لما كتبتَ بيانًا عن طرابلس ... وما به من أمّة الطليان تمنيها

وجسم القلم الأعلى فظائعهم ... فصار سامعها في حكم رائيها

تحرّكت أمم الإسلام واضطربت ... ومادت الأرض أو كادت رواسيها

واستيقظ الشرق مذعورًا يصيح ألا ... من للحقوق وللآداب يحميها؟

يا رُب مرهَفة الحدّين ماضية ... أرسلتها في شعوب الغرب تفريها

جدعت آنف أعداء السلام بها ... ودون ماضيك قد فلت مواضيها

شتّان ما سيف حقّ ذاد عن شرف ... وسيف بغي على الأحياء يرديها

كشفت عن خطط سوأى مدبرة ... للمسلمين روءس الكفر تنويها

وإذ درت أنَّ ما تخفيه بان بما ... كتبته وسدّى ضاعت مساعيها

ملت تدابير مكر بان خافيها ... فصارحت بالتي من قبل تطويها

قامت فرنسا بتنصير البرابر لم ... تراعِ حرّية كانت تراعيها

ما بالها وهي لادينية برزت ... تفوح كثلكةً نتنى بواطيها؟!

الله أكبر بان الحقّ وانكشفت ... غشاوة الجهل وانجابت دياجيها

لم يرحم القوم إنسانية برزت ... شعثاء غبراء قد سالت مآقيها

بشّر جميع وحوش الأرض قاطبة ... بأنَّ دولتها قد قام كرسيها!

هل تحسب الله ربّ الناس تاركها ... تعيث في الناس ظلمًا لا يجازيها

أم أنسيَت دولة الإسلام إذ خفقت ... أعلامها فوق قاصيها ودانيها

العدل يدعمها والعلم يكنفها ... والدين يحرسها والذكر يحميها

لا ملكها على سبيل العدل مال بها ... ولم يكن أيْدُها بالبغي يغريها

لما ملكنا عدلنا في ممالكنا ... فكان مسلمها شروى مجوسيها

ولم تملنا عن الإنصاف قوّتنا   وضعف جيراننا أو خصب أرضيها
تلك المفاخر تتلو-وهي صامتة-   على العصور لنا مدحًا وتنويها!

۞ ۞ ۞

الحمد لله. ما في حكمه شطط   في كلّ أفعاله خير يماشيها
هذي المصائب من أعدائنا عبر   كبرى لأمّتنا أضحت تزكّيها
فلم تكن نِقمًا لكنّها نعم   ذكرن حاضرها أيام ماضيها
قد نبهت بصداها قلب غافلها   وأيقظت من كراها عين غافيها

۞ ۞ ۞

شكيب، يا كاتب الدهر الكبير ويا   لسان أمّةِ طه في دعاويها
تذود عن دينها ذودًا وتنصرها   وتستميت دفاعًا عن أراضيها
فيك (العروبية) العليا ممثّلة   فإنَّك المثل الأعلى لأهليها
إذا كتبت كتبت الحقّ تعضده   آيات ربّك في أسمى مجاليها
إنَّ (الحنيفية) البيضاء تشكر ما   أوليتها من منى ما زلت تسديها
ما زلت تدفع عنها كلّ عادية   حتّى قضت نحبها غيظًا أعاديها
فأضحت اليوم تشنا كلّ طائفة   شنأتها وتوالي من تواليها
قضى أمانيَّك الرحمن من بطل   أقصى أمانيه في أقصى أمانيها!
وجُلّ ما تبتغيه في حياتك أن   ينشقّ عن بدرها الوهّاج داجيها
والمسلمون جميعًا يحمدونك في   مواقف لك لا تُرقى مراقيها
تلك المواقف غرّاءً مخجّلةً   سينقضي الجيل بعد الجيل يرويها

۞ ۞ ۞

يا من له سورة في المجد ساطعة   ما في البسيطة من مجد يدانيها
ويا هماما لو أنَّ العرب ليس لها   إلاَّ (شكيبا) همام كان يكفيها

عَنت لطاعته غُلْب البيان فما ... تلقى بلاغته ندًا يباريها

وفي السياسة قد بزّ الفطاحل إذ ... أوحت إليه بباديها وخافيها

فما تلا عربيٌّ من بدائعه ... إلاً تبيّنتَ في أعطافه تيها!

لبّيك يا بطل الدنيا وكاتبها ... لما دعوت وإيهًا فخرنا وإيها

إيهًا فتى الشرق سيّرْها جوائب في ... الدنيا ونبّه بني الإسلام تنبيها!

وخذ إليك قياد العُرْب وامش بِها ... إلى الحياة سبيلا فاز ماشيها

فإنَّ يمناك إن تمسك قيادتها ... فالقوس قد ألقيت في كفّ باريها

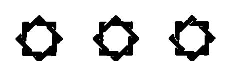
بشرى لنا أمّة الهادي بكوكبة ... تقفو خطاك إلى ما كان يحييها

لا بدّ من نهضة للعرب ثانية ... تعنو إليها من الدنيا نواصيها!

فلن تفلَّ جيوش أنت قائدها ... ولن تضلّ سراة أنت هاديها!

سيوون

علي بن أحمد با كثير



واحرقتاه على سيف الإسلام محمَّد*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

منذ جاءني نعي الأمير سيف الإسلام محمَّد نجل الإمام المتوكّل على الله يحيى صاحب اليمن، لم أزل تحت تأثير هذه الضربة القاصمة أعالج عبثًا أن أستجمع قواي لمقاومة عملها في نفسي، وكلّما أخذت القلم لأعبّر عن شعوري في هذه الفجيعة الوجعية رأيت اليراع يراعًا والخاطر مقسّمًا وعجز المقال عن المقام.

نعم فَقد العالم الإسلامي بفقد هذا الأمير ركنًا من أركانه وأميرًا من أجلّ وأنجب أمرائه، وأغرق بحر الحديدة بإغراقه بحرًا وغيب بمصاب بدر الدين بدرًا، وإنّا لله وإنَّ إليه راجعون.

لقد قضى علينا هذا الجهاد في الدفاع عن الأمّة العربية المظلومة والعالم الإسلامي المقهور أن نكون على صلة بملوك جزيرة العرب والمتصرّفين بأزمة هذه الأمّة لعلّنا نأتيهم بفائدة قومية فنكشف خطرًا أو نميط ضررًا أو نضع في بناء هذه النهضة العربية حجرًا، وكان ما نحن بسبيله يجعلنا ذوي علاقة بإمام اليمن يحيى بن محمَّد بن حميد الدين نصره الله وصان اليمن على يده فكانت من بعد ذلك عاطفة محبّة وذمام ولاء صار لنا الفخر باعتلاق ذلك الحبل المتين. وجاءنا الخبر في أحد الأيام أنَّ سيف الإسلام محمَّدًا النجل الثاني للإمام المتوكّل على الله قد قدم إلى رومة ومعه رهط من رجال اليمن، فرأينا من الواجب بالنسبة إلى علاقتنا بجلالة والده أن نذهب إلى رومة لأجل السلام عليه ومشاهدة من معه وكان منهم المرحوم السيِّد عبد الله بن ابراهيم، من أفضل مستشاري الإمام، وكانت لي معه صداقة قديمة العهد من قبل الحرب العامّة وكنّا تلاقينا بالمدينة المنوّرة. وبالاختصار شددت حقيبتي إلى رومة في ذلك الوقت، أي منذ خمس سنوات، فما بلغتها إلاَّ كان الأمير وحاشيته قد برحوها إلى البندقيّة على أن يبحروا منها بعد يومين. فركبت القطار الذي يذهب إلى البندقيّة وكان ذلك مساء يوم وصولي إلى رومة فبلغت البندقيّة عند الأسفار وما طلع الصباح إلاَّ وأنا في الفندق الذي كان سيف الإسلام محمَّد نازلاً به.

* الفتح، العدد: ٢٩٦، السنة السادسة، القاهرة (٥ صفر ١٣٥١هـ/١٠/٦/١٩٣٢م)، ص ص. ١ ـ ٥.

فسألت عن الأمير فقيل لي إنّه بات هاتيك الليلة عند مضيفه الجنرال غاسباريني والي الأريترة السابق الذي لم أنسَ إلى الآن اسمه ـ ولا اثمه ـ وإنّه سيكون بعد ساعتين في الفندق عائدًا من عند مضيفه. إلاّ أنه قبل موعد رجوع الأمير كان حضر بعض ضبّاط الطليان وبعض رجال الخارجية منهم ولّما شاهدوني سألوا عنّي فأعطوهم في الفندق اسمي، وإذ ذاك تغيّرت الوجوه وحملقت العيون وكثر الذهاب والإياب وانخفضت الأصوات وشرع كلّ أناس يدوكون في ناحية وكأنَّ حادثًا عظيمًا حدث واستطار ألباب أولئك القوم وهذا الحادث هو: إنَّ شكيب أرسلان يريد أن يواجه الأمير محمَّدًا ابن الإمام يحيى، وكيف يمكن أن يكون ذلك؟ وكيف العمل لمنع ذلك؟

ثمَّ جاء الأمير ومعه حاشيته في زورق وصعد إلى "الأوتل" ـ لأنَّ شوارع البندقيّة هي خلج من البحر والناس يجولون في البلدة بالزوارق ـ وعند وصوله اضطرب القوم كثيرًا، وجاءوا فاصطفّ منهم بضعة عشر رجلاً أمام باب قاعة الاستقبال التي كنت أنا جالسًا فيها وظننت أنا أنَّ مقصودهم بهذه الهيئة استقبال الأمير وأن يكونوا صافين أمامه حرمة وتعظيمًا، فأخطأ ظنّي، وعلمت أنَّ المقصد بهذا الصفّ الحيلولة بيني وبين السلام على الأمير لأنَّ الأمير ورهطه صعدوا من القارب إلى دار "الأوتل" ومنها إلى غرفهم وكان مرادي أنا أن أخرج من قاعة الاستقبال لملاقاة الأمير فلمّا وصلت إلى الباب ورأيت هذا الصفّ حسبته من جملة مراسم التعظيم فأردت أن أمرّ من هناك فقالوا لي: إنَّك ممنوع. واضطربوا اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة. فما قدرت أن أصل إلى الأمير لأصافحه، ولا كنت أنا ممَّن ينادي من وراء الصفوف قائلاً: أنا فلان لا أقدر أن أصل إليك. فتركتهم إلى أن صعد الأمير ومن معه إلى غرفهم وناديت أحد جماعة الفندق وناولته بطاقتي وقلت له ليقدّمها للأمير. فوقعوا من هذه البطاقة في مشكَل بين تقديمها وعدم تقديمها. فإنَّهم كانوا يعلمون أنهم إن لم يقدّموها له أمكنني أن أرسل بطاقة أخرى إلى الأمير بواسطة أحد السودان الذين كانوا معه وكانوا واقفين في دار الأوتل وإنَّه عند ذلك لا بدّ للأمير من أن يستدعيني إلى غرفته. وكانوا يعلمون أيضًا أنهم إن قدّموها هم فلا بدّ من المقبلة أيضًا فعوّلوا على رأي آخر وهو الكلام معي رأسًا بالاستعلام عن سبب هذه الزيارة.

وجاء رجل طويل أسمر اللون ومعه شابّ طويل عريض ذو شارة فأخذا يسألانني عن سبب مجيئي؟ فسألت الأول: من أنت؟ فقال الجنرال غاسباريني والي الأريترة. فقلت له:

أسمع بك. ثمَّ قدّم لي رفيقه فإذا هو كونت نسيت الآن اسمه من رجال الخارجية عيّنوه لمرافقة الوفد اليماني. فأجبتهما: مرادي أن أسلّم على الأمير سيف الإسلام محمّد، حضرت عمدًا من سويسرة إلى هنا للسلام عليه نظرًا لسبق علاقة بيني وبين جلالة والده. فقالا إلاَّ أنك أنت جئت أولاً إلى رومة فكان ينبغي أن تستأذن من نظارة الخارجية للاجتماع بالأمير. فقلت لهما: لم أفكّر أنَّ الاجتماع بالأمير يستلزم إذنًا خاصًّا من نظارة الخارجية، لأني اعتقدت أنَّ الأمير وإن كان ضيفًا في إيطالية فلا يزال حرًّا مختارًا في حركاته وسكناته، وأنه يقدر أن يجزم في أمر قبولي وعدمه. وأنا كنت أقدر أن أتلفن إلى السنيور موسوليني الذي هو صديقي وأن أخبره بهذه الزيارة، لكنّي لم أجد ضروريًّا مخاطبة رئيس حكومة إيطالية في قضيّة بسيطة كهذه. ثمَّ أوضحت لهما بكلّ صراحة صغارة هذا العمل الذي هو الحيلولة بيني وبين الأمير، ومحاولة منعي من الوصول إليه بإقامة صفّ من الضبّاط والجنود بيني وبينه ومنعي من النفوذ من خلال الصفّ. وقلت لهما: لا أظنّ هذا لائقًا بكم. فقالا: إنَّهما لا يقدران أن يسمحا لي بزيارة الأمير إلاَّ بإذن من نظارة الخارجية في رومة، وإنَّهما تلفنا إليها ومن تلك الساعة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر لا بدّ من أن يأتي الجواب. فقلت لهما: أنا لا أستأذن نظارة خارجيّتكم في أمر الاجتماع مع أمير عربي من اليمن، ولا أزال أعرف اليمن مملكة عربية مستقلّة، وكلّ ما أطلبه منكم هو إيصال بطاقتي إلى الأمير وأخذ الجواب منه هل يريد أن يقابلني أم لا؟ فإن امتنع عن مقابلتي كنت عملت الواجب عليّ وكتبت إلى أبيه بواقع الحال. وبديهي أنَّ المحاورة فيما بيني وبينهم وإن كانت أصول الاجتماع فيها محفوظة لم تكن الأعصاب فيها ساكنة ولا الأصوات منخفضة. فقالا إنَّهما على كلّ حال ينتظران أمر الوزارة وهذا الأمر سيأتي قريبًا. وآن وقت الغداء فذهبت إلى قاعة الطعام، وما كدت أفرغ من الطعام حتّى جاء شابّ مسيحي من القدس مستخدَم في الترجمة عند الحكومة الإيطالية فقال لي: إنَّ الأمير يدعوك إليه وقد بلغه كلّ ما وقع فأمر حالاً بأن يتركوك تشاهده.

وعلمت بعد ذلك أنَّ خبر هذه الضوضاء وصل إلى الأمير من السودان الذين كانوا معه ومن الحواشي الذين كانوا في دار الأوتل، فاستدعى القاضي راغبًا التركي الذي كان من جملة الوفد وقال له: قل للجنرال غاسباريني بهذه الدقيقة إن لم يمكّنوا شكيب أرسلان من المجيء إليَّ فأنا أذهب إليه في غرفته ولا أنتظر مجيئه. فلمّا علم غاسباريني بعزم الأمير هذا جاءني وأنا على الخوان يقول لي: قد أرسلت إلى الأمير ليستقبلك! ونسي ما كان صرّح لي

به قبل ذلك بنصف ساعة من أنه لا يأذن لي بمواجهة الأمير إلاَّ من بعد ورود الإذن من الوزارة في رومة.

تمثّلت في هذه الحادثة الجزئية جميع دناءة «الاستعمار الغربي» ولؤمها وخسّتها. تخيّلت عمل الدول الغربية الدائم للحيلولة بين المسلمين وتهالكها في سبيل تقطيع أوصالهم وما تراقبه على اجتماع مسلم بمسلم، لا سيَّما إذا كانا من المفكّرين، وما ترتكبه من دناءة مراقبة المكاتيب ومنع الجرائد الإسلامية عن البلدان الإسلامية التي أوقعها نحس طالعها وقل بالأحرى ظلم أمرائها وخيانة علمائها تحت سيطرة الاستعمار الغاشمة. تذكّرت عمل فرنسا في المغارب، وإيطالية في طرابلس وإنكلترة في الهند، وهولاندة في أندونيسية، والروسية في تركستان، وجميع تلك الموبقات التي لا نهاية لها. تأمّلت كيف أنَّ فرنسا تمنع أيّ مفكّر مسلم من دخول المغارب، وكيف إن أذنت له في الدخول لسبب موجب تجعله تحت المراقبة الشديدة وتجعل كلّ من اتّصلوا به تحت مثلها. وتأمّلت في مراقبتها للبرُد ومفاوضتها للخارجية الإنكليزية والخارجية الإسبانيولية المرّة بعد المرّة في وضع برُد هاتين الدولتين في المغرب تحت إشراف السلطة الإفرنسية. وتأمّلت في كيفيّة إجابة هاتين الدولتين لمطالب فرنسة هذه، ولو بخلاف الواجب من ضمان حرّية البريد، وذلك خدمة للتكافل الأوربي في وجه الإسلام، وخوفًا من حصول أدنى ثلمة في سور الاستعمار الذي يجب في نظرهم أن يحيط بالعالم الإسلامي كلّه.

فكّرت كيف أنه لا يمكن مسلمًا أن يقابل سلطان المغرب أو باي تونس إلاَّ بحضور من تعرفه فرنسا مخبرًا أمينًا لها. فكّرت في أنه لا يمكن مسلمًا غريبًا أن يقابل سلطانًا من سلاطين الجاوى إلاَّ بإذن خاصّ من السلطة الهولاندية، وعلى شرط حضور مأمور هولاندي ذلك المجلس. فكّرت كيف أنَّ الإنكيز في الهند يراقبون كلّ من يعلمونه قدم من العالم الإسلامي لزيارة نظام حيدر أباد وأمير بهوبال أو غيرهما من ملوك الإسلام في الهند. ويفعلون مثل ذلك في مسقط وزنجبار والبحرين، وكلّ مكان فيه شبح أمير مسلم. تذكّرت قصّة شيخ من أهل مكّة المكرّمة ذهب يزور سلطان بخارى، فبمجرّد وصوله إلى بوّابة مدينة بخارى صدّه ضابط روسي كان هناك وأخرجه لا يسمع له أدنى كلمة، وقال لي ذلك الشيخ: إنَّ هذا الضابط يخرج أيًّا شاء من أهل مدينة بخارى ويمنع أيًّا شاء من دخولها، ولا يضطرّ أن يقول السبب ولا يسأل عمّا يفعل.

جاءت في بالي قصّة الوكيل الإفرنسي الذي في بلاط باي تونس، لا يقدر الباي أن يأكل ولا يشرب إلاَّ بمعرفته ولا أن يأمر بدفع ريال لفقير مستجدٍ إلاَّ إن أجاز ذلك الوكيل.

إنَّ الذلّ إذا حلّ بأمّة لا يعرف الإنسان إلى أيّة درجة ينتهي، وإنَّ المتغلّب متى بدأ يتغلّب يتدرّج من كلّ فادحة إلى ما هو أفدح منها، ومن كلّ فظيعة إلى ما هو أفظع منها، حتّى ينتهي إلى الدرجات التي تستحيل في العقول. وهكذا يحصل بكلّ من علل نفسه إنَّه بالخضوع يرتكب أخفّ الضررين.

هذا ولمّا دخلتُ على الأمير سيف الإسلام محمَّد قابلني بلطفه الشهير وعانقني معانقة الأخ الذي طال عهده برؤية أخيه، وجاء من أشياخ ذلك الوفد اليماني السيِّد عبد الله بن ابراهيم فتعانقنا وكلّ منّا يتمثّل بقول الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كلّ الظنّ أن لا تلاقيا

ولم أقدر أن أخفي تأثّري ممّا عمله الطليان، وبمجرّد ما جلست قلت للأمير ورهطه: لم أعلم لماذا استطيَر هؤلاء الجماعة من رؤيتي هنا وماذا ظنّوا في أنفسهم؟ إن كانوا ظنّوا إنّي سأتكلّم بخلاف مصلحتهم معكم فأنا قد كنت ممّن حبّذ الاتّفاق الذي عقدتموه معهم نعم على شرط أن لا يكون فيه ما يمسّ في قليل ولا كثير استقلال اليمن.

فقال الأمير محمَّد رحمه الله وقدّس روحه ما يلي بالحرف:

«والله إنَّ كلّ كتاباتك هي لنا وليست علينا. وإنَّ هذا الذي جرى معك قد عرفته، وفي الحال بعثت إليهم قائلاً: إن لم تدعوا شكيب أرسلان يأتي إليّ فإنّي أنا أذهب إليه حيث كان».

ثمَّ أراد أن يطلعني على معاهدة اليمن مع إيطالية لأستوثق من جهة تأكيد استقلال اليمن التامّ وعدم رضاهم بأقلّ شرط يخلّ بتماميّة الاستقلال. فقلت له: إنِّي قد اطّلعت على نصّ المعاهدة في الجرائد، وكان أمير المؤمنين الوالد نصره الله قد أكّد لي في كتاب خاصّ من جلالته أنَّه لا يوجد في هذه المعاهدة مادّة سرّية كما أشيع، ولا يوجد إلاَّ النصّ المنشور في الصحف. فلم تبقَ عندي ريبة في أنَّ هذه هي المعاهدة، وأنه ليس فيها ما يمسّ في شيء استقلال اليمن الكامل.

ثمَّ أخذنا نتجاذب أهداب الحديث في موضوع اتّحاد العرب ولا سيَّما بين الإمامين يحيى صاحب اليمن وعبد العزيز بن سعود صاحب الحجاز ونجد وملحقاتها. وكان سيف

الإسلام محمّد يقول: في هذا المقام كلّ ما ينتظر من أمير عربي مخلص للعروبة وللإسلام محنّك في السياسة. وقد وجدت هذا الأمير بالمقام العالي من العلم والفهم وإدراك الحقائق وسرعة الخاطر وحسن الخلق، وسررت بأن يكون للإمام يحيى أيّده الله هذا النجل النجيب وسألت الله توفيقه وعقدت به أملاً كبيرًا.

وقد انخذل الجنرال غاسباريني في هذه المسألة وأنا لم أكتم الوفد اليماني أني أرى الطليان متهوّرين إذا ظنّوا أنهم يقدرون أن يقطعوا أوصال العالم الإسلامي، ولا سيَّما العالم العربي منه. فاليمن لم يكن مستعمرة لإيطالية ولن يكون بإذن الله ولن يقدر الطليان أن يحولوا بين اليمانيين وسائر العرب إخوانهم.

أمّا غاسباريني ورفاقه فكسائر رجال الاستعمار يعلّلون أنفسهم بأن يفردوا المسلمين بعضهم عن بعض ويجعلوا كلّ فريق منهم منحصرًا ضمن جدران أربعة لا يرى شيئًا إلاَّ السماء التي فوقه، ولا يتّصل بفريق آخر من المسلمين وإن اتّصل بأحد فلا يكون إلاَّ مسلمًا خائنًا لقومه مطيّة استعمارية أو جاسوسًا على ملّته أو مسلمًا غبيًّا لا يعلم كوعه من بوعه. وهذا على حدّ قاعدة فرنسة في الإذن بالحجّ «لا يؤذن في السفر إلى الحجاز إلاَّ لمغربي لا يكون «ممَّن يفهمون السياسة»».

ثمَّ مذ ذلك الوقت بقيت المراسلة متّصلة بيني وبين المرحوم الأمير محمَّد أمير الحُديدة وتهامة ونجل أمير المؤمنين. ويوم سفري إلى الحجاز لتأدية الفريضة كنت أنوي أن أزور اليمن وأعلّل نفسي بلقاء الإمام وأنجاله ولا سيَّما الفقيد العزيز، إلاَّ أني كما لا يخفى اعتللت في مكّة علّة كادت تؤدّي بي أساسها شدّة الحرّ وما تماثلت إلاَّ بالطائف، فلم أجرؤ أن أقتحم بعدها لظى حرّ الحديدة وكنت أؤجّل هذه الزيارة إلى فصل من فصول الشتاء. وكان الأمير الفقيد رحمه الله يلحّ عليّ في زيارة اليمن ويتنجزني هذا الوعد ويكتب لي: اليمن بلادك ولا بدّ لك من أن تعرفها. وفي السنة الماضية اعتلّ الفقيد وثقل حاله وقلق عليه جميع أهالي اليمن وبلغني الخبر، فأبرقت أستفسر عن صحّته فجاءني الجواب بما طمأن الخاطر إذ كان قد دخل في دور النَّقَهَ. ثمَّ كتبت إليه في بعض مسائل أهمّها الخلاف الذي كان حصل على الحدود بينهم وبين جلالة ابن سعود وخشينا أن يجرّ بينهم إلى القتال، فكان منه الجواب الآتي ننقله بحرفه ولا نحذف إلاَّ الترجمة التي في أوله والنعوت التي تفضّل علينا بها وهو:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وإنّا نحمد الله إليكم على نعمه المتكاثرة ونسأله المزيد من فضله. وقد تشرّفنا بوصول محرَّركم الكريم الممتع ولكم الشكر على ما أفضلتم به من الإيضاح الشافي. ولم يؤخّر الجواب عن كتابكم السابق إلاّ ما عرض لنا من الأمراض التي شفانا الله منها والتنقّل من تهامة إلى الجبال، فهذا هو العذر الذي بسببه تأخّر الجواب والعذر عند خيار الناس مقبول، فنرجو العفو والمسامحة. ومولانا أمير المؤمنين أيّده الله ومتّع العموم بطول عمره يشكر أعمالكم الحميدة ومزاياكم المشكورة ويقدّر خدماتكم العظيمة للإسلام والمسلمين، والذي بلغ إلى حضرتكم بشأن الاختلاف بين عمّال الأطراف من أجل الحدود قد كانت المراجعة بين مولانا أمير المؤمنين وبين جلالة الملك ابن سعود على ما يرضي الله تعالى ويسرّ كلّ ذي حمية دينية والسلم سائد بين المملكتين، وإن رغمت آناف المفسدين ولنا أمل أنَّ ما تسعون إليه مقرون بالفلاح بمنّ الله تعالى ونرجوكم أن لا تتركونا من نصائحكم الكافية وآرائكم الشافية التي تنزّهت عن كلّ عرض دنيوي والله يبقيكم للإسلام نصيرًا وللحقّ عضدًا. والدعاء لكم مستمرّ. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

غرّة رجب ١٣٥٠ — من **محمّد ابن أمير المؤمنين**
وفّقه الله

۞ ۞ ۞

وقد كان هذا واحسرتاه آخر ما كتبه لي. ومن قبل هذا الكتاب جاءني منه كتاب ذو بال عن قضايا الاختلاف مع جلالة ابن سعود أجبته عليه بكلّ ما يوجب الائتلاف، وبعثت إليه بالجواب منطويًا على كتاب مطوّل إلى أمير المؤمنين نفسه في هذا الشأن. ولقد غلبت الحميّة الإسلامية والنزعة العربية على كلّ من الإمامين وحكم كلّ منهما الآخر، وانتهى الأمر بأنَّ الملك ابن سعود حكم للإمام يحيى على نفسه فقلّما سجّل التاريخ عملاً أشرف من هذا العمل، وهذا برغم آناف المفسدين كما قال المرحوم الأمير بدر الدين محمَّد. وكانت جميع كتبه لي بخطّ أنامله، وكان عفا الله عنه عالمًا فاضلاً كاتبًا سيّال القلم رشيق العبارة جزل اللفظ بليغ المعنى متمكّنًا من أعنة البيان واللغة، قد أنشر له يومًا بعض جمل يرى منها القارئ علوّ طبقته في الإنشاء. وكان مطّلعًا على أحوال الدنيا خبيرًا بالسياسة العالمية، كتب لي مرّة بأنَّ خير ما يعلمه المسلمون لتوقيف المظالم الجارية عليهم هي أن يؤلّفوا لجنة ذات شُعب في

جميع الأقطار الإسلامية لمقاطعة بضائع الدول التي تتجاوز الحدّ في ظلمهم وقهرهم، لكن على شرط أن يقرنوا القول بالعمل. ومن أحسن ما فعله أنَّ بعض «المبشّرين» المضلّلين نزلوا بالحديدة وزعموا أنهم لن يتعاطوا الدعاية الدينية فتركهم ينزلون أولاً، وشدّد عليهم المراقبة إلى أن عثر لهم على أوراق ومنشورات تثبت عكس ما تعّهدوا به، فاستدعاهم في الحال إلى حضرته، وأخرجهم من الحديدة بدون إمهال ساعة واحدة. ومناقبه رحمه الله كثيرة ومآثره جليلة أثيرة وكان ركنًا لليمن ركينًا وكانت الآمال به معقودة فلا عجب أن يفدح به الخطب وأن يعظم الصدع وأن يحزن عليه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها. وقد جاء مصابه بعد مصاب السيِّد محمّد بن عقيل بن يحيى رحم الله الاثنين، فكان كلّ منهما بنيان قوم تهدّم وفقدت بهما العربية السعيدة فرقدين نيّرين.

وليتأمّل الإنسان في مروءة هذا الأمير الذي غرق وهو ينتشل أحد أتباعه من الغرق فذهب شهيد النجدة والإنسانيّة. والغريق شهيد بدون أن يتلف في سبيل إنقاذ غيره فكيف إذا تلف في سبيل المروءة المحضة.

نسأل الله أن يعزّي قلب والده أمير المؤمنين المتوكّل على الله وقلوب الأمراء إخوته الكرام، لا سيَّما الأمير سيف الإسلام أحمد وليّ العهد وأن يلهمهم ويلهمنا الصبر الجميل على غياب هذا البدر، وفقد هذا الفقيد العالي القدر، وأن يبدله الله من هذه الدنيا الفانية خيرًا منها، ونزلاً كريمًا ونعيمًا مقيمًا في جوار قدسه الأقدس وغرف علائه الأقعس وما عند الله خير وأبقى.

قد كنت آمل أن أحظى برؤيته ... ولا أزال لذاك البدر مرتقبا
حتّى أتانيَ نعيٌ لا مردّ له ... فردّ ناظر آمالي به حطبا

جنيف، ١٩ المحرّم ١٣٥١هـ/١٩٣٢/٥/٢٥م

شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

نار أوربا من شرارة البلقان*

مقالة تاريخية تخبر عن الحرب العامّة قبل الحرب العامّة بسنة وأربعة أشهر

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

لست من الكهّان ولا من العرّافين، ولله الحمد، ولا أنا بعجزي وضعفي من الأولياء الذين يكاشفون بكثير ممّا وراء حجب الغيب، ولكنّي أفكّر وأتأمّل وأكثر مطالعة الكتب والصحف لا سيَّما ما تعلّق منها بالتاريخ والسياسة، ولذلك تصحّ أقوالي عن كثير من الحوادث قبل وقوعها.

ومن هذا القبيل الحرب العامّة التي تكهّنت على نشوبها قبل أن نشبت بنحو من سنة وأربعة أشهر وذلك في مقالة منشورة في جريدة "الشعب" المصرية في ٢١ مارس سنة ١٩١٣.

ولقد تمَّ كلّ ما تكهّنت به بحذافيره واحترقت أوربة بشرارة بلقانية، كما قلت، ولم يوجد شيء يؤخذ عليه في هذه المقالة إلاَّ كون العالم الإسلامي لم يستفد من الحرب الأوربية كما كنت أتوقّع. وإنّي لأرى أنَّ نتائج حرب كبرى كهذه لا تظهر في بضع عشرة سنة وإنَّما تظهر أعقابها في أنصاف القرون بل في القرون. ولهذا أقول إنَّ الإسلام لا بدّ من أن يتّعظ ويعتبر وينهض ويكون نهوضه من تأثير الحرب الكبرى وتكون مطامع أوربة الاستعمارية هي التي كانت وبالاً عليها. أمّا المقالة فهي هذه بالحرف:

(نار أوربة من شرارة البلقان)

لا بدّ أن تكون شعلة النار الحاطمة التي ستحرق بها أوربا يومًا من الأيام من شرارة البلقان، ويكون أصل السبب في ذلك تعصّب أوربا ورضاها بتبديل الحالة التي كانت في البلقان بما يوافق مصالح الصقالبة مجاراة للروس.

لا بدّ أن تلقى أوربة جزاء تحاملها على الإسلام وتذبح نفسها بيدها وهي تظنّ أنها مجهزة بها عليه، ولا بدَّ أن تذكر أوربة كيف أنها منعت الدولة العثمانية من دخول أثينا وعن

* الفتح، العدد: ٢٩٦، (١٩٣٢/٦/١٠م)، ص ص. ١٠ ـ ١١.

أخذ تساليا بعد أن افتتحتها، بالسيف فإنَّها أعلنت قبل هذه الحرب البلقانية عدم استفادة أحد من انتصاراته ظنًّا أنَّ البلقانيين ينهزمون. فلمّا ظهر العكس كانت أسرع من البرق إلى نقض ما غزلت وقرّرت وجوب أخذ البلقانيين لجميع البلاد التي احتلّوها بل للبلاد التي عجزوا عن افتتاحها. ولّما احتجّت الدولة العليّة على هذا النكث وعلى هذا الوزن بميزانين مختلفين أصمّت أوربة أذنها، وأجابت جريدة الطان بصريح العبارة "إنَّ الباب العالي يخطئ إذا اعتقد بأنه يمكن أوربة أن تعامله معاملة حكومة مسيحية".

لا بدّ أن تسيل في أوربة دماء أغزر ممّا سال من أجساد مسلمي الروملي، وأن يدخل على قلوب أطفالها وضعافها من الروع أضعاف ما دخل على قلوب حرم الإسلام وأطفاله في البلقان جزاء وفاقًا، وأن يشمت المسلمون بالأوربيين ويعلموا أنه لو انتصرت الدولة العليّة في البلقان لما اختلّ التوازن ولبقيت كلّ دولة في مكانها. ولمّا نشبت حرب أوربية طاحنة تأتي على الحرث والنسل. وإنَّ فشل العثمانيين وفوز البلقان أقام قيامة الصقالبة، وأسكر الروسية بخمرة الظفر، وجعل أوستريا تنظر في مصير أمورها، وتحشد مليون عسكري تحت السلاح، وتتأمّل كيف أنَّ صقالبة البلقان بعد استفحال أمرهم صاروا قوّة كبيرة في وجهها بينما الروسية قوّة أكبر منها من جانبها، وبينما للصقالبة ٢٠ مليونًا في قلبها، وهم متحفّزون للوثبة عند أول صرخة.

لا بدَّ أن يذكر المسلمون قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾. لولا حرب البلقان وفشل العثمانيين فيها لما عبّأت فيها أوستريا وروسيا كلّ منهما جيشًا جرّارًا، وصرفتا الملايين من الجنيهات وشحذتا غرار العداوة وضَمرتا خيل الطراد ليوم لا ريب فيه.

لولا حرب البلقان وفوز البلقانيين لما اضطرّت ألمانيا إلى زيادة ٥٠٠ ألف جندي في جيشها، و٥٠ مليونًا من الجنيهات على ميزانيّة حربيّتها ولقد أعلنت الصحف الألمانية أنَّ ذلك الاستعداد هو أمر طبيعي نشأ عن ضعف تركيا الموقّت.

نعم، لولا حرب البلقان لما صارت الحرب الأوربية العامّة على قاب قوسين أو أدنى، وهي لا بدّ من نشوبها، ولو أجلّتها السياسة، ولا غنى عن سعيرها مهما أرجأتها المداراة. فرنسا هي التي فتحت باب تمليك البلقان للبلقانيين، وأخلّت بالمعاهدات الدولية، قاصدة

بذلك تعزيز النصر "السلافي" ومجاراة الروسية فأجبرت النمسا وألمانية أن تتأهّبا لملاقاة هذا السيل السلافي الذي يتهدّد كيانهما، وإلى تجديد المحالفة مع إيطالية وعادت فرنسة تزيد في قواها وتصرف المبالغ الطائلة في برّيتها وبحريّتها استعدادًا للطوارئ وهي لا تفتأ تتوجّس خيفة السقوط أمام قوّة ألمانية فكانت فرنسة منذ الآن قد لقيت جزاء خللها بالمعاهدات وتعصّبها مع البلقانيين، مع أنها كانت في غنى عن ذلك لو اعتدلت، لولا حرب البلقان ومسعى دول الائتلاف الثلاثي في تمليك البلقان للبلقانيين لما استحرت العداوة بين رومانية وبلغارية وصار هناك جرح نغّار ينذر كلّ ساعة بالخطر ويكون له شأن في المستقبل.

لولا حرب البلقان ومسعى دول الائتلاف المثلّث باقتسام هذه الدول الصغيرة تركية أوربة لما قام الخلاف بين الروسية والنمسا من أجل حدود ألبانية الجديدة، وهي المسألة التي ستكون بعينها مستطار الشرر.

لن ترجع الدويلات البلقانية عن غيّها بعد حلاوة الظفر، ولن تقدر حكومة روسيا أن تضبط هياج الشعب الروسي المتعصّب، ولن تقدر النمسا أن تطأطئ الرأس لأمّة السلاف التي تتكالب عليها لأجل أن تلتهمها، والتي تضاعف الآن غرورها بنفسها، فلذلك لا بدّ من الاحتكاك فالاصطدام.

لا يمكن الأرناؤوط أن يستمرّوا في الفتنة، ولا بدّ أن يأخذوا بثأرهم من الصربيين، وأن يتحاربوا حرب العصائب مع دول البلقان على الأماكن التي أكثرها أرناؤوط. ودول البلقان لا تقدر أن تصرف جنودها خوفًا من ثورات الأرناؤوط، فالنار إذًا غير منطفئة في البلقان. الأرناؤوط أصبحوا تحت حماية النمسا، فلا تقدر الصرب أن تبطش بهم. والصرب تحت حماية الروسية. وكلّ من الصرب والأرناؤوط لا يصافي الآخر، ولا بدّ من الاحتكاك والاشتباك.

البلغار أنفسهم يكرهون الصرب، والصرب يكرهونهم، وبين الفريقين منافسات على بلاد كلّ منهما يريد أخذها، وكلّ منهما يدلي عليها بحجج ومزاعم. وقد بلغ النفور بينهما حدّ العداوة وهو الآن في ازدياد.

اليونان والبلغار ضدّان لا يجتمعان، وستكون سلانيك بينهما سبب الحرب مهما اجتهدت روسيا في الضمّ والرمّ، لأنَّ سلانيك لقمة كبيرة لا يتركها الأخ لأخيه، فكيف

يتركها العدوّ لعدوّه. وكما أنَّ روسيا تسعى في جمع كلمة البلغاريين فيوجد دول مهمّة كروسيا تعرف أن تحرّك كلاً من دويلات البلقان على الإصرار بمطالبها إلقاء للفتنة بين أتباع الروسية. ومن كان مطمح نظره سلانيك فلا تحيك فيه نصيحة، إذ ليس لسلانيك معادل في الروملي ولا منها بدل. ولكلّ من البلغار واليونان فيها مزاعم لا يرجعون عنها. أمراض معضلة كانت كامنة. وآلام مبرحة كانت ساكنة بوجود الدولة العثمانية باسطة الجناح على الروملي، فما تقلّص ظلّها عن هناك بإرادة دول الائتلاف الثلاثي، حتّى بدأت تستفحل تلك الأمراض وتشتدّ هاتيك الأعراض وحتّى أبدى الشرّ ناجذيه وصارحتنا الحرب باسمها وانتشر النظام وأصبح سيف الخطر معلّقًا فوق رأس كلّ دولة، وعادت الحال كمستودع بارود يوري كلّ دقيقة حوله زناد. ومهما اجتهد مؤتمر السفراء في لندن، ومهما كدّ خاطره السرّ غراي فلا بدّ أنَّ الحقّ تعالى يثأر من الدول الكبار لضعاف المسلمين الذين تنزل بهم أنواع الفظائع في الروملي و﴿ سيعلم أنَّ الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾.

شكيب أرسلان

(الفتح) ـ الشيء بالشيء يُذكر. لمّا انتهت حرب البلقان باتّساع نطاق بعض دويلاته على خلاف مصلحة النمسا، وصارت النمسا وألمانيا تستعدّان للطوارئ، كان مسيو «ماسنيون» المستشرق الفرنسي الشهير يزور مكتبتنا للاجتماع بشيخنا الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله، فلاحت للشيخ أمارات القلق على وجه مسيو ماسنيون، وقدّر أنَّ ذلك ناشئ عن استعداد الألمان والنمسويين، فقال له:

ـ لماذا كلّ هذا القلق يا مسيو ماسنيون، لا تخف، إنَّ إنكلترا لا تترككم وحدكم أمام الألمان، وسترى إذا نشبت الحرب غدًا أنَّ الإنكليز يدفعون الخطر عن فرنسا.

وبعد نحو سنتين من ذلك كان الأمر كما ذُكر.



بحيرة طبريّة وواقعة حطّين*

قصيدة عصماء نظمها أديب العربية الأكبر الأمير شكيب أرسلان قبل ثلاثين عامًا

ننشرها بمناسبة (ذكرى يوم حطّين)

أحسنُ ما فيهِ يسرحُ النظرُ ... وادٍ بحيثُ الأردنُّ ينفجرُ [(١)]

غارت عليه النجودُ من شَغَفٍ ... فالغَور ما بينهنَّ منحصرُ [(٢)]

قامتْ على الجانبين تخفرهُ ... كذلك الحسن شأنهُ الخَفرُ

مبتدِئُ الجري في الشمال لدى ... شيخٍ لهُ الكِبْرُ بات والكِبَرُ [(٣)]

هاوٍ إلى الموت في الجنوب لدى ... بحرٍ ولا كالبحار يُحتَضرُ [(٤)]

ومن يعمُّ البياض لُمَّتَهُ ... فهل سوى الموت بات ينتَظرُ!

۞ ۞ ۞

يا شرقَ هونين كم لديك جرى ... مَعينُ ماءٍ حَصباؤُهُ دُرَرُ

الشطرُ تلُّ القاضي يسلسلهُ ... والشطرُ من بانياسَ ينحدرُ

والحاصباني بات إثرَهما ... يشتدُّ في الجري ليس يصطبرُ [(٥)]

يملأُ منها الأردنُّ بِركتهُ ... ويزدهي مرجُ حولةَ الخضرُ

---

* الفتح، العدد: ٣٠٨، (١٩٣٢/٩/٩م)، ص ص. ٨ ـ ٩، والمقتطف، ج ٢٧، (١٩٠٢)، ص. ٢٢٧.

(١) الأردن، (ويسمّى نهر الشريعة)، ينبع من سفوح جبل الشيخ في الشمال ويتكوّن من نهر "الحاصباني" و"بانياس" و"اللدان" ويخترق بحيرة الحولة، وبحيرة طبريّا، ووادي الغور، وينضمّ إليه نهر (اليرموك) و(الزرقا) و(حسبان)، ثمّ ينصبّ في البحر الميّت، وبه تنفصل فلسطين عن شرقي الأردن. وطول الأرض التي يمرّ بها من بحيرة طبريّا إلى البحر الميّت ١٠٤ كيلومترات، ومن منبعه إلى مصبّه ١٧٠ كيلومترًا، وطول مجراه بمنعرجاته ٤٠٠ كيلومتر.

(٢) هو غور بيسان في جنوب طبريّا بينها وبين نابلس.

(٣) إشارة إلى جبل الشيخ الذي ينبع الأردن من سفوحه، وسمّي جبل الشيخ لأنَّ قمّته متوّجة بالثلوج صيفًا وشتاءً، وهذا الجبل على ٥٠ كيلومترًا من دمشق جنوبًا، وارتفاعه ٢٨٣٩ مترًا عن سطح البحر.

(٤) يشير إلى البحر الميّت الذي ينصبّ فيه نهر الأردن، ويسمّى "بحيرة لوط"، وقد يعجب المرء كيف ينصبّ نهر الأردن في بحيرة صغيرة ولا تفيض، وسرّ ذلك أنه يتبخّر من مياهها كلّ يوم ستّة ملايين طنّ على ما يقال، ونهر الأردن يغذّي البحيرة يوميًا بمثل هذه الكمّية من المياه.

(٥) في هذا البيت والبيتين قبله أسماء مياه وأماكن بين جبل عامل غربًا والجولان شرقًا وجبل الشيخ شمالاً وبحيرة الحولة جنوبًا وهي بقعة من أخصب وأجمل بقاع الأرض.

حيث وَشيجُ اليراع مشتبكٌ كأنَّما الخطُّ ثمَّ والسَّمُرُ
حيث نموُّ النبات معجزةٌ كأنَّما سُوق قمحهِ الشجرُ
والصيدُ ما إن يزال عن كثَبٍ لا كِنَّ من دونِه ولا قتَرُ
بحيرة لم يرمْ بساحتها ضاقَ بها أن تقُلَّهُ الصغرُ
يمَّمَ أُخرى ورام ثالثةً لقد ترامت بهِ نوًى شُطُرُ
أمَّن جسرُ البنات معبرَهُ وربَّما خاض دونه الجُسُرُ
حتّى إذا فاض من هناك غدت أرض البطيحاءِ منهُ تزدهرُ
أرضٌ علت ماؤُهُ مناكبها وبات منها للبحر ينفغرُ
أقبلَ يُرغي وما بهِ قطَمٌ وظلَّ يعدو وما بهِ بطَرُ
حتّى إذا ما مياههُ اختلطت بهِ تولاَّهُ بغتةً سكُرُ
من بعد تلك الحياة بات بهِ ميتًا وفي البحر يغرق النهرُ

۞ ۞ ۞

بحر الجليل الذي شواطئهُ في كلّ شبرٍ من رحبها أثرُ[1]
غذا دماءَ المسيح موردهُ وراقهُ منهُ ريقهُ النَّضِرُ
وبين أمواجهِ وأربُعهِ كانت تجلَّى آياته الكُبَرُ
كم فيه للكاتبين من سِيَرٍ وكم نبيين فيه تُدَّكرُ
عيسى حواريُّهُ وصفوتهُ والناس من حول وعظهِ زُمَرُ
والصائدون الأُلى لهُ اتّبعوا هدًى وذاك الشراعُ منتشِرُ
وكَفْر ناحومَ مع عجائبها ومَن بها آمنوا ومَن كفروا
والمجدل القرية التي نشأتْ مريمُ منها والطيب منتشرُ
والزهد فيهِ الأفراح قد دُمِجَتْ والفقر معهُ البيان والفقَرُ

(١) بحر الجليل هو بحيرة طبريّا، والأرض الممتدّة منها إلى حيفا تسمّى أرض الجليل تتوسّطها الناصرة التي ولد عيسى فيها ونسب إليها النصارى.

والخبز تقري الألوفَ كِسرتهُ والمشيُ فوق المياه مشتهرُ
والقول هذي الفتاة نائمةٌ والبِكرُ عزريلُ نحوها بكِرُ
وكم نبَتْ بالسفين عاصفةٌ وظنَّ أنَّ الركاب قد غبروا
فسكَن البحرُ وهو مضطربٌ من بعدما استصرخوا وما جَأروا
سجا بإيماءةٍ لهُ، ونجا مَن حملتهُ الألواح والدّسرُ
في ضفّتي هذه البحيرة لو تبحَّر الفكر حارت الفكَرُ
كم خبّأ الدهر في جوانبها وكم رمى فوق موجها القدَرُ
ما الأبحر السبعُ مع نتائجها ما الرومُ ما الهند ثمَّ ما الخزرُ
وقوم موسى لهم بساحتها مركع صدقٍ وأدمُعٌ غُزُرُ
في طبريّا مواقفٌ حُمدت وأرضها مَقدسٌ ومغتفرُ
بها رجال التلمود قد سكنوا وجُلَّ آرائهم بها زبروا
وكم نبيّ في ذي البلاد قفا موسى وكم مرَّ ههنا الخضِرُ
يكفيك ما في الأُردنّ من عِبرٍ نهرٌ عليه آباؤهم عبروا
وإنَّ يحيى على شواطئهِ بين يديهِ الأنام تطهّرُ
ما القنجُ ما النيل في جوانبه ما دِجلةٌ ما الفُراتُ يُعتبرُ
والغَور بين البحرَين منبسطٌ تسرح فيه الجآذرُ العُفُرُ
لو طبقتهُ أيدي الورى عملاً على فلسطين فاضت الميرُ
قد كان والماءُ غابرًا شرَعًا والآن ما إن يكاد ينحسرُ
بحيرةٌ كلّ شأنها عجبٌ وهي من الحسن كلّها غررُ
لله درّ الكنديّ واصفها كانها في نهارها قمرُ[1]
كانت تحفُّ الجنانُ دورتها والآن تحتفُّ دَورها السدرُ
مرآة نورٍ من السفوح لها إطارُ نورٍ لم تحكهِ الأطرُ

---

(1) لعلّ الأسير يشير إلى ما نظمه أبو الطيّب في هذه الربوع يوم كان ضيفًا على الأمير بدر بن عمار الأسدي.

كأنها في صفائها فلكٌ — وفُلكها فيه أنجمٌ زُهرُ
أجْمدْ بقوم رأوا محاسنها — يومًا فما أنشدوا ولا شعروا
عند الشمال الأُردنُّ واردها — وفي حنوبيّها لهُ صدَرُ
شريعةٌ من مياهها ظهرت — وقد تلتها شرائعٌ أُخرُ
عَلم عيسى هنا شريعتهُ — وقوم موسى توراتهم فسروا
وفي حروب الصليب قد رُفعت — أعلام دين الذي نمت مُضرُ

۞ ۞ ۞

يا يوم حِطّين كم حططتَ من الإفرنج شأنًا ما كان ينكسرُ
هبُّوا من الغرب كالجراد فلم — يكن لشرقٍ بردّهم قدَرُ
واستفتحوا القدس والبلاد ولم — يعص عليهم بدوٌ ولا حضرُ
وهدّدوا المسجد الحرام وكم — دعا مُلبٍّ فيه ومعتمرُ
وكاد يبكي الميزاب فيهِ دمًا — ورقَّ ممّا أصابنا الحجرُ
ونابَتِ المسلمين داهيةٌ — دهماء قد عمَّهم بها الذعرُ
فكلُّ كفٍّ أصابها شللٌ — وكلّ عزم أصابهُ خوَرُ
وكلّ جمع نواهمُ انقلبت — فرسانهُ وهي للظُبى جزرُ
وحوصرت جلَّقٌ[1] ولو أُخذت — لم تبقَ مدنٌ لنا ولا مدرُ
وقيل دار الإسلام قد حصرت — وحفَّ باقي بلادهِ الخطرُ
ما زال ملء القلوب رُعبهم — ولم يكن نافعًا لها الحذرُ
حتّى تولّى زنكي[2] فنازلهم — وكان من شيركو لهُ وزَرُ
طليعة النصر في ولاية نور الدين مَلكٌ بالعدل يأْتزر
مجاهدٌ ماهدٌ بخطتهِ — في الفتح والعدل سارت السيَرُ

(١) جلق: دمشق.

(٢) هو أبو نور الدين، أستاذ صلاح الدين.

تُقرُّ عينَ النبيّ سيرتُهُ ... ويَرتضي مثلَ هديهِ عمرُ

ثمَّ ابن أيوب[1] جاءهُ خلفًا ... وليس إلاَّ سروجه سُرُرُ

مهَّدَ دارَ المعزِّ فانقلبت ... بيوسفٍ مصر وهي تفتخرُ

لما استقامت لهُ الأمور ولم يبقَ رقيبٌ وانجابتِ الغمرُ

أقبل في جحفلٍ لهُ لجبٍ ... يطلب ثأر الدين الذي وتروا

بفتيةٍ سمرهم إذا عشقوا ... سمر صعادٍ وبيضهم بتُرُ

غيرَ طِعان النحور ما عرفوا ... وغيرَ جرد الخيول ما زجروا

أناخ في شاطئ البحيرة إذ ... إليهِ عن كلّ ناجزٍ كشروا

فقام من أرضهِ لصدمهم ... في السهل من لوبياء[2] واشتجروا

۞ ۞ ۞

يوم تلاقى الجمعانِ والتَظَتِ الـ ... ـهيجاءُ حتّى كأنّها سقرُ

يوم تلاقى الجمعانِ وانتَصَبَ الميزان رهنَ انحرافهِ الظَّفرُ

الشرقُ والغربُ بعد طول وَغًى ... تواقفا، والبراز مختصرُ

ثلاثةٌ والنزال بينهما ... تزالُ من بعد يومهِ العصرُ

فأمطرتهم قسيُّ جيش صلا ... ح الدين نَبلا من دونهِ المطرُ

ودوا وقد أبصروه عارضهم ... لو سترتهم من دونهِ حفرُ

كأنما قومنا وقد ثبتوا ... شمٌّ حصونٍ لها القنا جدُرُ

كأنما قومنا وقد وثبوا ... زعازعٌ للغصون تهتصرُ

كأنَّ سوق الجهاد قائمةٌ ... وهم بصنف الردى همُ التجرُ

ذاق العدى من سُلاف طعنهم ... كاسًا بغير العنقود تختمرُ

لما رأوا الأمر غير ما حسبوا ... والناس من فوق صبرهم صبروا

---

(١) هو السلطان صلاح الدين.

(٢) لوبياء: قرية بين حطّين وطبريّا.

ولوا ظُبي يوسفٍ ظهورَهُم تأخذ منها فوق الذي تذرُ
ضياغمٌ أجفلوا وقد نظروا حُمر المنايا كأنهم حمرُ
وأدبر القمص مع فوارسهِ ما غرَّهُ مثل غيرهِ الغررُ
لا عجبٌ أن نجا وحيط بهِ عادةُ ذي الأرض نشر من قبروا
مالوا لحطّين طالبين نجًا فلم يُفدهم ضلع ولا دبرُ
وأسفرَ السبتُ عن هزيمتهم وأصبح المَلْكُ ضمن من أُسروا
وفوق ذاك الصعيد نائمهم كأنه النخل وهو منقعرُ
والهيكليون من قساورهم لم يبقَ إلاَّ هياكل دُثُرُ
لم يجبنوا ساعةً وإن خذلوا وإنَّما الليث دونَهُ النمرُ
في حضرةٍ من شُعَيبَ قد شُعبوا كذا لهم عن مزارهِ زَورُ[1]
فأُزلفوا نحو يوسفٍ خضُعًا رقابهم ناكسًا لهم بصرُ
تَرهقهم ذِلَّةٌ وتحسبهم قومًا سُكارى كأنهم حشروا
يوسفُ عصرٍ صلاح مملكةٍ بكلّ أمر للبرّ مؤتَمِرُ
أصبح مستحييًا دماءَهمُ حياؤُهُ والخلائقُ الزهُرُ
أبى عليهِ الإباءُ مصرعهم وعفَّ إذ عفَّ وهو مقتدرُ
عفوًا بهِ عمَّهم وأخرج مَن بنكثهِ السهل ضاق والوَعِرُ
وفي بأرناطَ نذرَهُ بيدٍ إذ طالما لم تحكْ به النذُرُ[2]
وقال إذ تلَّهُ بصارمهِ: ها أنا ذا للنبيِّ أنتصِرُ
أزْوجَ بين التهليل مهجتهُ مخضوبةً صارمًا هو الذكرُ
فأصبح المُلْكُ وهو مرتجفٌ ما شكَّ أنْ بالحسام يُبتدَرُ
أبصر جسم البرنس منعفرًا فقال إثرَ البرنس أقتفِرُ

---

(١) قبرشعيب في قرية اسمها الخيارة بجوار حطّين.

(٢) أرناط كان فرعون الصليبيين وكان ملك الكرك والشوبك في شرق الأردن وإنَّما قتله صلاح الدين بيده لأنه أطال لسانه بحقّ النبيّ صلّى الله عليه وسلَّم وكان كثير الندر عظيم الجرائم.

فأفرخ الروعُ منه في الحال إذ | بُشِّرَ أن لـن يـصيبـهُ ضـررُ
عوقب بالأسر موقنٌ بردًى | وجلَّ مُلكًا مع العمى العوَرُ

۞ ۞ ۞

قاصمةُ الظهر للفرنج غدت | وقعة قرنَيْ حطِّينَ مذ ظهروا
كـأنَّ عـليـا حـطيـن مبتـدأ | وكـلّ فتـح من بعدها خبرُ
حظٌّ ابن أيوب أن يفوز بها | و الله فـي خـلـقـه لـهُ أُثـرُ
وحظُّ جيشٍ لبَّى النداءَ غدت | في اللوح مكتوبةً له الأجرُ
قومٌ أراحوا الأقوام إذ تعبوا | وقـد أنامـوا الأنـام إذ سـهـروا
بهم جدود الإسلام قد صعدت | من بعـد ما كان أهلُه عثروا
ولابن شاذى ذكرٌ شذاهُ سرى | في كلّ قطر كأنهُ القُطُرُ
قام بوجه الفرنج منفردًا | والقوم من كلّ أمّة جمروا
حتّى استردَّ البلادَ أكثرها | وأصبح القدس دان والصخرُ
كانت مئات الحصون تعصمهم | مـنـيـعـة إذ ثـغـورنـا ثُـغـرُ
من كلّ حصن أماط عزَّتهمْ | بالسيف لم يُمشَ نحوهم خمرُ
واستعصمت صورُ في معاقلها | وكـلّ طرفٍ بـهِ لـهـا صـوَرُ
من فرط ما عمَّهم برأفتهِ | وفَلْتـهِ فَلَّهـم وقـد كـثـروا
فامتنعوا كلّهم بعوقتها | فهي لهـم ملجأٌ ومعتصرُ
إن عيب بالحلم والوفا بطلٌ | فـإنـهُ خيـرُ مـا هـفـا البـشـرُ
ما شانَ طولُ الأناةِ في رجلٍ | إن لـم يكن شان باعَهُ القصرُ
قد كان في رقةٍ وفي جلدٍ | كالسيف في ماءِ حدّه الشَّرَرُ
جمرة بأسٍ ما شابها وَهَلٌ | غمرة حلم ما شابها كدرُ
ما كان يدرى من الوغى ضجرًا | والكلّ في الجانبين قد ضجروا

حتّى يميط العوار أجمعهُ ... ما هان من كان همَّهُ العَسرُ
أمَّن دار الإسلام بعد عنّا ... كذلك الشهد دونهُ الإبَرُ
لم يلههِ عن ثغور مملكةٍ ... ثغرٌ ولا ناظرٌ به حَوَرُ
وكان من حرمة العدوِّ لهُ ... أنْ ذكرُهُ في بلادِه عطِرُ
تغدو عظامُ الملوك واقفةً ... ببابهِ وهو أعظمٌ نُخُرُ
وينحني حاسرًا بتربتهِ ... رأسٌ بأعلى التيجان معتجرُ
شهادةً منهمُ لخصمهم ... والحقّ كالشمس ليس يستترُ
والفضل يحيا من بعد صاحبهِ ... والذكر يبقى ولو عَدَتْ غِيَرُ
ونحن من بعد كلّ ذاك وذا ... لم يبقَ إلاّ الحديث والسمرُ



لا نعلم إذا كان لوسيان سان هو الحاكم في سورية أيضًا؟*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

يقال إنَّ السلطة في الشام منعت دخول جريدة "الفتح" إليها.

ولا شكّ أنَّ هذا من أعجب العجب. فالفتح لا يؤاخذ من أيّة ناحية، إلاَّ من ناحية أنه جريدة إسلامية.

فجريدة إسلامية يحبّها جميع المسلمين ليست بجريدة ثورية ولا شيوعية ولا فوضوية، بل جريدة نظام وأدب وأخلاق وعمران، يمنعون دخولها إلى الشام إحدى عواصم الإسلام لكونها تدافع عن المسلمين.

علمنا أنَّ لوسيان سان، قدّيس الرباط وطاغية المغرب، مانع كلّ جريدة إسلامية من دخول المغرب، وواضع هذا القطر في صندوق مقفل ومختوم عليه بالشمع الأحمر.

لكنّنا لم نعلم أنَّ لوسيان سان ـ بطل قضيّة تنصير البربر ـ هو الحاكم العامّ في سورية.

بل سمعنا أنَّ في سورية جمهوريّة وقد دخل في وزارتها أشخاص وطنيّون وقالوا "بالتعاون النزيه".

أفمن باب التعاون النزيه منه جريدة عربية إسلامية معتبرة في نظر الجميع من دخول سورية؟

لا والله. بل هذا من التعاون الوسخ، ومن التعاون على الإثم والعدوان.

في العام الماضي أرسلت إدارة "المنار" إلى الشام مائة نسخة من رسالتنا "لماذا تأخّر المسلمون؟" فكان من السلطة أن ضبطتها ومنعت توزيعها. فذهب أحد أصحابنا والتمس من السلطة ردّ المائة النسخة إلى مصر أو الإذن في إرسالها إلى القدس فرفضت السلطة أيضًا ردّها إلى حيث كانت وبقيت مصرّة على ضبط النسخ. وكرّر صديقنا المطالبة بها ولم يسمعوا له كلامًا.

* الفتح، العدد: ٣١٢، السنة السابعة، القاهرة (٢٨ جمادى الأولى ١٣٥١هـ/١٩٣٢/٩/٢٩م)، ص ص. ١ ـ ٢.

مائة نسخة من رسالتنا «لماذا تأخّر المسلمون؟» لا يمنع ضبطها أن يكون قد توزّع منها ألوف من النسخ.

ومائة نسخة كلّ ثمنها خمسة جنيهات لا تغني ولا تسمن من جوع.

فما هذه الصغارة وما هذه الخطّة في الانتقام منّا بحجز بضاعة قيمتها المادّية تافهة كهذه.

وما يؤسفنا إلاّ دخول من يقولون إنّهم وطنيون في حكومات كهذه في دمشق لا تفترق عن حكومة لوسيان سان في مراكش.

ولا نعلم متى يفهم هؤلاء أنّ سورية ليست بمستعمرة لفرنسة ولا لغيرها وأنها مملكة مستقلّة وأنّ هذا الانتداب لا بدّ من إزالته من هناك ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ﴾.[1]

جنيف، ١٣ جمادى الأولى ١٣٥١هـ/١٤/٩/١٩٣٢م

شكيب أرسلان

---

(١) سورة الأسراء، الآية ٨٨.

كيف أوربة هي (لاييق)* على رأي أنقرة

بمناسبة مرور عشر سنوات على ولاية حزمة "الفاشيست" لزمام أمور إيطالية أصدرت هذه الدولة طوابع تذكارية بريدية عليها صورة الصليب والإنجيل وتحتهما كلمة "إيمان".

ومع أنَّ مبادئ الفاشيست ليس فيها شيء من مبادئ الإنجيل، ولا تعرف للعدل والإحسان معنى إلاَّ فيما لا يخالف مصلحة الفاشيست، فعلى كلّ حال هذا إعلان صريح ينضمّ إلى إعلانات كثيرة سابقة بأنَّ حكومة إيطالية الحاضرة ـ صديقة حكومة أنقرة ـ حكومة مبنيّة على الأسس المسيحية الكاثوليكية.

ولم يمنع هذا من أن تكون إيطالية من الدول العظام كما لا يخفى.

ومن أيام نشرت جريدة "الأوسر ڤاتورو رومانا" لسان حال الفاتيكان مقالة امتدحت فيها كثلكة موسوليني، وقالت إنَّه كفاهُ أنه هو الذي أعاد الصلبان التي تمثّل المسيح مصلوبًا إلى المدارس وإلى المحاكم (راجع الأعداد الأخيرة من الطان).

فهكذا أيها الأنقريون ـ وليس الأنقريون بأنقرة فقط بل منهم عدد غير قليل في مصر وغيرها ـ هي لاييقية إيطالية التي أنتم حلفاء لها تقريبًا.

وهكذا أيها المسلم الساذج البسيط الذي يجهل حقائق أحوال أوربة يخدعك نفر من المضلّلين أعداء الإسلام في الباطن وأدعياء إصلاحه في الظاهر بقولهم لك: إنَّ الأمم الأوربية لم ترقَ هذا الرقيّ كلّه في معارج الفلاح إلاَّ بعد أن نبذت الدين ظهريًّا وإنَّها الآن قد التحفت ثوبًا قشيبًا لا دينيًّا!

هكذا يقولون لك أيها المسلم المسكين لأغراض خفيّة في أنفسهم وأنت كثيرًا ما تصدّق، وكثيرًا ما تقف حيران لا تعلم ماذا تصنع؟

---

* الفتح، العدد: ٣٢٠، السنة السابعة،(١٩٣٢/١١/٢٤م)، ص. ٨.

ومع الأسف أقول إنَّ كثيرًا ممَّن يعلمون الحقائق لا يرفعون عقيرتهم بإنكار لتلك الترّهات ولا يهيبون بهذه الأمّة إلى سياسة الاستمساك بعقيدتها وتقاليدها التي هي موئل قوّتها ومناط نهضتها وكلّ ذلك لئلاَّ ينبزهم نابز بأنهم "رجعيّون".

فتراهم خوفًا من هذه الكلمة يعلمون الحقيقة ويتجاهلونها ويسكتون عن التنبيه عليها وهم لا يجهلون خطر المواطأة على الضلال.

ومنهم من يعلم الحقيقة ويتجاهلها حرمةً للأنقريين الذين بثّوا هذه الروح الفاسدة في الشرق.

وكنت أودّ أن أذكر الجدال الذي ثار بيني وبين توفيق رشدي ناظر خارجية تركيا يوم جاء مؤخّرًا إلى جنيف، وتلاقيت معه في مأدبة رئيس نظّار العراق نوري السعيد.

ولكنّي أطوي عنه هذ المرّة كشحًا بكون ناظر خارجية تركيا تمنّى لسورية الاستقلال الذي ناله العراق فيها، وذلك في خطبة ألقاها بجمعيّة الأمم يوم دخول العراق فيها. كيفما كان سبب خطبته هذه نحن نشكره عليها.

فلهذا قلت لتوفيق رشدي مساء ذلك اليوم: شكرًا لك على ما قلت بحقّ سورية وهذه هي المسألة الأولى التي أشكركم عليها. وبعد ذلك عندما قال إنَّ سياستهم وطنية لا دينية أسمعته الكلام الصريح الذي أراه تَناقضَ حركاتهم بعينيه وكيف أنهم في سياستهم يقتدون بأمم سياستهم أيضًا هي وطنية لكنهم تبني معها دينها، على حين أنهم هم الأنقريون يرون سياستهم الوطنية قائمة بهدم دينهم... وهذا هو الفرق بين الفريقين. ﴿ومن يضلّل الله فما له هاد﴾[1].

جنيف، ١٠ رجب ١٣٥١هـ/١٩٣٢/١١/٩م

شكيب أرسلان

(١) سورة الزمر، رقم ٣٩، الآية ٢٣.

جامعة المسجد الأقصى*

نداء إلى العالم الإسلامي

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

عندما وضعت الحرب العامّة أوزارها عن انتشار عقد السلطنة العثمانية، جلَّ الخطب في العالم الإسلامي، وفدح الأمر. وكان المسلمون يرجون أن تستردَّ تركيا استقلالها فتجير شيئًا من صدع الشتتّ الذي حصل، فما استردّت تركيا استقلالها حتّى ألغت الخلافة، وقضت على التقاليد التي بها قوّة الإسلام المعنوية، وجاءت بالذي سمّته "بالتجدُّد" وما هو إلاّ الإتيان على الإسلام من قواعده. فأصبح الإسلام بدون إمامة ولا زعامة، ورجع المسلمون حيارى لا يدرون ماذا يصنعون، لأنهم كانوا عوَّدوا أنفسهم أن يعوّلوا على الأتراك في الدقيق والجليل، ولا يولوا وجوههم في السياسة غير شطر الآستانة العليّة. فلمّا تنكَّر لهم الأتراك الأنقريون وقالوا هم: لم تبقَ لنا علاقة بكم، وصارت جرائدهم تصف العالم الإسلامي "بالعالم المتفسّخ" (تفسُّخ ايتمشْ عالم إسلام) وتنادى "شَرْقَه وداع" أي وداعًا للشرق، دخل على المسلمين من الهمّ والغمّ والحيرة والتخبّط، بل من اليأس والقنوط، ما لا يعلمه إلاَّ الله. وسُقط في أيديهم وخارت قواهم المعنوية، إلاَّ ما ندر عند ذوي النفوس القوية وقليل ما هم.

وقد كان المسلمون بإلقائهم جميع الأحمال على ظهر الدولة العثمانية قد أضرّوا بأنفسهم وبتلك الدولة معًا.

أضرّوا بأنفسهم لأنهم قالوا: عندنا ما يكفينا كلّ مهمّ وهو الدولة العليّة، فهي الخلافة وهي الرئاسة وهي المركز وهي نقطة البركار وهي قطب الرحى وهي أدرى منّا بما يجب وهي القائمة بما يجب. وهكذا أهملوا أنفسهم إهمالاً جعلهم غُثاء "كغثاء السيل" كما تنبّأ بذلك عنهم النبيّ ﷺ، وهكذا صاروا لا يُحسبون في العير ولا في النفير، وهان أمرهم على الكبير والصغير.

---

* الفتح، العدد: ٣٢٨، السنة السابعة، القاهرة (٢٢ رمضان المبارك ١٣٥١هـ/١٩/١/١٩٣٣م)، ص ص. ١ ـ ٤.

وأضرّوا بالدولة العثمانية نفسها لأنَّ ٣٠ مليون نسمة لا تقدر أن تحمل حملة ٣٥٠ مليونًا، وهؤلاء لا يريدون أن يعملوا بأنفسهم شيئًا، ولا يرون وجوبًا لأن يعملوا شيئًا. وقد جعلوا الدولة العثمانية عذرًا للكسل، وحجّة يحتجّون بها على من يندبهم للعمل. فكان من نتيجة هذا الاتّكال على سلطنة آل عثمان في كلّ شيء أنها هي قعدت، وأنهم هم تدهوروا، والعياذ بالله، إلى أعمق الدرك.

ونشأ أيضًا عن ذلك كراهية الترك للعالم الإسلامي ونفضهم أيديهم منه كما تشهد بذلك أقوالهم. لا أقصد بالترك هنا الشعب التركي، حاشا وكلاّ، وإنّما أقصد الفئة المستبدّة الآن بأمور تركيا.

فكان من سقوط القوّة المعنوية بين المسلمين بإلغاء الخلافة وظهور الأنقريين بالمظهر المناوئ للعقيدة الإسلامية، أن تفاءل الإفرنج خيرًا مترقّبين تلاشي الإسلام من الوجود، وإن صاروا يتحدّثون بذلك في أنديتهم ويكتبونه أو يشيرون إليه في بعض الأحايين في جرائدهم ونحن نقرأ ونراقب.

ولكنّنا نقول ما قاله الله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم﴾[1]. فالمسلمون بعد أن فقدوا أمّهم الأخيرة (الدولة العثمانية)، استيقظوا وهبّوا وأصابهم ما أصاب الشابّ الذي يفقد والده. فهو ما دام أبوه حيًّا لا يفكّر في شيء من أمور البيت، ويقول: أبي أعلم بما يجب. ويبقى كذلك إلى أن يموت والده، فما هو إلاّ وقد ارتفعت الغشاوة عن عينيه وأن أبصر طريقه وعلم أنه هو الآن الرجل المسئول وأنه لا يحكّ جلده غير ظفره.

نعم أفاد المسلمين سقوط الخلافة العثمانية كما تفيد المصائب كلّ أمّة، وعرفوا أن يعوّلوا على أنفسهم وأن يحكّوا جلودهم بأظافرهم، وعلموا أنهم لا يقدرون أن يعوّلوا بعد اليوم على دولة عثمانية ولا على خلافة ولا على رئاسة ولا على تركيا كلّها بل على أنفسهم وحدهم.

وكان بلغ من انهيار قوى الإسلام المعنوية أنَّ المستعمرين الأوربيين آمنوا على مستعمراتهم المأهولة بالمسلمين، وأنَّ «المبشّرين» تباشروا بنجاح دعايتهم الدينية. وقرأت مرّة في جريدة تبشير كاثوليكية تصدر في «فريبورغ» من سويسرة فصلاً تقول فيه: إنَّ أخبار

(١) سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٢١٦.

شرقي أفريقية تدلّ على انحطاط الإسلام انحطاطًا عظيمًا بإلغاء الترك للخلافة، وإنَّ حوادث التنصير بينهم قد تكاثرت عن ذي قبل.

إلاَّ أنَّ فرح الأوربيين من مستعمرين "ومبشّرين" لم يكن طويلاً. فما هي إلاَّ سنوات قلائل حتّى علمت أوربة أنَّ الإسلام لا يزال إسلامًا، وأنه حيّ لم يمت، وأنَّ روح التكافل بين أبنائه لم تكن في وقت من الأوقات كما هي في هذه الأيام، وأنَّ فقدهم الخلافة قد زاد نهضتهم.

ولقد نهض المسلمون نهضات مذكورة بعد الحرب العامّة، ونفضوا غبار الخمول الذي كان تكاثف على أنفسهم.

ومن أحسن ما وُفّقوا له من بعد الحرب العامّة تأليف (جمعيّات الشبّان المسلمين) في مصر وفلسطين والعراق وسورية.

وأهمّ شيء وفّقوا له بعد الحرب العامّة وأثبتوا به لأوربة أنهم موجودون، ولأنقرة أنهم بها وبدونها مسلمون؛ وأنَّ رابطة الإسلام لا تنحلّ بغضب الترك الكماليين على الخلافة، هو عقد (المؤتمر الإسلامي) في القدس الشريف. ولقد نصبت له أنقرة كلّ شرك لتحبطه فحبطت مساعيها.

لقد كان هذا المؤتمر نواة الحياة الإسلامية الجديدة؛ والآمال كلّها منعقدة به. وسنترك للزمن ولهمم رجالات المسلمين تحقيق هذه الآمال. ويكفي من النتائج المعنوية أنه عرّف أوربة أنَّ الإسلام حيّ يرزق، وأنَّ وحدته لم تكن أتمّ منها بعد إلغاء الخلافة.

وإنَّما نذكر الآن ما وفّق المؤتمر الإسلامي إلى إبرازه من النظر إلى العمل من بعد انعقاده بسنة واحدة لا غير.

من المعلوم أنَّ أهمّ مشروعات المؤتمر الإسلامي كان مشروع تأسيس جامعة علمية تكون أرقى جامعة إسلامية عصرية في العالم الإسلامي، ويؤمّها طلبة المسلمين من جميع أقطار الأرض، ويقرأ فيها الصيني والفيليبيني ما يقرأه التركي والفارسي، وما يقرأه العربي والبربري، وما يقرأه السندي والهندي، إلخ. بحيث يكون هدف الجميع واحدًا.

وقد اشتدّ مسيس الحاجة إلى إنشاء هذه الجامعة في بيت المقدس بعد إنشاء اليهود جامعتهم العظيمة، وبعد أن فغروا أفواههم من كلّ جهة وبكلّ معنى لابتلاع فلسطين. ومما لا يجوز أن نتمارى فيه كونهم ابتلعوا قسمًا كبيرًا منها وأنهم في كلّ يوم سائرون إلى الإمام. فبهمّة الحاج أمين الحسيني رئيس المؤتمر الإسلامي والسيِّد ضياء الدين الطباطبائي رئيس لجنته التنفيذية وبهمم السادة الذين عاونوهما من أعضاء المؤتمر وأعضاء المجلس الإسلامي الأعلى تقرّر ما يلي:

أولاً ـ إعطاء المجلس الإسلامي فندق الأوقاف الكبير ليكون من جملة أقسام الجامعة، وهو فندق يساوي مائة ألف جنيه وكان ريعه على الأوقاف عدّة ألوف من الجنيهات. فتكون أوقاف فلسطين تبرّعت للجامعة بخمسة أو ستّة آلاف جنيه سنويًا.

ثانيًا ـ تقديم الأبنية والأراضي التي تلزم لسائر أقسام الجامعة والتبرّع بالقرى والعقارات التي حبسها واقفوها على المدارس ودُور العلم. وريع هذه الأوقاف لا يقلّ سنويًا عن سبعة آلاف جنيه يجب ضمّها إلى ما توفّر على الجامعة بإعطائها الفندق الكبير.

ثالثًا ـ توزيع أوراق إعانة نقدية ثمن الواحدة من قسائمها خمسة قروش قد أقبل إخواننا الفلسطينيون على شرائها، ومجموع أثمانها أربعة آلاف جنيه.

لم أجد عملاً من الأعمال الخيرية الإسلامية في هذا العصر أجلّ من هذا العمل الذي سدّدت إليه لجنة المؤتمر الإسلامي، وبتّت فيه بدون انتظار جمع إعانات وتبرّعات، لو قعدنا ننتظرها لمضت أعوام طوال وفترت الهمّة وتنوسي المشروع وألحق بغيره من المشروعات التي ماتت. وإنّي لأعترف أنه قلّ أن يوجد في الأمّة الإسلامية اليوم من يقوم من كتابة سرّ المؤتمر الإسلامي مقام هذا السيف الماضي اللامع المسمّى بالسيِّد ضياء الدين الطباطبائي، أدام الله توفيقه لخدمة هذه الأمّة.

وأمَّا الحاج أمين الحسيني فلا أريد أن أقول كلّ رأيي فيه، لأني أخشى إن قلت كلّ رأيي فيه أن تتفطّر قلوب وتتشقّق صدور وتجفّ حلاقيم وتصفرّ ألوان، وقد يكون بعض من يغصّون بفضائله من أحبابي وإخواني، فلا أريد أنا أن أسوءهم بمديح أرى سماحة المفتي الأكبر ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى ورئيس المؤتمر الإسلامي العامّ في غنى عنه.

إنّي جئت الآن أنادي العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه للتبرّع بالمال في سبيل جامعة المسجد الأقصى، بحيث تكون فريدة في بابها، وأن يصلّي العرب والعجم في محرابها. فقد رأى المسلمون أنَّ فلسطين قامت في هذا السبيل بما عليها، وأنها ماضية في عضد هذا المشروع فعلاً لا قولاً، وإنجازًا لا وعدًا، وسحًا لا استسقاء، فليسر سائر المسلمين على آثار إخوانهم الفلسطينيين، فإنَّ جامعة المسجد الأقصى ليست لمسلمي فلسطين وحدهم بل لجميع أمّة من أسرى به ليلاً إلى المسجد الأقصى، ومن أضاء نوره المشارق والمغارب. وهي للأحمر والأسود من هذه الأمّة بدون استثناء.

لقد عوّد العالم الإسلامي هذا الفقير كاتب هذه السطور أن يسمع نداءه ويعتقد صحّة روايته. هذا من فضل الله عليّ، ومما يسلّيني في غربتي المتمطّية بصلبها. ولي على استماع هذه الأمّة لندائي أماثيل عدّة لا حاجة إلى التذكير بها. وكأنّ المسلمين رأوا رجلاً مضى على قلمه سبعة وأربعون عامًا كريتًا وهو يجري على الطروس في خدمتهم بدون انقطاع، وحرم عليه قلمه أن يطأ بقدمه قطرًا من أقطار الشرق إلاَّ النادر، وكلّ ذلك من أجل خدمتهم. فلهذا أصبح إذا ناداهم يلتفتون، وإذا حدّثهم يصدّقون، وإذا استنهضهم يهبّون، وإذا استدنى أكفّهم للخير يهبون. فأين إخواننا وأولادنا الآن من مشروع جامعة المسجد الأقصى التي ستكون الواسطة في عقد وحدة الإسلام، والمنار الذي ستتبدّد به عن آفاقه غياهب الظلام؟

إذا أردنا أن ننهض ونسمو ونجاري الأمم الراقية ونتحرّر من الرباق التي في أعناقنا، فلا سبيل لنا إلى ذلك إلاَّ بتأسيس بيوت العلم وعمارة العالم الإسلامي بالعلم والعلماء من حيث أنه قد نقرّر أنَّ العلم والذلّ للأجنبي لا يتساكنان وأنَّ العرفان والاستقلال توأمان، وكما أنَّ الجامعات الأوربية الكبرى ـ كأكسفورد وكمبريدج وأمثالهما ـ تعنى بأن تفي بجميع حاجات العقل والقلب، وتدرس جميع المعارف التي وصلت إليها المدارك والمباحث البشرية بجانب العقائد الدينية التي يعضّ أولئك الشعوب عليها بنواجذهم. فلتكن لنا جامعة إسلامية عليا تسير فيها العلوم العصرية الواقية بجانب العقيدة القرآنية الصافية، ويجد فيها الطالب المسلم ما يرضي بها لبّه، ويطمئن به قلبه، وترتاح إليه نفسه، ويطاع به ربّه.

ولتكن لنا جامعة عصرية لغتها اللغة العربية التي يحاربها اليوم بعض من في قلوبهم مرض... ولتكن هذه اللغة هي لغة الإسلام العلمية كما كانت لغة الإسلام الدينية.

إنَّ الألمان بعد أن انتهت الحرب العامّة ورزئوا بما رزئوا به من الخسائر التي تفوق كلّ حساب، قد أضافوا جامعتين إلى الجامعات الكثيرة التي عندهم، وقالوا لقومهم: لقد خسرنا الألزاس واللورين وقسمًا من الولايات الشرقية والمستعمرات الألمانية الواسعة والمليارات من الذهب الوضّاح، ولكنّنا أنشأنا لكم مدرستين جامعتين... فليتأمّل القارئ.

وبهذا يعرف الناس ثقل الجامعات العلمية في الميزان، وكون المعارف تُعوِّض من الأقطار والبلدان. والأولَى أن يقال: من فقد العلم لم يقدر أن يحفظ الأقطار ولا البلدان، بل دخل عليه الأجنبي من كلّ مكان.

جنيف، ٨ رمضان ١٣٥١هـ/١/٥/١٩٣٣م

شكيب أرسلان



الجواب بشأن القاديانية*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

لست من مراجع الفِتْيا في الأمور الدينية، ولكن الأستاذ أبا المكارم محمَّد عبد السلام السليم المدرّس بالكلّية العربية في بلدة كرنول من أعمال مَدراس الهند أبى إلاَّ أن يكتبني في جريدة علماء العرب الذين استفتاهم بشأن "القاديانية"[1].

وها أنا ذا أجيبه بالاختصار: إنَّه لا يجب عليَّ أن أكون شيخ الأزهر ولا الحجّة الأستاذ السيِّد رشيد رضا، حتّى أعلم أنَّ القاديانية ليست مطابقة للإسلام، وأنها خروج على السنّة والجماعة وعلى الشيعة على الأباضيّة.

ولقد أورد الأستاذ أبو المكارم شواهد ونصوصًا من مذهب هذه الفرقة لم أجد أحدًا جمعها وأشار إلى مظانّها من كتبهم غيره. وإنِّي لأرى الشاهد الواحد منها يخرج من الإسلام ويسجّل بالكفر على القائل به برغم ما في تكفير المسلم من الصعوبة، فكيف إذا كان القادياني يقول بها أجمع؟

فعلى القاديانية إن كانوا لا يعترفون بهذه الأقوال أن يثبتوا كون نسبتها إلى كتب مذهبهم غير صحيحة. وأمّا إذا ثبتت فأين لعمري هي من الإسلام؟ إنَّنا نتمنّى أن يتبرّأوا منها. وكذلك إن ثبتت هذه الأقوال عن غلام أحمد فلا ينحصر ضررها بالقاديانية وحدهم بل تشمل الأحمدية فرقة لاهور الذين لا يغلون في غلام أحمد غلوّ القاديانية ولكنّهم لم يتركوا الاعتقاد به، مع الأسف.

وكان المولى صدر الدين إمام جامع الأحمدية في برلين يقول لي إنَّ اعتقادهم في غلام أحمد أنه "مجدد" وكنت أقول له إنَّهم إن اقتصروا على أنه "مجدّد" فلا يخرجهم ذلك من السنّة ولكن الخوف هو من أن يجعلوه مسيحًا؟ والحقيقة إنّي لم أطالع كتب غلام أحمد لأعلم حقيقة مذهبه وكنت أسمع عن عقيدته من أفواه الناس.

---

* الفتح، العدد: ٣٢٨، السنة السابعة، القاهرة (١٩/١/١٩٣٣م)، ص ص. ٦ـ ٧. [يُرجّح أن يكون هذان المقالان قد نُشرا في العدد عينه. وقد نصّهما المؤلّف في الخامس والثامن من شهر رمضان ١٣٥١هـ/١٩٣٣م، في جنيف. (المحقّق)].

(١) القاديانية أو الأحمديّة نسبةً إلى قاديان بالبنجاب ـ ميرزا غلام أحمد ١٨٨٨م، وقد حاربه علماء الإسلام. [المحقّق]

وكان يعجبني من فرقة لاهور اجتهادهم في نشر الإسلام وهمّتهم في الدعاية له وتروقني كتابات كثيرة لزعيمهم الأستاذ محمَّد علي وما زلت أعجب به وبالمولى الفاضل صدر الدين الذي اهتدى على يده نحو من ٥٠ شخصًا من نبهاء الألمان ولهم مجلّة منشورة بالألمانية وطالما قلت: إنّي أتمنّى أن تكون عند جميع المسلمين الهمّة التي عند أحمديّة لاهور في إذاعة الإسلام.

ولذلك كان يكتب لي "أنجمن إشاعة الإسلام" في لاهور وأجاوبه أحيانًا مع النصح لهذه الفئة بأن لا يقولوا في غلام أحمد إلاّ أنه "مجدّد" بحيث لايقولون أقوالاً تخرجهم من حظيرة الإسلام. وزرت مرّتين جامع الأحمدية في برلين حيث كانوا يحتفلون بي ولم أجد في ذلك بأسًا.

وأمّا القاديانية فجاءني فيما أتذكّر كتاب منهم منذ سنتين محرّر بالإفرنسية، ولا أتذكّر أني جاوبت عليه لأني كنت أسمع أنهم يعتقدون في غلام أحمد أنه المسيح!

وعلى كلّ حال فإن ثبت عن غلام أحمد أنه قال بعض الأقوال التي نقلها عن كتبه الأستاذ أبو المكارم في العدد ٣٢٤ من "الفتح" فضلاً عن كلّها فلا تبقى حيلة في غلام أحمد، ويترتّب على من كان يقول بها إلى الآن أن يتوب منها إلى الباري تعالى إن كان يريد أن يبقى مسلمًا.

هذا ما عندي بشأن القاديانية، هداهم الله.

وأرجو أن يعود أحمدية لاهور أيضًا عن كلّ ما يبعدهم عن المحجّة الواضحة. وأيّ حاجة لهم في غلام أحمد وقد علموا أنَّ محمَّدًا ﷺ هو خاتم النبيين وفيه الكفاية. وقد ثبت من القرآن والسنّة أنه لا نبيّ بعده. وذلك أنَّ دينه دين العقل وأنه لا شيء وراء العقل. ولم يكن لي في الحقيقة مكان في هذا الاستفتاء، لأنَّ المسألة ليست مسألة سياسية ولا أدبية ولا تاريخية لا جول فيها. وهي من خصائص علماء الدين. إلاّ أني وجدت سكوتي بعد أن سُئلت عن هذه المسألة ممّا قد يحمله بعضهم على أني لا أشترك في إنكار هذه الطامات الكبر المروية عن غلام أحمد. فلذلك ألقيت دلوي في الدلاء. والله مرجعنا جميعًا، وإيّاه نسأل أن يردّ هذه الفئة إلى الصراط المستقيم.

جنيف، ٥ رمضان ١٣٥١هـ/١٩٣٣/١/٢م

شكيب أرسلان

هل يقولون إنّ الحكومة الألمانية رجعيّة؟*

وإنّ الأمّة الألمانية أمّة غير راقية ولا عصرية؟

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

نشر هتلر رئيس الحكومة الألمانية الجديد وزعيم أكبر حزب في ألمانيا برنامج الوزارة الجديدة، وقد أثبتته جرائد العالم بأجمعها. وأول عبارة من هذا البرنامج هي هذه:

«إنَّ الحكومة القومية الألمانية ترى أنَّ أول الواجبات التي عليها وأعلاها إنَّما هو إعادة **الوحدة الروحية** مقرونة بعزيمة الشعب الألماني. فهي تريد أن تحمي القاعدة التي تعتمد عليها قوّة الأمّة الألمانية، وأن تدافع عن **الديانة المسيحية** التي هي أساس الأخلاق والنظام العائلي، وأن تحترم **الماضي المجيد** وتمجّد **التقاليد القديمة** لتجعلها أُسّ بناء تهذيب **الشبيبة**».

نعم لم ينشر هتلر هذا البرنامج الذي استهلالُه تأييد العقيدة النصرانية وإحياؤها في نفوس شباب الأمّة كرئيس حزب فقط، بل نشره كرئيس حكومة. ووافق عليه الوزراء بأجمعهم وفيهم من سائر الأحزاب.

إنَّه لا يخالف هذا البرنامج في ألمانية إلاَّ حزبان لا غير، مرجعهما واحد في الأصل، وهما الإشتراكيون والشيوعيون.

ولكن هذين الحزبين مهما عظم أمرهما في ألمانية فليسا بأصحاب الأهمّية في تلك الأمّة، بل الأهمّية والكثرة والثروة والتأثير وكلّ ما شابه ذلك إنَّما هو لأحزاب اليمين والوسط.

وبعد هذا أذاعت الجرائد أنَّ الكنائس البروتستانية في ألمانيا قد ألَّفت جمعيّة جديدة لتأييد **العقيدة المسيحية**، اندمج فيها العلماء والأطبّاء والمهندسون ورجال السياسة وعظماء القوم وكبار عمّال الحكومة وغيرهم.

فهل تطمع حكومة أنقرة، وسائر الحكومات الشرقية اللاتي تكره المبادئ الدينية

* الفتح، العدد: ٣٣٣، السنة السابعة، القاهرة (٢٨ شوّال ١٣٥١هـ/١٩٣٣/٢/٢٤م)، ص ص. ١ ـ ٢.

الإسلامية أو تناصبها العداء ظاهرًا أو باطنًا، أن يكنَّ أرقى في سلّم المعارف والثقافة العصرية من الحكومة الألمانية؟

وهل ترجو الأمّة العربية والأمّة التركية والأمّة الفارسية أن يسبقن الأمّة الألمانية في ميدان العلم والمدنيّة، وتستنكف هذه الأمم الشرقية عن الاعتماد على عقائدها وتقاليدها القديمة بعد أن أقرَّ الألمان الرّقاة بأنَّ العقيدة والتقاليد هي الأس الوطيد للنظام العائلي وللأخلاق وللتهذيب والثقاف العصري.

أم يريد ملاحدة الشرقيين أن يقولوا إنَّ العقيدة المسيحية والتقاليد النصرانية، مهما كانت قديمة، فهي تنطبق على مقتضى التجدُّد العصري وتلتئم مع السياسة اللادينية التي يزعم هؤلاء أنها هي محور الإدارة لدى حكومات أوربة! وأمّا الديانة الإسلامية وشعائرها وتقاليدها فهي وحدها التي لا تنطبق على قاعدة التجدّد العصري! وإنَّ الحياة العلمية التي تقدر بها الأمّة الألمانية أن تحيا مع النصرانية قولاً وعملاً لا تتأتّى للأمّة العربية أو التركية أو الفارسية أو الهندية أو الملاوية مع الإسلام! إن كان هذا هو مرادهم فليصرّحوا به ليأخذوا عليه الردّ الذي لا يقبل المكابرة.

لقد ظهر من إعلان حكومة ألمانية هذا ومن إعلانات ودلائل كثيرة، طالما نشرناها في "الفتح" وفي غيره من الجرائد، بطلان الدعاية الخبيثة السامّة التي يقوم بها بعضهم في تركيا وبعضهم بمصر وبعضهم بالبلاد العربية، في إقناع عوام المسلمين المساكين بأنه لا يرجى لهم فلاح ما داموا متمسّكين بعقيدتهم وتقاليدهم القديمة وبأنَّ الأوربيين لم يبلغوا ما بلغوه من الرقيّ إلاَّ بنبذ العقائد والتقاليد! ﴿سبحانك إنَّ هذا بهتان عظيم﴾[1].

فهذا هو مبلغ نبذ العقائد والتقاليد عند أرقى شعب أوربيّ وأحياهم حياة علمية باعتراف الجميع.

وهذا هو فصل الدين عن السياسة! أيها المتشدّقون ليل نهار بقضيّة فصل الدين عن السياسة.

لقد فصلت ألمانيا الدين عن السياسة عندما قامت وزارتها تعلن أنَّ أول شيء ستباشره هو **تأييد العقيدة المسيحية**.

---

(١) سورة النور، رقم ١٦، الآية ٢٤.

وقد فصلت إنكلترة الدين عن السياسة عندما قامت مجالسها النيابية من ثلاث سنوات تبحث في جلسات عديدة عن استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح.

وقد فصلت بلجيكا الدين عن السياسة عندما أعلنت حكومتها في برنامجها العمل لتنصير السود من أهالي الكونغو، وقد فصلت هولندا الدين عن السياسة عندما قرأ علينا ناظر معارفها في افتتاح مؤتمر المستشرقين بليدن في ٥ سبتمبر سنة ١٩٣١ أمام ألف عالم من علماء الأرض: إنَّ هولاندة لم تتبسّط في الشرق الأقصى لأجل المكاسب المادّية وإنَّما كان غرضها من ذلك التبسّط **نشر محاسن النصرانيّة**. قد كان ممّن سمع تلك الخطبة أعضاء الوفد المصري الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ طه حسين ورفاقهما.

وإن جئنا نستقصي الشواهد فهذا البحث لا ينتهي.

والخلاصة، إنَّ الأمم الأوربية الراقية لم تنبذ عقائدها وعوائدها، لا في قديم ولا في حديث، ولن تنبذها لأنها هي مدار مدنيّتها.

وإنَّها تعلم أنَّ التربية العلمية لا تنفي التربية الدينية، لأنَّ الأولى تتعلّق بالمادّة والثانية تتعلّق بالروح.

وإنَّ الروح الإنسانية هي مصدر نهضة الإنسان ومثار همّته، وإنَّ العلم إنَّما هو واسطة لخدمة الروح وتهذيب لها وصفة قائمة بها. فالروح هي الأصل والعلم هو الفرع.

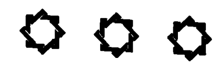
قد أشرنا إلى هذه الحقيقة مرارًا، ولا نملّ من تكرارها، نظرًا لما نعلم من وساوس المضلّلين الذين منهم من يبثّ تلك الأباطيل حبًّا بنشر الإلحاد بين المسلمين لمجرّد الإلحاد. ومنهم من يبثّ هذه الأباطيل لا لمجرّد الإلحاد بل لأجل الصبغة الأوربية التي يريد أن يصبغ المسلمين بها. ومنهم من يبتغي بهذه الدعاية توطيد السيادة الأوربية في الشرق. ونظرًا لما نعلم من سذاجة الشعب الإسلامي المسكين نجد من أقدس وظائفنا تحذيره من هذه الدعايات الخبيثة، التي يقولون لها كذبًا إنَّها تقليد لما عليه الأوربيون! ومنهم مع الأسف، من يصدّق هذه الأكاذيب لأنه لا يعلم الحقيقة، ولا يعرف كيف يجاوب المضلّلين.

فهذا الذي عليه الأوربيون، قد رأيتموه بأعينكم، وسمعتوه بآذانكم.

ليس في العالم أمّة نبذت الدين غير البلاشفة. وأسباب نبذهم للدين هي سياسية وسنذكرها في مقال آخر. فالزعم بأنَّ الأوربيين قد تركوا عقائدهم وعوائدهم فنجحوا، فيجب علينا نحن أن نترك عقائدنا وعوائدنا لننجح؛ إن هو إلاَّ فساد في الأرض وتضليل، وحَيْدٌ بالمسلمين عن سواء السبيل.

شكيب أرسلان

جنيف، ١٠ شوّال ١٣٥١هـ/١٩٣٣/٢/٦م



كيف يمكن تلفيق هذه السياسة
مع فصل الدين عن السياسة؟*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

من زمان طويل نسمع المدافعين عن سياسة أنقرة يقولون: ماذا تريدون أن تصنع أنقرة؟ أنتم تريدونها دولة دينية، وهي مضطرّة أن تجاري العالم المتمدّن وأن تفصل الدين عن السياسة!

كلّما قام الكماليون بحملة على العقيدة أو على الشريعة الإسلامية قال الذين في قلوبهم مرض: هذا ليس بشيء جديد، هذا من باب فصل الدين عن السياسة! وهذه أوربة كلّها قد فصلت بين هذين الأمرين.

نحن الآن لسنا في مقام البحث هل أوربة فصلت بينهما أم لا؟ قد تقدَّم لنا في العدد ٣٣٣ [هل يقولون إنَّ الحكومة الألمانية رجعيّة؟] من الفتح مقالة يرى منها كلّ من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أنَّ كلّ سياسة أوربة مبنيّة على النصرانيّة، وأنَّ الفصل بين الدين والسياسة في أوربة لم يمسّ الصبغة النصرانيّة في شيء في جميع تلك الأصقاع، إلاَّ ما كان من بلاشفة الروسية.

ولكنّنا الآن في بحث آخر وهو: إذا كان الكماليون يحبّون فصل الدين عن السياسة، وكان مجلس الأمّة الأنقري يلغي مادّة الدستور التي كانت تنصّ على كون دين الجمهوريّة التركية الإسلام، فلماذا يتعرّض القوم لأمور دينية صرفة؟

أين فصل الدين عن السياسة في إعطاء الأوامر الرسمية بأن تقام الصلاة باللغة التركية؟

هذه أوربة قدوتكِ يا أنقرة بزعمك!

هل أصدرت دولة فرنسة أوامر إلى كاثوليك فرنسة بأن يصلّوا بالإفرنسي لا باللاتيني؟ ومن المعلوم أنَّ الفرنسيس لا يفهمون اللاتيني.

* الفتح، العدد: ٣٣٥، السنة السابعة، القاهرة (١٣ ذو القعدة ١٣٥١هـ/١٩٣٣/٣/٨م)، ص ص. ١ ـ ٣.

هل أصدرت دولة ألمانية أوامر إلى كاثوليك ألمانية بأن لا يصلّوا باللاتيني بل بالألماني. أو مثل ذلك النمسا؟

هل أصدرت دولة إسبانية أم دول أمريكا الجنوبية والمكسيك كلّها بأن تكون صلاة جميع تلك الأمم بالإسبانيولية لا باللاتينية، بحجّة أنَّ الشعب لا يفهمها؟

هل أجبرت دولة بولونيا أم دولة تشيكوسلوفاكيا الكاثوليك الذين هم معظم رعاياهما أن يتركوا الصلاة باللاتينية، ولا يقدّسوا إلاَّ بالسلافية؟

هل أكرهت المجر رعاياها الكاثوليك أن يكون قدّاسهم بالمجريّة بدلاً عن اللاتينية؟ وهلمَّ جرًّا.

ثلاثمائة وخمسون مليون كاثوليكي يصلّون ويقدّسون باللاتينية بناء على كونها لغة كنيستهم، وإن لم يكن المسيح عليه السلام تكلّم بها، وكان الإنجيل الأول قد كتب بالآرامية وباللغات السامية.

والحكومات الكاثوليكية اللاتي تلي أمور هؤلاء الثلاثمائة والخمسين مليونًا لها كلّها لغات قومية، وهي لغاتها الرسمية، ومع ذلك فلم تشأ أن تتدخّل في أمور عقائد رعاياها وكيفيّة إقامتهم مراسم دينهم؟

هكذا وبهذه الكيفيّة فهمت حكومات فرنسة وألمانية والنمسة وإيطالية وبولونيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وكرواسيا وإرلاندة وبلجيكا وإسبانية، إلخ مبدأ فصل الدين عن السياسة.

أمَّا حكومة أنقرة فجاءت تتدخّل في شؤون دينية صرفة، على حين هي تزعم أنها "لايقية" أي لادينية صرفة. فأصدرت أوامر جازمة إلى جميع رعاياها بأن يؤذّنوا بالتركي، وبأن يصلّوا بالتركي، وبأن لا يقرأوا القرآن إلاَّ بالتركي.

والحال أنَّ الأتراك مسلمون. والمسلمون يعتقدون أنَّ لغة القرآن هي العربي وأنَّ وأنَّ الصلاة يجب ان تكون بالأصل لا بالترجمة وأنَّ صاحب الدين إنَّما صلّى بالعربي فيجب الاقتداء به.

الأتراك يقولون نحن أتراك لا عرب. ونحن نتكلّم بالتركي ونكتب بالتركي ونفكّر بالتركي ونعمل كلّ شيء بالتركي. ولكنّنا كمسلمين نحبّ أن نصلّي باللغة التي يصلّي بها نبيّ المسلمين. ولا ينفي هذا أن نكون أتراكًا وأن نبقى أتراكًا.

وهذا كما أنَّ هذه الأمم اللاتينية بقيت على عناصرها وأجناسها وألسنتها المختلفة ولم تتحوّل لاتينًا بمجرّد أنها تُجري شعائرها الدينية باللغة اللاتينية.

ولكن الكماليين يأبون إلاَّ الإنقلابات الاجتماعية حتّى في الدين وهم يريدون إكراه قومهم على أن يصلّوا بالتركي.

ولا نفهم كيف تكون جمهوريّة تعلن أنَّ دينها ليس بدين الإسلام، ثمَّ تعود فتتعرّض لأمور هي من خصائص دين الإسلام؟

فأين فصل الدين عن السياسة الذي طالما تشدّقتم وتمنطقتم به أنتم وأذناب التفرنج المشايعون لكم ـ لأنَّ كلّ عربي متفرنج هو أنقريّ المشرب، هذه قاعدة مطّردة ـ في مصر وبعض الشرق؟

وكيف تحلّلونه عامًا وتحرّمونه عامًا؟

ثمَّ إنَّنا نسأل الكماليين: هل يقدرون أن يجبروا الأروام الباقين في الآستانة أن يقدّسوا في كنائسهم بالتركية بدلاً عن اليونانية؟

هل يقدرون أن يمنعوا الأرمن الذين في الآستانة أن يصلّوا عوضًا عن الأرمنية بالتركية؟

هل يقدرون أن يكرهوا اليهود أن يتركوا العبرانية ويصلّوا بالتركية؟

الجواب: لا.

ولو أقدموا على عمل كهذا لأنذرتهم دول أوربة بأجمعها بأن لا يتعرّضوا لعقائد النصارى واليهود. فإن ارتدعوا عن ذلك وإلاَّ منعتهم بالقوّة.

وذلك أنَّ الحرّية الدينية مبدأ مقدّس أجمعت جميع الأمم على الذبّ عنه.

أفمن حيث أنَّ أتراك تركية مسلمون لم يبقَ لهم حقّ في الحرّية الدينية؟

ومن الغريب أنَّ الكماليين منعوا التعليم الديني في جميع تركية ـ أقوال التعليم الديني الإسلامي، أمَّا التعليم الديني المسيحي فلا يقدرون أن يمنعوه ـ وأنه بديهي كون هذه الحالة إن استمرّت عشرين سنة، خرج النشء الجديد التركي كلّه لا يصلّي ولا يعرف أن يصلّي ولا يعرف من الدين الإسلامي شيئًا. فما كان أغناهم عن هذه العجلة كان عليهم أن يتركوا هذا

النشء الجديد حتّى يصير هو سواد الأمّة التركية ويخرج خالصًا من العقيدة وينحلّ هذا المشكل من نفسه.

أمَّا محاولتهم إكراه أمّة تركية تصلّي بالعربي من ألف سنة على أن تصلّي بالتركي دفعة واحدة فهذا من الغرائب.

ولنفرض إنها أطاعتهم في هذا، فما يمنعهم أن يصدروا أوامر من الآن إلى سنة بأنَّ عدد الصلوات يجب أن ينزل من خمس صلوات إلى اثنتين؟

ثمَّ أن يصدروا بعد ذلك أوامر أو يسنّوا قوانين ـ لأنَّ القوانين هناك هي أوامر يصدرونها ففي الحال يسنّها المجلس قوانين ـ بأنَّ الصلاة لا يجوز أن تزيد على واحدة؟

ثمَّ أن يصدروا أوامر بأن يلغى الوضوء مثلاً.

ونحن قد سمعنا أنَّ في أنقرة فكرة إلغاء الركوع والسجود، وأن تكون الصلاة بالوقوف ثمَّ بالجلوس على الكراسي.

فإن قيل إنَّ هذا لا يمكن أن يقع! أجبنا أنَّ هذا سيقع حتمًا إذا كان سيقع الإكراه على الصلاة بالتركي. فأيّ فرق بين الأمرين؟

فكلاهما غير جائز شرعًا.

ومتى بدأت هذه الأركان تُنقض فلا يعرف أحد أين تنتهي؟

إنَّها تنتهي أخيرًا بسنّ قانون يلغي الدين كلّه ـ أعني بالدين الدين الإسلامي لأنَّ الدين المسيحي في تركية له حُماة من دول أوربة ـ ويقولون: إنَّ الدين إنَّما هو علاقة بين الإنسان وربّه فهو حرّ أن يتّخذ مع ربّه علاقة أو أن لا يتّخذ. وعلى كلّ حال فلا ينبغي أن يكون الدين شعيرة عامّة.

من يقدر أن يقول لنا: إنَّ هذا لا يمكن أن يكون؟

أفليست هذه المقدّمات تدلّ على هذه النتائج؟

إنِّي لا أعجب من صدور هذه الأفعال عن ذلك المصدر الذي تصدر منه، كما أعجب من الجرائد العربية التي تنقل هذه الأخبار ولا تعلّق عليها شيئًا.

بل من هذه الجرائد صحف إسلامية تذكر هذه الحوادث كأنها لا تعنيها بل نجد بعض هذه الصحف تتغنّى بمدائح الكماليين، وهي أشبه بالمريض الذي يتجاهل المرض ويعالجه بعدم الاعتراف بوجوده. إنَّ هذا والله لعجب عجاب.

إن لم تكونوا تغضبون لدينكم وللسانكم العربي أفلا تغضبون للحرّية الدينية التي هي أقدس مبدأ حافظت عليه البشرية؟

والله لو علمت أنَّ مسلمي نابلس أرادوا ـ وهو فرض محال ـ أن يعترضوا المائتي سامري الذين عندهم، والذين هم بقيّة كلّ من بقي من السمرة على وجه الأرض، وذلك في شيء عائد إلى شعائرهم الدينية، أو أرادوا مثلاً أن يجبروهم على الصلاة بالعربي، لكنت أول من اعترض وخاصم عن السمرة، وأقمت القيامة من أجل حرّيتهم الدينية.

أفلا ننتصر لحرّية الأتراك الدينية وهم تحت هذا الضغط الجديد ولو باللوم والمؤاخذة.

إنَّ بعض سخفاء العقول يحتجّ بزعمه: إنَّ هذه انقلابات وعلى رأيهم "تطوّرات" وإنَّ الكماليين سائرون على سنّة كونية!

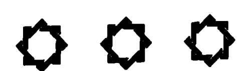
ولا يوجد أعرق من هذا الزعم في الباطل. فإنَّ الانقلابات والتطوّرات لا تحصل ولا تحسن إلاَّ إذا استعدّت لها الأمم من نفسها وقبلتها بدون إكراه. وما حصل انقلاب ديني ولا اجتماعي في الدنيا ورافقه التوفيق إلاَّ إذا كان قد أصبح أمنية السواد الأعظم من الأمّة التي قامت به.

أمَّا الانقلابات والتطوّرات بالأوامر العسكرية والجزم والزجر وبدون ميل من الجمهور ولا استعداد للقبول، وعلى شكل يخالف جميع أشكال الأقيسة المنطقية، فهذه ليست انقلابات ولا تطوّرات ولكنّها مصائب ونوائب، من قبيل الآفات السماوية والزلازل الأرضية.

والله يفرّج عن إخواننا الأتراك هذه الكروب ويلهم أولياء أمورهم شيئًا من المنطق.

جنيف، ٢٣ شوّال ١٣٥١هـ/١٩٣٣/٢/١٩م

شكيب أرسلان



أرقى من الألمان*

بقلم كاتب الشرق الاكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

أسلفنا في "الفتح" ما خاطب به هتلر رئيس الوزارة الألمانية الجديدة الشعب الألماني والعالم كلّه من قوله: إنَّ أول مهمّة ستقوم بها الوزارة الجديدة هي توطيد دعائم الديانة المسيحية، وإحياء التقاليد القديمة التي تستمدّ ألمانيا قوّتها منها.

والآن نذكر حديثًا أفضى به "فون بابن" الرئيس الثاني للوزارة وهو:

"إنَّه قد أزفت ساعة إنشاء حركة وطنية كبرى مبنيّة على مبدأ **المحافظة المسيحية**".

ثمَّ نذكر خطبة للهر "برونينغ" رئيس نظار ألمانية السابق خطبها في مدينة برسلاو منذ أيام قلائل قال فيها:

"إنَّ **رجوع أوربة إلى المسيحية** الحقيقية هو الوسيلة الوحيدة لوقاية أوربة من خطر البلشفة".

وأمس وردت البرقيّات بأنَّ التعليم الديني في ألمانية سيكون إلزاميًّا[1].

فهذه هي ألمانية أيها الإخوان أرقى دولة سائرة في الدنيا بمقتضى قواعد العلم. وهذه هي ألمانية الرسمية. والكلام الذي تقرأونه لا يحتاج إلى شرح ولا تعليق.

فقول الذين في قلوبهم مرض إنَّ الحكومات الإسلامية لا يجوز لها الاهتمام بالدين! وإنَّ الدين في هذا العصر لا يأتلف مع المدنيّة! وإنَّ رقيّ بلادنا إنَّما عاقه استمساك أهلها بالعقائد الدينية هذا قد ظهر أنه كذب محض، وأنَّ القائلين به والزاعمين أنهم مقتدون فيه بأوربة إنَّما يكذبون ويفتئتون على أوربة.

هذا إلاَّ إذا كان رجال أنقرة ومن شايعهم في مصر والبلاد العربية لا يجدون رقيّ ألمانية

---

* الفتح، العدد: ٣٣٥، السنة السابعة، (١٣٥١هـ/٣/٨/١٩٣٣م)، ص. ٨.

(١) انظر الصفحة ٩ من العدد الماضي.

كافيًا ويطمعون أن يتجاوزوه؟ فعند ذلك تكون مسألة أخرى. لكنّنا نشير عليهم بأن يكتفوا بدرجة رقيّ ألمانية ولا يطمعوا بأن يكونوا أعلى منها درجة. ومن للعمى بالعَور؟

ولينظروا إلى الروسية البلشفية، فهي الدولة الوحيدة التي في أوربة تقاوم الدين. أفتراها أعلم من ألمانية؟

لا لعمري بل الروس هم عيال على الألمان في علومهم وصنائعهم ولكن الذي يخلع الرسن لا يهمّه شيء ويكابر في ضوء الشمس ويقول إنّه ظلام. وقد جاء في الأثر: «إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تستحيِ فاصنع ما شئت».

جنيف، ٢٨ شوّال ١٣٥١هـ/١٩٣٣/٢/٢٤م

شكيب أرسلان



رثاء سادن البيت الحرام*

المرحوم الشيخ عبد القادر الشيبي

المتوفّي في رمضان سنة ١٣٥١هـ

من صديقه أمير البيان عطوفة الأمير شكيب أرسلان

سلاني هل على بعدي سلاني ... وهل كان المغيب سوى العيان

وهل فارقته إلاّ توالت ... رسائله عليَّ بلا توان

صديقٌ نادر الأمثال فيما ... عهدتُ وما له في العهد ثان

وغطريفٌ تعزُّ به قريشٌ ... له في كلّ مكرمةٍ يدان

من النفر الألى سادوا وشادوا ... وجادوا للأقاصي والأداني

عريق المجد أروع عبدريٌّ ... له شأنٌ يكذّب كلّ شاني

وكيف يكون من ينميه أصلٌ ... كعبد الدار أو عبد المدان

وكيف يكون مضطلعٌ بأمر ... تسجّل بالمثالث والمثاني

أقرّ الله للشيبي حقًّا ... سدانة بيته طول الزمان

تغيّرتِ البلاد ومن عليها ... ورتبة آل شَيْبة في أمان

وقد ضمّوا إلى ما أورثوه ... تميّزهم بأخلاق حسان

وكان عميد هذا الوقت منهم ... يشار إلى علاه بالبنان

يهزُّ به الحجاز أخا مضاء ... إلى العلياء كالسيف اليماني

وإذ فارقته في أرض وجّ(1) ... وجا قلبي التياعٌ كالسنان

كأني قد شعرت لدى وداعي ... بأني لن أراه ولن يراني

ولمّا جاءني منعاه أذكى ... ضلوعي واستهلّ المدمعان

وباتت تسفع الأحشاء ذكرى ... مجالس كالأمان وكالأماني

---

* الفتح، العدد: ٣٣٥، السنة السابعة، (١٣٥١هـ/٣/٨/١٩٣٣م)، ص. ٩.

(1) في الطائف.

زمانا كـان يـرعـانـا وفـاه		على مرّ الدقائق والثواني
ألا يا آل شيبة لي حنين		إليكم من أخ جم الحنان
لعبد القادر الشيبي عندي		مقام لا يقوم به بياني
أشاطركم بهذا الخطب حزنًا		شجاكم منه سهم قد شجاني
ولكنّي بعبد الله أرجو		عزاءً آسيا جرح الجنان
وأسأل للفقيد كريم نزل		لدى مولاه في غرف الجنان
هناك العالم القدسيّ باق		وهذا العالم الأنسيُّ فانِ

شكيب أرسلان



ما سقطنا إلاّ من تقليدنا إيّاهم على العمياء★

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

سبق للأستاذ صاحب «الفتح» كلمة قال فيها[1] إنّ مبدأ سقوط الشرق هو عهد السلطان محمود الذي لبسنا فيه البنطلون قبل أن تكون عندنا معامل تحوّل صوف مواشينا إلى جوخ، ...إلخ.

إنّ لصاحب «الفتح» الآراء السديدة والنظرات النافذة في كلّ المواضيع، لا سيّما في النواحي الاقتصادية. وإنّي لمعزّز رأيه هذا بكلام لغيليوم الثاني إمبراطور ألمانية الذي لا يزال حيًّا.

سنة ١٩١٧ جاء القيصر «ويلهلم» إلى الآستانة يزور حليفه السلطان العثماني، فأرسل إليه الأتراك سربًا من الأوانس سافرات الوجوه بالزيّ الأوربي يقدّمنَ له باقة زهر.

فتقبّلها القيصر منهنّ ولم يقل شيئًا.

ثمَّ أول ما شاهد بعد ذلك الصدر الأعظم قال له: يا طلعة، أرسلتم لي بعض صبيّات تركيات بالزيّ الأوربي يقدّمن لي باقة أزهار. أتظنّ أني أفرح برؤيتهنّ بهذا الزيّ؟

ثمَّ قال له: يا طلعة. اعلموا أنكم أمّة ليس لكم مكانة بين الدول إلاَّ بالإسلام. أنتم لستم ذوي ثروة، ولا عندكم صناعة ولا تجارة ولا وسائل مادّية كما عند الأمم الأوربية. ولكنّكم معدودون من الدول العظام بسبب واحد هو أنكم على رأس الإسلام، والإسلام مئات من الملايين. فإذا أبحتم السفور لنسائكم وعبثتم بعادات قومكم آسفتم العالم الإسلامي، الذي كلّ أهمّيتكم قائمة به ونفر منكم المسلمون.

فلا تفعلوا هذا، فإنّكم تصبحون على ما فعلتم نادمين.

ثمَّ إنَّ الشرشف[2] عندكم شيء جميل، فلماذا تعدلون عنه؟

★ الفتح، العدد: ٣٣٦، السنة السابعة، القاهرة (٢٠ ذو القعدة ١٣٥١هـ/١٥/٣/١٩٣٣م)، ص ص. ١ ـ ٢.

(١) مقالة (إلى أين نحن سائرون؟)، في العدد: ٣٣٠.

(٢) الشرشف: الملاءة.

وهو لباس اقتصادي يستر المرأة ويغنيها عن اتّخاذ فسطان كلّ ثلاثة أشهر مرّة، وأنتم لا تقدرون أن تبذخوا بذخ الأوربيين».

هذا ما قاله ويلهلم لطلعة، وهذا رواه لنا.

ثمَّ قال مثله للأمير سعيد حليم، وأوصاه بالمحافظة على التقاليد الإسلامية القديمة، وقال له: نجاتكم إنَّما هي بها.

وقال له: «أنا وبعض بيوتات في بلادي نحافظ على تقاليدنا القديمة، ولكن قد غَلبت علينا المآخذ الجديدة التي أخشى بها فساد المجتمع الأوربي كلّه».

فقصدتُ أن أنقل هذه الرواية لقرّاء الفتح.

ولقد أصاب الإمبراطور في كلامه. يريد أن يقول لنا: لا تجمعوا بين الفقر وفساد الأخلاق فإنَّه باعتراف جميع الأتراك ودعاة التجدّد منهم كان رقص النساء وتغيير الزيّ هما أكبر أسباب الأزمة الاقتصادية في تركيا. وذلك أنهم أرادوا أن يقلّدوا أناسًا هم ليسوا ذوي ثروة كثروتهم فظهر عوارهم حالاً. أمَّا المفاسد المعنوية لذلك فقد ظهرت بتناقص النسل وكثرة الانتحار وقلّة الزواج، وجميع المضارّ التي يعرفها كلّ من اطّلع على حقيقة أحوالهم.

جنيف، ٢٩ شوّال ١٣٥١هـ/٢٤/٢/١٩٣٣م　　　　شكيب أرسلان



التوراة التي حلف عليها روزفلت
الرئيس الجديد للولايات المتّحدة*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

قالت جريدة "جورنال دو جنيف" إنَّ نسخة التوراة التي أقسم عليها روزفلت يمين الأمانة مرّتين عندما تولّى ولاية نويويرك هي التي أقسم عليها هذه المرّة يمين الأمانة عندما تسلّم مقاليد رئاسة الجمهوريّة.

وهي نسخة ثمينة يحرص عليها كلّ الحرص مطبوعة في هولاندة منذ ثلاثمائة سنة ومحفوظة عند عائلة روزفلت ذخرًا مقدّسًا من زمان نيقولا روزفلت ابن أول روزفلت جاء إلى أمريكا منذ سنة ١٦٤٤. ولقد اختار الرئيس الجديد هذه النوبة في حفلة تسلّم الرئاسة أن يقرأ من الكتاب المقدّس الرسالة الأولى من القدّيس بولس للقورنتيين عن المواساة. وستبقى هذه التوراة محفوظة في البيت الأبيض ـ قصر حكومة أمريكا ـ طول مدّة رئاسة روزفلت.

قلنا إنَّنا لو طالبنا رئيس حكومة إسلامية اليوم أن يحلف يمين الأمانة على القرآن الشريف لصاح بنا دعاة التجدّد الكاذب ـ ولا سيَّما جماعة أنقرة وأذناب أنقرة ـ أتريدوننا أن نعود إلى حكومة رجعية؟ أما انتهينا من الخرافات الدينية؟ أما تعلمون أنَّ الرقيّ لا يأتلف مع هذه التقاليد البالية؟

أما رئيس جمهوريّة أمريكا الجديد ورئيس الحزب الديمقراطي فيها فهو يقسم في حفلة تبوّء كرسي الرئاسة على التوراة، ويقرأ رسالة مار بولس للقورنتيين ولا يقدر أحد أن ينبزه بكونه رجعيًّا ولا بأنَّ حكومة أمريكا هي حكومة غير عصرية.

ولا ينبغي أن يظنّ أنَّ حكومة أنقرة هي من الأصل قد أطرحت التقاليد الإسلامية كلا. فالحالة الحاضرة فيها لم تبدأ إلاَّ من بعد الانتصار على اليونان وعقد معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣.

---

* الفتح، العدد: ٣٣٨، السنة السابعة، القاهرة (٤ ذي الحجّة ١٣٥١هـ/١٩٣٣/٣/٢٩م)، ص ص. ١ ـ ٢.

أمّا عندما كانت تركيا في خطر والحرب مشتعلة والحكومة محتاجة إلى الشعب التركي ليمدّها بالمال والرجال فحدّث ما شئت عن المظاهر الدينية التي كانت الحكومة الأنقرية تظهر بها.

وكلّ أحد يذكر أنه لمّا التأم مجلس الأمّة الكبير في أنقرة أول مرّة بدأوا افتتاح المجلس بحفلة حافلة أتوا فيها بالشعرات النبوية الشريفة تبرّكًا، ودخلوا إلى المجلس وهي محمولة أمامهم وما جلسوا حتّى بدأوا بقراءة البخاري الشريف الذي كان صدر الأمر برقيًا إلى جميع مراكز الحكومة في الأناضول بقراءته فيها بتلك الساعة.

نعم وقع كلّ هذا ووقع من أمثاله ما لا يعدّ ولا يحصى طيلة ما كان اليونان محتلّين الأناضول والحلفاء محتلّين الآستانة.

وما انتهت هذه المظاهر الدينية الإسلامية وما بدأت محاربة الدين الإسلامي هناك وأخذوا يدقّون أعناق علماء الدين بحجّة أنهم رجعيّون؛ إلاّ من بعد أن أمّنت أنقرة على نفسها ـ أو ظنّت أنها أمّنت على نفسها ـ بمعاهدة لوزان.

وهكذا ثبت قوله تعالى: ﴿ وإذا مسّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا فلمّا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه. كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ ثمَّ إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون ثمَّ إذا كشف الضرّ عنكم إذا فريق منكم بربّهم يشركون ليكفروا بما آتاهم فتمتّعوا فسوف تعلمون﴾[3].

جنيف، ٢٢ ذي القعدة ١٣٥١هـ/١٩/٣/١٩٣٣م

شكيب أرسلان

---

(١) سورة يونس، الآية ١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٩.

(٣) سورة النحل، الآية ٥٣.

كتاب جديد باحث عن الحركات (التبشيرية)*
ينبغي للمسلمين أن يطّلعوا عليه

نشر المسيو غاسطون غايار Gaston Gaillard من كتّاب الفرنسيين الأحرار كتابًا جديدًا أسماه "نهاية دور، وعلى عتبة عصر جديد" La fin d'un temps, au seuil d'un âge.

وفي هذا الكتاب مباحث كثيرة متعلّقة بالأديان كلّها لا يتعرّض لها بترجيح أو تجريح، لكنّه يذكر تاريخ انتشار كلّ منها وطرق كلّ منها في الدعاية.

وبديهي أنه خصّص جانبًا من هذا الكتاب بدعايات الكاثوليك والبروتستانت والمجهودات الطائلة التي يبذلونها في أفريقية والهند والصين وجزائر البحر المحيط لأجل نشر عقائدهم وأتى بإحصائيّات ومعلومات دقيقة مدهشة للعقول.

وقد استجلب نظرنا مظان كثيرة تدلّ على رسوخ علمه ودقّة لحظه، ومن جملتها قوله في صفحة ١٧ ما يلي:

"إنَّ انتشار الإسلام وقع بسرعة زائدة في شمالي أفريقية بعدما كان الرومان ظنّوا أنَّ تلك البلاد صارت رومانية محضة، وما ذاك إلاَّ بكون بلاد شمالي أفريقية هي من الأصل بثقافتها الفينيقية والأفريقية مستعدّة لقبول الإسلام الذي جاء تجديدًا لما كان كامنًا في نفوس أهلها.

وبهذا السبب نجد الهنود والصينيين الذين يقبلون الديانة المسيحية لا يقبلونها إلاَّ بصورة سطحية. وذلك لأنها بعيدة عن عقولهم وحواسهم. وبهذا نرى النصرانيّة لم تتقدّم تقدّمًا حقيقيًّا بإزاء الأديان الهندية. وكذلك الإسلام حفظ موقفه بإزاء المسيحية.

وإن كان يخشى على الإسلام من أن يحاط به فليس من النصرانيّة نفسها بل من انتشار سياسة عداء للدين في بلاد الشرق رامية إلى هدم ديانة محمَّد. ولن يكون لهذه السياسة نتيجة أصلاً سوى فتح أبواب البلاد الإسلامية للدعاية المسيحية وللنفوذ الأوربي، إذ إنَّ أهمّ بضائع

* الفتح، العدد: ٣٣٨، (١٩٣٣/٣/٢٩م)، ص. ١١.

التصدير اليوم من الممالك الغربية إن هو إلاّ التبشير الذي تمدّه الدول الغربية بقوّتها، وتحميه في الشرق تمهيدًا لبسط سلطانها على البلاد الشرقية». انتهى بالحرف

كنت أحبّ أن أترك هذه الجملة بدون شرح ولا تعليق، لأنها واضحة مفهومة، ولكنّي أرى أنْ لا بأس بأن أستنتج منها ما يلي:

الأول-إنَّ رغبة بعض الحكومات الإسلامية بنشر اللادينية بحجّة أنَّ الدين مانع للترقّي والتجدّد لن يكون لها نتيجة سوى فتح أبواب الإسلام لدعاية التبشير المسيحي وللسيطرة الغربية.

الثاني-إنَّ الدول الغربية التي يجتهد بعضهم في الشرق أن يظهروها للناس بمظهر حيادي بإزاء الدين وأحيانًا بمظهر لاديني! هي في الحقيقة دول مستعملة قوّتها السياسية لعضد «التبشير» ونشره في الشرق وبلاد الإسلام.

هذه شهادة كاتب إفرنسي معروف وقد نشر إلى الآن بضعة عشر مؤلّفًا في موضوعات مختلفة ـ لا سيَّما في الشؤون التاريخية والاجتماعية ـ أتى فيها كلّها بتدقيقات نادرة وصراحة جديرة بالإعجاب. هو نفسه يقول: إنَّ «التبشير» هو من أهمّ بضائع التصدير عند الدول الغربية.

فلتسمع ذلك أنقرة... وأذنابها في الشرق.

جنيف، ٢٠ ذي القعدة ١٣٥١هـ/١٧/٣/١٩٣٣م

شكيب أرسلان



لماذا أبطلوا التعليم العربي في تركية ـ ولماذا أعادوه؟*

منذ استقرّت الحكومة الكمالية في تركيا وأخذت بما أخذت به من أساليب التفرنج أو سياسة «غربلاشمق» على رأيهم، أصدرت الأوامر بمنع تعليم اللغة العربية بتاتًا من كلّ مكاتب تركيا. فكانت تعلّم في تركيا لغات أجنبية كثيرة إلاَّ العربية، هذه كان محظورًا تدريسها الكثير منه والقليل في المكاتب العالية والتالية والابتدائية، وبقيت العربية مطرودة من تركيا إلى هذه السنة إذ صدرت الأوامر بإعادة تدريسها في المكاتب العالية.

لماذا رجعوا عن قرارهم الأول بشأن تعليم العربية؟

ربّما ظنّ بعض الناس أنَّ حكومة أنقرة عادت هي من نفسها ففكّرت أنَّ تعليم العربي في مكاتب تركيا العالية لا يخلو من فائدة، وأنَّ اللغة العربية لغة تستحقّ التدريس.

كلاّ. لم يكن هذا هو السبب في استئناف تدريس العربية، ولو في المكاتب العالية فقط ولا وثق الأنقريّون بأنفسهم أنهم يقدرون أن يميّزوا بين الضروري وغير الضروري من العلوم.

ولكن السبب في ذلك هو أنَّ أنقرة انتخبت رجلاً هولانديًا مفتّشًا للمعارف. فهذا المفتّش الهولاندي أشار عليهم بإعادة تدريس العربي في المكاتب العليا وقال لهم إنَّ هذا ضروري.

فلمّا قال لهم الهولاندي إنَّ تدريس العربي لازم في المكاتب العالية قالوا إنَّه لازم، ولو لم يقل ذلك الهولاندي لكانت العربية بقيت مطرودة من تركيا.

لم يصدّقوا أنَّ اللسان العربي يستحقّ التدريس إلى أن قالها لهم الهولاندي.

فهؤلاء هم القوم الذين يُعجب بهم وبأعمالهم كثير من المصريين، بينهم رجال أفاضل حقًّا مثل الأستاذ فريد وجدي.

ولا يفكّر هؤلاء الأفاضل كم هي هذه الأفعال صغيرة؟

جنيف، ١٩ ذي الحجّة ١٣٥١هـ/١٦/٤/١٩٣٣م

شكيب أرسلان

---

* الفتح، العدد: ٣٤٢، (٢٧/٤/١٩٣٣م)، ص. ٩.

الأتراك في حالة ثورة لم تنتهِ بعد*
والثورة تدفع إلى كثير من الإفراطات
فيلزم أن نسكت؟

بقلم كاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

هذه هي نظريّة الأستاذ العلاّمة فريد وجدي. والقسم الأول منها صحيح، فإنَّ كلّ ثورة في الدنيا لا بدّ أن يصحبها غلوّ وتهوّر. وثورة أنقرة على الخلافة وعلى المبادئ الإسلامية وعلى التقاليد الشرقية، لا بل على الدين وعلى الله، ثورة لا شكّ فيها: فقد صحبها من الغلوّ والإفراط والتهوّر ما هو مشهود عيانًا. وما قد نجد له في التاريخ مثالاً. أمَّا القسم الثاني وهو أنَّ هذا الغلوّ يجب أن نسكت عنه "إشفاقًا على وحدة المسلمين" فهذا لا نوافق عليه أصلاً كما سترى.

الإشفاق على وحدة المسلمين يقضي أن نقارع هذا الغلوّ وهذا التبهور بكلّ استطاعتنا، وذلك حرصًا على الإسلام نفسه، لا أن نسكت على أمور يعدّ سكوتنا عنها إقرارً بها.

فالعالم الإسلامي يبقى العالم الإسلامي بدون أتراك أنقرة... ولكنّه لا يبقى العالم الإسلامي بدون إسلام... وإنَّ الذي هم قائمون به في أنقرة هو هدم للإسلام من أساسه وكما قال المسيو غاسطون غايار الكاتب الإفرنسي في كتابه الأخير الذي أشرنا إليه من مدّة، هو تمهيد السبيل للقسوس والمبشّرين حتّى يجذبوا المسلمين إلى النصرانيّة ويحبّبوا إليهم الخضوع للسلطة الأوربية. ليس لهذه السياسة غير هذه النتيجة. فإنَّ الأمم لا تعيش بدون دين فإن اقتلعوا الإسلام من تركيا كان لا بدّ من دين آخر يحلّ محلّه. وعند ذلك فالمبشّرون حاضرون.

ولّما كانت تركية هي الدولة الإسلامية العليا في نظر العالم الإسلامي؛ وكان العالم الإسلامي من الانحطاط والضعف والتأخر في جميع الشئون، بحيث يعتقد أنَّ كلّ ما تصنعه تركيا فهو الحكمة وفصل الخطاب، كان السكوت عن إظهار ما في هذ الثورة الأنقرية من الضرر والضلال، وعن التنبيه إلى ما وراء هذا الانقلاب من الخطر العظيم على الإسلام، نوعًا

---

* الفتح، العدد: ٣٤٣، السنة السابعة، القاهرة (٩ المحرّم ١٣٥٢هـ/١٩٣٣/٥/٣م)، ص ص. ١-٢، ١٢-١٤.

من الاشتراك في جناية تجريد العالم الإسلامي من الإسلام وكلّ من فكّر في هذا الأمر لا يتحمّل هذه المسؤوليّة.

فإن كان العالم الإسلامي يريد أن يبقى مسلمًا محتفظًا بدينه وكتابه وتقاليده كما هي أوربة ـ قدوة أنقرة بزعم أنقرة ـ محتفظة بنصرانيّتها وإنجيلها وتقاليدها، إلخ. وجب علينا أن ننبّه العالم الإسلامي إلى ضلال هذه الفئة التي تسير بالأتراك هذا السير، وأن نقول له: لا يغرّنك ما ترى من هذه الأعمال، فهذه لا تستند في الحقيقة على أساس صحيح، وإنَّما هي ثورة ثائرة ليس لهؤلاء القوم شبيه فيها إلاَّ البولشفيك... وإن شئت أيها العالم الإسلامي أن تتعلّم وتترقّى فأمامك مثال هو العالم الأوربي. فكما أنه ترقّى وبقي مسيحيًّا بكليّته يمكنك أنت أن تبقى مسلمًا وأن تترقّى بقدر ما تجدّ، وليس رقيّك موقوفًا على الكفر. وإن كان العالم الإسلامي لا يهمّه أن يبقى مسلمًا، ولا يكْرثه أن يذوب ذوبانًا ويندمج في تراكيب الأمم الأخرى من مسيحية ويهودية وبوذية ومعطّلة وغيرها، ولا يسأل أن يصبح الإسلام خبرًا من الأخبار ـ كما هي دولة الحثيين أو السومريين أو كما هما عاد وثمود مثلاً ـ فتلك مسألة أخرى. وعندها يجوز السكوت عن أعمال أنقرة كيفما كانت عاقبتها على الإسلام ونقول للأستاذ وجدي لا بأس بما قلت.

أمّا أن نسكت عن هذه الطامات الكبر بحجّة أنَّ الأتراك الكماليين سيثوبون في يوم من الأيام إلى رشدهم من تلقاء أنفسهم، وبحجّة أنَّ انتقادهم يصدع من وحدة المسلمين؛ فلا نقدر أن نمشي مع العلاّمة فريد وجدي في هذه السبل المخوّفة، وإن كنّا لا نشكّ في حسن نيّته.

إنَّ سكوت الساكتين من المسلمين عن استنكار الهدم الذي هدمه الكماليون من أركان الإسلام، معناه إمَّا الإقرار بصحّة هذه التدابير وموافقتها للشرع الإسلامي! وهذا أمرٌ نسألهم البرهان عليه، ونتمنّى أن يكون في مقدورهم ذلك. وإمَّا عدم المبالاة بهدم الإسلام من قواعده بحجّة أنَّ من ضلَّ فعليه ضلالة وأنه ﴿يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ وهو ممّا لا فسحة فيه لعذر ولا محلّ لتأويل فإنَّ هذه الآية لا يخرج منها أنَّ المهتدي لا يجب عليه تنبيه الضالّ على ضلاله، وأنه لا يكون آثمًا قلبه بكتمان شهادته لا سيَّما العلماء الذين أخذ الله عليهم الميثاق قال تعالى: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلاً فبئس ما

يشترون﴾[1]. كلاَّ ليس لأحد من علماء المسلمين عذر عند الله في سكوته عن استنكار ما جاءت به أنقرة من تسع سنوات إلى الآن. اللّهم إلاَّ إذا كان الذين سكتوا معتقدين أنَّ إلغاء الشرع الإسلامي من تركيا تمامًا ودقّ مئات من رقاب الذين ينتقدون لبس القبّعة، وإجبار النسوة على السفور وإجبار الشابّات على الرقص مع الشبّان، وإجبار الناس على الصلاة بالتركية وتلاوة القرآن بالتركية، وغيرها من الأمور التي جرت هناك، لا تخالف الإسلام في شيء فليفتونا بهذا عند ذلك فإنَّنا مستمعون.

ولقد كان أفظع من هذا كلّه الدعاية التي كان الأنقريون يبثّونها في أوربة بأنهم هم أي الأتراك قد نقضوا قواعد الإسلام كلّها، لأنهم اعتمدوا أن يرِدوا حوض المدنيّة، وأنَّ هذا المورد لا يمكنهم مع العمل بقواعد الإسلام المتنافر مع شروط الرقيّ! فهذه شهادة من المسلمين على الإسلام بأنه لا يصلح للحياة. وكيف تريد بعد هذا أنَّ أوربة تطيقك مسلمًا وأنت شاهد على نفسك. ولو اقتصروا في هذه الدعاية على أوربة لقلنا إنَّ لهم فيها مآرب سياسية يريدون أن يستلّوا سخائم دول النصرانيّة بإظهار الاحتقار للإسلام ـ وإن كانت هذه السياسة صبيانية محضة لأنَّ الأوربيين الذين يأكل بعضهم بعضًا أكل الذئاب، مع أنهم كلّهم جنس واحد وعلى دين واحد، لا تعطف قلوبهم على الأتراك متى جاءوا يقولون لهم: أفلا ترون كيف ضربنا بإسلامنا عرض الحائط، أفلم يأن لكم أن تحبّونا؟ ـ ولكنّهم اجتهدوا كلّ الاجتهاد في نشر دعايتهم اللادينية ـ أو اللايقية على رأيهم ـ في جميع بلاد الإسلام وبثّوا لأجلها الدعاة والسعاة واستظهروا بأناس من المسلمين الجغرافيين طفقوا يسبّحون بحمدهم ويقدّسون لهم ويعظّمون أمر أنقرة ما لا تفي به الألفاظ والتعابير وصوّروا أنقرة للناس كأكبر قوّة يتصوّرها العقل وجعلوا مصدر هذه القوّة الخارقة للعادة! والتي لا عهد للشرق كلّه بمثلها! إنَّما هي التملّص من الدين الإسلامي والعمل بسياسة التجدّد... حتّى صار التجدّد بزعم هذه الفئة مرادفًا لرفض الإسلام. فمن لم يشأ أن يرفض الشريعة الإسلامية فليس له نصيب من الحياة الدنيا!

لسنا الآن في بيان ما في هذا الكلام وما هو في ضربه من السفسطة والتمويه والخلط الفظيع من وجوه لا تحصى، ولكنّنا في بيان أنَّ هؤلاء الجماعة لو حصروا عقيدتهم هذه في بلادهم وبين قومهم لقلنا: لندع الترك ينتصف بعضهم من بعض، لا سيَّما أنَّ السواد الأعظم

---

(1) سورة آل عمران، الآية ١٨٧.

من الأمّة التركية ساخط على هذه السياسة أشدّ السخط، وإنَّما يسكت لها خشية الثورة الداخلية التي من ورائها تعريض تركيا لخطر الأجانب، ولولا ذلك ما صبر الترك على هذا يومًا واحدًا. ولكن هؤلاء الجماعة تعبوا كثيرًا في بثّ أفكارهم هذه في جميع العالم الإسلامي وفي بلاد العرب كلّها، ودسّوا سمومًا غير قليلة استفاد منها المستعمرون على اختلاف حكوماتهم، والمبشّرون على اختلاف كنائسهم. وهم بطيشهم يظنّون أنهم قد قوّوا بذلك سياسة تركيا!

وما كان أشبههم إلاَّ بالذي ركب على جذع الشجرة وشرع ينشره من أسفل... فمن المقرّر أنَّ نجاح الاستعمار والتبشير إنَّما هو القضاء المبرم عليهم قبل غيرهم، وأنهم هم بهذه السياسة كانوا يخدمونهما أجلَّ خدمة. إنَّ الأنقريين هم بأيديهم، في الدعاية اللادينية التي نشروها والحرب التي أصلوها الإسلام وأوضاعه، قد خدموا التبشير المسيحي والاستعمار الأوربي الخدمة التي عجزت عنها أعظم الدول الأوربية بملياراتها، هذا بينما هم يزعمون أنهم قائمون بدعاية لايقيّة ضدّ الأديان كلّها! وبدعاية استقلالية ضدّ الاستعمار بأسره! وحقيقة الحال أننا ما رأينا الاستعمار والتبشير ابتهجا بحادثٍ ابتهاجهما بالنزعة اللادينية في تركيا. وما عليك إلاَّ أن تقرأ جرائد القوم وتآليفهم فتفهم الحقيقة في هذا الباب. وكنت أودّ لو طاف العلاّمة فريد وجدي بلاد البلقان وشاهد بعينه وسمع بأذنه، إذًا لعرف كم اجتهد الكماليون على الحكومات البلقانية المسيحية في إلغاء المحاكم الشرعية، وعدم معاملة مسلمي ممالكهم بالشرع الإسلامي في الأحوال الشخصية، وكم بثّوا من الدعايات للبرنيطة والحروف اللاتينية، وكم اجتهدوا في نزع حجاب النساء وخلطهنّ مع الرجال... إلخ.

جميع الأوربيين الذين يلبسون البرنيطة من ألوف من السنين لم يتعصّبوا لها تعصّب الأتراك الكماليين الذين لبسوها من سبع سنوات. جميع أبناء رومة في القديم والحديث ولا الباباوات أجمع لم يجاهدوا في تقديس الحروف اللاتينية في العالم جهاد هؤلاء الأتراك المحدثين. كأنَّما أبى الله أن يعملوا شيئًا بدون تهوّر. ومن المؤسف أنَّ مسلمي البلقان ـ سواء الذين في تراقيا الغربية أو بلغاريا أو يوغوسلافيا أو ألبانيا أو رومانيا ـ أقوام ضعفاء بالنسبة إلى من يحيط بهم من الأمم المسيحية، وضعفهم عامّ في العدد وفي الثروة بأسباب لا يلزم الآن شرحها، وهم دائمًا واقعون تحت خطر الذوبان والاضمحلال مندمجين في الأمم التي توشك أن تبتلعهم لكثرتها. وكان الجامع الوحيد الذي يجمع كلمتهم ويوطّد لحمتهم والمانع الوحيد

من ذوبان كتلتهم وامّحاء صبغتهم هو الدين الإسلامي وحده لا غير. وبهذا الدين هم يحفظون كيانهم ويتماسكون من الانحلال ويمتنعون من الاضمحلال ويؤلّفون جمعيّات خيرية وعلمية وأدبية واقتصادية من شأنها أن تنهض بهم وتجعلهم في مستوى أبناء وطنهم المسيحيين. وإنَّ مسلمي يوغوسلافيا بخاصّة لا يقلّون عن أبناء وطنهم في درجة الترقّي، وربّما كانوا أرقى من غيرهم. وكلّ ما فيهم من حافز إلى الجدّ والاجتهاد، إنَّما هو آت من جامعتهم الإسلامية التي يشعرون معها بوجوب مسابقة غيرهم والخجل من تقصيرهم عن جيرانهم.

فلمّا جاء الأنقريّون يقولون لهم: لا تصيرون بشرًا ما دمتم مسلمين ـ إن لم يقولوها بلسان المقال قالوها بلسان الحال ـ وأخذوا يَدْعونهم إلى الصبغة التي يريدون أن يصبغوا بها تركيا، أي إلى التفرنج، كان هذا جلّ ما يبغيه البلقانيون النصارى الذين يرجّحون بالبداهة ذوبان الإسلام من هناك. وطالما قالت الجرائد المسيحية البلقانية لمسلمي البلقان: إلى متى هذا الحجاب وهذه الملاءة وهذا الطربوش وهذه الحروف العربية وهذه الأوضاع الإسلامية، إلى متى؟ أفلا ترون كيف رفستها تركية الجديدة برجلها؟ أفتطمعون أن تكونوا أحسن من تركية.

إنَّنا نشرنا في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» بحثًا عن مسلمي بلغاريا بقلم اسماعيل بك جمالوفيتش، ظهر في عدد ماضٍ من المجلّة. ولمّا كان هذا البحث ينتهي بالاستنتاج أنَّ مسلمي بلغاريا مهضومة حقوقهم، انبرى بعض أدباء البلغار المسيحيين للردّ على اسماعيل بك جمالوفيتش، ونشرنا له ردّه في العدد الأخير. ثمَّ جاء بلغاري آخر له صفة رسمية فالتمس منّا أن نفسح له مكانًا لردّ آخر فقلنا له: حبًّا وكرامة. وكتبنا في مجلّتنا أنَّ أحبّ شيء إلينا هو أن لا نسمع أنين أحد من إخواننا مسلمي بلغاريا، وهذا على شرط أن يكونوا بالفعل غير مظلومين. ولمّا ناقشنا البلغار المسيحيين شفاهًا في مسألة تشكيلات المسلمين الدينية والإهمال الواقع فيها، برّأوا أنفسهم ممَّا عزى إليهم وقالوا: إن كان من هذا شيء فلا يكون الذنب فيه ذنبنا بل ذنب تركية التي تنشر بين مسلمي البلغار دعايتها اللادينية وتزهّدهم في كلّ شيء إسلامي. أفتبتغون منّا أن نكون مسلمين أكثر من الترك أنفسهم؟ إنَّنا مع هذا ما سمعنا لتركية، ولو كنّا أردنا أن نسمع مشورتها في هذا للزم أن نلغي أكثر التشكيلات الإسلامية في بلادنا فتأمّل. والآن هناك حزبان بين المسلمين كلّ منهما يقاتل الآخر: الحزب المحافظ وهو الأكثر، والحزب المتفرنج وهو الأقلّ. وأنقرة آخذة بيده. والبلقانيون النصارى يرجون من الله أن يكتب النصر للحزب المتفرنج حتى يخلصوا من الإسلام في بلادهم.

إنَّ الوقت لا يتّسع لنا أن نترجم إلى العربية جميع ما يرد في مجلّتنا الإفرنسية اللغة من الشئوون المتعلّقة بالمسلمين، وعليه فنحسن قراءتها بالأصل الإفرنسي. على أنَّ الجريدة الفلسطينية «الجامعة الإسلامية» ترجمت الفصل المتعلّق بمسلمي بلغاريا وربّما تترجم الفصول الآتية.

إنَّنا نحن لا نحبّ أن نتعرّض عمدًا لانتقاد أنقرة لا في دقيق ولا في جليل لسنا منها ولا هي منّا، والمستقبل هو الذي سيكشف الخبايا ويجلي غوامض الأمور في تركية. وما نريد لهذه الأمّة التركية إلاَّ الخير. إلاَّ أننا عندما نهاجم سياستها اللادينية ـ أو بالأحرى الإسلامية ـ ونضع تحت أنظار القرّاء مقابلة عملها مع أعمال الأوربيين الذين تزعم أنقرة أنها إنَّما تريد لتحذو حذوهم وهم يوطّدون نصرانيّتهم وهي تهدّم إسلامها، إنَّما نكون في هذ الباب مدافعين لا مهاجمين فإنَّ تقويض الإسلام في تركية لا ينحصر أثره في تركية كما لا يخفى.

حضرة العلاّمة الأستاذ فريد وجدي يبغينا نغضي على أعمال أنقرة «إشفاقًا على وحدة المسلمين» ويقول إنَّ هذه ثورة لا بدّ من أن تهدأ، وقبل أنقرة ثارت الأمّة الفرنسية وحذفت الدين أصلاً من مجتمعها في إبّان ثورتها إلاَّ أنها أعادته بعد أن هدأت أعصابها وكأنه يقول إنَّ لا بدّ أن تهدأ أعصاب الكماليين ويعودوا إلى العواطف الدينية.

وأجاوبه على هذا بأنَّ أوربة أيام الثورة الفرنسية لم تغضّ على أعمال فرنسة كما هو يريد أن نسكت لتركيا، بل جاءت أوربة من كلّ جانب وهاجمت فرنسة وقاتلتها لا باللسان فقط بل بالسنان أيضًا. ولم يكن خوف الدول الأوربية وقتئذٍ على العرش فقط، بل كان خوفها على العرش والمذبح معًا.

ثمَّ ما مضى أربع سنوات على تلك الحال حتّى عادت الكنيسة في فرنسة إلى سابق عزّها، وجاء البابا إلى باريز لتتويج بونابرت، فكانوا يخرّون أمام عربته في شوارع باريز ركعًا وسجودًا، وهكذا عادت النصرانيّة إلى عنجهيّتها في فرنسة، واطمأنّ بال أوربة من جهتها.

والآن نرى أوربة تقابل بكلّ وسيلة وعدّة وعتاد دولة البلاشفة وتعمل لاستئصالهم، لا لأنهم يقيمون الناس في الروسية على مبادئ كارل ماركس فقط، بل لمحاربتهم للدين المسيحي، وها هو الأهمّ عندهم.

فموسكو الحمراء هي الدولة الوحيدة الأوربية التي تحارب النصرانيّة فعلاً، لهذا تجد أوربة مختلفة في كلّ شيء إلاَّ في أمر واحد وهو العمل لإبادة البلاشفة. ما رأيت الأضداد في أوربة متّفقين إلاَّ في هذه المسألة. والذي تخشاه أوربة من أمر البولشفيك هو مستقبل الأمّة الروسية لا الحالة الحاضرة في بلادهم. إنَّ أوربة تعلم أنَّ الأمّة الروسية الحاضرة هي مسيحية أرثوذكسية إلى الحدّ الأقصى، ولكن التربية الدينية تكاد تكون مفقودة اليوم في الروسية فيخاف الأوربيون من استمرار هذه الحال أن يخرج النشء الروسي القادم أملس من العقيدة المسيحية. ولذلك يحاولون القضاء على البلاشفة قبل أن تزول صبغة النصرانيّة عن هذا الشعب الروسي الكبير.

وبالاختصار لم تقل أوربة لا أمام ثورة فرنسة ولا أمام ثورة الروسية: هذا شيء موقت فلا بدّ من أخذ هؤلاء بطول البال إشفاقًا على وحدة النصرانية. كلاّ. بل قالت: هذا خطر ينبغي إزالته قبل أن يحدث عَطَبًا، وغصن يجب كسره عضًّا قبل أن يعسو ويصير حَطَبًا.

فالمسلمون ليسوا في شيء من هذا بالنسبة إلى أنقرة التي لا يريدون لها إلاَّ السلامة، ولكنّهم يريدون السلامة منها؛ فإنَّ المسلمين ليسوا من السذاجة إلى حدّ أنهم لا يعلمون أنَّ رفع التدريس الديني من جميع مكاتب تركية لا تكون له نتيجة سوى خروج النشء بعد ٢٠ سنة لا يعلم من الإسلام لا كثيرًا ولا قليلاً ممّا ينطوي معه بساط الإسلام من تركيا.

فالذي يخشاه العالم المسيحي على الروسية يخشاه العالم الإسلامي على تركيا، بل يخشاه على نفسه. وذلك أنَّ الروسية لم تكن الرأس في العالم المسيحي؛ ولا كانت تأتمّ بها. فإذا خلعت الروسية دين المسيح لم يخشَ على سائر أمم أوربة وأمريكا أن تتّبعها. وأمَّا تركيا فقد بقيت رأس العالم الإسلامي نحوًا من ستّمائة سنة. وسواء كانت هذه الرئاسة خطأً أو صوابًا فقد كانت حقيقة لا خيالاً. فتركيا قمينة إذا عملت عملاً أن تجد لها من المسلمين ملايين يصلّون وراءها. ولمّا كان العالم الإسلامي لا يبرح متأخّرًا متحيّرًا لا يعلم لنفسه طريقًا إلاَّ ما يجد رؤساءه قد سلكوه، فإنَّه قد يقلّد أنقرة في سياستها اللادينية تقليدًا تكون عواقبه أخطر جدًّا على الإسلام ممّا يظنّ الظانّون؛ لأنَّ الجمعيّات والرسالات التبشيرية وسائر ما يملكه النصارى من التشكيلات الدينية ـ الكفيلة بمقاتلة الإلحاد والتعطيل والبلشفة ـ ليس عند المسلمين منها شيء ولا واحد بالنسبة إلى مليون ممّا عند النصارى. فكيف تريدون عند ذلك أن يحفظ الإسلام وجوده. ولادينية أنقرة زاحفة إلى الأمام؛ وعلماء الإسلام أكثرهم سكوت

خائفون من المخلوقات غير خائفين من الخالق لا يبدون ولا يعيدون. ونحن نقول: "ماعليش ماعليش" ليفعل هذا الولد الحبيب ما يشاء، فإنَّه وحيد ليس لنا غيره!

لعمري أنَّ هذه الشفقة هي في غير محلّها.

ما قالت هذا أم المسيحية لثوّار فرنسا ولا لثوّار الروسية حتّى يقوله المسلمون لثوّار تركيا. ثمَّ إنَّ من الأمور ما لا تجوز فيه الهوادة.

إنَّنا نحن العرب خصوصًا ليس بيننا وبين الترك رابطة سوى رابطة الإسلام، فإن انصرم هذا الحبل فلا رابط بيننا. لأننا إن رجعنا إلى العرق فهم مغول ونحن ساميّون. وقد يكون الأوربي أقرب إلينا من التركي لأن الآري أقرب إلى السامي من المغولي فضلاً عن كون الآري أنفع لنا من المغولي. وإن قيل إنَّه يجمعنا معهم الجوار، فالجوار ليس بجامع بين الأمم: فالأرمن جيراننا مثل الترك؛ فهل نقدر أن نقول إنَّنا عشّاق للأرمن؟ إنَّنا إنَّما نعطف على الترك من أجل أنهم مسلمون لا غير، لا من أجل أنهم شرقيّون. وقد أعلن الأنقريون مع ذلك طول هذه المدّة أنهم ليسوا شرقيين. وكم صاحت جرائدهم "شرقه وداع!". إذًا الرابطة الشرقية قد أنكروها. أفنحن نركض وراءهم وهم يفرّون منّا؟ سفير تركيا في أمريكا أراد بعض الشرقيين أن يعملوا له حفلة تكريم أولاً وثانيًا فاعتذر، وما زال يعتذر حتّى فهموا أنه لديه أوامر بعدم الاختلاط بالشرقيين.

وقد كان توفيق رشدي خطب في مؤتمر نزع السلاح قائلاً: إنَّ تركيا دولة أثبت كلّ تاريخها أنها دولة أوربية. ونشرت جرائد جنيف هذا الخطاب. إذًا الرابطة الأسيوية أيضًا قد جحدوها.

وأمّا ما كان من أقوال الغازي: نحن الترك مائة مليون وإخواننا وأبناء ملّتنا العرب مائة مليون فلا تقدر أوربة أن تبتلعنا، إلخ. فهذا قد كان في الصحف الأولى قبل أن رضيت إنكلترة بعقد معاهدة لوزان مع أنقرة، وأيام لم يكن له ذرّة من الأمل بأنَّ الحلفاء سيرضون معه بالصلح. فمن بعد معاهدة لوزان أصبحت جميع تلك المظاهرات الدينية وقراءة البخاري الشريف والاحتفال بالموالد نسيًا منسيًا. وقام مقامها القذف والطعن. ممّا نمسك الآن عن نقله. وإجمال القول إنَّ تركيا الكمالية احتقرت العالم الإسلامي جدًّا وهزأت به مرارًا وعدّته كأنّه غير موجود. فلا عجب إذا كان العالم الإسلامي يسير سيرته وينشد مصلحته ويحفظ عقيدته

وثقافته ويثبت وجوده ويعدّ أنقرة غير موجودة. هي تبرّأت علنًا منه، فلا غرو أن يتبرّأ منها هو أيضًا، وأظلم الظالمين لنفسه هو الذي يحترم من لا يحترمه ويودّ من لا يودّه، كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه. وقد قيل: التكبّر على المتكبّر صدقة، لأنَّ التواضع للمتكبّر والتودّد للمتصلّف يأتيان دائمًا بعكس المقصود ويزيدان الضرر. وهذا أمر مجرّب.

وليس هذا الكلام موجّهًا إلى الترك إخواننا في الإسلام من ألف سنة بل هو موجّه إلى فئة ضئيلة من الترك هي قابضة على تركية كقبض البولشفيك على الروسية أي بالديكتاتورية العسكرية، أمَّا الأمّة التركية الكريمة من حيث هي فمن الذي يتمارى في فضلها وإيمانها وإسلامها أو من يشعر منّا نحوها بغير الشعور الذي بنا نحو أنفسنا؟ وليس من سبب لهذه الوحدة في الشعور، لا من العرق ولا من الجوار ولا من جهة أخرى بل هي من كلمة الإخلاص الجامعة بيننا والتي ليس من جامعة بيننا سواها.

كفى الشهادة فيما بيننا نسبًا — إن لم تكن جمعتنا وحدةُ النسبِ

جنيف، ٢٣ ذي الحجّة ١٣٥١هـ/١٩٣٣/٤/٢٠م — شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

المؤاساة في سويسرة*

مثال ندعو الأمم الإسلامية أن تقتدي به ـ وتترك الشحّ القاتل

بقلم كاتب الشرق الاكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

لا يخفى أنَّ الأزمة الاقتصادية عامّة لكلّ أقطار الدنيا، ومن جملة البلاد التي أحسّت بها ولو بمقياس أقلّ من غيرها بلاد سويسرة، فقد قلَّ فيها العمل وكثر عدد الذين أصبحوا بلا شغل وضاقت سبل المعيشة.

ولكن هل أهمل السويسريون إغاثة العائلين من أهل بلادهم، وهل تركوهم وشأنهم كما نترك نحن العائلين والمعترّين في شرقنا؟

كلاّ. إنَّه بمجرّد ما ظهر البؤس في بعض العائلات أسرع السويسريون إلى تأليف الجمعيّات الخيرية وأخذوا يوزّعون المآكل والملابس على من اشتدّت بهم الحاجة. لا يسعنا أن نستقصي الآن جميع ما قاموا به في هذه السبيل، فإنَّه شيء يطول، ولكنّنا نورد على سبيل المثال ما يأتي:

تألّفت في لوزان لجنة تطوف على البيوت والمخازن فلا تخرج من محلّ إلاّ وقد جاد أهله بشيء من القوت، على اختلاف أنواعه، أو بشيء من القماش، أيًّا كان، وقد أحصت هذه اللجنة عدد المعاويز في مدينة لوزان فبلغوا تسعة آلاف عائلة، فضربت لهم مواعيد يحضرون فيها إلى مركز اللجنة أو إلى مركز توزيع الأرزاق، فيأتي الواحد منهم فيأخذ على قدر احتياجه من طعام وقماش وكذلك جعلت هذه اللجنة مطاعم عمومية يأتي من شاء فيأكل فيها. وقد قرأت في الجرائد أنه في الشهر الماضي، بلغ عدد ما طعم المحاويج في هذه المطاعم العمومية ٦٩ ألف وجبة "وقعة أكل" هذا عدا ما أرسل إلى بعض البيوت. وأمّا مقدار الأقمشة والملابس التي توزّعت فلا يمكنني أن أحصيه. وكما جرى في لوزان جرى في جنيف فتجد المؤاساة قائمة على قدم وساق. ومن الغريب أنهم لا يكتفون بإعطاء العاطلين من الشغل ألبسة وأسبابًا وأقواتًا ضرورية بل يوزّعون عليهم سيجارات، ويجعلون لهم يومًا

* الفتح، العدد: ٣٤٦، السنة السابعة، القاهرة (٣٠ المحرّم ١٣٥٢هـ/١٩٣٣/٦/٢٥م)، ص ص. ١ ـ ٢.

مخصوصًا لأجل أن يتنزّهوا ويشربوا الشاي مجّانًا وليلة مخصوصة لأجل أن يذهبوا إلى المزارح مجّانًا. وأوقاتًا مخصوصة يسمعون بها الموسيقى مجّانًا. وأغرب من هذا أنَّ المحاويج يذهبون ويحلقون مجّانًا عند حلاّقين تعيّنهم لجان المؤاساة، وأنهم يذهبون إلى بعض مخازن مخصوصة فيأخذون منها ملابس مخيطة خالصة، وأحذية ينتعلونها فورًا وهناك دكاكين لإصلاح الأحذية مجّانًا، وكذلك إذا انقطع النور الكهربائي من بيت أحد المحاويج فيذهب إلى مركز اللجنة ويؤدّون إليه ما يدفعه إلى شركة التنوير لتعيد إليه النور. وهلمَّ جرًّا ممّا يطول شرحه من هذه المعالم وهذه المكارم وهذه المبرّات التي أغارُ من صميم قلبي لعدم وجودها في بلادنا مستوفية أقصى شروطها في هذه البلاد. هذا مع أنَّ المؤاساة عند هؤلاء القوم فضيلة أخلاقية يأتونها من باب الإنسانية ولكنّها في الإسلام فرض ديني لا مناص منه، ولا يمكن المسلم أن يكون مسلمًا بدون الصلاة والزكاة، فكما أنه يجب عليه أن يصلّي لخالقه تعالى يجب عليه أن يؤدّي من ماله جزءًا معلومًا للفقير. وشتّان ما بين الفرض الديني الذي لا مناص منه والفضيلة الأخلاقية التي للإنسان أن يتحلّى بها أو أن يتخلّى عنها.

المسلمون الذين عندهم الزكاة فرض ديني كفرض الصلاة عشقوا البخل والحرص، وأصبح كلّ واحد منهم إلاّ مَنْ رحم ربّك لا يكاد يشعر بآلام الفقراء من قومه وأصبح يفرّ من المؤاساة فراره من الأسد، وصار يعتقد السعادة كلّها في أن يعيش منفردًا بنفسه وأن لا يشرك أحدًا في الدنيا في شيء من النعمة التي ينعم بها، وكثيرًا ما يأكل الحقّ الذي عليه حبًّا بالتوفير بزعمه، وكثيرًا ما يأكل بدل اشتراك الجريدة مع أنه شيء تافه. فيقرأ جريدة الفتح مثلاً مدّة سنوات وتكزّ يده عن إرسال قيمة اشتراكها، وربّما يذهب فيستعير الجريدة من مشترك آخر ليوفّر قيمة الاشتراك. وأشياء كثيرة لا نهاية لها من هذه السفاسف عوَّل عليها المسلمون إلاّ ما ندر في هذه الأعصر الأخيرة، ولذلك أصبحوا والعياذ بالله في حالة الانحطاط التي هم فيها الآن، وأصبحوا أفقر الأمم شرقًا وغربًا، وصحّ فيهم الحديث الشريف «الناس من خوف الفقر في الفقر».

يريدون الاستقلال التامّ ويصرخون ليل نهار متظلّمين من اعتداء الأجانب عليهم ويريدون أن يكونوا كما هم الإفرنج من علوّ الشأن وبسطة السلطان أو كما كان آباء المسلمين وأجدادهم، ولكنّهم في الوقت نفسه يبخلون بالقطمير ويأكلون بدلات اشتراكات الجرائد ويظنّون أنهم وفّروا على أنفسهم، ولا يرون أنَّ الأمم التي تبخل هذا البخل هي غير جديرة

بدرجات الإفرنج من العلا. ليتأمّل المتأمّل منهم في هذه المساعدات التي يقوم بها السويسريون لإخوانهم المحتاجين عن قلوب قويّة وأيدٍ سخيّة وهمم عليّة، وكيف أنهم ينفقون على فقرائهم إنفاق من لا يخشى الفقر، وتجدهم مع ذلك أغنى الأمم وأوفرها مالاً فقد أحصيَ في سويسرة عدد الأهالي ثلاثة ملايين ونصف مليون من أصلهم ثلاثة ملايين كلّهم ذوو أموال في البنوك، ولا يوجد إلاّ نصف مليون فقط لا يملكون أموالاً بالبنوك. ولم تكن هذه الثروة فيهم عن توفير وتقتير بل أنت ترى ممّا نذكره لك شدّة هو أنَّ المال عليهم وبهذا صاروا أغنياء.

وبالاختصار فكلّ أمّة تبخل على نفسها بخلاً شديدًا تسقط في هوّة الفقر وتخسر الدنيا والآخرة. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1]. والله تعالى كان أبصر بالعباد عندما قال ذلك.

جنيف، ١٧ المحرّم ١٣٥٢هـ/١٣/٤/١٩٣٣م — شكيب أرسلان

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

الأتراك في حالة ثورة لم تنتهِ بعد*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

شغلتني في الأيام الأخيرة شواغل عن أن أجاوب الأستاذ العلاّمة محمَّد فريد أفندي وجدي على ما دافع فيه آخر مرّة عن ثورة أنقرة. والله يعلم أني كنت من صميم قلبي أودّ لو أنَّ له الحقّ في هذه المناظرة، لأنه ليس بشيء أن أكون أنا مخطئًا ويسلم العالم الإسلامي من أعظم خطر تعرّض له منذ ثلاثة عشر قرنًا وهو خطر أنَّ أمّة مسلمة بل أمّة كانت على رأس الإسلام تقوم وتنادي بما معناه: إنَّ الإسلام لا يصلح بعد الآن للحياة العصرية!

في أثناء الحرب العامّة عندما قام كثير من العرب على الدولة العثمانية يطلبون الانفصال عنها، كانوا معتقدين أنَّ إنكلترة وحلفاءها ستؤسّس لهم سلطنة عربية من طوريس إلى عدن ومن قبرص إلى حدود العجم. وكانوا يتّهمون بالمروق من العروبة كلّ من نازعهم في مبادئهم هذه وكنت أنا أقول: لو علمت أنَّ هذا الحلم سيتحقّق لما سبقني في هذه الحلبة سابق، وكنت أول من يدعو إلى الانفصال عن الترك لأنَّ الأمّة العربية يجب أن تكون متبوعة لا تابعة. ولكن عقلي يقول لي إنَّ الحلفاء سيغدرون بالعرب ويتقاسمون بلادهم بعد انفصالهم عن الترك وسيقرع العرب من الندم على ثقتهم بإنكلترة وحليفاتها ويبحثون عن الترك حين يجدونهم أعداءً لهم، فلذلك أنا أختار أهون الشرّين وأرى خطر الترك على العرب أخفّ بما لا يقدّر من خطر الإفرنج. فنحن لسنا كما غمز بنا بعضهم لم نتعرّف بالقضيّة العربية إلاَّ بعد الحرب العامّة بل القضيّة العربية هي قضيّتنا قبل الجميع ولكنّنا لم نتعرّف يومئذٍ بالقضيّة العربية الأجنبية التي كانت تلعب من تحتها الدسائس المعلومة لأجل فصل العرب عن الترك أولاً، والانقضاض على بلادهم ثانيًا لتقسيمها مستعمرات للحلفاء ووطنًا قوميًا لليهود، وما أشبه ذلك. كان بعض إخواني يقولون لي في أثناء الجدال: سترى سترى عيانًا وتعلم أنك كنت مخطئًا، وأنَّ هناك معاهدات مبرمة لا يستطيع الأجانب أن يحيدوا عنها. وكنت أقول يا حبّذا يا حبّذا وكم أتمنّى أن يخرج ما تقولونه حقًّا وأن أرى البلاد العربية مستقلّة عن الترك والإفرنج تمامًا، وأكون أنا مخطئًا وملومًا.

---

* الفتح، العدد: ٣٥٢، العام الثامن، القاهرة (١٣ ربيع الأول ١٣٥٢هـ/١٩٣٣/٧/١٧م)، ص ص. ١ـ٤.

والآن أنا أقول يا حبّذا لو كان رأي الأستاذ فريد وجدي صوابًا وكان عمل تركيا الجديدة غير ناقض لأساس الإسلام ولا آتيًا إيّاه من القواعد، ولو كنت أنا وكان ملايين من أمثالي مخطئين ملومين، فما تمنّينا أن نكون ضالّين مثلما تمنّينا في هاتين الحادثتين.

الأستاذ فريد وجدي بدأ جوابه بإظهار كيفيّة استيلاء الغرب على الشرق وانتهاء الشرقيين باعتقاد أنهم لا يمكنهم أن يخلصوا من عبوديّة الغرب إلاَّ بالنسج على منواله. وكما قال الأستاذ وجدي أن يسير أهل الشرق في الطريق الذي فيه الغرب. ونحن نجاوبه على هذا جوابًا مختصرًا مفيدًا نتوخّى فيه التمثيل لأنه أبلغ في الإفادة وأجلى للصورة، نقول له: عندنا اليابان مملكة شرقية صرفة سارت في الطريق التي فيها الغرب. فهل صارت بذلك مملكة غربية، وهل خرجت من أن تكون يابانية في جنسها ودينها ولغتها وأدبها وحروفها وألحانها وذوقها وكلّ شيء من أوضاعها القومية؟ الجواب: كلاَّ. إنَّ العلم ليس له وطن ولا لون ولا صبغة وهو مجذوب إلى العقل، وأينما وجد العقل أمكن أن يرافقه العلم. فاليابانيون عندما أخذوا بعلوم الأوربيين أخذوها بحذافيرها، وامتصّوها إلى آخر صاباتها، ولكنّهم لم يتحوّلوا من أجل ذلك أوربيين، بل لبثوا يابانيين من رؤوسهم إلى أطراف أظافرهم، ولم يقولوا كما يقول الترك الأنقريون: شرقه وداع. ولم يهزأوا بشريعتهم مكرّرين في جرائدهم: خرافات شريعة. ولا قالوا: إنَّ هذا العالم الشرقي المتفسّخ لا حاجة لنا به كما قال الأنقريون عن العالم الإسلامي، ولا جاء ناظر خارجية اليابان يعلن في مؤتمر مؤلّف من خمسين دولة أنَّ اليابان لا تعرف نفسها إلاَّ دولة أوربية، وذلك كما أعلن توفيق رشدي في مؤتمر نزع السلاح من عدّة سنوات، وهو أنَّ تركية لم تكن في حياتها إلاَّ دولة أوربية.

كلّ من ذهب إلى اليابان من الأوربيين يشهد بأنَّ اليابانيين، وإن كانوا ضارعوا أوربة في علومها وفنونها وسابقوها في صناعاتها ومناهجها العصرية، لم يزالوا يعضّون بالنواجذ على عقائدهم وعوائدهم ويفخرون بها وينشدون عندها عزّتهم القومية. لم يقل اليابان: مدينة أوربة كلّ لا جزءٌ فإن أردنا أن نتمدّن فلا مندوحة لنا عن أن نتّخذ لأنفسنا مدنيّة أوربة بدون تجزئة وبدون فصل شيء عن شيء، كما قال أحمد أغايف الذي اقترح أن تصطبغ تركيا بصبغة أوربية تمامًا. وزعم أنه بدون ذلك لا تمكنها النجاة. اليابان أخذوا العلم عن الأوربيين لأنَّ العلم لا يقال إنّه أوربي ولا آسيوي ولا أصفر ولا أخضر، ولكنّه مشاع بين

الجميع، فلم يجد اليابان ضروريًا لرقيّهم أن يندمجوا في الأمم الأوربية وأن يودّعوا الشرق الوداع الأخير مع أنه قد صارت عند اليابانيين ثورة وانقلاب كثورة الأتراك وانقلابهم وخرجوا على أوضاع كثيرة قديمة ولكنّهم بقوا يابانيين أقحاحًا.

عندما جرى تتويج عاهل اليابان منذ خمس سنوات ارتدى العاهل المشار إليه أثواب الكهنوت بصفته كاهن الأمّة اليابانية الأعظم. وبقي نحوًا من شهر هو وحكومته من شعيرة دينية إلى شعيرة دينية، ونصف مليون من الشعب الياباني يهتفون للعاهل سلالة الشمس. وقد اغتسل في الحمام القديم المحفوظ من ألفي سنة الذي كان يستحمّ به أسلافه، واعتزل في غرفة زعموا أنه سيأكل فيها، مع الآلهة التي يعبدونها، وأكل هنالك الأرزّ المقدّس. وكان هذا الأرزّ قد زرعته الحكومة تحت إشراف الكهنة لكيلا تشوب تقديسه شائبة، ولم يأكله الإمبراطور إلاَّ محرّرًا تحريرًا. لم تمنع اليابانيين العلوم والفنون والأدوات والأسلحة والبوارج والسيّارات والطيّارات وسائر ما قلّدوا فيه الأوربيين عن أن يحنوا رؤوسهم أمام تلك الشعائر الدينية التي توارثوها عن آبائهم، ولم يحقّرهم تقليدهم لآبائهم في عين الغرب، بل زادهم ذلك احترامًا عندهم لأنَّ الغربيين يعلمون أنَّ كلّ أمّة لا تحترم قديمها ولا تكرم رميمها فلا يرجى منها خير، ولا ينعقد معها عهد، ولا تبالي على أيّ جنبيه وقع الأمر.

يقول الأستاذ فريد وجدي: أوربة لم تقم لها قائمة إلاَّ بتجرّدها من وصاية الدين، وبأخذها بمبدأ الشورى في الحكومة، وبالجري بالعلم في سمته الطبيعي، وإن خالف المعتقدات والموروثات، وبحرّية التفكير والكتابة، إلخ. فليسمح لنا أن نجاوبه: ماذا يريد بوصاية الدين إن كان يراد بالدين هو القوانين الإكليريكية فربّما كانت أوربة لا تتقيّد بها أحيانًا لأنها لا تعتقد أنها لباب الدين. وإن كان مراده بالدين الدين المسيحي نفسه فلم نعلم أنَّ أوربة خرجت عنه يمنة ولا يسرة منذ دانت به إلى يوم الناس هذا، وقد انغمست أوربة في ما يسمّونه بالحياة العصرية ولم يغيّر ذلك فتيلاً من شواعرها ولا من شعائرها المسيحية. كيف تكون إنكلترة خرجت من وصاية الدين وملك الإنكليز هو نفسه رئيس الكنيسة الإنكليكانية. وكيف تكون بريطانية العظمى خرجت من وصاية الدين وكتابها الديني المسّمى بكتاب الصلاة الذي هو دستور إيمانها لا يتغيّر منه حرف، إلاَّ بتصديق مجلس اللوردة ومجلس العموم. وأين كان فصل الدين عن السياسة عندما تنازعوا مدّة ثلاثة أشهر في نفس مجلس العموم؟ هل الخبز

والخمر الذي يقدّسه القسّيس يستحيل إلى جسد الربّ ودمه فعلاً، أم يستحيل رمزًا؟ وهل يشترط في هذه الاستحالة الابتهال لروح القدس كما عند الكاثوليك أم تنقضي هذه المسألة بدون ابتهال للروح المشار إليه؟

كيف تكون أوربة خرجت من وصاية الدين وعاهل ألمانية، الذي لا يزال حيًّا، هو رئيس الكنيسة اللوثيرية والعقيدة الدينية تعلّم في جميع مدارس الحكومة والجامعات الكبرى صفّ للكاثوليك وصفّ للبروتستانت، ولكّل فئة أساتذة؟ وبالأمس عندما تألّفت حكومة هتلر أعلن هو بلسانها في الريستغ أنَّ نهضة ألمانية إنَّما تستند على أساس الدين المسيحي، وأنَّ لألمانية عقيدة كنيستين أي الكاثوليكية والبروتستانية، هما كافيتان لحياتهما الأدبية. هل قال هتلر وفون بابل إنَّنا من حيث قد ترقّينا ترقيًّا خارقًا للعادة في العلوم الطبيعية وركبنا الميكانيكيّات المدهشة، فقد صار يمكننا الاستغناء عن الغذاء الروحي الذي نستمدّه من تينك الكنيستين؟ كلاَّ، كيف تكون أوربة خرجت من وصاية الدين وهذه فرنسة الدولة التي تقول إنّها لا دينية تأتي بجثّة المسيو بريان إلى نفس نظارة الخارجي وتستدعي لها رئيس أساقفة باريس للصلاة عليها؟ وعندما مات فوش وجوفر أقيمت لراحة روحيهما التقديسات الدينية في جميع كنائس سفارات فرنسة في الخارج. وبهذه السنة نفسها أقيمت حفلة دينية في كنيسة الأنفاليد حضرها رجال فرنسة الرسميون وقدّس فيها القسّيسون شكرًا للباري تعالى على ما آتاه جيوش فرنسة من النصر في مراكش. وهل هذا الظهير البربري الذي هدفه إخراج البربر من الإسلام، والذي قام له المسلمون وقعدوا في المشارق والمغارب، وهو لا يزال نافذًا، هو شيء جرى بطريق الاتّفاق والتصادف لا علم لحكومة فرنسة المركزية به؟ وهل الأخذ بأيدي القسّوس والمبشّرين وبثّهم في بلاد البربر وتشييدهم في قرى البربر نحو مئة وأربعين كنيسة بين كبيرة وصغيرة عدا المعاهد الأخرى والمدارس. كلّ هذا حكومة فرنسة خالية من علمه بريئة من تبعته ليس لها في هذا الأمر ناقة ولا جمل؟ هذه هي فرنسة اللادينية التي تقول أنقرة: نحن إنَّما نريد لنقتدي بفرنسة اللادينية وأمثالها.

كيف تكون أوربة خرجت من وصاية الدين، وحكومة بلجكة تقرّر تنصير أهل الكونغو في بروغرامها الرسمي منذ أربع سنوات؟ ما معنى وصاية الدين؟ معناها أن يكون دستورًا للحياة الأدبية. وهل تريد أكثر من هذا دلالةً على العمل بهذا الدستور إن لم يكن الأمر كذلك وكان الدين المسيحي وغيره على حدٍّ سواء عند البلجيك، فماذا يهمّ البلجيك

إن تنصّر أهل الكونغو أم لم يتنصّروا. لقد تنصّر من أهل الكونغو ثمانمائة ألف على المذهب الكاثوليكي ومئتا ألف على المذهب البروتسطانتي، ولكن بلجكة لا تكتفي بمليون من تسعة ملايين بل تريد أن يكون التسعة الملايين بأجمعهم نصارى. وهذه هي حكومة مدنيّة ديمقراطية لا رهبانيّة رهبان ولا رسالة المبشّرين. فأين أنت يا أستاذ وجدي؟ هل تقرأ هذه الأشياء أم لا؟ وهل إذا قرأتها تحاول أن تكابر نفسك فيها كما يفعل بعضهم. إنَّا نجلّك أن تكون مثل بعضهم هؤلاء، لأنَّنا نميّز بين الناس.

كيف تكون أوربة تَفَصَّت من الدين وكلّ من ذهب إلى الجاوه ورأى ما رأى من حماية حكومة هولاندة للمبشّرين بالدين المسيحي يعلم إلى أيّة درجة تريد هولاندة أن تنشر النصرانيّة في جزائر، ثبت بحسب الإحصاء الأخير أنَّ فيها ستّين مليون مسلم. لقد كان مندوبو مصر، ومن جملتهم الدكتور طه حسين، حاضرين معنا جلسة افتتاح مؤتمر المستشرقين في ليدن عندما قام ناظر المعارف في هولاندة وخطب قائلاً: إنَّ أعظم أسباب تبسّط هولاندة في الشرق هو رغبتها في نشر الدين المسيحي هناك. الرجل الذي يقول هذا هو ناظر معارف وعضو بمجلس الوزراء ومتكّلم بلسان الحكومة، وليس بقسّيس مبشّر ليقال إنَّه ليس مسؤولاً وإنَّه إنَّما يتكلّم بصفته الشخصية.

وماذا عسانا أن نعدّد من هذه الأماثيل التي لا نهاية لها، والتي قد يقال إنَّه قد سبقت لنا مقالات عنها ولماذا نحن نكرّرها؟ والجواب أننا نكرّرها برغم إرادتنا لأنها مع كونها حقائق ثابتة ووقائع محسوسة نجد أناسًا لا يزالون يكرّرون: ماذا تريد أن تفعل لكم أنقرة؟ إنَّ أنقرة إنَّما تقتدي بأوربة في ترك الدين. سبحان الله، أين تركت الدين أوربة، وكيف، وبأيّة صورة؟ إنَّنا نعلم أنَّ فريقًا من الناس لا يريدون أن يسمعوا كأنَّ على آذانهم وقرًا، وفريقًا يعلمون الحقيقة وهم يمترون فيها لأمراض في قلوبهم وأغراضٍ في أنفسهم ولكن الأستاذ فريد وجدي ليس من هذا الفريق ولا من ذاك الفريق بل هو من ناشدي الحقائق وبغيان الأنوار، وممّن إذا رأى النور لم يعالج أن يكتمه بفمه، وممَّن رفعوا بخاصّة للإسلام لواء شهيرًا فلماذا نراه الآن يبرّر عمل أنقرة بأنها أرادت أن تقتدي بأوربة في ترك وصاية الدين! إنَّه ما ثبت الأصل ليثبت الفرع. وأمَّا قوله عن حرّية التفكير والكتابة التي تريد أن تقتدي فيها أنقرة بأوربة، فأين هي حرّية التفكير والكتابة في تركية؟ إنَّ تركية نفسها ما ادّعت اليوم أنَّ فيها حرّية تفكير وكتابة. وليس هناك في الواقع إذنٌ بكتابة شيء سوى ما تأذن به الحكومة

الدكتاتورية. نعم، أنقرة اقتدت في هذا بدكتاتوريّات أوربة لأنه في الحقيقة لا يوجد في أوربة إلاّ حرّية نسبيّة تنقبض وتنبسط بحسب السياسة وفي الروسية وفي إيطالية، والآن في ألمانية، لا يوجد أثر لهذه الحرّية ومنذ شهرين أو ثلاثة نشر الشيوعيون في ألمانية نشرات ماسّة بالدين المسيحي فجمعتها الحكومة وأعلنت أنها لا تسمح بنشر شيء يمسّ المسيحية. من أغرب الأمور قول الأستاذ فريد وجدي: إنَّ نظريّة الغربيين ـ التي تريد أنقرة أن تقتدي بها ـ هو أنَّ أول ما يجب عمله حيال أمّة جامدة هو تشكيكها في الدين لتخلُص من كابوسه الممسّك بمخنقها. نعم، إنَّ الأستاذ وجدي ينقل هذا الكلام عن الناشئة التي لم تفهم حقيقة الدين الإسلامي. ولكنّه ينقله كأنه يعذر هذه النابتة في ضيق صدورها بالدين. والحال أنه إذا كانت النابتة المذكورة جهلت الدين الإسلامي أو ظلمته فليس لنا أن نوافقها لا على جهلها ولا على ظلمها، بل الواجب علينا أن نبصرها الطريق القويم ونهيب بها إلى العقل السليم. والأستاذ فريد وجدي هو ممّن آلوا على أنفسهم القيام بهذه المهمّة ونرى مقالاته في هذا الباب تترى، فلماذا عاد الآن إلى شيء يشبه أن يكون تسويغًا لعمل هذه الناشئة. وقد كان الأولى به أن يوجّه مقالاته التي ينشرها في الجهاد إلى أنقرة ويقول لها: إن كنت تزعمين ترك الدين بحجّة أنَّ أوربا تركته فهذا ليس بصحيح. فما ترك الدين فعلاً سوى البلاشفة وهم فئة قليلة من الروس. وإن كنت تزعمين أنَّ مرادك التخلّص من الجمود. فالجمود شيء والدين شيء آخر ولا يجوز الخلط بينهما ولا المغالطة فيهما، ولا يجوز لكم محاربة الدين باَسم محاربة الجمود فإنَّ الناس ليسوا بذوي بصائر. كلّما أرادت أنقرة محاربة الدين جاءت تسنّ قوانين لمعاقبة «الذين اتّخذوا الدين آلة للسياسة» «ديانتي سياسته آلت اتّخاذ أيتشملر» يأخذون هذه الجملة ويلوكونها ويظنّون أنهم قالوا شيئًا. والسفسطة في هذه الجملة ظاهرة للعيان.

رجل يعتقد بالإسلام ويرى أنَّ اختلاط الشبّان مع الشابّات ورقصهم معًا مثلاً مخالف لشرع الإسلام ومفسد للأخلاق ـ ومن هنا مخالفته للشرع ـ أو يرى أنَّ إجبار الناس على الصلاة بالتركيّة مصادم للشرع؟ فيعترض على ذلك من جهة أنَّ وجدانه معذّب وأنَّ الحكومة تريد أن تحمله على ما يخالف وجدانه. وهو يكون تاجرًا أو زارعًا أو صانعًا ليس له أدنى علاقة بالسياسة، ولا هو طالبًا منصبًا ولا عملاً عند الحكومة. فتأخذه حكومة أنقرة وتدقّ عنقه وتزجّه في السجن وتقول: هذا لأنه اتّخذ الدين آلة للسياسة. فأيّة سياسة هنا يا ربّ؟

لو كانت أنقرة أعلنت، ولو مرّة من المرّات، أنها إنَّما تريد لتحارب الجمود، وأنها إنَّما تريد لتنزّه الدين عن الخرافات، أو أنها في اتّخاذها هذه الأوضاع الجديدة لم تخرج عن الإسلام الذي يتّسع صدره لجميع الحكم ويقول بالمصلحة المرسلة، ويجد الضرورات تبيح المحظورات، إلخ، لكنّا عذرنا أنقرة ولم نجد في عملها إلاَّ مجال بحث في ضمن دائرة الإسلام. هل الاجتهاد في هذا جائز أم لا؟ وكنّا نقول: ليست بهذه بأول قارورة كسرت في الإسلام، وقبلاً اجتهد المسلمون في مصالحهم وقبلاً التجأت الدولة العثمانية والدولة المصرية والدولة الفارسية وغيرها إلى استعمال قوانين وأوضاع لم تكن معروفة في الإسلام، وما برحت هذه الدول دولاً إسلامية، كما أنَّ دول أوربة، ما عدا حكومة البولشفيك لا غير، لم تبرح دولاً نصرانيّة. لكنَّ أنقرة لم تكن من هذا الموضوع في قليل ولا دبير.

مرّة واحدة لم تقل أنقرة إنِّي أنا لم أخرج على الإسلام...»[1].

---

(1) بقيّة هذه المقالة على الصفحة ١٧ من الفتح العدد عينه، وهنا نقصٌ حاصلٌ نأسف له. [المحقّق]

الناس من خوف الفقر في الفقر*

كان عندي كتاب من طبع مطبعة الجوائب في القسطنطينية اسمه «برد الأكباد في الأعداد» هو مجموعة حكم وأمثال من قبيل سجيتان مَنْ كانتا فيه فهو كذا، أو ثلاث خصال هنّ كذا أو أربع خصال من اجتمعت فيه فهو كذا، وهلمّ جرًّا. ولذلك قيل له كتاب الأعداد وفي أوله فصل في ما أتذكّر اختار فيه المؤلّف عدّة آيات من كتاب الله، وعدّة أحاديث نبوية وإنّي متذكّر من تلك الأحاديث حديث «كاد الفقر يكون كفرًا» وإن لم تكن قد خانتني ذاكرتي فحديثًا لفظه «الناس من خوف الفقر في الفقر» وحديث «حمى الوطيس». هذا الذي لا يزال عالقًا بذهني من الأحاديث المختارة في ذلك الكتاب، ولذلك استشهدت بحديث «الناس من خوف الفقر في الفقر» حسبما بقي في ذهني. ولمّا قام الأستاذ الشيخ مصطفى الحمامي يسألني عن مأخذ هذا الحديث وأسانيده رجعت أبحث عن هذا الكتاب في خزانة كتبي، التي معي هنا فلا أجده، وربّما كان قد فقد أو لا يزال في منزلي بلبنان. وعلى كلّ حال فالكتاب مطبوع، فإن كنت لم أخطئ ولم يقع لي سهو من عادته أن يقع بين حديث وحكمة أو حديث ومَثل سائر، فيكون الحديث الذي استشهدت به مأخوذًا من ذلك الكتاب. وكثيرًا ما وردت الأحاديث الشريفة في الكتب الأدبية، وكثيرًا ما استشهد العلماء بالأحاديث الضعيفة في باب الوعظ والحثّ على الفضائل. وإن كانت خانتني ذاكرتي ولم يكن ما استشهدت به حديثًا بل حكمة من الحكم الواردة في ذلك الكتاب، فإنّي أستغفر الله وأصحّح قولي إنّه حديث عن رسول الله ﷺ. أمّا معنى الحديث أو الحكمة المذكورة فهو باقٍ بتمامه ومطابق لما عليه أكثر المسلمين في هذا العصر.

شكيب أرسلان

* الفتح، العدد: ٣٥٢، (١٩٣٣/٧/١٧م)، ص. ٧.

الناس من خوف الفقر في الفقر
والناس من خوف الذلّ في الذلّ*

أشكر الأستاذ المحقّق الشيخ مصطفى أبا سيف الحمامي على فريد تحرّيه وتدقيقه ومراجعته كتابًا كنت قرأته منذ أربعين سنة وهو "برد الأكباد في الأعداد" وكتاب الثعالبي الذي يليه في مجلّد واحد، حتّى أستخرج أني ذهلت واختلط عليّ "الناس من خوف الفقر في الفقر" مع "الناس من خوف الذلّ في الذلّ" ولا عجب أن يختلط على الإنسان بعد أربعين جملتان كهاتين الجملتين معناهما تقريبًا واحد لأنّ الفقر هو الذلّ بعينه، وقد جاء في الحديث الشريف "كاد الفقر يكون كفرًا". وهذا الحديث أظنّه ثابتًا وأتذكّر أنه من الأحاديث المنقولة في ذلك الكتاب نفسه. وكذلك الذلّ أكثر الأحيان يرافقه الفقر فقلّما وجد ذليل إلاّ وهو فقير، وجاء في الأمثال: "من عزّ بزّ". وقال المتنبّي حكيم الشعراء وشاعر الحكماء:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده.

فكرور السنين وشيب المفارق وتوالي الخطوب وتقسّم الأفكار كلّ هذا أذهلني عن حرفيّة تلك الجملة البليغة، لا سيّما أنّ المعنى واحد بين الذلّ والفقر، كما أنه أذهلني أيضًا عن كونها من حكم المرتضى كرّم الله وجهه لا من أحاديث المصطفى ﷺ ولهذا أنا أستغفر الله ثانية على ما وقع منّي من السهو. وبهذه المناسبة أقول إنّنا قرأنا في نهج البلاغة من حكم سيّدنا علي رضي الله عنه ما نجد الناس يروونه كحديث نبوي. فليست هذه أول مرّة اختلطت فيها الروايات بين الأحاديث النبوية وكلام الخلفاء الراشدين.

ولعمري جدير بأن تكون لنا هذه الحادثة عبرة حتّى نعلم ما يتطرّق إلى الروايات من سهو أو نسيان أو التباس جملة بجملة أو كلمة بكلمة، وناهيك أنّ الناس كانوا يروون الأحاديث بالمعنى ومن روى شيئًا بالمعنى فقلّما ينجو من أن يزيد أو ينقص.

لأجل هذا وأشباهه نهى سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عن كتابة الأحاديث. وهذا الخبر عن سيّدنا عمر وإن أنكره بعضهم أو ضعّفوه فقد جاء في أمّهات السير ويستحيل

---

* الفتح، العدد: ٣٥٨، (١٩٣٣/٨/١٧م)، ص. ٦. هذه المقالة لها صلة بسابقتها لجهة موضوع الكتاب المذكور.

أن يكون بدون أساس. نعم، إنَّ سيِّدنا عمر كان هو يحدّث وكان يسمع الحديث الشريف ويبني أحكامه واجتهاده عليه، ولذلك لا يمكن أن يكون قصد بالنهي عن كتابة الأحاديث إلاَّ مجرّد إمساك العِنان في هذا الميدان خوفًا من الزيادة والنقصان بكثرة الكتابة والرواية من الأحاديث.

ومن علم أنَّ الإمام البخاري استخرج صحيحه خمسة أو ستّة آلاف حديث من ستّمائة ألف حديث علم كم يجب من الاحتياط في الحديث والتحرّي في روايته. وكان بعض أكابر الصحابة مثل سعد بن أبي وقّاص والزبير بن العوام لا يحدثون برغم طول صحبتهما. وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي لازم المصطفى عليه الصلاة والسلام بتجنّب الحديث ما أمكن وإذا حدّث عرق. وقرأت في تاريخ الخلفاء للسيوطي فوجدت أنَّ الأحاديث التي رواها الصدّيق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قليلة جدًّا بالنسبة لطول صحبته له. وفي هذا عبرة بالغة لأجل الاقتصاد في رواية الأحاديث، إلاَّ ما استوفى جميع شروط الصحّة وأحيط بجميع أسباب الوثاقة.

جنيف، ١٤ ربيع الآخر ١٣٥٢هـ/١٩٣٣/٨/٦م

شكيب أرسلان



جوابنا للأستاذ فريد وجدي عن الثورة التي لا نعلم متى تنتهي؟*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

قال الإمام الشافعي، رضي الله عنه: ما ناظرت أحدًا إلاَّ وتمنّيت أن يظهر الحقّ على يده. ونحن لسنا من الإمام الشافعي ولا قلامة ظفر، ولكنّنا نسمع أنَّ التشبّه بالكرام فلاح. فأنا أتمنى أن يظهر الحقّ في هذه المناظرة بشأن سياسة أنقرة على يد مناظري الأستاذ المشار إليه. وكنت عدلت عن المجاوبة بتاتًا اعتمادًا على أنَّ القرّاء يفتحون بيننا وبينه بالحقّ ويحكمون من أنفسهم فيما أخطأنا وأصبنا. فإنّنا كتبنا بعربي فصيح وكتب هو أيضًا بعربي أفصح. وإنَّ في قرّاء «الفتح» الذين أكثرهم من المفكّرين من يحسن التمييز بين الخطأ والصواب. إلاَّ أني رأيت في جواب الأستاذ بعض مواطن أخشى إذا سكتنا عليها أن تزلق بها أقدام وتضلّ أفهام وهذا آخر ما عندي من الكلام.

من ذلك قوله إنَّ الأمم الأوربية المسيحية اكتفت «بالمظاهر دون اللباب من أديانها، وأنها أباحت الطلاق وجرت في توزيع المواريث على ما هدتها إليه مصالحها المالية وقطعت صلاتها بمعاهدها الدينية. وهذا كلّه مخالف لتعاليم كتبها فهذه الأمم لا تسأل متى أرادت أن تقرّر حكمًا إن كان موافقًا لما لديها من الوحي الإلهي أم لا، ولكنّها تجري منه على قواعد دستورية لا تمتّ إلى تلك الأديان بصلة». فمن الغريب أن يجري الأستاذ هذا المجرى في الجدل ملتزمًا نقطة واحدة، وهي تبرئة الكماليين من جريمة هدم الإسلام بأيديهم والاستظهار على ذلك بأيّ دليل ولو لم يكن في الحقيقة دليلاً. فإنَّ أوربة أجازت الطلاق خلافًا للإنجيل بعد أن رأت أنَّ بقاءها على حكم الإنجيل في منع الطلاق يكاد يكون من القسم المستحيل، وأنَّ المجتمع الأوربي أصبح لا يطيق منع الطلاق، وأنَّ كلّ مجتمع بشري لا يجيز الطلاق في الضرورات يكون مضطربًا. فالدول الأوربية خرقت حكم النصرانيّة في هذه المسألة لضرورة ألقت عليها بكلكلها، ولم تجد منها مخلّصًا، فجرت على قاعدة أنَّ «الضرورات تبيح المحظورات». فأمّا

---

* الفتح، العدد: ٣٦٣، العام الثامن، القاهرة (١٣ غرّة جمادى الآخرة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣/٩/٢٤م)، ص ص. ١ ـ ٧.

القوانين التي سنّتها أنقرة وخرقت بها الشريعة الإسلامية فليست من الضرورة في شيء بل هي من الضرر لو أنعمنا النظر فيها. أية ضرورة في منع تعدّد الزوجات على حين تعدّد الزوجات في الإسلام ضمن الشروط التي وضعها الشرع، فيه أعظم الفوائد للأمّة من زيادة النسل ومن عصمة الناس عن الفواحش ومن تحصين الأعراض والإقلال من الطلاق الذي قد يضطرّ إليه الإنسان، لعلّة في امرأته من عقم أو زمانة أو غيرهما، فإذا قدر أن يتزوّج بامرأة أخرى أمسك عن طلاق تلك المسكينة التي كان مضطرًّا لطلاقها حبًّا بالنسل أو فرارًا من العلّة.

وأيّة ضرورة لأهل مملكة مثل تركية قد أبادت الحروب مئات ألوف من شبّانها فأصبحت بلاد الأناضول نساؤها أكثر من رجالها بكثير وصارت أحوج ما تحتاج إلى النسل أن تمنع سببًا من أكبر أسباب نماء الأمّة؟ وأيّة ضرورة لإجبار النساء على السفور في بلاد كتركية قد تعوّدت أن ترى الحجاب رمزًا للطهارة، والسفور رمزًا للإباحة؟ ويا ليت السفور الذي أمروا به كان السفور الشرعي الذي لا غبار عليه. ولكن السفور الذي التزموه كان مقرونًا بالخلاعة مصحوبًا بخلط النساء مع الرجال والشابّات مع الشبّان، وإحياء عادة رقص الجنسين بعضهما مع بعض. فأيّة ضرورة لهذه الأمور؟ وهل مثل هذا يُلزّ في قرن واحد مع الطلاق من جهة الضرورة؟

وأيّة ضرورة للحروف اللاتينية التي أبعدت اللغة التركية عن أصلها وجعلتها لغة متنكّرة لأهلها، كما يشهدون هم بذلك، خلا تلك الفئة المتزلّفة إلى زعيمها. ومن شاء الوقوف على مساوئ كتابة التركي بالحروف اللاتينية فليقرأ البحث الخاصّ بذلك في الطبعة الجديدة من "حاضر العالم الإسلامي" بقلم بعض فضلاء الأتراك الذين ليسوا من الجامدين ولا المتحجّرين، كما يصف الأستاذ وجدي، فإنَّه قد بيّن تلك المساوئ من الجهة العلمية مع صرف النظر عن قضيّة كون الحروف اللاتينية في التركي ستكون سببًا في تراخي ما بين الترك والإسلام، وحائلاً دون الصحيح من قراءة القرآن. وما أدهشني شيء إلاَّ قول الأستاذ وجدي: "أمَّا العدول عن الحروف العربية إلى اللاتينية فأنا أناشده الله أن يقول لي أيصحّ أن تكتب الفرنسية أو الألمانية بالحروف العربية؟ إن قال لا، فأيّ فرق بين هذه اللغات والتركية؟ وكيف لا يتّخذون حروفًا تسمح لكلّ تركي أن يتعلّم القراءة والكتابة في أيام معدودة وتستطيع الحكومة بذلك أن ترفع الأمّية عن الأمّة في سنين قليلة".

نعم وقفت حائرًا أمام هذا السؤال الذي يناشدني صاحبه الله عليه. نعم لا تكتب اللغة الإفرنسية ولا الألمانية ولا الإنكليزية بالحروف العربية، لأنَّ تلك الأمم تجري ألسنتها بألفاظ لا تجري بها ألسن الشرقيين، كما أنَّ عندنا ألفاظًا لا يمكن أن تخرج من حلوقهم. فكما إنَّ هذه اللغات الأوربية لا يصحّ أن تكتب بالحروف العربية، فاللغة العربية لا يصحّ أن تكتب أيضًا بالحروف اللاتينية أو الألمانية. ودليل ذلك أنَّ الذي يقرأ الأعلام الشرقية في الكتب الأوربية لا يكاد يفهم منها شيئًا، إلاَّ إذا كان عارفًا بالعربية من الأصل. أمَّا اللغة التركية فالفرق بينها وبين اللغات الأوربية كالفرق بين اللغة العربية واللغات الأوربية. فالتركية أيضًا لا يصحّ أن تكتب بالحروف اللاتينية، وإن كتبت بها تغيّر لفظها برغم كلّ الاحتياطات، وصارت كما هي الآن بالحروف الجديدة. ولعمري لو أردنا أن نفعل فعل الكماليين ونكتب العربية بالحروف اللاتينية لما استحال ذلك علينا، ولكن تتغيّر اللغة العربية حينئذٍ عمّا هي الآن ونحن لا نجد ضرورة لتغيير لغتنا وتبديل مخارج حروفنا من حلوقنا. والأتراك شرقيون ولغتهم شرقية والذي يناسب حلوقهم من الحروف لا يناسب حلوق الإفرنج. فقول فريد أفندي وجدي: فأيّ فرق بين هذه اللغات وبين التركية، عجيب. فأمّا قوله إنَّ الحروف اللاتينية تمكّن التركي من تعلّم القراءة في أيام معدودة، وترفع الأمّية في سنوات قليلة من الأمّة فلو كان هذا القول صحيحًا لأخذ به اليابان الذين لم يكن يخفى عليهم هذا الفرق المزعوم، والحال إنَّه لا يكتبون بالحروف اللاتينية. وكذلك لو كان هذا القول صحيحًا لأخذ به الألمان وهم لا يكتبون بالحروف اللاتينية والأمّية مفقودة بينهم. وكلّ من هاتين الأمّتين أرقى من أنقرة بكثير كما لا يخفى.

إنَّ التغيير الذي أدخلته أنقرة في أوضاع تركية هدمت به أركانًا من أركان الدين الإسلامي ليس فيه أدنى ضرورة، ولا يقاس بالطلاق الذي أجازه الأوربيون تحت قاسر الضرورة. والقاعدة الفقهيّة القائلة بأنَّ الضرورات تقدّر بقدرها، وإن لم تكن هذه قاعدة عصرية لأنها من قواعد شريعة قديمة، فهي من القواعد الأبدية وليس في القواعد التي يقال إنَّها عصرية ما يبلغ من الصحّة حدّها ولا نصفيها. فإذا تقرَّرت هذه القاعدة علمنا تهوّر الكماليين في اتّخاذ أوضاع ليست بضرورية لتركية، وإن كان ثمّة شيء من اللزوم لها أو شيء يراد به التجربة فكان ينبغي أن يقدّر بقدره. فأمَّا قول وجدي أفندي بأنَّ الدول الأوربية جرت في توزيع المواريث على ما هدتها إليه مصالحها المالية، فجوابه أنَّ توزيع المواريث لم يرد فيه قانون

بالإنجيل حتّى نقول إنَّ الدول النصرانية ضربت فيه بالإنجيل عرض الحائط. فالإنجيل كتاب ديني مقصور على العظات وعلى تطهير النفوس وتزكية الاخلاق، فمهما شاء التابعون للإنجيل أن يسنوّا من القوانين، فلا يكونون مخالفين لإنجيلهم في أمور المعاملات المدنيّة، وهذا بخلاف القرآن الذي شرّع للدين والدنيا معًا، فلا يقاس أحدهما بالآخر. ثمَّ إنَّ القرآن الكريم ترك أبوابًا كثيرة لاجتهاد الأمّة في المعاملات، ولكنّه نصّ على مسائل نصوصًا لا مساغ فيها للاجتهاد، وكلّ من شاء مخالفتها يكون خالف الإسلام على خطّ مستقيم. فقول وجدي أفندي إنَّ الأمم الأوربية تجري على قواعد دستورية لا تمتّ إلى الأديان بصلة، لا نعلم له وجهًا إذ كما قلنا، لم يكن في الإنجيل شرع مدني حتّى يقال إنَّ الدول النصرانيّة قد خالفته في تلك الدساتير التي سنّتها. أمّا أنَّ روح الإنجيل غير مؤثّر في القوانين الأوربية فليس هذا الزعم بصحيح أصلاً، بل ممّا أجمع عليه علماء الحقوق في أوربا أنَّ القوانين الأوربية مستمدّة من القانون الروماني ومن أوضاع الكنيسة. ومن علم هذا علم مقدار السفسطة التي في كلام بعض أقطاب أنقرة عندما قالوا في المجلس: نحن لا نريد شريعة فيها قال وقالوا بل نريد أن نقول نحن. وقد كان أحد كتّاب الفرنسيس حاضرًا عندما قالوا هذا الكلام، فمع كونه معهم وممّن يصفّقون لجميع حركاتهم من جهة هدم الإسلام، قال هكذا: ألا إنَّ القانون السويسري الذي أخذت به تركية مبنيّ أيضًا على قال وقالوا... وهو مأخوذ من القانون الروماني ومن الاصطلاحات المسيحية وكلّها قديم في قديم.

ولو لم تكن الروح المسيحية مؤثّرة إلى الغاية في الأمم الأوربية لكان الألمان أجازوا بعد الحرب تعدّد الزوجات، بعد أن أناف عدد نسائهم على عدد رجالهم بثلاثة ملايين نسمة. ولكنّهم لم يقدروا على مصادمة الروح المسيحية السائدة في بلادهم، وكان حصل مثل هذا الفرق بين الرجال والنساء بعد حرب الثلاثين سنة في ألمانيا فسنّ مجلس فرانكونيا قانونًا يومئذٍ يجوز للألماني التزوّج بأثنتين. ولكن هذا القانون لم يلبث أن ألغي بسلطة الكنيسة. وكلّ من يزعم أنَّ القوانين الأوربية لا تمتّ إلى الدين المسيحي بصلة يكون واهمًا. وكلّ من يزعم أنَّ أوربا «قطعت صلاتها بمعاهدها الدينية» لا يكون قال قولاً مطابقًا للواقع. بل أوربا نفسها قولاً وفعلاً تردّ هذا القول عليه. فالمعاهد الدينية مالئة أوربا من أقصاها إلى أقصاها وأرقى الدول الأوربية تعلم عقائد المسيحية في جامعاتها ومدارسها.

وأغرب من هذا قول الأستاذ لي:

«تستدلّون على شدّة تمسّك الإنكليز بدينهم بأنّ ملكهم هو رئيس كنيستهم وأنّ مجلسَي اللوردات والعموم هما اللذان يبتّان في المسائل الدينية فجاء استدلالكم هذا مؤيّدًا لقولي من أنّ الأمم الأوربية قد تخلّصت من وصاية الدين ورجاله. وإلاّ فمتى كان رؤساء الكنيسة يرضون أن يتوقّف العمل ببعض الأمور الدينية على رجال ليسوا منهم، ولكن الإنكليز بثوراتهم المتعاقبة قد وصلوا تدريجيًّا إلى جعل الأمّة هي التي تبتّ في أمور عقائدها تفاديًا من أن يستبدّ رجال الدين بها دونهم».

وهنا أيضًا وقفت حيران، بل وقفت آسفًا واجمًا. وما كنت أظنّ أنّ حبّ تبرئة أنقرة يبلغ بمثل فريد أفندي وجدي هذا المبلغ. أنا أورد له شواهد استمساك الأوربيين بدينهم المسيحي ومن جملتها كون ملك إنكلترة هو رئيس كنيسة تلك المملكة ـ كما أنّ إمبراطور ألمانيا كان هو رئيس الكنيسة اللوتيرية ـ وهو يرى في هذا الشاهد لا تأييدًا لنظريّتي من جهة خطأ أنقرة في نبذها للدين الإسلامي وعدم اقتدائها بأوربا التي تزعم أنها تقتفي خطواتها، بل تأييدًا لنظريّته هو في كونها أصابت فيما فعلت، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

إنّ أول دليل على استمساك الأمم بأديانها هو إقامتها ملوكها مهيمنة عليها حافظة لها مثلما أقام الإنجليز ملكهم رئيسًا لكنيستهم، والألمان إمبراطورهم رئيسًا لكنيستهم، واليابان عاهلهم الميكادو رئيسًا لديانتهم، وهلمّ جرًّا. وقد كان المسلمون سالكين هذه الخطّة أيضًا وكان لهم خليفة يهيمن على الدين ويحفظه من أيدي العابثين، فجاء الأنقريون من الأتراك وألغوا الخلافة وقالوا للمسلمين: الخلافة كلام فارغ ولا يمكنكم أن تبلغوا الرقيّ العصري ما دام لكم سلطان يقول إنّه خليفة وإنّه يحافظ على الدين الإسلامي. فنحن ألغينا الخلافة حبًّا بالرقيّ واقتداء بالأوربيين!

فجئت أنا أقول: إنّ أمم الرقيّ عندها ملوك من أقدس واجباتهم المحافظة على أديان تلك الأمم الراقية التي يتولّون أمورها، وأوردت شواهد منها ملك إنكلترة الذي هو رئيس الكنيسة الإنكليكانية، وإمبراطور ألمانيا الذي كان رئيس الكنيسة اللوتيرية، وإمبراطور اليابان الذي هو رئيس كهنة الديانة الطاوية. وقلت إنّ صفة كلّ من هؤلاء من رئاسة ديانة قومه كافية في الدلالة على صلة الدين بالسياسة وعلى شدّة اعتصام تلك الأمم بأديانها وفي الدلالة على

بطلان قول القائلين: إنَّ الأمم الراقية لا تعرف الرئاسة الدينية لملوكها، وإنَّها لن تترقّى إلاَّ إذا جرّدت ملوكها وحكوماتها من كلّ صفة دينية، إلخ.

فهذه هي القضيّة التي أريد إثباتها وأراهن أهل الشرق والغرب وأنقرة من الجملة بأني قادر على إثباتها.

فجاء الأستاذ وجدي أفندي يقول إنّ هذا الاستدلال لا يأتي بهذه النتيجة، بل تدخّل ملك إنكلترة في الأمور الدينية يدلّ على أنَّ الأمّة الإنكليزية ثارت على رجال دينها، وأنها لا تريد أن تترك لهم الدين وحدهم.

فنجيب الأستاذ أنَّ ثورة الأمّة الإنكليزية على رجال الدين لا تفيد ثورتها على الدين بل الدين نفسه هو عندها من القدسيّة بالمكان الذي كان فيه قبل أن انفصل الإنكليز عن البابا الروماني، والحال انَّ أنقرة ثائرة على الدين نفسه لا على رجاله، وأنها لو كانت ثارت على خوجه سعيد وملا اسماعيل حقّي ما كان الناس أنكروا عليها ذلك. وإنَّما هي ثائرة على العقيدة نفسها، تريد أن تقتلعها من الأمّة التركية تدريجًا. وكلّ حركاتها وسكناتها ترمي إلى ذلك. فأنت ترى أنَّ الفرق بين الفريقين هائل، وأنَّ القياس الذي يقيسه الأستاذ وجدي أفندي ليس في محلّه.

ثمَّ نجيب الأستاذ أيضًا أنَّ الإنكليز خلعوا سلطة بابا رومة ونبذوا طائفة من عقائد كنيسته، ولكنّهم تبدّلوا أحبارًا بأحبار وأساقفة بأساقفة، وجعلوا لأحبارهم الجدد مقامًا ساميًا يعرفه كلّ من اطّلع على أحوال الأمّة الإنكليزية. فرئيس أساقفة كنتر بري يتقدّم على رئيس وزراء إنكلترة وعلى جميع أمرائها ولورداتها، ولا يتقدّم عليه في التشريفات سوى الملك والعائلة المالكة. وحسبك بهذا تعظيمًا للدين عندهم. وأمَّا قول وجدي أفندي: متى كان رجال الدين عندهم يقبلون تدخّل غيرهم في أمور الدين؟ فجوابه إنَّ رئاسة الملك للكنيسة هو برضى الأساقفة والأمّة والجميع، فلا يخرج منه الثورة على الكنيسة الإنكليكانية التي هي كنيسة إنكلترة العليا، بل يخرج منه ثورة الإنكليز على بابا رومة متبوعهم السابق، وبعد ذلك فقد استقلّوا بكنيستهم وحرّروا كتاب عقيدة يسمّى «كتاب الصلاة» ناطوا أمره بالحكومة كلّها والأمّة بأسرها مخالفة للبابا الذي يحصر كلّ أمور الكنيسة في نفسه. ولم يكن نوط الإنكليز كتاب الصلاة بالأمّة والحكومة إلاَّ زيادة في تعظيم الدين والاعتصام به وإظهار

العلاقة الشديدة بين الدين والسياسة. ولم يكن تمسّك الإنكليز بالدين لمسيحي يوم كانوا كاثوليكًا أشدّ من تمسّكهم به يوم صاروا بروتستانتًا.

فلو كان الإنكليز أو الألمان أو غيرهم ممّن انفصل عن رومة تركوا الدين جانبًا، وألقوا الحبل على الغارب، وقالوا من شاء فليؤمن ومن شاء فليجحد، وحكوماتنا لا شأن لها بالدين، لكان هناك وجه لكلام أنقرة وأنصارها. ولكن الأمر بالعكس. فالذين ثاروا على رومة استقلّوا بكنائس لأنفسهم جعلوا ملوكهم مهيمنين عليها وحكوماتهم خادمة لها في جملة المصالح العامّة. وأين هذا ممّا زعمته حكومة أنقرة وعملت به ومن تضليلها المسلمين وقولها لهم: إنَّ الحكومات الأوربية لا تحفل بالدين المسيحي ولا تتدخّل في شئونه ولا تجعل للدين حظًّا مع السياسة، فلذلك تجدونها ترقّت هذا الترقّي الباهر الذي أنتم تشاهدونه، والذي لا ينبغي أن تطمعوا في مثله ما دمتم متمسّكين بدينكم!

إنَّ أرقى دولة أوربية على الإطلاق بالنسبة إلى عدد أهلها هي دولة السويد، وهي أرقى من إنكلترة، وأرقى من هولاندة، وأرقى من ألمانيا، وغيرها. وهي مع ذلك قد سنّت سنة ١٨٦٩ قانونًا لا تزال تعمل به إلى الآن تحظر فيه على أيّ كان من رعاياها أن يتديّن بغير الدين المسيحي وتجازي بموجبه أيًّا كان من رعاياها يقوم بدعاية لغير المسيحية. وقد صادف أنَّ رجلاً سويديًّا أسلم في هذه الأيام فكتب إلى نظارة الأمور الدينية يتقاضاها الاعتراف بإسلامه وبالدين الإسلامي فذهب نداؤه صرخة في واد.

فليخبرني فريد أفندي وجدي هل السويد دولة راقية أم لا؟ وليجاوبني ماذا يسمّي شدّة هذا التعصّب إلى درجة منع الحرّية الدينية تمامًا، هل يسمّيه جمودًا وتحجّرًا أم لا؟ وإن كان ما يسمّيه تحجّرًا هو المانع من الرقيّ فلماذا لم يمنع السويد؟ أفكأنَّ التمسّك بالنصرانيّة ولو إلى عدم قبول دين غيرها في المملكة يُعدّ أمرًا معقولاً مشروعًا، والتمسّك بالإسلام وحده هو الذي ليس بمعقول ولا مشروع ولا بمؤتلف مع الرقيّ؟

أهذا هو التفصّي من وصاية الدين المسيحي في أوربا ممّا حدّثنا عنه الأستاذ في دفاعه عن أنقرة؟

منذ عشر سنوات قام أحد نوّاب السوسياليست في البرلمان الإفرنسي وطلب تعديل مادّة من دستور فرنسة مآلها: إنّه لا يجوز إعطاء مكافئات عقارية في جزائر الغرب إلاّ لمن

كان نصرانيًّا أو يهوديًّا أو مسلمًا متنصّرًا (كذا بالحرف)، فالنائب الاشتراكي صرّح في المجلس بقوله: هذا عار علينا نحن الفرنسيس أن نكون من التعصّب الديني إلى هذا الحدّ. فوعدته الحكومة بتعديل هذه المادّة ولا أعلم هل عدّلوها أم لا؟ وإنَّما الذي يهمّني أن أثبته هنا هو أنَّ القانون لم يسنّه لويس الرابع عشر ولا الثامن عشر ولا كارلوس العاشر ولا نابليون الثالث، وإنَّما هو قانون مسنون في عهد الجمهوريّة الديمقراطية المدنية اللايبقية سنة ١٨٨٢، فتأمّلوا يا أولي الألباب.

إلى متى يا فريد وجدي أفندي يا صاحب «الإسلام دين عامّ خالد» تسمح للمضلّلين أن يضلّلوا هؤلاء المسلمين المساكين ويقلبوا لهم الحقائق عن أحوال أوربة ويقولوا لهم: أوربة لا تهتمّ بالدين المسيحي فلماذا تهتمّون أنتم بالدين الإسلامي؟

إنَّه لا وجه للمقايسة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي في قضيّة تمسّك كلّ منهما في دينه. ونسبة المسلمين إلى النصارى في ذلك نسبة البعوضة إلى الفيل.

ينفق العالم المسيحي كلّ سنة على نشر الدين المسيحي مائة مليون جنيه، وقد ترجموا التوراة والإنجيل إلى ٥٠٠ لغة من لغات بني آدم وهم يوزّعون منهما كلّ سنة ملايين وملايين من النسخ مجّانًا. ودولهم تحوط المبشّرين وتعضدهم وتنفق عليهم وتتباهى بهم. وتركية الجديدة تصدّ عن كتب الدين الإسلامي وتمنع التعليم الإسلامي في المكاتب والكتاتيب وتقابل الإيجاب بالسلب. وما نقله الأستاذ وجدي عن مراسل المقطّم من أنَّ التعليم الديني الإسلامي باقٍ في مدارس تركية كما كان ليس بواقع. ونحن أدرى بالحقيقة. وإنَّما يقرأون في المدارس العالية علم الإلهيّات ويدرسون الإسلام وغيره من الأديان من قبيل العلم والتاريخ لا غير. فالإسلام كأنه ليس بدين البلاد ولا فرق بينه وبين غيره في نظر الكماليين. نعم، الأمّة التركية من حيث هي لا تبرح حتّى الآن مسلمة في مجموعها برغم أنقرة. وهذا شيء آخر. ولا نعلم إلى متى يثبت الإسلام في تركية؟

وأمَّا التعليم المسيحي في مدارس أوربة وفي جامعات الدول الراقية فليس «تعليم مبادئ الأخلاق الدينية لصغار الطلبة» كما ذكر الأستاذ وجدي بل هو تعليم العقيدة النصرانية بحذافيرها واللاهوت النظري والأدبي بتمامهما. ولنفرض جدلاً أنَّ أوربة مقتصرة من النصرانيّة علىالأخلاق، فلماذا يا ترى لا تفكّر أنقرة في ضرورة التعليم الإسلامي لأجل الأخلاق؟ أترى مبادئ الإسلام مضرّة بالأخلاق؟

وأمَّا أنَّ أوربة اكتفت من أديانها بالمظاهر دون اللباب فعلى فرض صحّته فهو أفضل من الخلع الباتّ وطرح القشر واللبّ معًا كما فعل الذين نحن في صددهم.

إنَّ أوربة كيف كان الأمر تقول إنَّها نصرانية، وتطلق على نفسها اسم العالم المسيحي، وتفتخر بنصرانيّتها، ونجد ملوكها يعلنون في خطبهم حمايتهم للدين المسيحي، وكذلك نجد كثيرًا من رؤساء جمهوريّاتهم يعلنون ذلك، ومنذ شهرين احتفلت سويسرة بعيدها الوطني، فكان من جملة من خطب الشعب فيه المسيو "موتا"، رئيس جمهوريّة سويسرة السابق وناظر خارجيّتها وأحد أقطابها فذكر في خطبته "الإله المتجسّد في شخص السيِّد المسيح" وغير ذلك من العبارات الدينية التي لم تمنعه صفته الرسمية من أن يخطب بها الملأ. فهل يقدر الآن أحد رجال الحكومة التركية أن يذكر الإسلام في كثير أو قليل في خطبه على الجمهور؟ وإذا كان لا يقدر أن يذكره فكيف يمكن أن يعمل به؟

وأمَّا ما ذكره الأستاذ فريد وجدي من الاستدلال على نبذ وصاية أوربة للنصرانيّة من ثورة إسبانيا الأخيرة والقانون الذي سنّته جمهوريّة إسبانيا لمنع التعليم المسيحي في مدارس الحكومة، إلخ.

فليسمح لي حضرة الأخ بأن أقول له إنَّنا نخطئ إن جعلنا أوربة ممثّلة في إسبانية، وتركنا إنكلترة وألمانية وهولاندة وإيطالية وبلجيكا والسويد ونورويج وبولونيا والنمسا والمجر، إلخ بل فرنسة التي فيها مدارس أهلية لا تعدّ ولا تحصى وكلّها ملأى بالتعليم المسيحي.

وليسمح لي أيضًا أن أقول له إنَّ رجال الجمهوريّة الإسبانية يعلمون أنَّ جميع الحزب الكاثوليكي في إسبانية مشربة الحكم الملكي، وأنَّ هذا الحزب لا يزال قويًّا جدًّا في إسبانية، ومتحفّزًا للقيام، وإنَّه إذا نهض وأصابت رميته أصاب رجال الجمهوريّة الحاضرين ما لا يحصى من الأضرار والأخطار. فتراهم يسعون في خضد شوكة الدين ورجاله مجاحشة عن خيوط رقابهم لا كرهًا بالدين نفسه. ولو علموا أنهم يجدون رجال الكنيسة أمناء لهم وللجمهوريّة لاتّفقوا معهم، ولكن أنى ينسى الملك قتل ابنه وتنسى الحيّة قطع ذنبها؟

وبعد هذا وذاك فالروح الكاثوليكية في إسبانية لا تزال غالبة، وقد ثار كثيرون من الاشتراكيين والشيوعيين ومن الفلاّحين الأندلسيين الذين أصلهم من العرب وقد تذكّروا أنَّ آباءهم كانوا مسلمين فأحرقوا كنائس وأديارًا وأرادوا التمادي في إرهاق الكثلكة، فوقفت

الحكومة في وجههم وأنزلت بهم عقوبات صارمة. وفكّر أناس من الإسبانيول الذين يكرهون الكثلكة في تجديد الثقافة العربية ومدّ اليد لمصافحة المسلمين، وألّفوا جمعيّة اسمها «الجمعيّة الإسبانية الإسلامية» ورغبوا إلى محرّر هذه السطور بأن يكون لها رئيسًا ثانيًا وأدخلنا فيها ٢٠ أو ٣٠ شخصًا من رجالات العرب من المغرب ومن المشرق وسعينا سعيًا أكيدًا في أنفاذ برنامج يزيد علاقة إسبانيا بالإسلام ويجدّد التعليم العربي في تلك البلاد وبعد أن رغبت الجمهوريّة في هذا الأمر نكصت عنه خوفًا من الكثلكة ومن محذور آخر سياسي... وجاء وفد من تطوان إلى مجريط بأيديهم طلب موقّع عليه من ١٥٠٠ شخص من زعماء الريف وعلماء المسلمين ومفكّريهم يلتمسون معاملة المسلمين على قدم المساواة مع الإسبانيول وفتح مدارس تعلّم فيها العقيدة الإسلامية واللغة العربية، وانتخاب مجلس نيابي مع قبول حماية إسبانيا. وكانت مطالب هذا الوفد بغاية الاعتدال. ولم تجب الحكومة الجمهوريّة المسلمين إلى شيء من مطالبهم إلاَّ طلبًا واحدًا هو انتخاب أعضاء البلديّات بدلاً من أنَّ الحكومة تعيّنهم كالمأمورين. ولكن الحكومة لم ترضَ بالانتخاب إلاَّ على شرط أن لا يطالب المسلمون بأعضاء على نسبة عددهم. ففي تطوان ٤٠ ألف مسلم وبضعة عشر ألف أوربي، وبرغم هذا فأعضاء الأوربيين في البلديّة أكثر من أعضاء المسلمين. وكان من جملة مطالب الوفد الإسلامي رفع الكنيسة التي في جامع قرطبة الشهير وإعادته جامعًا مع بقائه للإسبانيول. وأسعفهم في ذلك زملاؤنا من أعضاء الجمعيّة الإسبانية الإسلامية وبينهم نوّاب في المجلس، ورضى أناس بأن لا يعود جامعًا تقام فيه الصلاة، بل ترفع منه الكنيسة على الأقلّ، ويرجع إلى هيئته الأصليّة ويصير مكانًا أثريًّا للأمّة. فكلّ هذا لم تقدر الحكومة على أدنى وعد بشأنه خوفًا من الشعور الكاثوليكي الغالب، وقال أحد الوزراء: مسألة هذا الجامع هي أصعب وأشدّ إشكالاً من قضيّة فصل كتالونيا... والوير الذي قال هذا القول هو اشتراكي فكيف يقول من ليس باشتراكي؟

والآن قد أصبح زميلي الرئيس الأول لجمعيّتنا هذه من جملة الوزراء. وليس عندي أمل كبير في أنه يقدر أن يقنع الحكومة بإجابة المسلمين إلى مطالبهم لأني عارف بما هناك من سيادة الشعور الديني الذي يأبى التنفيس من خناق المسلمين.

وبالاختصار فأوربة كلّها مسيحية متشدّدة وشعورها بحقّ المسلمين واحد لم يتغيّر. والنادر لا يعتدّ به. وتحت حكم الدول الأوربية نحو من ٢٠٠ مليون مسلم يُسامون العذاب

كلّ يوم أشكالاً وألوانًا، ويُرمون بالقنابر من الطيّارات، وتقتل أطفالهم ونساؤهم، وتؤخذ أراضيهم وتغصب حقوقهم، وهذا بصورة دائمة مستمرّة، وقلّ أن تجد أوربيًا معترضًا منتصرًا للمسلمين المهضومين وإن وجد فلا يسمعون له.

ويثور ألف وخمسمائة أشوري غرباء عن العراق بحجّة أنَّ حكومة العراق تأبى أن تؤسّس للأشوريين وطنًا قوميًا يكون فيه مار شمعون أميرًا ويهاجم هؤلاء العسكر العراقي بغتة ويوقعون بفصيلة منه ويبيدونها. فإذا جاء الجيش العراقي يؤدّب هؤلاء الطغاة العصاة قامت أوربة وقعدت وأخذت تصيح: المسلمون يذبحون المسيحيين. وامتلأت جرائدها بالصريخ، ورأت الأشوريين على حقّ في طلب إمارة لأنفسهم ضمن مملكة العراق. لماذا كلّ هذا؟ والجواب، لأنَّ الأشوريين مسيحيون. لا لسبب آخر.

بعد هذا الذي نراه ونسمعه كلّ يوم من أوربة لا يهمّنا إن كانت أوربة ماسكة بالقشر أو باللبّ من الدين المسيحي؟ بل نقول ويا ليتها ماسكة باللبّ وعاملة بتعاليم المسيح فكانت تكفّ عن ظلم المسلمين وإرهاقهم وسفك دمائهم وتتجنّب الاعتداء على الناس.

جنيف، ١٣ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ/١٩٣٣/٩/٣م　　　　شكيب أرسلان

❖ ❖ ❖

معرض الأفكار
أقطاب العالم الإسلامي، ومفكّرو الأمّة العربية
يدلون بآرائهم في الأدب، والسياسة، والاجتماع*

أصدر حضرة العالم الغيور الأستاذ السيِّد محمَّد بن داود من رجال النهضة في المغرب الأقصى مجلّة شهرية نفيسة قويمة المبدأ تطبع في ميدان تطوان باسم (السلام). وفي العدد الأول منها «معرض الأفكار» هذا الذي ننقله عن رصيفتنا (السلام) قال محرّرها الفاضل:

منذ بضع سنوات فكّرت في تأليف مجموعة لإمضاءات العظماء وكلمات المفكّرين. وطبعت لذلك أوراقًا خاصّة وزّعت قدرًا منها بنفسي، إمَّا مباشرة وإمَّا بواسطة البريد، ودفعت قدرًا آخر لعدد من أصدقائي لتوزيعها على من يتّصلون بهم في مختلف الأنحاء من مشاهير أمّتنا العربية الماجدة، ليكتب كلّ واحد أيّ فكرة تظهر له.

وقد تنازل لتحقيق رغبتنا عدد وافر من الشخصيّات البارزة في العالم الإسلامي، ما بين زعماء وعلماء وأدباء.

وها أنا الآن قد وجدت الفرصة سانحة للشروع في نشر ما يمكن نشره من تلك الكلمات التي أحتفظ بأصولها، والمقصود من نشرها أمور: منها معرفة الشئون التي تشغل بال مفكّري الأمّة. وتنبيه العموم إلى أهمّيتها، والعمل لتحقيقها. ومنها الاستفادة من الأفكار الثاقبة، والآراء السديدة التي يحتوي عليها كثير من تلك الكلمات. ومنها شحذ قرائح الشبّان ودفعهم إلى التفكير الصحيح والإنتاج الفكري النافع، حتّى يكثر بين أفراد الأمّة من يبحث في شئونها العامّة ويخدم مصالحها المختلفة.

وإنّني أنتهز هذه الفرصة لأتقدّم بالشكر الجزيل والثناء العاطر، إلى أولئك الأماجد الذين تفضّلوا بكتابة كلماتهم. وأرجو من الله تعالى أن يديمهم حرّاسًا للعروبة والإسلام، وسدنة للفضيلة ومكارم الأخلاق، وأن يحقّق ما يؤملونه لأمّتنا العزيزة من رقيّ وفلاح، وتقدّم ونجاح.

المحرّر

---

* الفتح، العدد: ٣٦٨، (٢٩/١٠/١٩٣٣م)، ص. ٣.

الأمير شكيب أرسلان:

رجل العلم والعمل، رجل الوطنيّة الصادقة، والتضحية الفائقة، رجل الحزم والعزم، والجدّ والثبات، لا زال العالم الإسلامي يستمدّ من أفكاره نورًا يهتدى به في نهضته. أبقاه الله للعروبة والإسلام. هذه كلمته لنا حفظه الله:

«الدفاع عن النفس مركوز في فطرة كلّ حيّ بل في فطرة كلّ كائن حتّى الجماد. وإنّ الاستعفاء من الدفاع عن النفس لا يقع إلاّ بحلول الموت. فمن شاء أن يحيا فلا بدّ له من الجهاد الدائم، فإن تعذّر الجهاد بالسيف فليكن بالقلم، فإن تعذّر بالقلم فليكن باللسان، فإن تعذّر باللسان فليكن بالجنان، على شرط إخراج الأفكار إلى حيّز الفعل بأول فرصة.

وما دامت الحياة هي ميدان تنازع على البقاء، فلا بقاء إلاّ بجهاد، ونجاحه مشروط بأن يكون مبنيًّا على أساس الحقّ حتّى تجتمع فيه القوّتان العادية والأدبية».

شكيب أرسلان



الناس من خوف الفقر في الفقر

درس وعِبرة*

حسنٌ وموجبٌ للثناء كلّ ما أتى به الأستاذ صالح التونسي، المدرّس بالحرم النبوي، في مقام مرجع هذه الجملة التي التبست عليَّ سهوًا بحديث نبويّ شريف وهي "الناس من خوف الفقر في الفقر".

وموجبٌ أيضًا لمزيد الشكر منّي تنبيه الأستاذ الشيخ مصطفى أبي سيف الحمامي خطيب المسجد الزينبي إيّاي من طرف خفيّ إلى أنها ليست بحديث.

ولقد كان منشأ وقوعي في هذا السهو أني قرأت في "برد الأكباد في الأعداد" وفي "الإيجاز والإعجاز" منذ أكثر من أربعين سنة جملة ما عدت أدري أهي في الرسالة الأولى منهما أم في الثانية غاب عنّي ذلك لطول العهد وتراكم الشواغل في الذهن وهي "الناس من خوف الذلّ في الذلّ" منسوبة لأمير المؤمنين، كرّم الله وجهه، ثمَّ جملة أخرى "الفقر خوف الفقر" فوقع في خلدي أنها "الناس من خوف الفقر في الفقر" وأنها حديث نبويّ على حين هي صورة انتزعت من الجملتين من جوامع كلم سيّدنا علي.

ففي هذا عبرة بالغة لمن يظنّ الأخذ بكلّ ما يروي من الأحاديث. فكم سها من قبلي ساهٍ وظنَّ حديثًا ما ليس بحديث. ولهذا روى ثقات أنَّ عمر، رضي الله عنه، كان نهى في البداية عن كتابة الحديث خوف الزيادة والنقصان. ولهذا كره سعد بن أبي وقّاص التحديث وكذلك الزبير، وكانا من أكابر الصحابة ومن العشرة رضي الله عنهم. ولهذا لم يحدّث أبو بكر إلاَّ بأحاديث قلائل مع أنه أكبر الأصحاب وألزمهم لرسول الله ﷺ. ولهذا كان عبد الله بن مسعود لا يحدّث إلاَّ نادرًا وإذا حدّث عرق واحتاط لما يرويه بقوله أو "كما قال" أو "فوق ذلك" أو "دون ذلك"، إلخ.

ولهذا نخل الإمام البخاري بضعة آلاف حديث من ستّمائة ألف حديث حسبما رووا.

---

* الفتح، العدد: ٣٧٠، العام الثامن (١٣/١١/١٩٣٣م)، ص. ٨.

وروى الخطيب في "تاريخ بغداد" في ترجمة البخاري أنه قال "طرحت ١٠ آلاف حديث بسبب رجل لي فيه نظر".

فليتّق الله إذًا الذين يكثرون من التحديث. فكم من حديث كتب وتدوول ولم يثبت أنّ رسول الله ﷺ قاله. والحديث إذا ثبت فمنه شرع ومنه أحكام. ومن لم يعمل به يكفر. فلا يجوز الناس أن يتهافتوا على التحديث إلاَّ بما استجمع جميع شروط الوثاقة. أمّا القرآن فشأنه غير هذا، فكلّ آية منه قد أُخذت من محفوظ مئات من الصحابة، وأصبح لا يتطرّق إليه النسيان. ولذلك انتفى كلّ شكّ فيه. والله تعالى يقول: ﴿إنَّا نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون﴾[1].

جنيف، ٢ رجب ١٣٥٢هـ/٢١/١٠/١٩٣٣م

شكيب أرسلان

---

(1) سورة الحُجر، الآية ٩.

خطر المهاجرة الأجنبية
على سورية وفلسطين *

اقتراح عطوفة الأمير شكيب أرسلان

نشرت «الجامعة العربية» لكاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان مقالاً عن مساعي الفرنسويين والإنكليز لإضعاف القومية العربية في سورية وفلسطين بتسهيل هجرة الأرمن واليهود إليهما، وختم مقاله النفيس موجّهًا الاقتراح إلى المؤتمر الفلسطيني، وإلى جمعيّات الشبّان المسلمين في جميع الشرق، وإلى اللجنة التنفيذية العربية والجمعيّة الإسلامية المسيحية في فلسطين، وإلى جميع الأندية والهيئات الوطنية في فلسطين وسورية، وإلى الجمعيّات والهيئات الوطنية بأجمعها، في دمشق وحلب وبيروت وسائر سورية، بأن يتّخذوا من الآن قرارات جازمة قاطعة بأنَّ جميع الغرباء الذين أسكنتهم إنكلترة، منذ انتهت الحرب العامّة إلى يومنا هذا، والغرباء الذين أسكنتهم فرنسة في سوريا ولبنان، لا يكونون معدودين في نظر أهالي البلاد من جملة السكان، بل يجب أن ينظر إليهم أهالي البلاد الأصليون كأقوام أتت بهم السلطة المحتلّة وأنزلتهم في البلاد كرهًا وقسرًا وبالرغم من أنوف العرب. فأهالي البلاد الأصليون هم الذين كانوا فيها معدودين في دفاترها الرسمية حتّى انتهاء الحرب العامّة. فكلّ من جاء وأدخل على فلسطين وسورية وقيّد اسمه فيها بأمر السلطات المحتلّة الإفرنسية والإنكليزية منذ انتهاء الحرب إلى هذه الساعة فهو غريب موجود في بلادنا بالقوّة وبحكم الأسنّة، غريب قد توطّن على يد غرباء ونحن العرب ننتظر حوادث الدهر وفي أول فرصة تلوح لنا ينبغي أن نشير إلى هؤلاء الغرباء بالخروج فإن لم يخرجوا برضاهم أخرجناهم زجرًا.

أمّا اليهود الذين كانوا في فلسطين حتّى الحرب العامّة، وأمَّا الأرمن الذين كانوا في سورية حتّى الحرب العامّة، فإنَّنا نعدّهم من جملة أهل البلاد الأصليين.

* الفتح، العدد: ٣٧٧، العام الثامن (١٩٣٤/١/١م)، ص. ٤.

هذا قرار ينبغي أن نتّخذه ونقيّده ونسجّله من الآن ونقسم الإيمان فيما بيننا على تنفيذه بأول فرصة. فأمّا متى تأتي هذه الفرصة؟ فهذا شيء عائد إلى حوادث الزمن التي لن تبقى كما هي الآن، والعاقل هو الذي يستفيد من الحدثان ولا يدع حوادث الدهر تمرّ بدون أن يجد من خلالها فرجة يلتمس عندها الفرج.

لقد أضاع العرب فرصًا لا تحصى بحسن ظنّهم وبتواكلهم وبتخاذلهم وبانحطاط الأخلاق الذي هو مع الأسف منتشر فيما بينهم، فلا يجوز لهم بعد الآن أن يضيّعوا الفرص، لا سيَّما وفلسطين في فم الحوت... والأعداء محيطون من كلّ جهة بالأمّة العربية يريدون منع نهضتها.

شكيب أرسلان



أصبح التجدّد عبارة عن السعي في قتل الروح الإسلامي*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

اطّلعت في «الفتح» تحت عنوان «تحريض حكومة مسيحية علىالروح الإسلامي» على مقال مآله أنَّ يونس نادي، أحد نوّاب الترك من أعضاء حزب الشعب ورئيس تحرير جريدة «جمهوريت» التي تطبع في الآستانة، نشر مقالة افتتاحية في جريدته يوم ١٣ ديسمبر الماضي ملأها عتبًا على حكومة بلغارية التي تدّعي - كما قال عنها - بأنها صديقة لتركية وهي مع ذلك تغمض العين عمّا ينشره المسلمون في بلادها من صحف ومجلاّت وكتب تخالف أسلوب التجدّد التركي، إلخ.

ومعنى ذلك أنَّ رجال الجمهوريّة التركية يريدون من حكومة بلغارية المسيحية أن تتدخّل في شئون المسلمين الدينية فتمنعهم عن نشر المباحث الإسلامية في صحفهم ومجلاّتهم. وإن كانت هذه الحكومة المسيحية لم تستبدّ بالمسلمين، ولم تمنعهم من نشر هذه المباحث والكتابة في المواضيع التي يؤيّدون بها دينهم الإسلامي، فيكون عدم استبدادها هذا مخالفًا لشروط الصداقة بين بلغارية وتركية... فتأمّلوا يا أولي الألباب.

وقد استنكر هذا التحريض عارف أوروج بك صاحب جريدة «يارين» التي كانت تصدر في الآستانة والتي نظرًا لفقد حرّية المطبوعات في تركية انتقل صاحبها إلى بلغارية ونشر جريدته فيها. وقد كتب في جريدته في شهر يناير الماضي ردًّا على يونس نادي قال فيه: إنَّ بلغارية بلغت من الحرّية أن ليس عندها قانون مطبوعات خاصّ، وإنَّ قانونها الأساسي لم يعطِها حتّى الاستبداد بالصحف الإسلامية التي تريد أن تنشر ما يوافق الروح الإسلامي. فبلغارية معذورة في أن لا تُعِين صديقتها تركية على الاستبداد بهذه الأقلّية الإسلامية المسكينة.

قلت مضى زمن وأنا أحدّث النفس بأن أوافي «الفتح» أو «الجهاد» أو «الجامعة الإسلامية»، أو غيرها من الجرائد التي تعنى بشأن المسلمين بهذا الموضوع العجيب الغريب الذي وقفت منه على معلومات صحيحة لا تقبل المكابرة، وهو موضوع اجتهاد الفئة الكمالية المستبدّة

---

* الفتح، العدد: ٣٨٧، العام الثامن، القاهرة (٢٩ ذي القعدة ١٣٥٢هـ/١٩٣٤/٣/١٥م)، ص ص.١٠ - ٥، و١٦ - ١٧.

اليوم بشؤون تركية الجديدة في قتل الروح الإسلامية في الممالك البلقانية التي لا يزال فيها أقليّات إسلامية مثل بلغارية ويوغوسلافية واليونان، وكون الخارجية التركية في أنقرة تخاطب دائمًا الحكومات المسيحية البلقانية راغبة إليها في الضغط على المسلمين في أمورهم الدينية وفي أوقافهم وفي كلّ ما يعود إلى شعائرهم. وذلك حتّى تكون أحوالهم مساوقة لأحوال الأتراك الذين في تركية، والذين تحرمهم تركية في مكاتبها الرسمية التعليم الديني الإسلامي وتضع اليد على أوقافهم وتستبدّ بها.

إنَّ هذه المسألة هي بالحقيقة من أغرب ما يتصوّر العقل. فتركية الجديدة لا تكتفي بالسعي في قتل العاطفة الإسلامية في وسط بلادها بأسم التجدّد الذي تموّه به على المقصد الأصلي الذي هو الإلحاد، بل تبذل كلمتها لدى الحكومات المسيحية البلقانية حتّى يقتلوا هم في ممالكهم الروح الإسلامية الباقية عند تلك الأقلّيات المسكينة من المسلمين المستضعفين.

وأخطر شيء في هذا الباب بل أخبث شيء وألأم شيء فيه هو أنَّ الكماليين وإن كانوا يحاربون الإسلام في وسط تركية فالإسلام هناك يقدر على المقاومة ويحتفظ بروحه نظرًا لكونه في مملكة قديمة عريقة في الإسلام مؤلّفة من ١٤ مليونًا من المسلمين ليس فيها سواهم تقريبًا، فمهما تناولت معاول الهدم الكمالي بناء الإسلام في تركية فإنَّه يبقى متينًا ثابتًا لا يعمل في الهدم عملاً يذكر، بل لقد رأينا الهدم الكمالي أتى بعكس ما كان يؤمّله الكماليون، ورأينا الروح الإسلامية تقوَّت عن ذي قبل بإزاء الاضطهاد الديني الذي وقع عليها، وإنَّ كثيرًا من المسلمين الذين لم يكونوا يبالون بالشعائر الدينية أصبحوا يقيمونها عمدًا وعلنًا بعد أن رأوا العمل الجاري عمدًا لهدم الإسلام في تركية، بينما هم يرون أوربة الراقية المتمدّنة أشدّ ما كانت تمسّكًا بمسيحيّتها. فالشعب التركي أظهر للكماليين أنه متمسّك بالإسلام بل أقنعهم بأنَّ لا سبيل لنفوذ السياسة التي يتوخّونها فيه، فرجعت الحكومة الأنقرية عن كثير ممّا كانت قرّرته من مظاهر نبذ الدين. مثال ذلك أنَّ هذه الحكومة كانت منذ بضع سنين قرّرت عدم اعتبار العيدين الأضحى والفطر من الأعياد الرسمية وعدم تعطيل الأشغال فيهما، وكان رئيس الجمهوريّة لا يقبل التبريك في هذين العيدين؛ ولكن في هاتين السنتين الأخيرتين اضطُرّت حكومة أنقرة إلى التعطيل في هذين العيدين وإلى جعلهما من الأعياد الرسمية، واضطُرّ حضرة الغازي إلى قبول التبريك فيهما، وإن صحّت الرواية التي سمعناها يكون بعيد الفطر

الأخير ذهب إلى المسجد الجامع ودخل بين المصلّين، وهي المرّة الأولى التي دخل فيها الجامع بعد استقلال تركية وعقد معاهدة لوزان. وعلى كلّ حال فهذه الإنابة منه موجبة للسرور.

أمَّا أثناء حرب تركية مع اليونان وأثناء ضعف آمال الترك في الخلاص بسبب ضغط إنكلترة على تركية فقد كان الغازي يروح ويغدو إلى المساجد مرارًا، وما شئت من قراءة موالد عن أرواح الشهداء، وما شئت من مراسيم دينية، وما شئت من خطب يذكر فيها العالم الإسلامي. وكلّ أحد يعلم أنهم لمّا افتتحوا مجلس أنقرة أول مرّة افتتحوه بحفلة تبرُّك بالشعرات النبوية الشريفة مع قراءة البخاري الشريف، وطيروا بالبرق إلى جميع مدن الأناضول بوجوب قراءة البخاري الشريف في تلك الساعة.

أمَّا بعد معاهدة لوزان وتقرّر الاستقلال فصار هذا كلّه نسيًا منسيًّا، بل حصل الانقلاب الشديد على الإسلام، كأنَّ الإسلام جانٍ أثيم يريدون الاقتصاص منه، أو عدوٌّ لم يكونوا يقدرون عليه في الماضي، فلمّا لاحت لهم الفرصة انهالوا عليه يريدون الانتقام وشفاء الصدور منه. والحاصل أنه ظهر مصداق قوله تعالى: ﴿ وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا. فلمّا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرّ مسه، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾. وقوله تعالى: ﴿ دَعُوا الله مخلصين له الدين، لئن أنجيتنا من هذه لنوكننّ من الشاكرين. فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وإذا مسّ الناس ضرٌّ دعوا ربّهم منيبين إليه، ثمَّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون﴾. وقوله تعالى: ﴿ فإذا مسّ الإنسان ضرٌّ دعانا، ثمَّ إذا خوّلناه نعمةً منّا قال إنَّما أوتيته على علم، بل هي فتنة، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

قلنا إنَّ الإسلام في تركية قد ثبت في وجه الإضهاد الذي أطلقوا عليه اسم التجدّد، بسبب كثافة عدد المسلمين وعدم وجود خصم لهم في ديارهم، ولكن الفرق بين تركية وبين الممالك البلقانية بعيدًا جدًّا، فهنالك المسلمون أقلّيات ضئيلة ضعيفة، فاليونان خمسة ملايين ليس فيها إلاَّ مئة ألف نسمة من المسلمين، وبلغارية خمسة ملايين فيها ثمانمائة ألف من المسلمين، ويوغوسلافية اثنا عشر مليونًا وأكثر، فيها مليون وثمانمائة ألف من المسلمين، ورومانية ١٤ مليونًا ليس فيها إلاَّ مئة وعشرون ألفًا من المسلمين، فالإسلام في جميع هذه الممالك ضعيف ضئيل ذليل يكاد يغرق تمامًا في وسط تلك اللجج المسيحية الزاخرة، والمسلمون لا يكادون يمسكون هناك أرماقهم من ضعفهم وعجزهم واهتضام العناصر

الغالبة لهم، وهذا أمر طبيعي في كلّ الدنيا أنَّ الأقلّية ذليلة مع الأكثريّة. فإذا كان الإسلام ثبت في تركية على الاضطهاد بسبب كون المملكة كلّها مؤلّفة من المسلمين، فلا يمكن الإسلام أن يثبت على الاضطّهاد والاهتضام في بلاد أبناؤه فيها من القلّة والذلّة بالمكان الذي لا يقدر أحد أن ينكره.

نعم، من أغرب الغرائب أن تكون تركية التي كان يجب أن تكون ملجأ لهذه الأقلّيات الإسلامية المستضعفة في بلاد البلقان، تأتي هي بنفسها وتجهز عليهم وتسعى لمحوهم، وذلك بإغرائها تلك الحكومات المسيحية التي تلي أمورهم بالقضاء على حرّيتهم الدينية وبالتعرّض لشعائرهم وأوقافهم، وبمنعهم من نشر المباحث التي تحيي الدين الإسلامي في صدورهم. من أغرب الغرائب أن تدعو تركية تلك الحكومات المسيحية باسم الصداقة التي تزعم وجودها بين الفريقين إلى أن تخنق الروح الإسلامي في تلك الممالك، وهو روح لم تبقَ منه إلاَّ حُشاشة يخشى عليها أن تذهب لأقلّ صدمة، تفعل هذا تركية الكمالية بدون تعقّل وبدون أدنى مبالاة بعواقب الأمور، ومع علمها بأنَّ تلك الحكومات المسيحية البلقانية هي محافظة على أديانها، ناشرة لتعاليم كنائسها، متمسّكة كلّ منها أشدّ التمسّك بنظريّتها، فالبلغار يدعون إلى العرق البلغاري من جهة القوميّة وإلى الدين الأرثوذكسي من جهة العقيدة، واليونان يدعون إلى الأرثوذكسية ويؤيّدونها ويعضّون بالنواجذ عليها، والسرب مبدأهم تعزيز عنصرهم السلافي وكنيستهم الأرثوذكسية، والخرواط يقابلونهم بتعزيز العنصر السلافي لكن مع العقيدة الكاثوليكية. وكلّ هذا معروف محسوس لا يحتاج إلى بيان. فليست دولة واحدة من هذه الدول راغبة عن دينها أو عن ثقافتها حتّى نقول للمسلمين إنَّ هذه الأكثريّات المسيحية التي أنتم ساكنون بينها، هي لا تعرف لنفسها دينًا فلا بأس بأن تندمجوا فيها. بل يكون سعي تركية في القضاء على العقيدة الإسلامية في بلاد البلغار ويوغوسلافية واليونان لا سعيًا في التجدّد الذي تزعمه أنقرة بل سعيًا في تحويل هذه الأقلّيات الإسلامية إلى النصرانية وإلى العناصر التي تنتمي إليها أكثريّات بلاد البلقان.

وإن قيل لا بل المراد من سياسة أنقرة ليس محو الإسلام من بلاد البلقان بل المراد حملهم على التجدّد، فجوابنا حاضر، لا يقدر أن يكابر فيه لا يونس نادي ولا غيره، وهو أنَّ بلغارية ويوغوسلافية واليونان هي أيضًا حكومات بانية جميع إداراتها الداخلية على أساس التجدّد العصري وعلى القواعد العلمية، وهي في هذا قد تكون أعلى كعبًا من أنقرة،

وبرغم هذا فلا تزال هذه الحكومات محافظات على عقيدتها المسيحية وعلى تعاليم كنيستها، وهي لا تكتفي بمجرّد المحافظة على ذلك، بل هي تتكلّف النفقات الطائلة سنويًا في سبيل توطيد العقيدة المسيحية والثقافة الوطنية مقرونة بها. فلماذا، يا ليت شعري، لا يمنع التجدّد العصري أمم البلقان من أن يكونوا نصارى بالمعنى التامّ ومن أن يعتصموا أشدّ الاعتصام بكنائسهم، وفي الوقت نفسه لا يكون للمسلمين الساكنين بين هذه الأمم حظّ في التجدّد العصري إلاّ إذا نبذوا الإسلام ظهريًا وتملّصوا منه بالكلّية؟ ولا نعلم أيّة فائدة لتركية في أن يتحوّل مسلمو بلغارية إلى الكنيسة البلغارية، ومسلمو يوغوسلافية إلى الكنيسة السربية أو الخرواطيّة، ومسلمو طراقية إلى الكنيسة اليونانية؟

ولعلّهم يجيبون بأنَّ دعوة أنقرة لهؤلاء المسلمين إلى التجدّد العصري ليس معناه التحوّل إلى الدين المسيحي، ولكن معناه نبذ الدين مطلقًا أيًا كان بحجّة أنه هو العائق عن الترقّي.

والجواب، لنسلّم جدلاً أنَّ أنقرة لا تدعوهم إلاّ إلى مجرّد الإلحاد، فإنَّه لا يمكن شعبًا في الدنيا أن يعيش بدون عقيدة دينية فإذا انسلخ مسلمو البلقان من الإسلام، كما تريده أنقرة، اندمجوا في النصرانيّة لا محالة، لا سيّما أنَّ الحكومات التي يعيشون تحت حكمها هي حكومات مسيحية قلبًا وقالبًا، ولو كان عند يونس نادي ورفاقه أقلّ بصيرة لتذكّروا أنَّ البلغار بعد حرب البلقان أكرهوا على التنصّر مئة وخمسين ألفًا من طائفة البوماق المسلمين، وأنَّ هؤلاء بقوا نصارى في الظاهر إلى الحرب العامّة، كما يعلم كلّ أحد، ثمَّ استقرّت الأمور، وعادت حكومة بلغارية فخجلت من هذا العمل، وقام فريق من نبهاء البلغار أنفسهم فأنكروا على حكومتهم فقد الحرّية الدينية في بلادها وإكراه المسلمين على التنصّر قسرًا، فعادت الحكومة وأعلنت الحرّية الدينية، وأخذ هؤلاء يتراجعون إلى الإسلام، ولكن إن صحّت الرواية التي سمعتها يكون عشرون ألفًا من الذين ارتدّوا عن الإسلام باقين على ردّتهم.

ولقد كان اسماعيل أغا جمالوڤيتش من فضلاء البوشناق أتحف مجلّتنا «لاناسيون آراب» بمقالة نفيسة حرّرها بعد بحث عميق عن أحوال مسلمي بلغارية، فأظهر الاهتضام الواقع عليهم في حقوقهم وقلّة عدد نوّابهم بالنسبة إلى استحقاقهم، لأنهم يبلغون سدس الأمّة البلغارية وجميع نوّابهم في المجلس ثلاثة أو أربعة أو خمسة من مئتي نائب، ثمَّ أشار إلى الاعتداء الواقع على أوقافهم ومقابرهم وألمّ بقضيّة تنصير البوماق كرهًا وأنهم إن كانوا

رجعوا إلى الإسلام فيكون بسبب احتجاج كثير من أحرار البلغار على الحكومة، وأنه لا يزال كثيرون من المتنصّرين كرهًا باقين على ردّتهم، إلى غير ذلك. فنحن نشرنا هذه المقالة في مجلّتنا «لاناسيون آراب». فغاظ ذلك الحكومة البلغارية فردّت إلينا المجلّة التي كانت ترسل إلى خارجيّتها كما ترسل إلى خارجيّات الدول جمعاء. ثمّ جاءنا بعد ذلك مأمور من قبل قنصليّة بلغارية في جنيف يعاتبنا على نشر هذه المقالة ويبرّئ وطنه من تهمة ظلم المسلمين وإرهاقهم. فنحن أخذنا نبيّن له ما في مقالة اسماعيل أغا جمالوفيتش من القضايا التي يصعب المراء فيها نظرًا لقيام الأدلّة المحسوسة على صحّتها. وبعد الأخذ والردّ قال: إنَّ المسلمين في بلغارية هم متمتّعون بحرّيتهم الدينية التامّة، وإنَّ حكومة بلغارية لو أرادت أن تسمع لحكومة تركية في هذا الباب لكانت ضيّقت كثيرًا على المسلمين في ممارسة شعائر الدين الإسلامي، ولكن الحكومة البلغارية لم تعر أذنًا صاغية لنصائح أنقرة في هذا الباب. وقالت لها: إنَّ الحرّية الدينية هي أمر مقدّس في نظر الأمّة البلغارية، فلذلك هي تترك المسلمين يدينون بدينهم ويقيمون شعائرهم كما يشاءون.

ونحن ما كنّا لنصدّق كلام المأمور البلغاري هذا، وكنّا نعدّه من باب الإفتئات على تركية ومن باب التنصّل الفارغ، ولكن الذي شاهدناه في هذه السنين الأخيرة من سياسة أنقرة في محاربة الإسلام لم يدَع شكًّا في أنَّ لكلام هذا البلغاري أصلاً. وقد جاءت كتابة يونس نادي رئيس تحرير جريدة جمهوريت ورئيس لجنة الأمور الخارجية في مجلس أنقرة مؤيّدة تمام التأييد لكلام البلغاري المذكور ومثبتة أنه لم يفتئت في كثير ولا قليل على تركية.

وتحرير الواقع أنَّ تركية مذ قامت بهذه السياسة (التي تسمّيها بالسياسة اللايبقية) وألغت الشريعة الإسلامية، وأوْجبت الكتابة بالحروف اللاتينية، وأباحت تزوّج المسلمة بغير المسلم، ودقّت الرقاب على عدم لبس القبّعة، وغير ذلك، أرادت تطبيق هذه الأمور لا في داخل بلادها فقط بل في الخارج عن بلادها وبدأت في هذا بمسلمي البلقان وأرسلت دعاة وسعاة إلى تلك الأقطار وبذلت أموالاً حتّى يؤسِّسوا جرائد تقوم بهذه الدعاية الأنقرية. فأمّا أمّة البوشناق فلم تتأثّر أصلاً بهذه الدعاية لأنها أمّة متمسّكة بإسلامها وغير محتاجة إلى نصائح أنقرة في أمر السعي لتحصيل العلوم العصرية بل البوشناق أرقى في هذا الباب من أتراك أنقرة. ثمَّ إنَّ البوشناق لا يمتّون إلى الترك بأصرة نسب لينقادوا إليهم بهذا السبب، بل هم سلاف في الجنس مسلمون في العقيدة ولسانهم هو السلافي من قديم الدهر. وأمّا المسلمون في جنوبي

يوغوسلافية فأكثرهم من الأرناووط وأقلّهم من الترك، وكلّهم مجمعون على الاعتصام بالتقاليد الإسلامية حتّى في الزيّ. وجاء مرّة رجل تركي من تركية وهو لابس القبّعة وحاول الدخول إلى مسجد أسكوب لأجل صلاة الجمعة فمنعوه من الدخول وضربوه وأخرجوه من المسجد، وكانت قضيّة نشرتها الجرائد. إذن في يوغوسلافية لم تجد الدعاية الكمالية أنصارًا إلاَّ إذا كان ثمّة أفراد قلائل لا يعتدّ بهم. وأمَّا في بلغارية ولمَّا كان أكثر المسلمين من الجنس التركي فقد انقسم المسلمون فيها إلى حزبين: الحزب المحافظ وهم الذين أبوا قبول تجديدات أنقرة التي لم يقتنعوا بضرورتها لأجل الرقيّ العصري، وهؤلاء هم الأكثريّة، وربَّما كانوا أربعة أخماس المسلمين، ولا يزالون يلبسون الطرابيش ويكتبون بالحروف العربية ولهم أربع أو خمس جرائد بالتركية المكتوبة بحروفنا. وهذا الحزب هو الحزب الواقف في وجه متعصّبة البلغار وأحامسهم الذين يريدون القضاء على الإسلام في تلك الديار. وهو الحزب الذي يدافع عن الأوقاف ويطالب بما ضبطه البلغار من أوقاف المسلمين.

وأمَّا الحزب الثاني فهو الحزب الأنقري المؤلّف من شبّان وأغرار يظنّون أنَّ الرقيّ هو في الإلحاد والإباحة، ويرون أنَّ ما وسع تركية يسعهم. ومنهم من يرى أنْ لا ملجأ لهم من ظلم بلغارية سوى تركية، فلا بدَّ من أن يسايروها بالحقّ وبالباطل. وهؤلاء يلبسون البرانيط لأجل خاطر أنقرة أيضًا وعندهم جريدة مكتوبة بالحروف اللاتينية. فأمَّا في ما بينهم فيتكاتبون جميعًا بالحروف العربية. ولو نظرنا إلى الحقيقة لوجدنا الأكثريّة الساحقة في نفس تركية وفي نفس أنقرة لا تزال تكتب بالحروف العربية إلى يومنا هذا، برغم الأوامر المشدّدة الصادرة من وقت إلى آخر يعقاب كلّ من يكتب بالحروف العربية. وإنَّ كثيرًا من الأتراك جاءتني منهم كتب خصوصية مكتوبة بالحروف العربية، ومن جملتهم يونس بك نادي نفسه كتب لي كتابًا منذ ثلاث سنوات بالحروف العربية، وذلك بعد أن أوجبت تركية الكتابة بالحروف اللاتينية بمدّة طويلة.

فالفئة الكمالية في بلغارية لا تزال ضعيفة بإزاء الفئة المحافظة، ولكن تركية تسعى بكلّ قواها في تعزيز حزبها هذا هناك، وتريد من الحكومة البلغارية أن تساعدها بنفودها على ملاشاة الحزب المحافظ الذي لولاه لم تبقَ رائحة للإسلام في تلك البلاد. وأمَّا البلغار فيتمنّون في أنفسهم أن تتغلّب المبادئ الأنقرية ويتلاشى الإسلام من بلادهم، لا سيّما إذا كانت هذه الملاشاة على غير أيديهم ظاهرًا. وإنَّ كثيرًا من جرائدهم لا تفتأ ترغّب المسلمين في المبادئ

الكمالية الأنقرية وتقول لهم: ليس لكم نجاة إلاَّ بسلوك هذه السبيل التي سلكها مصطفى كمال. ولكنْ من البلغار أنفسهم أناس بعيدو النظر يرون أنه وإن كان للبلغار فائدة من اضمحلال العقيدة الإسلامية في بلغارية فإنَّ هؤلاء المسلمين سواء كانوا مسلمين أو ملحدين لم يخرجوا عن كونهم أتراكًا، أي من جنس أنقرة، وأنَّ انقياد الأتراك في بلغارية إلى تركية الأصلية واتّخاذهم إيّاها مرجعًا فيه من الخطر على داخلية بلغارية أكثر ممّا في بقاء الإسلام فيها. وعلى فرض أنَّ الخطرين متساويان وأنَّ العمل لملاشاة الشعائر الإسلامية والثقافة الإسلامية هو في مصلحة بلغارية، فأن تدخل الحكومة البلغارية في أمور المسلمين الدينية وهم الأقلّية الكبرى في بلاد البلغار وعددهم ثمانمائة ألف فليس من السهل على الحكومة البلغارية إجراؤه، على حين أنها تعلن كونها دولة عصرية، وتقول إنَّ الحرّية الدينية أمر مقدّس عندها، وذلك وفقًا لما قاله صاحب جريدة «يارين».

ثمَّ إنَّ المساعي بعينها هي جارية في طراقية الغربية التابعة لليونان، وقبل أن كان اليونان في وئام مع تركية كان المسلمون في تلك الولاية متمتّعين بحرّيتهم الدينية لا يعترضهم معترض في عقائدهم ولا في زيّهم ولا في حروف كتابتهم، وكان الأنقريون يبثّون دعايتهم فيهم فلا يسمع كلامهم أحد إلاَّ أشخاص ليسوا في العير والنفير، ولكن بعد أن حصل من التقارب ما شاء الله بين الحكومتين التركية واليونانية كانت النتيجة الأولى لهذا التقارب هي تمكين نفوذ أنقرة في طراقية الغربية، وصارت هذه تطلب من حكومة أثينة عزل هذا المفتي وذاك القاضي وذلك الإمام، وكسر كلمة جميع أعيان المسلمين الذين هناك ممَّن تطلق عليهم أنقرة لقب «رجعيين» لأنَّ من دعاة أنقرة ومن جرى مجراها أن يسمّوا كلّ مسلم متمسّك بدينه رجعيًا. ولو كان المتمسّكون بأديانهم رجعيين لكانت جميع أوربة ـ عدا الروسية الحمراء ـ رجعيّة، وكانت أمريكا أيضًا رجعيّة، وكانت اليابان رجعيّة، وكان اليهود كلّهم رجعيين.

والخلاصة أنَّ مسلمي طراقية ابتلوا في دينهم بعد معاهدة تركية مع اليونان وتقوَّى الحزب الأنقري هناك وصار الملاحدة والذين يستهزئون بالعقيدة هم المرشّحين للوظائف الدينية، وابتدأ قسم من هؤلاء يلبسون القبّعة ـ لأنَّ القبّعة الآن أصبحت شعار أنقرة ـ ويكتبون بالحروف اللاتينية. وقد كان كما لا يخفى من أول ثمرات الاتّفاق التركي اليوناني نفي سماحة مصطفى صبري أفندي شيخ الإسلام السابق وأحد أعلام العلماء في هذا العصر،

فكأنّه لم يكفِ أنقرة أن تنفيه من تركية حتّى سعت في نفيه من منفاه في طراقية فنفوه من هناك إلى سَبَارطة حيث لا يوجد مسلمون، وبعد ذلك بمدّة تمكّن من المجيء إلى الديار المصرية حيث هو الآن ينافح بقلمه الماضي مضاء السيف عن الدين الحنيف.

ولا بدّ لي بعد أن فتحت باب هذا الموضوع من أن أشير إلى حادثة فظيعة كنت طويت كشحًا عنها حبًّا بستر الفضائح، ولكن كتابة صاحبنا يونس نادي بك دلّتني على أنَّ هؤلاء القوم لا يزالون ممعنين في ضلالهم وأنهم غير متنبّهين لما تجنيه سياستهم العمياء هذه على مسلمي البلقان، وأنهم لا يريدون أن يفكّروا أنَّ سياستهم الحمقاء في البلقان إنَّما هي عبارة عن السعي في تقديم إسلام البلقان هديّة للنصرانية لا أكثر ولا أقلّ. والحال أنَّ الأمم المسيحية في البلقان لا حاجة لها إلى هذه الهديّة لأنها نحوٌ من ثلاثين مليونًا من المسيحيين يقابلها بالكثير ثلاثة ملايين من المسلمين.

وتفصيل الخبر أنَّ مسلمي يوغوسلافية؛ وهم مليون وثمانمائة ألف، اقترحوا على حكومتهم تأسيس مرجع ديني يسمّى رئاسة العلماء الكبرى يكون مركزه في بلغراد ويكون تابعًا له رئاستان دينيّتان إحداهما رئاسة علماء مسلمي الشمال ومركزها في سراي بوسنه، والثانية رئاسة علماء مسلمي الجنوب ومركزها في أسكوب. وسنّوا قوانين لهذه الرئاسات وحدّدوا روابطها بعضها مع بعض، ومن جملة ما اقترحوه أنه إذا أعيدت الخلافة الإسلامية يكون لمسلمي يوغوسلافية حقّ الرجوع إليها في الشئون الدينية كما كانوا يرجعون إلى نهاية الحرب العامّة في أمورهم الدينية إلى الآستانة. فالحكومة اليوغوسلافية التي هي حكومة عصرية راقية والتي عندها احترام جميع الأديان أمر مقدّس اعترفت بتشكيلات المسلمين هذه، وعاملتهما كمعاملتها لسائر الملل المسيحية ولليهود الذين يسكنون في بلادها، وقرّرت إجراء حفلة عظيمة في بلغراد لتأسيس مشيخة الإسلام هذه في بلادها، وحضر ذلك الاحتفال ستّة أو سبعة آلاف من المسلمين من جميع أنحاء تلك المملكة، وخرج ملك يوغوسلافية لملاقاتهم وطيَّب خواطرهم وهتفوا لجلالته بالدعاء، وكان يومًا مشهودًا، وحضر هذا الاجتماع جميع سفراء الدول الأجنبية وكلّهم مسيحيون وحضر سفير دولة ألبانية الذي هو مسلم.

وكان سفير يوغوسلافية في أنقرة قد دعا حكومة تركية لحضور هذا الاحتفال الإسلامي فأجابت الحكومة التركية بأنها حكومة لايقيية أي لادينية فلا يسعها الخروج عن

مبدئها وشهود حفلة دينية كهذه. ولو وقفت المسألة عند هذا الحدّ لكان الخطب أيسر، ولكن الوزير الذي خاطبه سفير يوغوسلافية في أنقرة قال للسفير المذكور: لا نفهم معنى مراعاتكم لمسلمي يوغوسلافية إلى هذه الدرجة، تارة توافقونهم على تشكيلاتهم الدينية، وتارة تتركونهم يتصرّفون بأوقافهم وغير ذلك من مبادئ الاستقلال الديني (إنّنا لا نريد أن نصرّح الآن بأسم هذا الناظر سترًا لفضيحته هذه وضنًّا بشأن تركية التي إن لم نحترمها نكون أخللنا بالواجب علينا للشعب التركي الكريم). فذهب سفير يوغوسلافية إلى سفارته وكتب إلى بلغراد بامتناع الحكومة التركية عن شهود هذا الاحتفال وأردف ذلك بقوله: إنّ الناظر الذي تحدّث إليه في الموضوع - والذي نكتم اسمه الآن - قد تعجّب من مبالغة حكومة يوغوسلافية بمراعاة شعور المسلمين وقبولها تشكيلاتهم الدينية وتركها لهم أوقافهم يتصرّفون بها كيف يشاءون.

وقد غفل الناظر التركي المحترم أنّ أمّة البوشناق المسلمة كان لها ثمانون في المئة من أراضي ولاية بوسنة العظيمة، وأنّ الحكومة اليوغوسلافية سنّت قانونًا قضي بإخراج معظم تلك الأراضي من أيدي المسلمين وتسليمها إلى الفلاّحين السربيين بحيث لم يبقَ في أيدي المسلمين إلاّ ٢٥ أو ٣٠ في المئة من الأراضي. نعم، إنّ الحكومة عوّضت على المسلمين بتعويضات دفعتها لهم تقسيطًا، ولكنّهم لم يستفيدوا منها لأسباب ليس هنا محلّها وأكثرها عائد إلى تفريط أبناء البيوتات من أصحاب الأراضي. وكيف كان الحال فالحكومة اليوغوسلافية لم تكن لتحرم المسلمين أوقافهم المربوطة على مساجدهم ومدارسهم ومؤسّساتهم الخيرية، لا سيّما بعد أن فقدوا معظم ثروتهم العقارية. أمّا الناظر الأنقري فإنّه وجد بقاء هذه الأوقاف كثيرًا على المسلمين، فأغرى سرًّا حكومة يوغوسلافية بنزعها منهم انتقامًا منهم لعدم مسايرتهم لأنقرة في سياستها اللادينية، ولكون الجامعة الخسروية في سرايفو وسائر المدارس الإسلامية والكتاتيب القرآنية التي في بوسنة وسائر يوغوسلافية تعلّم العقائد الإسلامية واللغة العربية وتحفّظ القرآن للناشئة وبالاختصار تحيي الإسلام في صدور المسلمين. فهذا الأمر هضمه السربيون المسيحيون بل ساعدوا المسلمين فيه، ولم يهضمه الأتراك الكماليون وحاولوا أو حاول وزيرهم هذا حرمان المسلمين منه.

وقد اتّصل ببعض المسلمين خبر هذه الحادثة الفظيعة فسألوا عنها سفير تركية في بلغراد فاستغربها وأبى تصديقها وأبرق إلى ذلك الناظر في أنقرة يسأله عن مبلغ هذا الخبر من الصحّة

فجاءه الجواب بالبداهة منكرًا جميع هذا الكلام. وقد سئلنا عن هذه القضيّة فأجبنا بأنَّ هذا الإنكار على كلّ حال كان استدراكًا حسنًا، لكن الغالب على الظنّ بالنظر إلى أعمال وأقوال أخرى وإلى كتابات لا تحتمل الإنكار ـ ومن جملتها كتابة يونس نادي الأخيرة ـ أنَّ هذا الكلام قد أفضى به الناظر الأنقري إلى سفير يوغوسلافية ظنًّا بأنه يعمل عمله بدون أن يشعر به المسلمون وبدون أن يعلموا من الرامي لذلك السهم. ثمَّ علمنا أيضًا أنَّ سفير يوغوسلافيا رجل غير متّهم بالكذب معروف طول حياته بصدق اللهجة.

على أنَّ أمرًا كهذا هو مخالف لدستور يوغوسلافية التي فيها جميع الملل متمتّعة بحقوقها الدينية علىالسواء، فلا يمكن ليوغوسلافية أن تمشي على قاعدة "يحلّلونه عامًا ويحرّمونه عامًا".

ومن تتمّة أقوال الأنقريين في هذا الباب ما لا نزال نسمعه عن ألسنتهم من أنَّ بعض الحكومات المسيحية إنَّما ترخّص للمسلمين في الدروس الدينية وفي حفظ مساجدهم وأوقافهم لا بل ترغمهم في التعليم الإسلامي أملاً ببقائهم متأخّرين متقهقرين! وخوفًا من أنَّ نبذهم للدين الإسلامي يقدّمهم إلى الأمام في بيئتهم الاجتماعية!

تبلغ السفسطة بالأنقريين، أو ببعضهم على الأقلّ هذا الحدّ البعيد.

والحقيقة التي لا مراء فيها أنَّ هذه الحكومات المسيحية تتمنّى في نفسها أن يخرج المسلمون الذين في بلادها عن كلّ تعليم إسلامي، وتهوى من صميم أفئدتها أن يعطّلوا شعائر دينهم ويهجروا مساجدهم ويعدلوا عن حفظ قرآنهم، لأنَّ هذه الحكومات تعلم أنَّ هجرهم للتعليم الإسلامي ونبذهم للشعائر الإسلامية يفيضان أخيرًا إلى ذوبان الإسلام بالمرّة واندماج المسلمين الذين هناك في دين الأكثريّة أي الدين المسيحي.

وهذه الحكومات لا تخشى إلحاد المسلمين كما تخشى اعتصامهم بدينهم. وهي تعلم أنَّ استمساكهم بدينهم لا يمنع ترقّيهم كما تزعم أنقرة، لأنها تعلم من شعوبها المسيحية أنها سائرة في طريق التقدّم العصري برغم اعتصامها بالدين المسيحي. ولكن التمنّي في الباطن شيء والعمل شيء آخر. فإذا قدرنا أنَّ هذه الحكومات المسيحية تتمنّى نبذ المسلمين لتعليمهم الديني فلا يمكنها كحكومات حرّة راقية أن تعترضهم في عقائدهم وتقاليدهم.

غير أنَّ الشعوب البلقانية المسيحية كثيرًا ما تشير على المسلمين الذين يسكنون بينها وكثيرًا ما كتبت جرائدهم تنصح المسلمين بزعمها بالاقتداء بأنقرة وبهجر التقاليد القديمة، كالحجاب ولبس الطربوش والكتابة بالحروف العربية والسير على مقتضى الشريعة في منع تزوّج المسلمة بغير المسلم، كثيرًا ما تلوم المسلمين لعدم قبولهم الطريقة اللادينية وغير ذلك مما لا تزال الجرائد المسيحية هناك تنصح به المسلمين بزعمها.

فلو كان نبذ الدين الإسلامي مرقاة للمسلمين كما يزعم الأنقريون أو بعضهم، لما كان هؤلاء يشيرون عليهم به كما لا يخفى. وإن كانوا يشيرون عليهم بالاقتداء بأنقرة فما ذاك إلاَّ لعلمهم بأنَّ هذا الاقتداء لا مرقاة بل مهواة لهم، بل عاقبتها انقراض الإسلام من بلاد البلقان.

أمَّا المسلمون فإنَّهم يجيبون هؤلاء المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك بهذه الجملة المختصرة: نحن نراكم أنتم الأكثريّة تربّون أنفسكم تربية عصرية لكنّكم لا تزالون نصارى مؤيّدين لكنائسكم، فنحن نريد أيضًا أن نربّي أولادنا تربية عصرية لكن مع بقائنا مسلمين. نفعل كما تفعلون أنتم وليس لكم أن تأمروا الناس بالبرّ وتنسوا أنفسكم، إن كان ما تقولونه برًّا.

جنيف، ١٥ ذي القعدة ١٣٥٢هـ/١/٣/١٩٣٣م

شكيب أرسلان



الدولة والدين توأمان*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

كثيرًا ما زعموا أنَّ الأمم الراقية قد فصلت الدين عن السياسة وأنها قد بنت أسس دساتيرها على إخراج الدين بالكلّية من الحكومة، وأنه لا يوجد حكومة متمدّنة تقيم للديانة وزنًا، وغاية ما في الباب أنها تغضي الطرف عن الدين وتتّخذ بإزائه خطّة حياد معناها في الحقيقة الإهمال.

كلّ هذا قالوه وكرّروه وكتبوا فيه الكتب، ونشروا المقالات، وما زالوا يبدون فيه ويعيدون حتّى جعلوه في نظر الشرقيين قاعدة مسلّمة، وأوهموا عوام المسلمين، خاصّة أنَّ أوربة، التي هي مثال المدنيّة، لا تحفل بالدين ولا تهتمّ به إن قام أو قعد، وأنَّ الدين في أوربة مفصول فصلاً باتًّا عن السياسة، وإنَّ هذا الأسلوب هو الذي كفل لأوربة السعادة التي نراها فيها.

وكم حملوا في أثناء هذه المزاعم على الإسلام، وقالوا إنَّه جمع بين الدين والدنيا، وأتانا بقرآن يجعل المعاملات في نسق واحد مع العبادات، وأنَّ هذا هو سبب ما عليه المسلمون من التأخّر، وأنَّ الإسلام لا يمكن أن يكون له حظّ من الرقيّ ما دامت حكوماته مهتمّة بالمحافظة على القواعد الدينية.

هذه هي دعاويهم الفارغة التي يعلمها كلّ أحد، وهي من أعرق الدعاوى في البطلان. وما روّجها بين المسلمين سوى دعاة الاستعمار وروّاد السيطرة الأجنبية.

فأوربة، أوربة الرسمية وأوربة الحكومية، لم تترك الدين في قديم ولا حديث. ولا زالت الحكومات الأوربية بأسرها، عدا البلاشفة الذين نجموا في أخريات هذه الأيام تجد من أقدس وظائفها المحافظة على الدين المسيحي ونشره وتعزيز الدعاية له والأخذ بأيدي المبشّرين به وكلّ يوم بل كلّ ساعة نجد لها مظاهر رسمية حكومية تؤيّد هذه الحقيقة.

---

* الفتح، العدد: ٣٨٨، العام الثامن (١٩٣٤/٣/٢٢م)، ص ص. ٦ ـ ٧.

نعم إنَّ في أوربة فئات لا تُذعِن للدين ولا تظهر بمظاهره، وأكثر هذه الفئات هي من الإشتراكيين الذين ليسوا هم أوربة ولا يزالون أقلّيات في جميع ممالكها. وما عدا الاشتراكيين فالذين يجاهرون بنبذ الدين إنَّما هم أفراد لا يعتدّ بهم، وما المعوّل إلاَّ على السواد الأعظم، وهذا السواد الأعظم هو مسيحي كما نحن مسلمون. والفرق بيننا وبينه أنه يبذل كلّ سنة مئات ملايين من الجنيهات لأجل الدعاية المسيحية، ونحن لو دعينا من مشرقنا إلى مغربنا لدفع عشرة آلاف جنيه في سبيل التبشير بالإسلام لوجدنا ذلك علينا ثقيلاً.

نعم، إنَّه قد فصل الأوربيون الدين عن السياسة فصلاً إداريًّا، فالحكومات الأوربية عندما تقول إنَّ الديانة شيء والسياسة شيء آخر لا تقصد بذلك أنها أهملت الدين وطرحته جانبًا، بل تقصد أنها جعلت الدين من وظائف القسوس والرهبان الذين هم أعرف بشؤونه والذين يجعلهم الدين نفسه خَدَمَة رسميين له، وذلك كما جعلت لكلّ مصلحة من مصالح الأمّة إدارة أو نظارة خاصّة بها. وهذا الفصل الإداري بين الدين والسياسة وجد في نفس الإسلام وما أحد يقدر أن يقول إنَّ الصدارة العظمى كانت مشيخة إسلامية بل كان في الدولة وزارات مدنيّة ووزارة دينية وكلّ منها تعمل عملها والجميع تحت رئاسة السلطان. وهذه الرياسة للسلطان أو للخليفة لا تفترق في شيء عن رياسة ملك إنكلترة مثلاً على الكنيسة الإنكليكانية، ولا عن رياسة ملك بروسية وإمبراطور ألمانية على الكنيسة اللوثيرية. فالخليفة عندنا كان حاميًا للدين الإسلامي كما هم حُماة للدين المسيحي.

ولمّا تغيّر الحكم في ألمانية من بعد الحرب العامّة بقيت الكنيسة البروتستانية تنتظر رجوع الإمبراطور رئيسها، ولكن لمّا طال الأمد على ذلك وجاءت دكتاتورية هتلر سنّوا نظامًا جديدًا زاد علاقة الدولة بالكنيسة، وكلّ من تتبّع أخبار ألمانية في الأشهر الأخيرة علم ما هناك من القوانين الجديدة التي ترمي إلى توحيد الدين مع الدولة.

وإليك ما صرّح به المطران "مولر" في برلين منذ أيام وهو رئيس الكنيسة البروتستانية الأعلى قال: "إنَّ المسيحيين الألمان هم مسيحيين فعلاً ليسوا وثنيين في ثياب مسيحيين. نعم، إنَّه في أثناء الانقلاب الأخير تقدّمت اقتراحات جديدة تؤول إلى بعض تغييرات جذريّة ولكن المسيحية مع ذلك ستبقى راسخة القواعد. وإنَّه إن كانت الكنيسة الكاثوليكية منفصلة عن الدولة فالكنيسة الإنجيلية هي مندمجة في الدولة والدين، والدولة عندنا جسم واحد فلا حاجة إلى عقد معاهدة اتّفاق بينهما، نعم ينبغي البحث عن طريقة لكيفيّة عملهما معًا".

هذا هو ما عوّل عليه الألمان الإنجيليون بعد الإنقلاب الهتلري، نسوقه إلى أولئك الحمقى الذين لا يزالون يتشدّقون بقضيّة فصل الدين عن السياسة وينحتون من أثلة الإسلام، قائلين إنَّه ديانة وحكومة معًا، وإن أسلوبه هذا هو الذي كان السبب في انحطاط المسلمين! نودّ لو كان هؤلاء المنتقدون للأسلوب الإسلامي في الحكم عشر معشار الألمان الإنجيليين في الرقيّ والمدنيّة...

جنيف، ١٨ ذي القعدة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣/٣/٤م

شكيب أرسلان





في دار الحديث المكّية*

جاءنا من مكّة ما يأتي:

زار وفد المؤتمر الإسلامي مدرسة دار الحديث بمكّة المكرّمة، مرجعه من الطائف في طريقه إلى اليمن، وكان قد وعد بزيارة هذه الدار المؤسّسة على التقوى منذ علم بها، ولكنّه أرجأ ذلك ريثما يتمّ مهمّته فلمّا أتمّها بحمد الله وفى بوعده فله الشكر.

أمّ المدرسة الوفد الكريم بعد الطواف ببيت ربّه يوم الأحد ٢٧ صفر سنة ١٣٥٣ فلبست بزيارته حلل سرورها، وابتهج طلاّبها وطربوا برؤية عطوفة أمير البيان وسماحة الرئيس السيِّد محمَّد أمين الحسيني مفتي القدس، ورئيس المجلس الأعلى الإسلامي، وسعادة هاشم بك الأتاسي، والسكرتير المحترم علي أفندي رشدي. فبعد أن استراحوا بضع دقائق تناول أمير البيان دفتر الزائرين وكتب الكلمة الآتية. ووقّع عليها الرئيس والأعضاء الكرام. ثمَّ أمّوا غرفة الدراسة حيث الطلبة. فتكلّم مدير المدرسة كلمة مناسبة للمقام ثمَّ قام أحد الطلبة وحيّا الوفد بكلمة شعرية، وقام طالب من نجباء طلبة الجاويين الداخليين في المدرسة وألقى كلمة نثرية.

ثمَّ تكلّم أمير البيان كلمة بليغة فقال ما معناه:

أيها الأبناء الكرام، إنّنا مسرورون جدًّا منكم لا لأنكم مدحتمونا، ولكن لأننا رأينا فيكم آيات النجابة، وإنَّ المدرسة قد ضمّت بين جوانحها الهندي والحجازي والجاوي والأفغاني والحبشي والسوداني، وإنَّا نرجو أن ترجعوا بعد نهاية الطلب إلى بلادكم داعين إلى الله مجاهدين كما كان سلفكم الصالح. تجاهدون البدع والخرافات وتفتحون القلوب الغلَق والأعين العمي والآذان الصمّ، وفي الحديث: لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم. بارك الله فيكم ونفع بكم.

ثمَّ تلاه صاحب السماحة الرئيس بكلمة مثلها. وكانوا على جناح سفر إلى الحديدة فركبوا والقلوب في أثرهم والألسنة تلهج بالثناء عليهم.

---

* الفتح، العدد: ٤٠٠، العام الثامن (١٤/٦/١٩٣٤م)، ص.١٣.



موقف البلاشفة
من الإسلام والمسلمين ★

من مقال كبير لعطوفة
الأمير شكيب أرسلان

...أمَّا من جهة الدين فالبلاشفة أعداء الأديان كلّها على السواء. وهم لا يعتقدون بواجب الوجود تعالى بل يبثّون الدعاية في كلّ ناد لنقض الاعتقاد بالإله، ويقولون إنَّ الدين إنَّما هو كالأفيون قصد به واضعوه تخدير عقول الشعوب، لا سيَّما العوام منهم، توصلاً لقيادتهم إلى أغراضهم السياسية. وهو زعم عريق في البطلان من كلّ الوجوه لكنّه كان ضروريًا لمثل دعايتهم. وقد نظّموا فيما بعد جمعيّات أطلقوا عليها اسم "بدون الله" Sans Dieu وأخذوا يحملون بها على المذاهب كلّها. فلو لم يكن عندهم سوى هذه العقيدة التي هي النفي البات لوجود الباري تعالى لكان ذلك كافيًا للحكم بعدم إمكان المسلم أن يكون بولشيفيكيًّا. فالإسلام والبلشفة نقيضان لا يجتمعان. ولا يصير المسلم بولشيفيكيًّا حقيقيًّا إلاَّ إذا خرج من الدين الإسلامي. وإنَّ كثيرًا من نظريّات البلاشفة مثل نفي المُلك الشخصي والاستقلال بالكسب هي مضاده أيضًا لقواعد الإسلام. ومثل ذلك غصب الحكم بالقوّة بدون النظر إلى إرادة جمهور الأمّة.

ولهذا قلت مرارًا لبعض المسلمين الذين انخدعوا بالبلشفة إمَّا جهلاً بحقيقتها أو ظنًّا بكونها تصلح عضدًا على هدم الاستعمار الغربي: إنَّكم لا تعرفون البلشفة، ومن المحال أن تحاولوا الجمع بينها وبين الإسلام. ونشرتُ مرّة في مجلّتنا "لا ناسيون آراب" فصلاً دامغًا حملت فيه على البولشفيك بشدّة فجاءني تقريع من أحد مسلمي الجزائر مِمَّن يدّعي الحمية الزائدة على الإسلام. فرددت عليه مكتوبه بدون جواب. وأرسلت إلى أحد معارفه أقول له: كيف يكون هذا الرجل متمسّكًا بالإسلام وهو يغضب للبولشفيك؟ نعم سبب هذا الضلال لم يكن سوى أنَّ البلاشفة خدعوا كثيرًا من المسلمين في أول الأمر وأوهموهم أنهم لا ينجون من شرِّ الاستعمار ومن استعباد الأوربيين لهم إلاَّ بمساعدة الروسية الحمراء. ونشروا مرارًا

★ الفتح، العدد: ٤١١، العام التاسع (١٩٣٤/٨/٣٠م)، ص.٩.

قرارات بتحرير الهند ومصر وسورية وتونس والجزائر ومراكش وغيرها ولكن في الحقيقة كانوا ينشرون مثل هذه القرارات تحريكًا للمسلمين على دول الاستعمار حتّى تضطرّ هذه الدول لإرضاء البلاشفة والاعتراف بحكومة السوفييت وعقد المعاهدات معها. فالمسألة كانت مسألة تهديد لدول الاستعمار لا غير. ولقد أثمر هذا التهديد ثمرته لأنَّ إنكلترة رضيت أن تعقد معهم مهاهدة منذ سنة ١٩٢١ وتعهّدوا هم لها بعدم بثّ الدعاية البلشفية في مستعمرات إنكلترة. وكذلك كانوا يحاولون تحريك شمالي أفريقيا على فرنسة حتّى تضطرّ فرنسة لإرضاء الروسية بترك الديون التي لها عندها وبعقد معاهدة معها. وهكذا كان. فإنَّ فرنسا منذ ثلاث سنوات عقدت معاهدة مع السوفييت وتعهّد البلاشفة فيها بعدم بثّ أدنى دعاية ضدّ فرنسا في شمالي أفريقية. وهكذا ظهر كذب البولشفيك علنًا وعرف من كان يعقد عليهم الآمال في الجزائر إنَّه كان في ضلال مبين.



حيّا الله المكين الصيني*

ولله درّه

أظنّ أني من أوائل الذين من العرب كتبوا عن الإسلام في الصين. نشرتُ عن الصين وعن الإسلام في الصين سلسلة مقالات في مجلّة المقتطف منذ ستّ أو سبع وثلاثين سنة. وفي «حاضر العالم الإسلامي» لي فصل طويل عن مسلمي الصين ضممت إليه فوائد ومعلومات جديدة في الطبعة الثانية فبلغ البحث المتعلّق بإسلام الصين نحوًا من ٧٠ صفحة. وأحسن ما نقلت عن إسلام الصين مقالة للكاتب الفاضل السيِّد محمّد مكين الصيني[1]. فإنِّي أعجبت بها أشدّ الإعجاب فجعلتها برمّتها في كتابي بإمضاء كاتبها. ولكن المقالة التي نشرها مؤخّرًا الأستاذ المذكور في «الفتح» عن الإسلام في الصين أخذت بمجامع قلبي بما فيها من تحقيق وإحاطة وعقل وعلم وإصالة رأي وحسن سبك، وكنت أظنّ هذا الكاتب لجلالة قدر كتابته شيخًا كبيرًا أو كهلاً أشمط الناصية فإذا به حسبما رأيت من صورته شابًّا في مقتبل العمر فأعظم بشاب في هذا العمر يفري هذا الفريّ ويجيد هذ الإجادة، وأنَّ أمّة ينبغ فيها مثله لجديرة بأن تعقد عليها الآمال ويتوسّم فيها الخير، أكثر الله في إخواننا مسلمي الصين من أمثاله.

جنيف، ٩ جمادى الآخرة

شكيب أرسلان

---

* الفتح، العدد ٤١٥ (١٩٣٤/٩/٢٨م)، ص. ٥.

(١) الفتح - هي في الجزء الثاني من الطبعة الثانية لحاضر العالم الإسلامي ص ص. ٣٧١ - ٣٨١. وأصلها في (الفتح) العدد ٣٢٥ الصادر في غرّة رمضان ١٣٥١ والعدد ٣٣٤ الصادر في ذي القعدة ١٣٥١.

إيضاح بشأن الفرقة البهائية*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

اطّلع أحد أدباء العراق على كتابتي بشأن البهائية، جماعة بهاء الله وعبّاس أفندي، فلمّا لم يجد فيها طعنًا وتشنيعًا جارحًا بدر إلى ذهنه أنَّ لي ميلاً إلى هذه الفرقة. وجاءني سؤال من العراق عن هذه النقطة. فعليه أجيب:

أولاً ـ إنَّ المحاكم إذا حكمت على مجرم بجناية قتل أو سلب أو جرم سرقة وما أشبه ذلك فليس من عادتها أن تقول: إنَّه بناء على ثبوت قتل فلان لفلان حكمنا على فلان الجاني الخبيث سفّاك الدماء، أو على هذا السارق قاطع الطريق الخبيث المتّصف بالدعارة أو حكمنا على هذا السارق الدنيء اللصّ االذميم، إلخ، بل قصاراها أن تقول: بناءً على ثبوت جناية فلان أو جرم فلان حكمنا عليه بالحبس كذا من الزمن أو بالقتل أو بالأشغال الشاقّة، وذلك حسبما يستحقّ عمله. ولم تزد على ذلك.

فنحن عندما ذكرنا البابية والبهائية التي هي هي وعلى مذهب الكسائي هي إيّاها قلنا إنَّ الناس وفي مقدّمتهم السيِّد جمال الدين الأفغاني قد طعنوا في هذه الفرقة، ولعلّ وجه الطعن أنها مخالفة للشرائع التي ختمت بالشريعة المحمَّدية. حكمنا إذن بأنَّ هذه الفرقة مخالفة للإسلام الذي لا شريعة بعده. فأيّ طعن أكثر من هذا في عرف المسلم؟ وهل بعد هذا احتياج لأن نقول: هؤلاء الطغام اللئام الخبثاء، إلخ. إنَّنا نريد أن ننزّه قلمنا عن هذه الألفاظ.

ثانيًا ـ إنَّنا في «حاضر العالم الإسلامي» لم نعظّم أحدًا في رجال الإسلام ما عظّمنا المرحوم السيِّد جمال الدين الأفغاني، أستاذ الشرق عمومًا، وأستاذنا المرحوم الشيخ محمَّد عبده. فقولنا إنَّه طعن في البابية يكفي برهانًا على أننا لا نستحسن مذهب البابية لأنَّ مزيد إجلالنا لجمال الدين يستنتج منه أننا نشاركه في رأيه.

ثالثًا ـ إنَّ قولنا بوجود بعض مبادئ سامية أشار بها البهائية لا يعني أننا نستحسن مبادئهم كلّها. وقد يجد الإنسان مبادئ سامية حتّى عند بعض الوثنيين فكونفوشيوس يقول:

---

* الفتح، العدد: ٤١٦، العام التاسع (١٩٣٤/١٠/٤م)، ص ص. ٨ ـ ١٠.

لا تفعل للغير ما لا تريد أن يفعله الغير بك. فهذا مبدأ من المبادئ السامية فهل استحسان هذا المبدأ دليل على أنَّ مستحسنه موافق على عقيدة كونفوشيوس وأتباعه؟ ثمَّ إنَّ الدرّة تبقى درّة ولو وقعت في مزبلة.

رابعًا ـ إنَّني قد نقلت في ذلك الفصل المتعلّق بالبابية ما سمعته وقرأته عنها وعن عقائدها من رواة عدّة ممَّا ليس فيه أدنى دفاع عن البابية، ولكنّني شأن المؤرّخ الذي يتوخّى التحقيق لم آخذ هذه الروايات على عهدتي ولست مضطرًّا أن آخذها على عهدتي لعلّ هناك شيئًا من التحامل، لا سيَّما أنني عرفت بالتجربة أنَّ كثيرًا من الفرق الصغيرة يقع الناس فيها بالحقّ وبالباطل، فليس كلّ ما يقال عنها يكون صحيحًا. فالأولى بالإنسان المتّصف في مثل هذا المعترك أن ينقل الروايات كلّها بدون ترجيح ولا تجريح ويترك الحكم فيها للقارئ البصير.

خامسًا ـ قد كانت بيني وبين عبّاس أفندي مودّة أكيدة وحقوق صداقة وكنت إذا جئت إلى عكّا أنزل في منزله وأنَّ للصداقة عندي حقًّا، فلم أشأ أن أزيد في تاريخ نحلته على نقل الروايات كما هي، وذلك بدون طعن ولا لعن مراعاةً للصداقة التي كانت بيني وبين أخيه محمَّد علي أفندي الذي هو بمكان من العلم والفضل والنبالة.

سادسًا ـ كان أستاذنا الشيخ محمَّد عبده رحمه الله يعلم كلّ ما قيل في البابية ويعلم أيضًا أنَّ شيخه جمال الدين طعن فيهم، ومع ذلك كان إذا جاء عبّاس أفندي إلى بيروت بادر بالسلام عليه وأجلّه إجلالاً لم أشاهده يجلّ بمثله أحدًا. وذلك لما كان عليه عبّاس أفندي من العلم والفضل والسراوة ولما كان يحيط به من التجلّة أينما ذهب. فإن كان لا يجوز لنا أن نعظّم ولا أن نوقّر إلاَّ من كان مسلمًا فكيف وقّرنا في القديم وفي الحديث ألوفًا وعشرات ألوف من علماء النصارى واليهود والوثنيين ومن فضلائهم وأعيانهم. إنَّ النبيّ ﷺ أكرم عديًّا بن حاتم وقام له وأجلسه على وسادته، وقد كان نصرانيًّا إذ ذاك وما أسلم إلاَّ من بعد هذه المعاملة. أفلا تكون لنا أسوة برسول الله ﷺ؟

سابعًا ـ إنِّي أُشهد الله، وهو على كلّ شيء شهيد، إنِّي سمعت في موقف الدفاع عن حقائق الإسلام من فم عبّاس أفندي، في مجالسه الزاهرة، ما قلّما سمعت مثله من فم حكيم أو فيلسوف كبير بتلك البراهين القاطعة والأدلّة الناصعة التي لم أكن أسمع مثلها إلاَّ من شيخينا العظيمين جمال الدين ومحمَّد عبده. وقد كنت أرى عبّاس أفندي يصلّي أيضًا صلاة

المسلمين. وأمّا سريرته فالله أعلم بها. إنّنا نحن لنا الظاهر والله يتولّى السرائر. هذا هو الإسلام وليس عندنا ديوان تفتيش. ويجوز أن يقال إنّ عبّاس أفندي كان يتظاهر بالإسلام رئاء، وإنّه كان يضمر خلافه فأنا لا أعرف هذا ولا أعرف إلاّ ما سمعته بأذني وهو أنه يعتقد الإسلام ويذبّ عنه ويفنّد أقوال أعدائه. وكذلك قد حمت حول الحمى وسألته مسائل أردت أن أعرف منها هل يعتقد بألوهيّة أبيه أو بألوهيّة أحد البشر أو بكون أحد البشر يمكن أن يكون مظهرًا للألوهيّة. فكان من جوابه ما ينفي ذلك كلّه ويبيّن استحالة عقيدة كهذه وقد نقلت هذه المباحثة التي جرت بيني وبينه في "حاضر العالم الإسلامي"، ولو لم أسمع ذلك من فمه إلى أذني لما أقدمت على الثناء الطيّب عليه برغم الصداقة التي كانت بيننا. أمّا ما يقوله الآخرون عنه فلا علم لي به وإنّما أعلم ما سمعته منه.

ثامنًا ـ إنّ المحامد الشخصية لا يجوز إنكارها لاختلاف الدين بل يجب أن نوفّر لكلّ مخلوق حقّه، قال الله تعالى: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾، وقال تعالى: ﴿لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[1].

وإنّي أقدر أن أستشهد بأهل عكّا وجيرانهم ماذا يقولون عن عبّاس أفندي ومحمّد علي أفندي وكيف يرونهما من جهة الأخلاق والمناقب الزكيّة؟ إنّ هؤلاء ألوف يستحيل تواطؤهم على الكذب فنحن نرضى بشهادتهم. وقد كان المرحوم أحمد باشا الصلح متصرّفًا في عكّا مدّة مديدة، وكنت أسمعه وهو في بيروت يثني على عبّاس أفندي ثناء لا يسمح به لغيره. ومن كان أحمد باشا الصلح؟ الجواب قد كان من أجلّ وأوقر وأصدق وأتقى رجال سورية.

فهذا هو جوابي.

جنيف، ١٧ جمادى الآخرة ١٣٥٣هـ/٢٧/٩/١٩٣٤م

شكيب أرسلان

(١) سورة المائدة، الآية ٢. [الصحيح شنئان]

[تعقيب]

في الحقيقة إنَّ كثيرًا من رجالنا كان لهم العذر في عشرات السنين الماضية إذا وقفوا من البهائية عند الحدّ الذي وقف عنده عطوفة الأمير، لأنَّ البهائيين كانوا أكثر تكتّمًا وتقيّة منهم الآن، وعبّاس أفندي على الخصوص كان له من الفضل والذكاء والدهاء ما يستطيع معه أن يكتم عن جلسائه جوانب عقيدته التي تنافي الإسلام، ولا نزال نذكر أنَّ شيخ الصحافة الإسلامية الشيخ علي يوسف، صاحب المؤيّد رحمه الله، كتب عند اجتماعه بعبّاس أفندي في الإسكندريّة قبل الحرب بسنتين مقالاً نمّ على ما تركه عبّاس أفندي من الأثر في نفسه للصفات التي أشرنا إليها. والمسلمون غير مكلّفين إلاَّ بالظاهر، فإذا جلس مسلم مع عبّاس أفندي وكان عبّاس أفندي محتاطًا معه بنباهة ويقظة فلم تبدر منه بادرة كبيرة ولا صغيرة تدلّ كيده للإسلام، فإنَّ من يجلس منه هذا المجلس لا يكلّف بالحكم على غير ما سمع منه وما علم عنه.

ولكن البهائيين تكشّفوا بعد ذلك وصاروا أقلّ تقيّة وتكتّمًا فظهرت لهم كتب تجاهروا فيها بالدعوة، ودعاتهم أيضًا صاروا يختصرون الطريق ويعدلون عن سياسة (المراحل). وقد وصلتني مقالة الأمير هذه مساء الأربعاء من الأسبوع الماضي، واتّفق أن زارني في صباح الخميس ـ أي في اليوم التالي ـ داعية البهائيين الشيخ محيي الدين صبري الكردي الذي يندبونه في كلّ عام للسفر إمَّا إلى تونس وإمَّا إلى بلاد الأكراد لنشر الدعوة، وكان يريد منّي أن أقرّظ كتابًا طبعه باللغة الكردية، فقلت إنِّي لا أعرف هذه اللغة ولا أقرّظ إلاَّ شيئًا أعرفه، فقال إنِّي أطمئنك بأنه كتاب طيّب، فقلت له ولكنّك موضع تهمة لأنك داعية لضلالات البهائيين، فقال لي إنَّ البهائيين يعتقدون بأنَّ القرآن حقّ وبأنَّ محمَّدًا ﷺ رسول الله، ألا يكفي هذا للاطمئنان بأننا مؤمنون؟ قلت وهل تؤمن أنت الآن بالشريعة الإسلامية وترى أنك مكلّف بها وتبرأ من كلّ ما يخالفها أو يناقضها؟ قال: إنَّ في القرآن وفي الكتب السماوية السابقة بشائر بمجيء شخص ثبت لنا مجيئه ونحن تابعون له، وكما أنَّ دين موسى حقّ وكان يجب العمل به إلى أن جاء المسيح ﷺ[1]، وكما أنَّ دين المسيح حقّ وكان يجب العمل به إلى أن جاء محمَّد ﷺ كذلك دين محمَّد ﷺ حقّ وكان يجب العمل به إلى أن جاء المبشّر به فصار حكم دين الإسلام الآن كحكم الأديان السالفة.

(١) هكذا وردت.

وسألتُ مرَّةً داعيتهم الآخر الشيخ فرج الله زكي الكردي: هل يرى البهائيون وجوب الصيام في رمضان وأداء الصلوات الخمس مع المسلمين، فقال لي: الإنسان يتوجّه إلى الخالق بالعبادة والدعاء كما يشاء غير مقيّد بما رسمته الديانات، فأنا إذا حضرت الصلاة وكنت مع المسلمين أقف معهم وأصلّي، وإذا ذهبت في تشييع جنازة صديق مسيحي ودخلت معهم الكنيسة أشاركهم في عبادتهم كما يفعلون، ونحن في محفلنا نتعبّد بشكل آخر، وكلّ ذلك عبادة لله. قلت وإذا كنتَ مع المسلمين وحضرت الصلاة وقمت تصلّي معهم هل تكون على وضوء؟ قال: لا حاجة إلى ذلك.

أمَّا اعتقادهم الحلول فأول ما عرفته لمّا كنت في القسطنطينية عقب إعلان الدستور العثماني، فقد كان هناك من دعاة البهائية الشيخ بدر الدين الغزي (الذي كانت الدولة العثمانية توليه القضاء الإسلامي في المحاكم الشرعية)، فكان يسير معي على طريقة عبّاس أفندي مع عطوفة الأمير شكيب وعلى طريقة الشيخ أبي الفضل الجرداقاني مع علماء الأزهر، غير أني شعرت بحالة غير طبيعية في تورياته ومعارضيه فطلبت من ابن عمّي الشهيد سيف الدين الخطيب ومن صديقي الأستاذ صلاح الدين العظم أن يتصنّعا البساطة وأن يتلقّيا كلّ ما يقوله بالقبول، فما زال حتّى كشف لهما عن ذات نفسه إلى الشوط الأخير، وكان الشهيد عبد الكريم قاسم الخليل مخدوعًا به، لأنه كان يأتيه من طريق التشيع ويمدح له كتاب نهج البلاغة ويحمّل كلماته معاني لم تخطر على بال سيّدنا علي، كرّم الله وجهه، فلمّا كشف الشيخ بدر الدين الحجاب عن ذات نفسه لاَبن عمّي سيف الدين ولصديقي الأستاذ صلاح الدين العظم ذكرنا ذلك لعبد الكريم قاسم الخليل فاختبر الأمر بنفسه حتّى عرف كلّ شيء.

وكونُ البهائية دينًا آخر غير دين الإسلام قد ثبت في المحاكم المصرية، وبُنيت عليه نتائجه من التفريق بين البهائيين وبين زوجاتهم المسلمات. وثبت ذلك أيضًا أمام القاضي الإنكليزي في محكمة الجزاء بغزّة. والبهائيون أنفسهم لا يدّعون الآن أنهم مسلمون، وأعظم ما يداجون به المسلمين أنهم يعتقدون أنَّ القرآن كلام الله أوحى به إلى محمَّد ﷺ وأنَّ محمّدًا رسول الله لكنّهم يقولون إنَّ معنى خاتم النبيين أنه زينتهم كالخاتم الذي تزدان به اليد، وأنَّ شريعته زالت وسقطت بظهور ضلالتهم الخبيثة التي يريدون أن يطفئوا بها نور الله والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. (الفتح)[1]

---

(١) أُرفقت هذه المقالة بالإيضاح بشأن الفرقة البهائية، ولم تنسب إلى أيٍّ من المؤلّفين. [المحقّق]

التجانية
وعطوفة الأمير شكيب*

وصلت التجانية إلى دور الحشرجة، فصارت كالغريق الذي يحاول أن يتمسّك حتّى بما يعتقد أنه سيغرقه. وآخر ما حاولوه أنهم نشروا في جريدة "الأيام" فصلاً عن التجانية وجدوه في تعليقات عطوفة الأمير شكيب أرسلان على كتاب "حاضر العالم الإسلامي"، فردّ عليهم الأستاذ محمَّد صالح فرفور. وعادوا فشعروا بإمعانهم في الغرق فطبعوا مقال الأمير شكيب في نشرة مستقلّة وصاروا يوزّعونها على العوام والفلاّحين من أهل حوران وغيرهم، وكلّما قدّموها لرجل قال لهم: أليس التجاني هو الذي قال إنَّ ورده أفضل من القرآن، وجماعته في المغرب جواسيس للمستعمرين من مائة سنة إلى الآن؟ وقد طلب منّي كثيرون من أهل الفضل أن ألفت نظر عطوفة الأمير إلى استغلال القوم اسمه الكريم في إذاعة باطلهم، فأرجو من عطوفته بعد الاطّلاع على أقوال التجاني المنشورة في العدد ٣٨٨ من "الفتح"، وبعد مراجعة تاريخهم في معاونة الاستعمار على المسلمين من زمن الأمير عبد القادر إلى الآن أن يُلقِم هؤلاء القوم حجرًا فيكفّوا عن التسلّح باسمه الكريم المحبوب عند جميع المسلمين.

مراسل الفتح

دمشق ـ ١٨ جمادى الآخرة

(الفتح) ـ إنَّ نسخة "حاضر العالم الإسلامي" ليست تحت يدنا ساعة كتابة هذا، والذي نتذكّره أنَّ الفصل الذي في حاضر العالم الإسلامي عن التجانية ليس من قلمه بل هو مترجم عن أحد الكتب الإفرنجية، والغرض من نشره عرض ما فيه من المعلومات لا الشهادة للتجانية بأن كتبها ليس فيها كفر بواح، ولا الشهادة لتاريخها بأنها لم تحاول إغماد الخنجر في ظهر الأمير عبد القادر عندما كان متوجّهًا بوجهه إلى جيوش فرنسا، يجاهد لدفع تقدّمها في

---

* الفتح، العدد: ٤١٦، العام التاسع (١٩٣٤/١٠/٤م)، ص.١١.

وطنه، والتجانيون يفتخرون بهذا بأنهم هم الذين وطأوا للاستعمار الفرنسي في مملكة مراكش قبل سقوطها في يد الاستعمار، إلخ.

فعطوفة الأمير الذي يقاوم الاستعمار طول حياته يستحيل أن يثني على قوم هذا موقفهم.



البلاشفة والقيصريون الروس
متدابرون في كلّ شيء إلاّ في خنق العناصر الإسلامية*

من فصول مطوّلة لكاتب الشرق الأكبر
الأمير شكيب أرسلان

... فأمَّا النصح الذي كنّا نتوخّاه للبلاشفة من عدم إرهاق المسلمين في معاملاتهم وعدم التعرّض لتربيتهم الدينية، فلم نهمل لأجله أيّة فرصة، ولم يكن من جوابهم إلاَّ كلّ ما يرضي ويسرّ. ولكن القول في وادٍ والفعل في وادٍ. وهم في الحقيقة حاملون على الأديان بأجمعها والتقاليد الدينية بحذافيرها، وربَّما يكونون أشدّ على الإسلام من الأديان الأخرى.

والناس يظنّون أنَّ عداوة البلاشفة للأديان هي كلّها عن مجرّد عقيدة في صدورهم لا يخالطها منزع آخر. وليس هذا بصحيح، بل ممّا ينبغي أن يعلمه الناس أنَّ البلاشفة في عداوتهم هذه للأديان إنَّما يدافعون عن حياتهم ويجاحشون عن خيوط رقابهم، فإنَّهم يعلمون أنَّ وجودهم على رأس الروسية متوقّف على ضعف العرش والمذبح، فهما متحالفان لا يكونان إلاَّ معًا، فإذا تقوّت الكنيسة الأورثوذكسية تقوّت معها القيصرية، وآل الأمر إلى سقوط السوفييت، وجاء المحافظون أو الديمقراطيون فذبحوا البلشفيك عن بكرة أبيهم. فالبلشفيك يعلمون كم ذبحوا من المحافظين، وكم نهبوا من أموالهم، وكم احتلّوا من ديارهم، وكم شرّدوا منهم في الأقطار وأنَّ ثلاثة ملايين روسي بالأقلّ هم في الوقت الحاضر هائمون على وجوههم تحت كلّ نجم. وكم منهم ممّن كانوا في الدرجات العلى من المكانة والثروة، فآل أمرهم إلى الانتحار جوعًا. وكم من أميرة اضطرّت إلى أن تكون خادمة في مطبخ. وكم من جنرال أصبح سائقًا لعربة. ومن هذا القبيل أماثيل تحصى بالألوف وعشرات الألوف بحيث أنَّ الأحقاد والحسائك التي تراكمت في صدور المحافظين من الروس تفوق كلّ تقدير، ولا ينتظر أنه إذا أُديل من البلاشفة إلى القيصرية أو إلى الديمقراطيين يعفو أولئك الملايين من الروس الموتورين عن بلشفيكي واحد. بل سيكون استئصالهم لهم عديم المثال في التاريخ. والمحافظون يقولون إنَّهم مهما فعلوا بالبلاشفة فلن يبلغوا معشار ما بلغ هؤلاء

* الفتح، العدد: ٤١٨، العام التاسع (١٩٣٤/١٠/٢٥م)، ص. ٥.

منهم. فلهذا تجد حكومة السوفييت تحتاط بكلّ الوسائل التي يتصوّرها العقل لخضد بقايا الشوكة القيصرية حتّى لا تقوم لها قائمة في المستقبل، ومن جملة ذلك كسر النفوذ الديني ومحاربة الكنائس لأنَّ المذبح حليف العرش. وهم في الوقت نفسه يحاولون تخفيف غضب الأمّة الروسية عليهم بخنق حرّية الشعوب التي كانت الروسية القيصرية قد استولت عليها ومحت استقلالها. فالبلاشفة والقيصريون متدابرون في كلّ شيء إلاَّ في نقطة واحدة هم متّفقون فيها وهي خنق حرّية القوقاسيين والأكرانيين والتتر وسائر الشعوب التي أخضعها الروس بالسيف وحرموها استقلالها. على أنَّ هذا التقرّب الذي يحاوله البلاشفة من القيصريين في قضيّة الضغط على أولئك الشعوب وعدم السماح لهم بأقلّ استقلال وإن كان يرجو البلاشفة أن يكون له أثر حسن لدى القيصريين والديمقراطيين فلا يكون ذلك إلاَّ مؤقّتًا. وإذا أذِن الله في رجوع الدولة لأعداء البلشفيك وانفجر مرجل الغضب لم يذروا منهم ديارًا.

وقد ذهب من غلاة أعداء البلاشفة أناس إلى اليابان وحاولوا تأريث النار هناك حتّى يزحف جيوش اليابان على الروسية في الشرق الأقصى، ويكونوا هم رداءًا لها على البلاشفة، كما أنَّ عددًا من المسلمين التجأوا إلى اليابان فرارًا من ظلم الروس البلشفيكيين. وكيف لا يكون ذلك والبلاشفة يقتلون من زعماء المسلمين ومفكّريهم كلّ من أنكر أعمالهم وجهر بالشكوى من تعدّيهم على الإسلام. وأخيرًا قتلوا في أورنبرغ عاصمة بلاد أورال عشرة من رجالات الإسلام وعلمائهم، منهم الشيخ أحمد عبد السلاموف مفتي أورنبرغ سابقًا والسيِّد يوسف يوسوفيتش صاحب جريدة (زمان) رموهم بالرصاص، وهؤلاء ممّن بلغتنا أسماؤهم فضلاً عمّن لم نعلم أسماءهم، وفي كلّ يوم للفلاشفة بالمسلمين أكبر من فجيعة وفظيعة.

جنيف، ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٥٣هـ/٩/١٠/١٩٣٤م

شكيب أرسلان



الأخذ والردّ في قضيّة التجانية*

اطّلعت على ما جاء في «الفتح» بشأن تسلّح المظاهرين للتجانية في الشام، بعبارة نقلتها عن بعض الكتب الإفرنسية تتضمّن أنهم كانوا من جملة الطرق الإسلامية التي نشرت الإسلام في غربي أفريقية وأواسطها.

فعليه أجيب أنه بهذه الأيام حضر إلى هنا الأخ إحسان سامي حقّي، سكرتير المؤتمر الإسلامي الأوربي، وقد شافهني في موضوع التجانية وأطلعني على ما وصلت إليه هذه المسألة في دمشق. وأنا أنضيت إليه بحديث وافٍ أبديت فيه ما عندي بشأن التجانية. والأخ المومأ إليه بعث بهذا الحديث إلى جمعيّة أنصار الشريعة المحمَّدية في الشام. ولا شكّ أنّ الجمعيّة ستنشره بصحف دمشق وربَّما تبعث به إلى «الفتح» أيضًا، وعلى كلّ حال فأنا أقول إنّ التجانية كسائر الناس فيها الصالح والطالح والناهض والرازح، وإنَّه يجوز أن يكون لهذه الطريقة، كما لطرق غيرها كثيرة، خدمة في نشر الإسلام في القارّة السوداء. ولكن هذا لا يمنع أن يكون فيها أناس ارتكبوا إثم الاشتراك مع الأجنبي على أبناء ملّتهم ووطنهم، كما فعل مشايخ زاوية (عين ماضي) بممالئتهم لفرنسيس على المجاهد الكبير المرحوم الأمير عبد القادر[1]، وكما تزوّج بعض هؤلاء المشايخ بامرأة إفرنسية شديدة التعصّب للكثلكة، أدارت تلك الزاوية مدّة خمسين سنة على وفق هوى فرانسا. فالحادثات لا يناقض بعضها بعضًا، والمشكَل ينحلّ بأدنى تأمّل.

جنيف، ٧ رجب ١٣٥٣هـ/١٦/١٠/١٩٣٤م

شكيب أرسلان

---

* الفتح، العدد: ٤١٩، العام التاسع (١/١١/١٩٣٤م)، ص. ١٣.

(١) عبد القادر الجزائري، (١٨٠٧ ـ ١٨٨٣م). ولد في محافظة وهران في الجزائر، قاد الجهاد ضدّ الفرنسيين خمسة عشر عامًا ضرب نقودًا أسماها المحمَّدية، استقرّ في دمشق وتوفّي ودُفن فيها.

جواب للكتلة المغربية الوطنية في مصر*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

في هذه الحملة التي دبّرها بعض الناس علينا من وراء الستار وكتموا أسماءهم الحقيقية قد انتصر لنا أناس كثيرون بالتوقيعات الصريحة والإمضاءات الواضحة من أصحاب الجرائد السورية واللبنانية والفلسطينية، فضلاً عن الجرائد المصرية وكان من جملة الذين غضبوا لنا إخواننا وأولادنا المغاربة الذين بمصر والذين كتبوا إلى الجهاد ينوّهون كرمًا منهم ولطفًا بجهادنا في قضيّتهم المغربية ويشيرون علينا بأن لا نبالي بهذه الترّهات وأن نمضي في سيرنا الذي لا ينبغي أن تعوقه الأباطيل إلى غير ذلك من الأقوال الكريمة. ثمَّ إنَّهم في مقالهم هذا يقترحون علينا الاستمرار في السعي لأجل نشر التعليم في منطقة الريف ولأجل قضيّة الأراضي التي أخذت في طرابلس الغرب من أيدي أصحابها والعمل لأجل إعادتها إليهم.

فأنا جئت الآن أجيب إخواننا وأولادنا نبهاء المغاربة الذين تكرّموا علينا بهذا الثناء وخصّونا بهذا النداء إذ كان لا بدّ لي من الإجابة لا لأجل تقارض المديح بيني وبينهم فإنَّنا فيما هو أهمّ من هذا، وليس أداء الواجب بالذي ينتظر عليه الشكر، وإنَّما جئت لأجل أن أبدي لهم شيئًا ممّا عندي من قضيّة التعليم ومن قضيّة الأراضي. فأقول إنَّه في مثل هذه المسائل العملية يستحسن عادة أن تكون المساعي مقرونة بالكتمان الذي كان ولا يزال شرطًا في قضاء الحوائج لا سيَّما ما تعلّق منها بالحكومات والدول وكان له مساس بالسياسة. فمن المعلوم أننا لسنا ممثّلين لدول ولا لحكومات إسلامية ليتسنّى لنا أن نفاوض دولاً وحكومات أوربية بصورة رسمية. وإنَّما نحن أشخاص غير مسئولين نتعاطى السياسة بإسم الوطنيّة وبتفويض من أبناء وطننا والجمعيّات الوطنية العربية في المهجر ونناضل في أوروبا عن حقوق العرب وحقوق المسلمين أجمع، وليس لشيء من أعمالنا صبغة يقال لها رسمية حتّى يمكننا أن نعلن مفاوضاتنا مع الحكومات الأجنبية بكلّ ما نريد من الصراحة. وإذا كانت هذه الحكومات أحيانًا تردّ علينا الجواب وتأخذ وتعطي معنا في السياسة رأسًا أو بالواسطة فما ذاك إلاَّ لأنها تعلم أننا، وإن لم نكن رجالاً رسميين فقد نمثّل من آراء الأمم والأقوام التي نمثّلها ما

* الفتح، العدد: ٤٣٤، العام التاسع (١٩٣٥/٢/٧م)، ص ص. ٨ ـ ١٤.

هو أهمّ في حقيقة الأمر من تمثيل الرجال الرسميين في عصر أصبح فيه الرجال الرسميون في الشرق إلاّ ما ندر مقيّدين بإرادة الأجانب ونظرًا لهذه الحالة كان من البديهي أن تكون مداخلاتنا في مثل هذه المسائل القومية محاطة بما يلزمها من الكتمان الذي هو أكفل لنجاحها ولكن، مع الأسف، قد اضطرّتنا مهاجمات الأعداء لنا ورميهم إيّانا بالأغراض الشخصية في مساعينا السياسية أن نبوح ببعض الشيء من أعمالنا ولو كان ذلك مخالفًا لما نتمنّاه.

أمّا قضيّة التعليم في الريف فإخواننا المغاربة يعلمون أنها من جملة "بروجرام" قدّمه وفد من أعيان مسلمي المنطقة الإسبانيولية في المغرب يوم أعلنت الجمهوريّة في إسبانية. وإذا كانوا يتذكّرون فيعلمون أيضًا حقيقة المساعي التي جرت لأجل أن يتوجّه منهم وفد إلى مجريط لتهنئة الحكومة الجديدة التي تولّت البلاد الإسبانية ويقدّموا مع التهنئة مطالب الأمّة الإسلامية في القسم المغربي الذي تحت حماية إسبانية. فانتخب الأهالي الوفد وذهب إلى مجريط يرفع تلك المطالب في "بروغرام" وقّع عليه نحو ألف وخمسمائة شخص من أعيان المنطقة. وأدّى الوفد تلك المهمّة على أكمل وجه وعاد مكرّمًا موفّقًا. وحسبك أنه كان في الوفد فقيد المغرب الآن الذي فجع به المسلمون أشدّ ما كانوا احتياجًا إلى مثله الحاجّ عبد السلام بنونة رحمه الله وأكرم مثواه، فهو الذي ترجم بأحسن صورة من الدقّة والحكمة والتأليف بين المصلحتين الإسلامية والإسبانية رغائب مسلمي المنطقة وبهر بذكائه ولطف أسلوبه وسعة اطّلاعه وعمق غوره جميع الرجال السياسيين والصحافيين الذين قابلوا الوفد المغربي في العاصمة الإسبانية. وعاد الوفد إلى تطوان وقد فاز بكثير من المواعيد، إن لم يكن بكلّها، وتفاءل خيرًا من جهة إنفاذها. ولكن لم يكد هذا الوفد يعود إلى تطوان حتّى اصطدمت مطالب الريفيين بالمهاجمات الإفرنسية التي معناها بكلّ صراحة أنَّ فرنسة لن ترضى بنظام حكم في الريف يكون فيه مجلس نوّاب داخلي، وحرّية مطبوعات، وحرّية اجتماع، وتعليم عامّ، وبلديّات منتخبة وبنوك زراعية قائمة بأود الفلاّحين، وغير ذلك من اقتراحات الوفد الريفي التي وقع عليها جميع رجالات المسلمين في الريف. ومن المعلوم أنَّ إسبانية لا تقدر في وقت من الأوقات أن تَجبَه فرنسة التي هي جارتها والتي هي دولة لاتينية كاثوليكية مثلها، والتي بينها وبينها علاقات اقتصادية هي في الدرجة القصوى من الأهمّية، نظرًا لكون أكثر ما ينبت في إسبانيا من خضر وبقول وغلال وفاكهة يباع في فرنسة. فقد توقّف إنجاز المواعيد التي أعطيت للوفد وبناء على تلك المهاجمات التي تزعم بها فرنسة أنَّ كلّ ما يحصل عليه الريف من

الحرّية بموافقة إسبانيا لا بدّ من أن تحصل عليه المنطقة الإفرنسية من المغرب. إذ لا يمكن أن يكون قسم من المغرب متمتّعًا بأنظمة حرّة على حين أنَّ القسم الآخر الذي يفوقه خمسًا أو ستّ مرّات في العدد والمساحة والثروة يبقى محرومًا من هذه الأنظمة الحرّة، لا بل إذا تطبّقت هذه الأنظمة في المغرب الأقصى كان لا بدّ من تطبيقها حتمًا في الجزائر وتونس. فقد خابت آمال مسلمي الريف في قضيّة إصلاح أحوالهم، ومن شاء أن يتوسّع في معرفة هذا الموضوع فعليه أن يقرأ الجرائد الفرنسية الاستعمارية، وتلك الحملات الشديدة التي وجّهتها فرنسة وجرائدها حينئذٍ على الحكومة الإسبانية بمناسبة المواعيد التي بذلتها الجمهوريّة الجديدة للوفد التطواني. وفي هيعة الانقلاب الإسباني تألّفت الجمعيّة الإسبانية الإسلامية التي لم يكن من مقصد لها سوى التودّد للمسلمين وإنشاء العلاقات الاقتصادية والسياسية مع بلدانهم، ويدخل في ذلك إعادة الثقافة العربية إلى إسبانيا. وبناء على مساعي هذه الجمعيّة كان قد تقرّر تأسيس جامعة عربية في غرناطة وجعلها مدرسة قديمة باقية من زمان بني الأحمر، وإعادة الكنيسة التي في حمراء غرناطة جامعًا كأصلها، وغير ذلك ممّا يطول شرحه. ولا يستلزمه هذا المقام حتّى أنَّ ستّين نائبًا في المجلس أي نحو الربع من النوّاب كانوا يقترحون إعادة جامع قرطبة الأعظم للمسلمين لأجل تحقيق سياسة التقرّب التي كانت تتوخّاها الجمهوريّة الجديدة. وفي ذلك الوقت عندما تألّفت الجمعيّة الإسبانية الإسلامية ودخل فيها نخبة شبّان المغرب في المنطقتين اقترح بعضهم أن تسند الرآسة الثانية لهذه الجمعيّة إلى كاتب هذه السطور فجاء أحد أعضاء الجمعيّة المؤسّسين لها إلى جنيف واقترح علينا أنا وزميلي إحسان بك الجابري إجابة هذا الطلب الذي أصله من اقتراح المغاربة، فبرغم ضيق أوقاتنا واشتغالنا بقضايا وطننا المستغرقة جميع مجهوداتنا لم تسمح لنا غيرتنا على ملّتنا وقومنا بردّ هذا الطلب الذي جاء أناس من الإسبانيول أنفسهم يسألوننا إيّاه التزامًا. ثمَّ إنَّه جاءنا طلب آخر وهو أن نذهب بأنفسنا لحضور تدشين الجامعة العربية في غرناطة وأن ندعو لشهوده الجماع الغفير من نبهاء العرب مغربًا ومشرقًا، وأن نكتب لملوك العرب الثلاثة الملك ابن سعود، والإمام يحيى، والملك فيصل بن الحسين، بإرسال من ينوب عن حكوماتهم في تلك الحفلة الحفيلة. وبينما كنّا نتهيّأ للسفر وكنّا نكتب إلى الملوك المشار إليهم نرجوهم أن يرسلوا من يمثّلهم في تدشين جامعة غرناطة العربية، إذ علمنا بأنَّ الحكومة الإسبانية عدلت عن هذا المشروع فجأة، فلا تأسيس جامعة، ولا احتفال، ولا اجتماع عرب في غرناطة، ولا شيء آخر. ولو كان هذا وحده لهان الخطب ولكن الحملة الإفرنسية لم تقتصر على إحباط مشروع

الجامعة العربية بل، وهو الأهمّ، توجّهت بكلّ قوّتها على «البروغرام» التطواني فوقّفت تنفيذه. وبعد أن كان ناظر المعارف لأول إعلان الجمهوريّة ذهب فطاف في المنطقة الإسبانية ووعد بفتح مكاتب وكتاتيب في جميع القرى وتخصيص مبالغ المعارف العمومية في الريف، وبعد أن كان هذا الناظر يخطب في تطوان قائلاً للإسبانيول: اعلموا أنكم أنتم هنا بعد العرب لا قبلهم، إذا بالآية انقلبت رأسًا على عقب وسقط مشروع المكاتب والكتاتيب بالمقياس الواسع بغتة بدون أن ينتظر ذلك أحد، ولم يتنفّذ من المطالب الريفية إلاَّ قضيّة انتخاب البلديّات، ولكن مع بعض الإجحاف بحقوق المسلمين الذين لا ينتخب أعضاؤهم على نسبة عددهم. فهل سكتت الجمعيّة الإسلامية عن مطالب الحكومة بتنفيذ مطالب الريفيين؟ كلاّ. لبثت الجمعيّة برغم حملات فرنسة تعضد مسلمي الريف وتبيّن أنَّ سياستها في التقرّب إلى العالم الإسلامي هي سياسة صحيحة، وأنه لا ينبغي أن تكون سيطرة فرنسة على المنطقة الإسبانيولية كما هي على المنطقة الإفرنسية. فلتفعل فرنسة ما تشاء في منطقتها، ولكن ليس لها أن تتجاوز ذلك إلى منطقة إسبانية. ولم تكن إسبانية لتستفيد فائدة مادّية من منطقة الريف حتّى تعادي لأجلها مسلمي الريف والمسلمين أجمع! فإعنات مسلمي الريف لمجرّد إرضاء خاطر فرنسة ولمجرّد ترويج أغراضها، ليس من الصواب في شيء. هذه كانت سياسة الجمعيّة الإسبانية الإسلامية فليس معناه أنَّ هذه الجمعيّة أصبحت هي القابضة على زمام الحكومة في مجريط فهناك مقتضيات السياسة بإزاء فرنسة. وهناك العوامل الاقتصادية التي تربط الدولتين. وهناك الكثلكة وما أدراك ما الكثلكة. وهناك الجامعة اللاتينية وليست الجامعة اللاتينية لفظًا بدون معنى. وهناك الحزب الملكي وجميع أحزاب اليمين المقاومون لهذه السياسة. فإذا كان دخل زميلي السنيور فرانشي دولاروكا، رئيس هذه الجمعيّة، في إحدى الوزارات الإسبانية فلم يكن ليقدر على تسيير دفّة السياسة العمومية لإسبانيا بحسب مبادئ الجمعيّة التي يرأسها.

ومع هذا فكانت مساعينا لدى الجمعيّة مستمرّة وكتاباتنا متواصلة في شأن تنفيذ مطالب الريفيين. وإذ وجدنا الإبطاء في ذلك وأنَّ الناس قد تبرّموا بهذا الإبطاء والتثاقل عوّلنا على ترك هذه الجمعيّة وإلقاء حبلها على غاربها ولكنّنا قبل الانفصال التامّ أحببنا أن نستشير إخواننا المغاربة ولا سيَّما ذلك الوطني الكبير والمدقّق الخبير الحاجّ عبد السلام بنونة، رحمه الله، فأجابنا بأنَّ وجود هذه الجمعيّة هو على كلّ حال خير من عدمه، وأنه أولى أن يوجد للمسلمين في مجريط ملجأ يقال له البيت العربي، يقدر صاحب الحاجة منهم أن يلوذ به

ويتّخذ أعضاءه له أدلاّء من أن لا يكون لهم أقلّ سند في عاصمة إسبانيا يستندون عليه. فلمّا لم أجد من إخواننا مسلمي المغرب الذين داخل الجمعيّة ارتياحًا لاستعفائنا اضطررت أن أبقى فيها ولبثت أساعدها بكلّ ما يمكنني حتّى إنّي سعيت في تأسيس فروع لها في الشرق لتقدر الجمعيّة أن تقول للحكومة الإسبانية ولتقدر الحكومة الإسبانية أن تقول للحكومة الإفرنسية: إنَّنا نحن الإسبانيول لنا مرافق ومصالح مع بلاد الإسلام لا نقدر أن نتّخذها هزوًا ولذلك نحن نرى مصلحتنا في استجلاب مرضاة الريفيين. ولّما أرسلوا من مجريط لمقابلتنا في جنيف السنيورين "رافولس" و"مونتانير" يلتمسان إعطاء التواصي اللازمة لأحدهما للذهاب بها إلى الشرق أمليت ثلاثين وصاة أخذها السنيور "مونتنير" بيده وذهب بها إلى مصر ففلسطين فالشام فالعراق. وبعد غياب أشهر آب إلى وطنه وقدّم لحكومته تقريرًا، لا أعلم فحواه، ولكنّه قيل لي عن ثقة أنه ذكر أنهم قالوا له في بغداد: اذا كنتم تريدون أن نؤسّس بيننا وبينكم علاقات تجارية وسياسية على شيء من البال فينبغي أن نسمع أنَّ إخواننا مسلمي الريف شاكرون من طرز الإدارة الإسبانية في بلادهم. وأظنّ أنه سمع مثل هذا الكلام في أماكن أخرى. وقد كتب لي بعد رجوعه يشكر الاحتفاء الذي لقيه من جميع من كاتبناهم بشأنه ويذكر تأسيس فرع للجمعيّة بمصر. ولا شكَّ أنَّ الأسباب التي حملت بعض إخواننا في مصر على الاهتمام بتأسيس هذا الفرع كانت هي الأسباب التي حملتني أنا وسعادة زميلي على الدخول في هذه الجمعيّة ومتابعتنا الجهاد في تنفيس الخناق عن إخواننا الريفيين. ولا يمكن أن نقول إنَّنا وصلنا إلى أقصى الغرض ممّا سعينا له، ولكن ليس من الإنصاف أن نقول إنَّ الحالة هي الآن ولا سيَّما بعد مجيء المقيم العامّ الجديد تماثل الحالة التي كانت من قبل. فإنَّ الوطنيين أصبحوا هم العنصر الأهمّ في نظر الحكومة، وإنَّ الحكومة الإسبانية من رئيس جمهوريّتها، إلى رئيس وزارتها، إلى المقيم العامّ في تطوان، أخذوا يصرّحون بأنَّ الحركة الوطنية حركة طبيعية لا يمكن تجاهلها وليس من الصواب محاربتها، وإنَّ كلّ ما تبغيه الحكومة الإسبانية هو تأليف سياستها مع سياسة المسلمين على وجه يضمن مصالح الفريقين. نعم، إنَّ التعليم الذي يقترحه علينا إخواننا المغاربة الذين كاتبوا "الجهاد" لا يزال غير وافٍ بالحاجة بل لا يزال مفقودًا وهذا أمر لم نقصر في شيء من المراجعات لأجله ولكن الإسبانيول لا يزالون يعتذرون عنه بعدم مساعدة الميزانيّة المالية، ويقولون إنَّ إسبانية تنفق ملايين كلّ سنة على المنطقة الريفية من ميزانيّتها العمومية، فإذا أرادت أن تجعل التعليم عامًّا شاملاً كان عليها أن تنفق ملايين أخرى، والحال أنَّ نفس إسبانية موجود فيها

أكثر من مليون ولد بدون تعليم أصلاً، وأنه بالإحصاء العامّ تبيّن أنَّ في إسبانية أربعة ملايين وثمانمائة ألف ولد محتاجين إلى التعليم، مع أنَّ المكاتب والمدارس الموجودة لا تسع أكثر من ثلاثة ملايين، وأنَّ التعليم الأهلي الحرّ لا يشمل أكثر من نصف مليون. فالباقي من الأولاد أصبحوا بدون مكاتب ولا كتاتيب. وهذا قد نشرته نظارة المعارف في إسبانية بصورة رسمية في الجرائد، وأنا اطّلعت عليه في هذه المدّة في «جورنال دو جنيف» وواصلة مع هذه المقالة القصاصة التي تتضمّن هذا الخبر من الجريدة المذكورة. فالمسألة يلزم لها صبر وطول بال ويلزم لها عدا ذلك نهضة إسلامية في نفس الريف كما جرى في مصر مثلاً، لأنه لا ينبغي لنا أن ننتظر من غيرنا أن يقوم بمصالحنا ونحن غافلون عن مصالح أنفسنا. فقد كان يجب أن تكون المدرسة الوطنية التي يديرها الأستاذ السيِّد محمَّد داود في تطوان ويتجشّم لإحيائها ما يتجشّم من المشاقّ موضوع اهتمام جميع أهل المغرب، وأن تدرّ عليها المساعدات حتّى ترقى إلى درجة جامعة إسلامية عربية، وليس هذا الأمر بعزيز إذا توفّرت عليه الهمم.

فأمَّا قضيّة الأراضي في طرابلس الغرب فقد كتبنا إلى إخوان كثيرين منهم من هم في الشام، ومنهم من هم في فلسطين، ومنهم من هم في مصر، وكلّهم من مهاجري طرابلس، واستنهضنا همّتهم أن يستقصوا لنا عن الأشخاص الذين أخذت منهم أراضيهم غصبًا حتّى نسعى في إعادتها إليهم، لأنَّ عندنا وعدًا قطعيًّا من رئيس الحكومة الإيطالية ـ وهو الرجل الذي لولا صدق لهجته ما كان الآن عميد السياسة الأوربية تقريبًا ـ بأنَّ كلّ من يثبّت من المسلمين بأنَّ له أرضًا غصبتها الحكومة الطليانية أو غصبها أي طلياني بوجه غير شرعي، فإنَّها تعاد إليه. وكذلك كلّ من وقعت عليه ظلامة من أيّ نوع كانت وأمكنه أن يثبت ظلامته بتعيين الأسماء والأماكن والتواريخ بحيث لا تكون شكواه مبهمة فإنَّه يجب أن يكون واثقًا بإماطة ظلامته، وأنَّ زعيم إيطالية لا يرضى أن يكون أدنى فرق في المعاملة بين الأوروبيين والمسلمين. ولهذا في هذه الأيام الأخيرة، وحتّى يقدر أن يطّلع الاطّلاع الكافي على كلّ ما يجري في طرابلس وبرقة، تولّى هو بنفسه نظارة المستعمرات وضمّها نظارة سادسة إلى النظارات الخمس التي في عهدته، وهي الخارجية، والحربية، والبحرية، والمالية والطيران.

ومن جميع الذين كاتبناهم لم يرد إلينا حتّى الآن إلاَّ جوابان: أحدهما يتضمّن أنهم أرسلوا شخصًا يستقصي عن مثل هذه الحوادث ويحرّرها حتّى يبعثوا لنا ببيان وافٍ عنها. والجواب الثاني من رجل فاضل ذي منصب قضاء كتب إلينا بأنه كان استأجر الطليان منه

دارًا ودفعوا أجرتها على مدّة ثمّ عادوا فاغتصبوها واغتصبوا له أرضًا أيضًا في بلاده «مسلاّته»، وأنه ساعٍ في استرداد حقّه فإذا كان لم يحصل على حقّه فإنَّه يقدّم الاستدعاء اللازم عن يدنا حتّى نرفعه إلى رومة.

فإخواننا يرون أننا برغم كلّ ما نحن فيه من أشغال سياسية وأدبية ولغوية، إلى حدّ أننا نقسّم أوقاتنا عليها بالدقائق، قد اضطررنا أخيرًا أن نعرض أنفسنا على المظلومين لنكون وسطاء بينهم وبين الحكومات التي وقع عليهم الظلم في ظلّها، ولا نقول إنَّ لنا أدنى منّة في ذلك، ولكن على الذين يبتغون أن نساعدهم أن يكونوا هم مساعدين لأنفسهم.

ما أحد يجهل الحملة الشديدة التي حملناها على إيطالية في مجلّتنا لاناسيون آراب وفي الصحف العربية والتي نقدر أن نقول بدون تبجّح إنَّا نحن كنّا القائمين بها قبل الجميع وإنَّنا لم نحابِ فيها زعيم إيطالية برغم ما سبق من مساعدته لنا في القضيّة السورية، قبل أن تولّى زعامة إيطالية، وبرغم شعورنا بالاحتياج إلى مثله في قضيّة سورية وقضيّة فلسطين اللتين هما الآن في أشدّ معمعانهما، وبرغم اعترافنا بأنه كان مساعدًا على تصديق استقلال العراق وإدخاله في جمعيّة الأمم. فلا يقدر أحد أن يتّهمنا بأننا حابينا على قومنا عندما مسّهم الضرّ، ولا يقدر أحد أن يدّعي القيام بما قمنا به في خدمة إخواننا الطرابلسيين. وقاتل الله التحامل الذي يسوقنا إلى التذكير بمثل هذه الواجبات التي كنّا نتجنّب ذكرها فيا ترى، لو لم يكن موسوليني عبقريًّا نادر النظير في هذا العصر وأراد أن يمضي في إنفاذ سياسة الجنرال غراسياني وأمثاله في طرابلس، مضاء لا يسمع معه شكوى للمسلمين، فما القوّة التي هي في يدنا لأجل أن نجبره على سلوك خطّة الإنصاف؟ وماذا يقدر الوفد السوري الفلسطيني أن يعمل في وجه دولة تتزاحم الدول الكبرى في الوقت الحاضر علىاستجلاب ميلها؟ كما يعلم ذلك كلّ أحد. فإذا كان موسوليني يسألنا عمّا يشكو منه مسلمو طرابلس وبرقة ويطلب منّا الإدلاء بالأدلّة والبراهين على صحّة ما وقع من الولاة والقوّاد الذين ارتكبوا تلك الأفاعيل، وإذا كان يعزل الجنرال غراسياني مع خدمته العظيمة لإيطالية في إخماد الثورة السنّوسية، وإذا كان يعيد الثمانين ألف عربي الذين كان غراسياني أخلى منهم جميع الجبل الأخضر وأسكنهم في فلاة سرت القاحلة، حتّى هلك منهم بضعة عشر ألفًا وكان الباقي منهم سينقرضون لا محالة لو لم يأمر زعيم إيطالية بإرجاعهم إلى أوطانهم؛ أفلا يكون هذا العمل وهو إنقاذ ثمانين ألف عربي من مخالب الهلاك وإعادة العرب إلى الجبل الاخضر، بعد أن كان خلا من الإسلام

تمامًا، ولم يبقَ منهم فيه نافخ نار سببًا موجبًا أن نتفاهم مع هذا الرجل العظيم، وأن نشكر له إنصافه وعدله وعدوله عن سياسة الجفاء إلى سياسة الصفاء. أيرى الناس المنصفون أنَّ بعض مقالات طعن وقذف بحقّ إيطالية هي أنفع للمسلمين من استحياء ثمانين ألف نسمة وردّهم إلى أوطانهم؟ لعلّ أناسًا من الذين ينتقدون تفاهمنا مع إيطالية لا يقيمون وزنًا لاستنقاذ ثمانين ألف نسمة عربية من الهلاك لأنهم بعداء عن ذلك المحل وربّما لا يشعرون بالجامعة التي نشعر بها. ولكنّنا نحن الذين كانت أكبادنا تتحرَّق على تشديد تلك الألوف من إخواننا العرب من الصحراء نقدّر قدر رجوعهم ونقدّر لموسوليني العدالة وهذه الإنسانيّة بل هذه اليد البيضاء عملاً بقوله تعالى: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ الحقّ من ربّك فلا تكوننَّ من الممترين﴾[2]. ونقدّر له أيضًا استعداده لسماع شكاوى المسلمين أيًّا كان بحقّ أيٍّ كان. فإن كان عندهم طريقة ثانية للوصول إلى ما وصلنا نحن إليه بالسياسة فليتفضّلوا بإخبارنا عنها. ونزيد على ذلك أنه بينما دولتان من أعظم دول الاستعمار تتفّقان على تهويد فلسطين ونزعها من أيدي العرب بجميع الوسائل الممكنة، وعلى حرمان سورية من الاستقلال الذي هو حقّها وعلى تمزيقها كلّ ممزّق، وتجد سائر أعضاء جمعيّة الأمم لا يبدون ولا يعيدون في هاتين المسألتين الحيويّتين للعرب، كأنهم لا يعنيهم شيء من أمرنا، تجد موسوليني واقفًا موقفًا لا يقدر عربي واحد أن ينسب إليه فيه أقلّ تحامل بحقّ العرب، بل موقفًا فيه عطف منه نحو العرب، ولو كان العرب فيه مساعدين لأنفسهم لوجدوا فيه منه عضدًا كبيرًا قادرًا على التقديم والتأخير.

قالوا إنَّ هنري الرابع عندما ملك فرنسة والتزم أن يتحوّل كاثوليكيًّا عن البروتستانتية قال: إنَّ باريز تساوي قدّاسًا.

ونحن نقول: إنَّ إنقاذ ثمانين ألف عربي من الهلاك على حين لا نقدر على إنقاذهم لولا رضى موسوليني، وإنَّ مصالحنا السياسية التي لأجلها نحن في أوروبة والتي هي الدفاع عن حياة العرب السياسية وكيانهم في سورية وفلسطين والعراق، تساوي أن نتفاهم مع إيطالية ما دامت تريد أن تنصفنا وتعترف بحقوقنا وتعضدنا في المواقف. صرّحنا أننا من قديم الزمان أصحاب سياسة عملية لا يهمّنا الشهرة ولا نقصد التهويش ليقال عنّا إنّنا مخلصون،

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٧.

فالسياسة العربية العملية التي هي رائدنا قضت علينا بأن نتفاهم مع زعيم دولة عظمى كموسوليني له ما له من النفوذ في العالم، وأن نتلو قوله تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾[1]. وأيّة دولة من الدول مدّت إلينا يد المساعدة أو عاملتنا نحن العرب وعامّة المسلمين بالإنصاف والمساواة وكفّت عمّا تسلكه نحونا من الشطط والاعتساف فإنّنا حاضرون للتفاهم معها والتجاوز عمّا سلف منها، لأنَّ السياسة كلّها هي عبارة عن تبادل المنافع بين الأمم. هذه مصر وقد غصبت إنكلترة حقوقها من ٥٣ سنة أتراها استنكفت عن التفاهم مع إنكلترة؟ ومتى؟

جنيف، ٢٧ شوّال ١٣٥٣هـ/١٩٣٥/٢/٢م شكيب أرسلان

ملحق - بينما أنا أحرّر هذه المقالة جاءني من رومة بلاغ رسمي بأنَّ المارشال بالبو جمع أعيان بنغازي في دار الحكومة وأبلغهم أنَّ الحكومة الإيطالية قد عفت عن جميع المحكوم عليهم بسبب الثورة بالسجن مدّة ٢٠ إلى ٣٠ سنة.

ثمَّ أبلغهم أيضًا أنَّ الحكومة قرّرت لهم اعتمادًا ماليًّا لأجل زيادة مواشيهم وأنها ستبدأ منه بدفع المبلغ المخصّص للجمال فتؤدّي الحكومة نقدًا إلى الفقراء ما يشترون به جِمالاً وتقرض الأغنياء بفائدة خفيفة من صندوق التوفير.

ثمَّ أبلغهم أنَّ الحكومة خصّصت مليونًا و٥٠٠ ألف ليرى (فرنك طلياني) لأجل إصلاح الآبار والمعاطن.

فتلقّى الأهالي هذه التبليغات بشكر عظيم للسنيور موسوليني زعيم إيطاليا. أ.هـ

هذا هو نصّ البلاغ الرسمي الذي جاءني الآن. أحببت نشره حتّى إذا كان الواقع خلافه يقوم من يصرّح لنا بذلك. ولكنّي لا أرى إمكان أن يشاع هذا بصورة رسمية ولا يكون صحيحًا! وإذا كان صحيحًا وتذكّرنا نحن مراجعاتنا للزعيم بهذا الشأن أفلا يكون حقًّا أن نشكر نحن أيضًا موسوليني على جميل صنعه بإغاثة أولئك المساكين؟ وإذا كنّا شكرنا زعيم إيطاليا على هذا الجميل الذي لولاه لم يمكن الحصول عليه أفنكون ارتكبنا إثمًا وقمنا بدعاية استعمارية لإيطالية؟

---

(١) سورة التوبة، الآية ٧.

نسأل الذين ينتقدون تفاهمنا مع إيطاليا حبًّا بإغاثة إخواننا مسلمي طرابلس وتخفيفًا لويلاتهم وتقريرًا لهم في أوطانهم التي كادت تخلو من الإسلام: ما الطريقة العملية التي يرونها هم لأجل تسكين أوجاع هؤلاء الإخوان وتضميد جروحهم؟ وبقاء الإسلام في طرابلس؟ هؤلاء كانوا يجاهدون من سنين طوال ويتحمّلون ما يتحمّلون من العذاب والجوع في جهادهم فهل تفضّل عليهم هؤلاء المنقذون بجنيه واحد؟ إنَّنا نعلم تاريخ جهاد طرابلس أكثر من كلّ أحد ونعلم تاريخ سيدي أحمد الشريف رضي الله عنه أكثر من كلّ أحد، لأننا كنّا يده اليمنى فلذلك نرى الأحسن اختيار السكوت...

شكيب



حركة القضيّة الفلسطينية

بيان لم يوضّح بعد*

مقال لعطوفة الأمير شكيب أرسلان
في مجلّة "لاناسيون آراب"

على أثر الإضطرابات الأخيرة في فلسطين أذاعت وزارة المستعمرات البريطانية منشورًا تقول فيه إنَّ الحكومة البريطانية قرّرت تنفيذ صكّ الانتداب الذي ألقيَ على عاتقها منذ ثلاثة عشر عامًا تنفيذًا تامًّا.

وتقول إنَّ هذا الانتداب يشتمل على تعهّدات لكلّ من العرب واليهود سيراعى في تنفيذها جانب الحقّ والعدل، ويتضمّن (أي الانتداب) من جهة أخرى وجوب تسهيل إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، كما يشتمل في الوقت نفسه على حماية حقوق جميع سكّان فلسطين، وأنَّ هذين التعهّدين سيحافظ عليهما المحافظة التامّة.

إنَّنا لم نقرأ في حياتنا منشورًا لا يفيد أيّ معنى كهذا المنشور. وإنَّه لمن الؤسف حقًّا أن تتوارى حكومة كالحكومة الإنكليزية خلف مواربات كهذه ظانّة أنها بعملها هذا ترضي جميع العناصر.

وليسمحوا لنا بأن نجيب بالإيجاز الممكن على هذا المنشور الذي لم يكن نصيبه من الوضوح كبيرًا. وسنوجز كثيرًا في جوابنا إذ لسنا في حاجة إلى كثرة الكلام ما دامت قضيّتنا عادلة تستنير بنور الحقّ الساطع.

إنَّا لنوجّه أول الأمر هذا السؤال:

من الذي كلّف الحكومة البريطانية بهذا الانتداب الذي اعتبرت نفسها كفيلة بالقيام به؟ إنَّها بالاشتراك مع بعض السلطات أعضاء جمعيّة الأمم، كلّفت نفسها بما سمّته "انتدابًا" متّبعة في ذلك معاهدات تقسيم سرّية أبرمت بينها وبين فرنسة أثناء الحرب العالمية، بل إنَّ عهد إبرامها يعود إلى عام ١٩١٢ أي قبل هذه الحرب. ثمَّ إنَّنا نجاهر بأنَّ هذه المجموعة الكبرى لعصبة الأمم ليست شيئًا مذكورًا فيما يتعلَّق بتخصيص بريطانية بهذا الانتداب

* الفتح، العدد: ٤٣٩، العام التاسع (١٩٣٥/٣/١٤م)، ص ص. ٦ ـ ٧.

المزعوم، وما هو إلاَّ (مجلس تقسيم الغنائم) الذي يدعى «مجلس عصبة الأمم» الواقع تحت تأثير إنكلترا وفرنسة والذي قدّس معاهدات الاقتسام السرّية قبل الحرب، فهو الذي قام بهذا التخصيص بشكل اغتصابي جديد. وعلى افتراض صحّة توجيه هذا الانتداب من قبل جمعيّة الأمم، فليس معناه القطعي أنَّ إنكلترا هي المكلّفة به في فلسطين، وليس من الممكن أن يكون هذا الانتداب مشروعًا ما دام الشعب الفلسطيني غير راضٍ عنه، مع العلم بأنَّ هذا الشعب لم يقبل قطم الرضوخ لهذا النير الإنكليزي ـ اليهودي الذي يطلقون عليه خطأً اسم «الانتداب» وهو انتداب لا يقوم على أساس مشروع.

ونضيف أيضًا أنَّ الإدارة الحالية في فلسطين هي أبعد شيء عن أن تكون إدارة «انتدابية». وليس على من يريد الوقوف على حقيقة ذلك إلاَّ أن يرجع إلى أنظمة جمعيّة الأمم الباحثة عن هذا الانتداب فيرى أنَّ ليس في فلسطين نظام أو قانون يطابق أو يوافق ما أرادوا أن يسمّوه «انتدابًا» وما هو إلاَّ نظام للحكم المباشر لا أكثر ولا أقلّ.

ننتقل الآن بالبحث إلى قضيّة التعهّدات التي قطعتها إنكلترا على نفسها لكلّ من العرب واليهود.

إنَّ إنكلترا ليس لها أن تتعهّد بشيء في بلد كفلسطين لا تمتلكه. فهذا القطر داخل ضمن حدود الإمبراطوريّة العربية المعترف باستقلالها من إنكلترا في العهود المقطوعة من قبلها للملك حسين عام ١٩١٥ معلنة تعّهدها باحترامها وتحقيقها مقابل دخول جلالته الحرب في صفوف الحلفاء.

فالعرب في فلسطين إذًا هم في ديارهم وهم سادة هذه البلاد الوحيدون. فإذا كانت إنكلترة تريد أن تمنح اليهود وطنًا قوميًا فما عليها إلاَّ أن تمنحهم إيّاه في مستعمراتها الخاصّة أو في إنكلترا نفسها، وليس في بلد لا تستطيع إنكلترا أن تدّعي فيه بأيّ حقّ مشروع من حقوق الملكية. فهذا الجود من مال الغير لا يقابل من ذلك الغير بالشكر وعرفان الجميل.

ثمَّ إنَّنا نسائل إنكلترا ماذا تعني بـ«الوطن القومي اليهودي» وماذا يتضمّن هذا الوعد؟ إنَّه لفي درجة من التفاهة لا يستطيع شرحها أي معجم في العالم. وفوق ذلك فإنَّ حقّ اليهود في أن يصبحوا الأكثريّة في فلسطين هو ما يرفضه العرب على اختلاف طبقاتهم، وقد قرّروا أن يحولوا بجميع الوسائل الفعّالة دون وقوع هذه الكارثة الخطيرة.

فاليهود الذين كانوا ستّين ألفًا خلال الحرب بلغوا الآن مائتين وعشرين ألفًا[1].

وإذا دامت الحال على هذا المنوال فلا يمرّ عشرون عامًا حتّى يصبحوا الأكثريّة الكبرى. فالعرب لا يسلمون أن يصبحوا غرقى هذه الأغلبية اليهودية، بل لا يحتملون هذه الزيادة الواقعة في عدد اليهود، وإنّ هذا لمن حقّ العرب الصريح لأنهم هم سادة فلسطين وأصحابها الحقيقيون، وليس الإنكليز.

والواقع المحسوس أنَّ الإنكليز والفرنسيس وجميع أنصار اليهود يصدفون عن فهم هذا، وماداموا لا يفهمونه فمن المستحيل أن يسود الوئام وستقع اضطرابات أشدّ هولاً من سابقاتها بالرغم من وجود الحراب الإنكليزية.

ماذا تقصد إنكلترة بإعلانها أنها تتعهّد بحماية حقوق غير اليهود في فلسطين؟ أتريد أن تقول إنَّها لا تدع يهوديًا واحدًا ينتزع من عربي أرضه؟ وإنَّها تسلّم بأن يضرب يهودي عربيًا؟ أم ماذا؟

فكلمة «الحقّ» هذه ماذا ينطبق عليها من تفسير في نظر إنكلترا؟ إنَّنا ننشد أحكامًا عادلة، وإن إنكلترا لا تستطيع أن تستمرّ في ترك هذه الشعوب تعيش في محيط من الغموض والإبهام فمن أين يبتدئ هذا «الحقّ» وأين ينتهي؟ وإذا كان هذا «الحقّ» في نظر الإنكليز هو عبارة عن أنَّ اليهودي لا يستطيع أن يرتكب جرمًا يتعلّق بالحقّ العامّ ضدّ العربي دون أن يلقى جزاءه، فإنَّ العرب لا يرضيهم هذا السخاء من الإنكليز لأنّهم لم ينحطّوا بعد إلى درجة يستطيع عندها يهودي أن يضربهم أو ينتزع منهم ملكهم بالقوّة، فللعربي حقوق «سياسية» في فلسطين، وهذا ما نريد إفهامه لأصدقائنا الإنكليز بقوّة وصراحة. فالعرب الذين هم سادة فلسطين منذ ألف وثلاثمائة سنة لا يسمحون لسلطة أجنبية أن تقدّم بلادهم هديّة لشعب فقدَ فلسطين منذ خمسة وعشرين قرنًا.

إنَّ إنكلترا تستهين بالعرب كثيرًا عندما تطمع أو تعتبر أنَّ لها حقًّا أن تمنح «أوطانًا قومية» لأجانب في وسعها أن تؤيهم في بلادها لا في بلاد العرب. وسيعرف العرب كيف يبرهنون لبريطانيا العظمى على أنهم لا يقبلون الإهانة ولا يرضون بالذلّ.

شكيب أرسلان

---

(١) الحقيقة أنَّ عدد اليهود في فلسطين زاد الآن على أربعمائة ألف.

فلا تَذُبْ من حياءٍ حين تستمع*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

قرأت ما كتبه الأستاذ السيِّد محمَّد تقيّ الدين الهلالي عنّي في عدد ٩. ذي الحجّة من "الفتح" وما أكملتُ بعض أسطر من ذلك المقال حتّى شعرت بخجل شديد أوقفني عن إتمام قراءته. ثمَّ شجّعت نفسي واستأنفت القراءة حتّى أتيت على الفصل الذي تفضّل به الأستاذ إلى آخره. ووالله لم يكن ذلك سهلاً لأنَّ مقارعة الأبطال ومباشرة الأهوال أهون على المرء من مقابلة المديح ومواجهة الجميل، لا سيَّما إذا كان الذي أسدى ذلك الجميل هو من العلم والفضل وحرّية الفكر وجلالة القدر بمكان السيِّد الهلالي. وقد بقيتُ هذه المدّة كلّها متحيِّرًا لا أدري كيف أصنع في مقابلة هذا الإحسان: أهمّ بتقديم الشكر لحضرة الأستاذ المنعم المتفضّل فأخشى أن يقول الناس إنَّ فلانًا يتقارض الثناء ويتبادل الإطراء مع صاحبه، وكلّ منهما يمتدح الآخر حتّى يستزيده. فأقف واجمًا وأعود عَيًا قد أُرتجتْ عليَّ جميع أبواب القول. ثمَّ أرجع إلى نفسي فأقول: يا هذا ليس من المروءة ولا من التواضع ولا من الأدب ولا من الكرم أن تكون موضوع ثناء جميل كهذا من رجل أبيّ النفس حميّ الأنف لا يرى لاَبن حرّة عليه يدًا ولا يحاجي على الحقّ أحدًا وتبقى ساكتًا مُبْلسًا كأَنَّك مررت بهذا الكلام فلم تجده شيئًا، وكأنه إنَّما كان بعض ما يجب بحقّك، والحال أنك تعلم نفسك وتدري أنك من ذلك الثناء بمنزلة الأرض من السماء، أفلا أجبت ذلك الفاضل على جميله وشكرته على ما خلع عليك من فضله وحباك من إحسانه وهل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان.

إنّي لا أقدر أن أكذّب السيِّد تقيّ الدين الهلالي لأني وإن لم أعرفه وجهًا فقد عرفته بيانًا، والبيان هو العيان والإنشاء هو الإنسان، وما كان تقيّ الدين الهلالي ليتزلّف إلى مخلوق حتّى يتزلّف لعاجز مثلي، وما كان ليدلّس على الحقّ في الحديث عنّي وهو الذي لا يدلّس في كلمة ولا في حرف من جميع أحاديثه. ولكنّي من الجهة الثانية لا أقدر أن أقول إنَّه أصاب فيما نحلني إيّاه من الأوصاف ورآه لي من الأعمال، وغاية ما أقول إنَّ الأستاذ السيِّد تقيّ الدين الهلالي نسخ نسخة عن نفسه وطبّقها عليَّ، وروى ترجمة حاله وأعادها إليَّ. والله

* الفتح، العدد: ٤٤١، (١٩٣٥/٣/٢٨م)، ص ص. ٨ ـ ٩.

تعالى يجزيه عنّي خيرًا ولا عدمته نصيرًا. ومهما كان من تحامل المتحاملين وافتراء الحاسدين ومراء المعاندين فكلّ ذلك أراه خيرًا إذا أدّى إلى ما أدّى إليه من من هذه الغضبة الهلالية التي أعدّها من فضل الله عليَّ والتي أقاتل بها في كلّ مأزق.

تذكّرت هنا قصيدة شوقي رحمه الله للرحّالة المصري الشهير أحمد بك حسنين عندما قال له في حفلة تكريمه: «فلا تذُب من حياء حين تستمع». والحقّ فيما قاله شوقي فإنَّ الإنسان ليذوب حياء إذا سمع الثناء من الذين يعتقدون ما يقولونه. ويسأل الله في مثل هذه الحال قائلاً: اللّهمّ إجعلني خيرًا ممَّا يظنّون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ولا أقدر أن أملك نفسي من ذكر نقطة وردت في كلام هذا السيِّد قال: «هب أنَّ الأمير شكيب هادن الإيطاليين ولا مهادنة إلاَّ بعد محاربة، أو حاربهم أحد في الشرق مثله؟ أليس عارًا على بعض الناس أن يناموا نومة عبّود ما دام شكيب يحارب أعداء الأمّة حتّى إذا برق بارق هدنة استيقظوا وأخذوا يزمجرون ويتّهمون ويتوعّدون. أيحقّ لمن لم يشارك في الحرب أن يتكلّم في المهادنة؟».

نعم إنَّ هؤلاء الذين قاموا يعيبون علينا مهادنة إيطالية بعد محاربة طويلة قاتلنا فيها الطليان باللسان والسنان، لم تسبق لهم قدم ولا جرى لهم قلم في حرب تلك الدولة، بل نقدر أن نقول إنَّه ما جرى لهم قلم ولا ظهر لهم اسم ولا بطن في مسألة عائدة للعالم الإسلامي، ولا نبض لهم عرق ولا مرّة في الدفاع عن المسلمين الذين سيموا من الخسف وتحمّلوا من العذاب ما رثى له الحجر فضلاً عن البشر. فلو أنَّ الذين عابوا مهادنتنا للطليان كانوا حضروا المعركة ساعة واحدة بالأقلّ لربّما كنّا عذرناهم فيما تحاملوا، ولكنّ هؤلاء الدسّاسون من وراء الستار الذين يعلمون أنفسهم أنهم في حياتهم ما ردّوها من كريهة، كانوا يدسّون في الخفاء وينشرون افتراءاتهم بتواقيع مستعارة ومبهمة لمعرفتهم أنَّ أول جواب يجيبهم الناس إيّاه هو هذا: إنَّ هذه القضيّة إن أصاب فيها شكيب أرسلان فيكون اجتهاده صوابًا وإن أخطأ فيها فليس لكم أنتم أن تتكلّموا في تخطئته لأنكم على كلّ حال خارجون عن هذه القضيّة. شكيب أرسلان جاهد في سبيل طرابلس الغرب أربعًا وعشرين سنة، وله في هذا الجهاد ما لو جلّد كتبًا لبلغ عدّة أجلاد، وله في حاضر العالم الإسلامي على طرابلس ستّون أوسبعون صفحة من قرأها علم أنه لم يكتب في بابها مثلها. فلنفرض أنه بعد أربع وعشرين سنة جهادًا مستمرًّا جنح إلى السلم أفأنت الذي ليس لك في هذ القضيّة جهاد أربع وعشرين ساعة ولا أربع وعشرين دقيقة أن تقيم النكير عليه أو أن تقدح فيه؟

هذا ما نقوله جدلاً. وأمَّا حقيقة الحال فهي أننا لم نقاتل إلاَّ لأجل المسلمين، ولم نهادن إلاَّ لأجل المسلمين، وإنَّ مهادنتنا هذه التي لم ننكرها ولا أسررنا فيها حسوًا في ارتغاء، إنَّما كانت تخفيفًا لويلات كثيرة. وبواسطة هذه المهادنة نفسها سكّنا لهم أوجاعًا وضمّدنا جراحًا وأنقذنا، ولله الحمد، عشرات ألوف من عرب الجبل الأخضر لولا عناية موسوليني لأكلتهم الصحراء بأجمعهم. وليس هذا كلّ ما أثمرته هذه المهادنة بل سيتلو ذلك أعمال يحمد مسلمو طرابلس غبّ سراها. وعلى فرض أنَّ تلك المواعيد في إنصافه لم تنجز فنحن غير مقيّدين بخاطر أحد لا إيطالية ولا غيرها، وإنَّما نحن وقف على مصالح المسلمين نهادن من راعاهم ونقاتل من عاداهم أيًّا كانوا، ولا نقول للأبيض أسود ولا للأسود أبيض، والسلام.

جنيف، ٢٨ ذي الحجّة ١٣٥٣هـ/١٩٣٥/٤/٣م　　　　شكيب أرسلان



ينبغي أن يكون عندنا عزّة نفس عربية*

بقلم كاتب الشرق الأكبر
عطوفة الأمير شكيب أرسلان

أجمعت هذه الأمّة - إلاَّ العميان في بصائرهم - على أنَّ سياسة الكماليين من أولها إلى آخرها سياسة هدم للإسلام من أركانه، وقلع من أصوله. وهذه عشر سنوات مضت لم تمرّ منها بضعة أشهر إلاَّ جاء الكماليون فيها بحملة جديدة على الشريعة الإسلامية، وما زال هذا الأمر يتفاقم ويتعاظم إلى أن صارت الحال ما صارت إليه، والناس يرجون أنَّ حكومة أنقرة قد تكتفي بهذا الخروج كلّه وتجده وافيًا بحاجة نفسها، ولكنّهم سيعلمون أنَّ هذا التدريج سيكون مطّردًا مستمرًّا، وأنَّ القوم سيصلون إلى غايات أبعد جدًّا ممّا يظنّ الناس؛ والمستقبل كشّاف الأمور.

وإنَّ هذه الحرب العوان من أولئك الجماعة للإسلام أكثرها لأجل بغضائهم للعرب. وقضيّة إلغاء الحروف العربية لم تكن كما يزعمون لأجل تسهيل القراءة على أولادهم، فهذا لم يمرّ لهم على بال، ومزايا الخطّ العربي أعظم جدًّا من مزايا الخطّ الروماني، ولكن المراد الحقيقي هو الفصل التامّ بين العرب والترك ومنع قراءة القرآن. ويلحق بهذا سعيهم الفاشل ودأبهم الغائل بإخراج الألفاظ العربية من اللغة التركية، وقد بحثوا في لغتهم القديمة فوجدوا عددًا من الألفاظ أحلّوه محلّ الألفاظ العربية وصارت الأمّة التركية تتعلّم من جديد لغتها. ولكن لم يقدروا أن يستغنوا عن أكثر الألفاظ العربية التي لم يجدوا لها مرادفًا في تلك اللغة القديمة، فقرّروا تتريك الألفاظ العربية التي هم في ضرورة لقبولها.

ومن هذا الضرب منعهم التعليم في جميع تركية. إلاَّ أني سمعت أنَّ مستشار المعارف الهولاندي الذي أتوا به سفّه رأيهم في طرد العربيّ من مدارسهم، ولا أعلم إذا كانوا سمعوا نصحه، لأنه في قضيّة العرب وفي قضيّة الإسلام كيفما نصحهم الإنسان يذهبون إلى عكس النصح.

---

* الفتح، العدد: ٤٤٣، العام التاسع (١٩٣٥/٤/١١م)، ص ص. ٢ - ٣.

وقد جاء في (الفتح) بالعدد الأخير أنهم أصدروا الأوامر إلى أماكن التمثيل بعدم تمثيل أيّ شيء فيه إظهار لمزايا العرب أو الإسلام، وهذا الخبر صحيح لأنهم يريدون قتل هذه الروح بتمامها حتّى لا يبقى في الناشئة الجديدة من الأتراك من يريد أن يشمّ رائحة الإسلام أو يبقى في قلبه أقلّ عاطفة نحو العرب.

وبرغم هذا كلّه نجد كثيرًا من أبناء العرب غير حافلين بهذه الإهانات المتتابعة من الكماليين نحو الإسلام عمومًا والعرب خصوصًا. من العرب من يدافع عنهم ولا يبالي، ومن الجرائد العربية من ننشر أخبارهم ونعجب بهم، وقد يوجد أناس يغضبون للكلام عنهم بأقلّ لوم: وجاءني مرّة مكتوب لم أجاوب عليه، يتضمّن تنديدًا شديدًا بي لأجل تنبيهي الأمّة الإسلامية إلى مَعاول الهدم التي في أيدي الكماليين ينقضون بها بناء هذه الأمّة حجرًا حجرا. ورأيت مرّة مراسلاً يقول: إنّ منع الكماليين للحجّ ليس بجريمة، فالأموال التي تنفق على الحجّ كان الأولى أن يشترى بها غوّاصات أو دبّابات. وسخافات من هذا القبيل. وليس من العجب أن يوجد في الدنيا سخفاء كهذا، بل من العجب أن تقبل الجرائد العربية مثل هذا الهراء. وربّما كان هذا قد سمع هذه الجملة من أحد الكماليين، وبسبب قلّة عقله تلقّاها كأنها صواب، ولم يعلم أنّ جميع الأمم المتمدّنة تنفق على الأمور الدينية والمعنوية والتهذيبية بقدر ما تنفقه على الأمور المادّية والحربية والبدنية، وأنّ المجتمع البشري لا يقوم إلاّ بهذين الأمرين معًا، وأنّ الحجّ فيه فوائد معنوية وتوبة عن الآثام ورجوع إلى الله وتطهير للنفوس وإنابة إلى الحقّ وتحلية بالفضائل وتقوية لرابطة الإسلام وتأكيد للإخاء الإسلامي ممّا بدونه لا تنفع الطيّارات ولا الدبّابات ولا الغوّاصات إذا كان هؤلاء القوم يريدون أن يبقوا مسلمين، بل إذا كانوا يريدون أن يبقوا بني آدم.

هل قدر مصطفى كمال أن يثير هو ورفاقه تلك الثورة في الأناضول على دول الحلفاء، ويدفعوا اليونان عن بلادهم، ويعيدوا استقلالها إلاّ بالدين الإسلامي وبرجاله، هؤلاء المشايخ الذين هم الآن في أشدّ العذاب، ومنهم من شُنق، ومنهم من انقطع في داره، ومنهم من يتمنّى الموت حتّى يخلص من هذه المشاهد.

كلّ من يقول إنّ تركية قدرت أن تقاوم اليونان في حرب الأناضول أو الحلفاء، وأن تسترجع استقلالها بسبب مصطفى كمال أو فلان أو فلان فهو إمّا جاهل أو متجاهل. إنّ الذين قالوا بتلك الثورة الوطنية هم رجال الدين الإسلامي في تركية الذين على رءوسهم

العمائم، فانقاد لهم الشعب التركي فبهم لا بغيرهم نهض. ولّما رأى هؤلاء الضبّاط كون الشعب ناهضًا التحقوا به وتظاهروا بالتديّن وحضروا قراءة الموالد الشريفة وفتحوا مجلس أنقرة الكبير بقراءة البخاري الشريف ودخلوا إلى المجلس وفي أيديهم حُقٌّ يتضمّن الشعرات النبوية الشريفة. وما زالوا يفعلون أشياء من هذا القبيل حتّى انعقد الصلح في لوزان وكان ذلك كلّه مراعاة لأرباب العمائم الذين هم قوّاد الأمّة. فلمّا انتهت الحرب فأتت فئة الإلحاد هذه فضربت بساعفها أولئك الذين كانوا السبب الوجيه في انتصارها.

ونعود إلى موضوع العرب فلا أعلم ماذا وجد هؤلاء الذين ما زالوا ينتصرون للكماليين ويعجبون بهم من إكرام الكماليين للأمّة العربية؟ وهم أشدّ الأمم بغضاء لها واحتقارًا أيضًا. حاشا أن نقول إنَّ هذه الإحساسات هي إحساسات الشعب التركي فالشعب التركي يرى بمجموعه من أعمال أنقرة. إلاَّ أنه مهما كان الأمر فهذه هي الحقيقة الراهنة بالنسبة إلى الحكومة التركية ومن الواجب علينا أن ننتصر لأنفسنا ونحافظ على كرامتنا. وقد ذكرت مرّة في "الفتح" بهذ المناسبة كلمة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وأنا الآن مكرّرها: "أظلم الظالمين لنفسه من يودّ من لا يودّه، ويكرم من يهينه".

قرّروا في الآستانة عقد (مؤتمر نسوي) فقام بعض نساء سورية يردن حضور هذا المؤتمر، فأرسلت حكومة تركية تبلغهنّ بأنها تقبل حضورهنّ بشرط أن لا يتلفظن بكلمة عربية في المؤتمر.

فأخذت الجرائد العربية تنصح هؤلاء النسوة بالعدول عن غشيان هذا المؤتمر التركي الكمالي، ولكنّها لم تقدر حتّى هذه الساعة على منع هذا الأمر.

وبالاختصار لا نفهم كيف أنَّ أناسًا منّا يوطّنون أنفسهم على قبول هذه الأعمال الماسّة بكرامتنا وإلى متى لا يشعرون. إن لم يغاروا على دينهم أفلا يغارون على قوميّتهم؟ صدرت الأوامر الصريحة من حكومة أنقرة في هذه السنة نفسها، وقرأناها في الصحف، بأنَّ كلّ كلمة أجنبية سواء من اللغة الإفرنسية أو من اللغة الألمانية أو من اللغة الإنجليزية يقدر التركي أن يستعملها في لغته التركية، والباب مفتوح أمامها وأهلاً وسهلاً بها وشرف عظيم لتركيا أن تدخل هذه الكلمة في لغتها، فأمّا الألفاظ العربية فممنوع استعمالها بتاتًا، وإذا وجدت ألفاظ عربية لم يمكن الاستغناء عنها فيجب تتريكها وتغيير صورة التلفّظ بها.

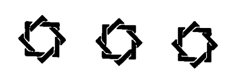
أيكون علامة على الازدراء والبغض أكثر من هذا؟ وإلى متى نحبّ من لا يحبّنا ونحترم من لا يحترمنا، ونجعل أنفسنا مجرّدين من عزّة النفس. أفلم نسمع قول شاعرنا "ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم".

جنيف، ١٢ المحرّم ١٣٥٤هـ/١٦/٤/١٩٣٥م

شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

فهرست المحتويات





١٨٦٩ - ١٩٤٦

"لقد عوّد العالم الإسلامي هذا الفقير كاتب هذه السطور أن يسمع نداءه ويعتقد صحة روايته. هذا من فضل الله عليّ، ومما يسلّيني في غربتي المتمطّية بصلبها. ولي على استماع هذه الأمة لندائي أماثيل عدّة لا حاجة إلى التذكير بها. وكأنّ المسلمين رأوا رجلاً مضى على قلمه سبعة وأربعون عامًا كريتًا وهو يجري على الطروس في خدمتهم بدون انقطاع، وحرم عليه قلمه أن يطأ بقدمه قطرًا من أقطار الشرق إلاّ النادر، وكلّ ذلك من أجل خدمتهم. فلهذا أصبح إذا ناداهم يلتفتون، وإذا حدّثهم يصدّقون، وإذا استنهضهم يهبّون، وإذا استدنى أكفّهم للخير يهبون...

إذا أردنا أن ننهض ونسمو ونجاري الأمم الراقية ونتحرّر من الرباق التي في أعناقنا، فلا سبيل لنا إلى ذلك إلاّ بتأسيس بيوت العلم وعمارة العالم الإسلامي بالعلم والعلماء...".

شكيب أرسلان